

فِيهَا أَهْمُ اقْتَدَاءِ

قِرَاءَةِ نَاصِيئَةٍ فِي سِيرِ وَقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِقَامِ

عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْخَمَيْسِيِّ

دارُ الأوقافِ والأوقافِ
للنشرِ والوزعِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
ولمن أراد طبعه أخذ إذن خطي من المؤلف

للتواصل
٩٩٤٨٨٦٠٨ (٩٦٥)
elaphislamic@hotmail.com

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع
الكويت - الجهراء: هاتف: ٢٤٥٥٧٥٥٩ (٩٦٥)، فاكس: ٢٤٥٥٧٥٥٨ (٩٦٥)
حولي: شارع الحسن البصري، تليفاكس: ٢٢٦٤١٧٩٧ (٩٦٥)

إهداء

أهدي كتابي هذا إلى من أوصاني الله بهما،
 وأمرني ببرهما لما لهما عليّ من حقوق،
 وأعلم علم اليقين أنني مهما فعلت فلن أوثقهما
 حقهما، ولكن هذا عهد المقل، استجابةً
 لأمر الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَقُلْ رَبِّ آرْحَمْهُمَا
 كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء]، راجياً من كل من
 بقراً كتابي هذا أن لا ينساهما من الدعاء
 بالمغفرة والرحمة.



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضله فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَآنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

[آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ءَاتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءَآلَآرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن المتأمل في هذا الكون بسمائه وأرضه، ونجومه وكواكبه، وشجره وزرعه وثمره لا شك أن عقله يهديه إلى وجود خالق عظيم مدبر لهذا الكون، ولكن ما صفات هذا الخالق؟ ولماذا خلقنا؟ وبماذا أمرنا؟ وعن ماذا نهانا؟ وما جزاء من يطيع وما جزاء من لا يطيع؟

كل هذه الأمور لا يمكن أبداً للعبد الضعيف أن يتعرف عليها إلا أن يخبره هذا الخالق، فمن رحمة الله تبارك وتعالى بخلقه أن أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين يُعَرِّفُونَ النَّاسَ بِهَذَا الرَّبِّ ﷻ، من هو؟ ما

أسماءه؟ ما صفاته؟ ماذا يريد منا؟ عن ماذا ينهانا؟ ما جزاء من يطيع؟ ما
جزاء من يعصي؟

هؤلاء الرسل هم الوساطة بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه في
التبليغ، يُبَلِّغُونَ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا يَرِيدُ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَى عِبَادِهِ،
فَيُعَرِّفُونَ النَّاسَ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ، وَفِي مَعَادِهِمْ، يُعَرِّفُونَهُمْ مَا يَرْضَى
رَبَّهُمْ وَمَا يَسْخِطُهُ ﷻ، فَيَعْمَلُ النَّاسُ عَلَى تَحْقِيقِ مَحَابِبِ اللَّهِ - جَل
وَعَلَا -، وَيَعْمَلُونَ كَذَلِكَ عَلَى تَجَنُّبِ مَا يَغْضِبُ اللَّهَ - جَل وَعَلَا - .



حاجة الناس إلى الأنبياء والمرسلين

إن الناس - بلا شك - بحاجة عظيمة لهؤلاء الرسل، يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمته الله: «حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء، وذلك أن الشريعة مبناها على تعريف مواقع رضا الله تبارك وتعالى وسخطه في حركات العباد الاختيارية، والتي هي مبناها على الوحي المَحْض، والحاجة إلى التنفس - فضلاً عن الطعام والشراب - غاية ما يُقَدَّر في عدم التنفس والطعام والشراب موثُ البدن وتعطل الروح عنه. وأما ما يُقَدَّر عند عدم الشريعة؛ ففساد القلب والروح جملةً وهلاك البدن، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط أحوج إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول والقيام بالدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الكبير إلا بالعبور على هذا الجسر».

وكلامنا في هذا الكتاب هو عن سِير وقصص الأنبياء الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهِدَتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠] هذه القصص، قصص الأنبياء ستكون محور حديثنا في هذا الكتاب.

فنبداً بمقدمة عن هؤلاء الأنبياء، من هم؟ وما صفاتهم؟ وما حقوقهم؟ وكيف نتعرف عليهم؟ وما الفرق بينهم؟ هذا ما سنتناوله إن شاء الله تبارك في هذه المقدمة.



النبوة منحة إلهية

لا يمكن أبداً أن يكون العبد نبياً بالاكْتساب، بل هي منحة إلهية، ولذلك نبأ الله تبارك وتعالى عيسى ويحيى وهما صغيران كما هو معلوم^(١)، فنبأ عيسى وهو في المهد ونبأ يحيى وهو صغير صلوات الله وسلامه عليهما، ولذلك قال الكفار: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فردُّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فهذه رحمة من الله تبارك وتعالى يجعلها حيث شاء، ولذلك قال - جل وعلا - : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] إذاً هو اختيار من الله - جل وعلا - يختار من يراه مناسباً لحمل هذه المسؤولية.



(١) قال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿بَيَّحِينَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَمَا آتَيْنَهُ الْأَنْكُمُ صَبِيحًا﴾ [مريم]، وقال ﷺ عن عيسى عليه السلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيحًا﴾ [١٧] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَتَنَنِي الْكَتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا [١٨] [مريم].

أسباب تعدد الرسل

الرسل كثر كما هو معلوم ولكثرتهم أسباب:

السبب الأول: كثرة الأمم: فإذا جمعت إلى كثرة الأمم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] عَرَفْتَ عند ذلك عددَ الرسل الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى من حيث الكثرة، فهم كثر؛ لأن الأمم كثر، وقال الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، خاصّةً إذا أضفت إلى هذا أن الأنبياء والمرسلين في السابق كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصّةً، في زمن خاص، في مكان خاص، والذي بُعِثَ إلى الناس كافة هو محمد ﷺ، وقد جاء في الأحاديث بيان عدد الأنبياء.

عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن عدد المرسلين، فقال: «جَمٌّ غفير، ثلاثمئة وبضعة عشر»^(١)، هؤلاء المرسلون، وسأله عن عدد الأنبياء، فقال: «مئة وأربعة وعشرون ألف نبي». فالعدد إذاً كبير جداً، هذا عدد الأنبياء الذين نبأهم الله تبارك وتعالى على خلاف بين أهل العلم في صحة هذا الحديث ولكن يكفينا قول الله - جل وعلا -: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

السبب الثاني: حاجة الناس إلى المرسلين: وقد ذكرنا قريباً أن الناس لا يستطيعون أبداً أن يعبدوا الله تبارك وتعالى على بصيرة حتى يعلموا ما يريد الله - جل وعلا - منهم، ولن يعلموا هذا إلا عن طريق المرسلين.

(١) أخرجه أحمد (١٧٨/٥، ١٧٩، ٢٦٥)، وابن حبان (٣٦١)، والطبراني (٧٨٧١)، وضعف إسناده الأرنؤوط. وقد ذكر طرقه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٦٨)، وصححه لغيره.

الإيمان بالرسول من أصول الإيمان

والإيمان بالرسول أصل من أصول هذا الدين العظيم، ولذلك لما جاء جبريل وسأل النبي ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»^(١). وقال الله - جل وعلا -: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال - جل وعلا -: ﴿لَيْسَ الْإِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْكِتَابُ وَالنَّبِيُّنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال - جل وعلا -: ﴿سَافِرُونَ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

فالقصد؛ أن الإيمان بالرسول أصل من أصول الإيمان، لا يقبل الله تبارك وتعالى إيمان أحدٍ حتى يؤمن برسول الله تبارك وتعالى.



(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ؓ، وأخرجه أيضاً مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

الأنبياء والرسل هم أشرف الخلق وأكملهم

الأنبياء والمرسلون أفضل من جميع البشر فهم الخُلص من عباد الله تبارك وتعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام]، اصطفاهم الله - جل وعلا -، وهذا الاصطفاء من الله لا يكون أبداً محاباةً، ولكن الاصطفاء من الله - جل وعلا - يكون معه زيادة تكليف دائماً، فالمعلوم أن الذكر أفضل من الأنثى، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِن أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، ولهذا أوجب على الرجال ما لم يوجب على النساء، فيجب عليهم حضور الجماعات، ويجب عليهم الجهاد، ويجب عليهم الدعوة، والهجرة والخروج في سبيل الله تبارك وتعالى للدعوة، ونشر هذا الدين العظيم، وغير ذلك كثير مما لم تؤمر به النساء، ولذلك لما استأذنت عائشة النبي ﷺ في الجهاد؛ قال ﷺ: «جهادكن الحج»^(١).

إذاً وافق زيادة التفضيل زيادة التكليف، ولما فُضِّلَ الأحرارُ على

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٥). وفي لفظ أخرجه ابن ماجه (٢٩٠١): قلت: يا رسول الله على النساء جهاد؟ قال: «نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»، وصححه الألباني رحمه الله.

العبيد أوجبَ على الأحرار ما لم يوجبَ على العبيد، حتى قال بعض أهل العلم: إنه لا يجب على العبد الحج، ولا يجب عليه الجهاد، ولا تجب عليه صلاة الجماعة، وهكذا غيرها كثير؛ لأن زيادة التفضيل فيها زيادة التكليف.

وفضّل الله تبارك وتعالى الأنبياء على سائر الخلق، وزاد من تكليف الأنبياء، وأوجب عليهم ما لم يوجب على الناس من الأمر بالدعوة إلى الله، حتى قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، فالشاهد أن الله تعالى فضّل الأنبياء وزاد من تكليفهم، ولذلك يجوز لنا في القتال أن نفرّ إذا كان العدو أكثر من الضعف، أما النبي فإنه لا يجوز له أن يفرّ بأي حال من الأحوال، فأوجب عليه ما لم يوجب على غيره.

والمرسلون أفضل من الأنبياء فزاد تكليفهم على الأنبياء كما سيأتي في تعريف النبي والرسول.

وأولوا العزم إنما سُموا أولوا العزم؛ للمشقة التي لا قُوها في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، فهذا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وموسى، ونوح، وعيسى، ومحمد ﷺ، هؤلاء الرسل الخمسة قاسوا من المعاناة، والجهد، والبذل في سبيل الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ما لم يُقْمُ به غيرهم، وما كان هذا إلا لأن الله فضّلهم على غيرهم من البشر، فزاد من تكليفهم، فكلنا نعرف قصة موسى، وما لاقاه إبراهيم، وما وقع له مع أبيه، ومع ملك بابل، ومع أهله، ومع قومه، ومع أولاده، وكلنا يعرف نوحاً، وكم مكث في قومه يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وأما عيسى؛ فإنه بذل الشيء الكثير، ولم ينته دوره بعد، وسينزل مرة ثانية إلى هذه الأرض حتى يكمل دعوته، ولا يخفى على الجميع دور سيدنا محمد ﷺ في الدعوة إلى الله ﷻ.

فالأنبياء إذا هم خير البشر، وقد أجمع أهل العلم على أن من فضل غير الأنبياء عليهم فإنه كافر.

لكن الأنبياء أنفسهم يُفَضَّلُ بعضهم بعضاً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالله يُفَضِّلُ بعض الأنبياء وبعض المرسلين على بعض، ولذلك قلنا: إن الرسل أفضل من الأنبياء، وأولوا العزم أفضل من سائر الرسل، وسيدنا محمد ﷺ هو سيد أولي العزم، ولذلك جاء عنه أنه قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(١)، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب]، ويقول ﷺ: «فضلت على الأنبياء بسبب: أُعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر»^(٢)، وذلك في تبوك لما خرج - صلوات الله وسلامه عليه - إلى تبوك نصره الله بالرعب، فألقى الرعب في قلوب النصارى، ففروا وتركوا الغنائم، ولم يقاتل، ورجع بالغنائم ﷺ.

وقال: «وأحلت لي الغنائم»، وذلك أن الأنبياء السابقين إذا كانوا في قتال لا يغنمون شيئاً، وإنما إذا انتهى القتال جُمعت الغنائم في مكان، فنزلت نار من السماء، فأخذتها^(٣)، ولم تُحلَّ الغنائم إلا لنبينا محمد ﷺ.

(١) بهذا اللفظ أخرجه الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد ﷺ.

وأخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٢٩٧٧)، أخرجه مسلم بلفظه (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرج الترمذي (٣٠٨٥) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لم تحلَّ الغنائم لأحدٍ سِوِ الرُّوسِ من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها»، وهو في «صحيح الجامع» (٥١٩٦). وقد ورد أيضاً أكل النار للغنائم كما في قصة حبس الشمس على يوشع بن نون ﷺ أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

وقال: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيا رجل من أممي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره»^(١) يصلي المسلم في أي مكان عدا الأماكن التي جاء النهي عنها كالمقبرة والحمام^(٢)، وقال: «وأرسلت إلى الناس كافة»^(٣).

ورُسل الله هم الكُمَّل من الناس كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهم الكُمَّل في الخلق، خَلَقَهُم حَسَنًا، أحسن الله تقويمهم ﷺ، وسيأتينا في قصة موسى ﷺ لما قالوا: إنه آدر، وكيف برآه الله مما قالوا.

وكذا هم الكُمَّل في الخُلُق كما قال الله تبارك وتعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم]، وقالت بنت الرجل الصالح: ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِرَةً إِنْ خَيْرٍ مِّنْ أَسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وهم الكُمَّل في النسب، فلم يبعث الله تبارك وتعالى نبياً من العبيد، وإنما الأنبياء كلهم أحرار.

وكذلك هم الكُمَّل في العقل، فعقولهم راجحة، وذكاؤهم حاد كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] فالله تبارك وتعالى أعطاه الحجة والبيان لِمَا ناظر قومه، ولما ناظر الملك أظهر الله تبارك وتعالى الحجة معه، وكذا موسى، وكذا محمد ﷺ، ونوح، وغيرهم من الأنبياء.

وهم كُمَّل في الصبر في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وكُمَّل في الجهاد، وكُمَّل في العبادة، فهم الكُمَّل من خَلَقِ الله صلوات الله وسلامه عليهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥) من حديث أبي سعيد ﷺ، وهو في «صحيح الجامع» (٢٧٦٧).

(٣) انظر التخريج قبل السابق.

الأمة الإسلامية هم أكثر الناس تعظيماً للأنبياء

هذا هو كلامنا في أنبيائنا صلوات الله وسلامه عليهم، ولكن أبى بعض الفجار الكفار إلا أن يطعنوا في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فهذا الكتاب الذي يُسمى بـ«الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى، وهو الذي يشتمل «العهد القديم» الذي هو التوراة، ويشتمل «العهد الجديد» الذي هو الإنجيل، والتوراة يؤمن بها جميعهم، وأما العهد الجديد؛ فإن اليهود لا يؤمنون به؛ لأن اليهود لا يؤمنون بعبسى صلوات الله وسلامه عليه، وإنما يزعمون أنهم يؤمنون بموسى فقط، وأنا أنقل بعض كلامهم في أنبياء الله من الطعون التي لا يجوز أبداً أن تنسب إلى الصالحين من البشر فضلاً عن أن تُنسب إلى الكُمَّل من البشر، وهم أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

وسأذكر بعض رواياتهم التي ينسبونها إلى أنبياء الله - وهم بريئون منها -، وأنا آسف جداً عما سأذكره، ولكن حتى يُعلم من هم أتباع الرسل، ومن هم الذين يعطون الرسل حقهم.

فقالوا عن نوح عليه السلام: «وابتداً نوح يكون فلاحاً وغرس كرمًا، وشرب من الخمر، فسكر، وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً»^(١).

ويقولون عن لوط - عليه الصلاة والسلام -: «وصعد لوط من

(١) «سفر التكوين»، الإصحاح التاسع.

صوغر، وسكن في الجبل، وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه، فنحبي من أبنائنا نسلأ، فسقتنا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر، واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً، فادخلي واضطجعي معه، فنحبي من أبنائنا نسلأ، فسقتنا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت^(١) ابنتا لوط من أبيهما^(٢)، والعياذ بالله.

وهذا يعقوب عليه الصلاة والسلام قالوا عنه: «فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذ^(٣)، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعة معه، وقال: أطلقني^(٤) لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، قال: لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله» فصار هذا الذي يصارع يعقوب هو الله - جل وعلا -^(٥)، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقالوا عن هارون عليه السلام: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب إلى هارون، وأخذ هارون من أيديهم الذهب الذي أمرهم به، وصوره بالإزميل، وصنعه عجلأً مسبوكاً، فقالوا: هذه ألتهك يا إسرائيل»^(٦) فهارون عندهم هو الذي صنع العجل وليس السامري.

(٢) «سفر التكوين» فقرة (١٩).
 (٤) يعني: الرجل يقول ليعقوب.
 (٦) «سفر الخروج» الإصحاح (٣٢)

(١) أي: حملت.
 (٣) يعني: أعلاه.
 (٥) «سفر التكوين» فقرة (٣٣).

وقالوا عن داود عليه السلام: «إن داود صعد على السطح فرأى امرأة تستحم، وكانت جميلة المنظر، فأرسل وسأل عنها، فقالوا هذه بتشع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً، وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها»^(١).

وقالوا عن سليمان عليه السلام: «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، فلم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروث آلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، وعبد الأصنام من بعد ذلك»^(٢).

هذا كلامهم في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، ونكتفي بذكر هذه الروايات، وإلا فالكتاب مليء بأمثال هذه الأمور.



(٢) «سفر الملوك» الإصحاح (١١).

(١) «صموئيل الثاني» الإصحاح (١١).

الحكمة في كون الرسل من البشر

ورسل الله بشر كسائر البشر تماماً، فليسوا من الملائكة، وإنما هم من البشر كما قال الله تبارك وتعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٥٥) [الإسراء] وكذا في سورة القمر قال: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَجِدًا نُنَعِّمُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (١٤) [القمر].

وكون الرسل من البشر لا شك أن حكمته ظاهرة جداً؛ حتى يتمكن العباد من الأخذ منهم، والافتداء بهم، كما قال ﷺ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (١) [الأنعام] أي: لو جعلنا الرسول ملكاً لما كان يمكنهم أصلاً أن يحادثوه أو يكلموه، كيف والنبي ﷺ لما رأى جبريل على صورته الحقيقية صرع صلوات الله وسلامه عليه، وكان لجبريل ستمائة جناح^(١) قد سد في الأفق^(٢)، فكيف يتحمل الناس رؤية الملائكة، ويجلسون معهم؟! لا يستطيعون أبداً، إذاً ماذا سيكون؟ سيصور الله الملائكة على صورة البشر كما جاء جبريل وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان^(٣)، فإذا جاء الملك

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة ؓ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ؓ، وأيضاً أخرجه مسلم

(٨) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

على صورة رجل وقال: أنا مَلَكٌ ولكن على صورة رجل، قالوا: لا،
 اتتنا بالْمَلَكِ، وَالْمَلَكُ لا يَأْتِيهِمْ؛ لأنهم لا يتحملون، إِذَا كَيْفَ يَقْبَلُونَ؟
 لا يمكن أبداً، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ
 رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام] يعني: ما استفادوا شيئاً
 من كونه ملكاً^(١).



(١) قال الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة
 رجل؛ لثَقُفِهِمْ مَخَاطِبَتَهُ وَالِانْتِفَاعَ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاتَّبَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ كَمَا
 يَلْبَسُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي قَبُولِ رِسَالَةِ الْبَشَرِيِّ». «تفسير ابن كثير» (٣/٢٤١).

الرسل الذين ذكرهم الله ﷻ في القرآن

الرسل الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في القرآن خمسة وعشرون،
كما جمعها الشاعر في قوله:

في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر، ويبقى سبعة وهم
إدريس، هود، شعيب، صالح وكذا ذو الكفل، آدم بالمختار قد ختموا

هؤلاء هم رسل الله الذين ذكروا في القرآن في قول الله تبارك
وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٨﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُودًا وَكَوْنًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام]
فهؤلاء ثمانية عشر رسولاً أو نبياً، ذكرهم الله تبارك وتعالى، وبقي سبعة
من الرسل وهم: آدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذو الكفل،
ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

هؤلاء الرسل أربعة منهم من العرب وهم: شعيب، وهود،
وصالح، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. والعجيب أن هوداً
وصالحاً لا ذكر لهم في التوراة والإنجيل أبداً، وقد قال بعض أهل
العلم: لعل هذا من الحسد الذي دفع اليهود إلى حذف اسمي هذين
النبين؛ لأنهما من العرب.



هل هؤلاء هم كل الأنبياء؟

هناك آخرون مختلف فيهم، أو جاءوا في السنة، منهم:

- شيث: عن أبي ذر مرفوعاً أنه قال: «إنه أنزل عليه خمسون صحيفة» أخرجه ابن حبان بإسناد حسن^(١).

- يوشع: وهو يوشع بن نون - صاحب موسى ﷺ -، وهو نبي جاءت السنة بالنص عليه^(٢).

وأما الأنبياء المختلف فيهم، فهم:

- شمويل: الذي قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِّ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا نُقَاتِلَ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] قالوا: هذا النبي اسمه شمويل، والله أعلم؛ لأن هذا إنما جاء في أخبار بني إسرائيل، وسيأتينا بالتفصيل كيفية التعامل مع أخبار بني إسرائيل.

- تُبَع: وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أدري أتبع نبياً أم لا وما أدري ذا القرنين نبياً أم لا»^(٣)، فنحن نقول كذلك: إذا كان محمد ﷺ

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٢٥/٢)، والبخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد وقعت تسميته عند الإمام أحمد، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٢).

(٣) أخرجه الحاكم (١٠٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وفي لفظ: «ما أدري تبع أليناً كان أم لا» أخرجه أبو داود (٤٦٧٤)، وقد صوب الشيخ الألباني هذا اللفظ على لفظ الحاكم. «السلسلة الصحيحة» (٢٢١٧).

لا يدري فنحن من باب أولى لا ندري أتبع كان نبياً أم لا، وكذا بالنسبة
لذي القرنين هل كان نبياً أو لا؟

- الخضر: وهو كذلك مما اختلف فيه أهل العلم، هل هو نبي أو
ليس بنبي، من قال إنه نبي استدل بقول الله تبارك وتعالى عنه: ﴿وَمَا
فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾ [الكهف: ٨٢]، وهذا قول أكثرهم، وهو الظاهر، والله
العالم^(١).

- دانيال: وذكروا أنه من الأنبياء الذين وجد الصحابة اسمه مكتوباً
في فتوح بعض البلاد.



(١) ذكر الحافظ قوله تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾ [الكهف: ٨٢] ورجح نبوته، فقال تعليقاً على الآية: «وهذا ظاهره أنه فعله بأمر من الله، والأصل عدم الوساطة، ويحتمل أن يكون بواسطة نبي آخر لم يذكره، وهو بعيد، ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام لأن ذلك لا يكون من غير النبي وحيّاً حتى يعمل به ما عمل من قتل النفس، وتعريض الأنفس للغرق... وأيضاً فكيف يكون النبي تابعاً لغير نبي؟! اهـ «الزهر النضر» ص ٢٦.

الأنبياء من الذكور فقط

الرسول والأنبياء جميعهم من الذكور فما بعث الله نبياً من النساء وإنما جميع الأنبياء من الذكور كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]، فجميع الأنبياء من الذكور وهذا له حِكْمٌ ظاهرة، منها:

أولاً: أن الرسول يحتاج إلى أن يقابل الناس سرّاً وجهراً وأن يخرج ويسافر في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وهذا لا تتمكن منه النساء.

ثانياً: الأصل أن القوامة للرجل على المرأة فلو كانت نبية ستكون القوامة لزوجها عليها ولا يمكن أن يكون لأحد قوامة على نبي.

ثالثاً: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عن النساء: «ناقصات دين»^(١)، وذلك أنه يأتي عليها أيام لا تُصلي، ولا تصوم، وتنقص من عباداتها، وهذا لا يمكن أن يكون في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم. فلذلك كان من حكمة الله - جل وعلا - أن جعل الأنبياء والرسول كلهم من الرجال.



(١) أخرجه البخاري (٢٩٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (١١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

خصائص الأنبياء والمرسلين ﷺ

اختص الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله بخصائص تميزهم عن باقي البشر، وهي:

- ١ - الوحي من الله: وذلك أن الله يوحى إليهم.
- ٢ - العصمة: عصم الله الأنبياء والمرسلين، وسيأتي تفصيل الكلام في عصمة الأنبياء والمرسلين.
- ٣ - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم: قد تنام عين النبي، ولكن قلبه لا ينام أبداً^(١).
- ٤ - يُخبرون عند الموت: ما يموت نبي حتى يخبر كما أخبر النبي ﷺ^(٢).
- ٥ - الأرض لا تأكل أجسادهم: فلو حفرت قبر أي نبي لوجدت جسده كما لو دُفِنَ اليوم، فقد حَرَّمَ الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء^(٣).
- ٦ - يُقبرون حيث يموتون: ولذلك لما مات النبي ﷺ دفنوه في بيته، وكلُّ نبي يُدفن حيث يموت.
- ٧ - لا يُورثون مالا: كما قال أبو بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، (١٦٣٦) من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٢٢١٢).

معاشر الأنبياء لا نورث»^{(١)(٢)}.

٨ - الأنبياء يورثون العلم: قال رسول الله ﷺ: «إن الأنبياء لا يورثون درهماً، ولا ديناراً، إنما ورثوا العلم»^(٣).

٩ - الذكورة: وقد تقدم.

١٠ - الحرية: فلم يبعث الله ﷺ الأنبياء عبيداً، بل بعثهم أحراراً غير مملوكين.

١١ - الكمال: فالأنبياء أكمل البشر خلقاً وخلُقاً.

١٢ - الصلاة عليهم: فقد خصهم الله بلفظ: «صلى الله عليه وسلم»، ولو صُلِّي على غير الأنبياء جاز، ولكن الأفضل ألا تطلق هذه الكلمة إلا على الأنبياء، وقد قال النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٤) وأنت تقول في صلاتك: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد» ولكن كلمة «صلى الله عليه وسلم» ذكر أهل العلم أن الأصل ألا تُطلق إلا على الأنبياء.

١٣ - الاصطفاء: فالأنبياء مصطفون كما قال الله تبارك وتعالى:

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).

(٢) قال ابن القيم رحمته: «وهذا من كمال الأنبياء وعظم نصحتهم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم، أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي تُوهِمُ بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا ومُلْكها! فحماهم رحمته من ذلك أتم الحماية. ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده، سدَّ هذه الذريعة عن أنبيائه ورسوله، وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيراً من النفوس التي تقول: فلعلهُ إن لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده!» اهـ. «مفتاح دار السعادة» (١/٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» معلقاً في باب العلم قبل القول والعمل، وأخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

﴿وَأَنبَأَهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص]، وقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

١٤ - الدعوة المستجابة: فلكل نبي دعوة مستجابة^(١).

١٥ - الحوض: فلكل نبي حوض كما أخرج أحمد في «المسند» أن كل نبي له حوض يوم القيامة^(٢).

١٦ - أنهم جميعاً أهل قرى: فما بعث الله نبياً بدوياً، بل جميع الأنبياء من أهل القرى، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

١٧ - لا يحتلمون^(٣): وذلك أن الاحتلام من الشيطان، والشيطان لا تسلط له على الأنبياء.

١٨ - ورؤيا الأنبياء حق.



(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، وصحح إرساله، وقال الألباني: «وجملة القول: إن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، والله أعلم». «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩).

(٣) ورد عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم، أخرجه البخاري (١٩٢٦)، ومسلم (١١٠٩).
قال النووي رحمته الله: «وفيه دليل لمن يقول بجواز الاحتلام على الأنبياء، وفيه خلاف قدمناه، الأشهر امتناعه، قالوا: لأنه من تلاعب الشيطان، وهم منزهون عنه، ويتأولون هذا الحديث على أن المراد: يصبح جنباً من جماع، ولا يجنب من احتلام لامتناعه منه، ويكون قريباً من معنى قول الله تعالى: ﴿وَيَتَثَوَّرُكَ النَّيِّبِينَ يَغْتَرِ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٦١]، ومعلوم أن قتلهم لا يكون بحق» اهـ.

مظاهر من الغلو في الأنبياء

ولما كان الأنبياء بهذا الكمال والبهاء وقع من البعض غلو في الأنبياء فمن هذا الغلو ما وقع للنصارى من تأليه عيسى، ودعاء اليهود أن عزيزاً ابن الله، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا عبد الله ورسوله»^(١) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن الغلو - الذي نسأل الله تبارك وتعالى أن يزيله - ما نراه في بعض المساجد أو في البيوت، أو مع بعض الناس، أنهم يضعون اسم محمد ﷺ بجانب اسم الله، هكذا: (الله: محمد)، وهذا من الغلو، بل لا بد أن يكون (الله) فوق، و(محمد) تحت، فهذا خالق وذاك مخلوق، نحن نحب محمداً ﷺ، ولكن لا يجوز أبداً أن نجعل منزلته كمنزلة الله تبارك وتعالى، بل هو عبد مربيوب مخلوق لله تبارك وتعالى، أو تجعل بعض الميداليات (الله: محمد) وهذا غلو.

وأما الشهادة فإنه يأتي تبعاً: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، أما أن تكون كلمة (محمد) موافقةً لكلمة (الله) فهذا خطأ، وقد أنكر النبي ﷺ على الذي قال: ومن يعصهما، فقال ﷺ: «أجعلتني لله نداً، بشس خطيب القوم أنت»^(٢)، مع أن الرجل لا يقصد، لكن الكلمة خطأ.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه، قاله أبو السعادات.

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٠)، وأبو داود (١٠٩٩)، والنسائي (٣٢٧٩)، بدون زيادة: «أجعلتني لله نداً»، وقد وردت في حديث آخر وهو حديث حسن، كما في =

ومن الغلو ما يدعيه البعض من أن النبي ﷺ ليس له ظل، لماذا؟ قال: حتى لا يطأ أحد على ظل النبي ﷺ، مع أن النبي ﷺ كُسرَتْ رباعيته^(١)، وشُجَّ وجهُهُ وألقي سلا البعير بين كتفيه صلوات الله وسلامه عليه، وأدميت قدماه في سبيل الله - جل وعلا - .

وأما ما يقال من إن الأنبياء يولدون مختونين، فهذا علمه عند الله، لم يثبت من هذا شيء أبداً، لا في محمد ولا غيره، ولكن في كتاب «صحيح البخاري» أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام اختتن وقد بلغ الثمانين من عمره^(٢).

ومن الغلو كذلك: قول بعض الناس «الله ورسوله أعلم»، وهذا غلو إلا إذا كان في أمر الشرع، فإذا سُئِلَ في مسألة شرعية: ما حكم كذا؟ فإنه يجوز له أن يقول: «الله ورسوله أعلم»؛ لأن الرسول يعلم جميع أمر الشرع صلوات الله وسلامه عليه، لكن لا يجوز أبداً أن يقال أين فلان؟ فنقول: الله ورسوله أعلم، فالرسول لا يعلم أين فلان، الله وحده هو الذي يعلم ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل] فلا يجوز أن نقول الله ورسوله أعلم إلا في الأمور الشرعية فقط أما غير الأمور الشرعية فنقول الله أعلم فقط^(٣).

= «السلسلة الصحيحة» (١٣٩)، وانظر تعليق الشيخ الألباني رحمه الله عليه هناك.

(١) رباعيته: أي سنة التي بين الثنية والثالث. «فتح الباري» (٤٢٣/٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٦)، ومسلم (٢٣٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قال الشيخ بكر أبو زيد: «الأصل أن يقال: الله أعلم؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم إلا ما يعلمه الله به، وجملة الكلام في هذا الإطلاق في مقامين: الأول: قول ذلك في حياة النبي ﷺ كما في حديث معاذ رضي الله عنه المشهور. فهذا من أدب الصحابة رضي الله عنهم، وحسن أدبهم في التعلم.

الثاني: قولها بعد وفاة النبي ﷺ، وقد جرى إطلاقها عند بعض أهل العلم. لكن لم يحصل الوقوف على إطلاق الصحابة رضي الله عنهم لها بعد وفاته ﷺ بل الظاهر خلافه. وللفائدة راجع: «معجم المناهي اللفظية» ص ١٢٨.

كذا من الغلو أن يُدعى الأنبياء من دون الله تبارك وتعالى؛ لأن هذا شرك بالله تبارك وتعالى، وهو محرم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، وقال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٢٠]، وقال مادحاً زكرياً ﷺ وزوجه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [المؤمنون: ٩٠]، وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].



الكفر برسول واحد كفر بهم جميعاً

إن من الأصول المقررة في شريعتنا: أن من كفر برسول واحد؛ فقد كفر بجميع الرسل، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء] مع أن نوحاً أول رسول أرسله الله، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء]، وذلك أن من كذب رسولاً فقد كذب بجميع الرسل؛ لأنهم وحدة واحدة صلوات الله وسلامه عليهم، لذلك قال الله - جل وعلا -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿[النساء]﴾؛ لأنهم فرقوا بين الرسل، والله تبارك وتعالى يقول عن المؤمنين: ﴿لَا تَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].



الفرق بين النبي والرسول

الأنبياء يختلفون عن المرسلين، فهناك أنبياء، وهناك رسل، والدليل على هذا حديث أبي ذر، وقد مضى في أول الكتاب.

كذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، ففرق بين الرسول والنبي، وكذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [٥١] [مريم]، وذكر إسماعيل فقال: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، وذكر إدريس فقال: ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، ففرق بين الرسول والنبي.

إذاً ما الفرق بين الرسول والنبي؟

أولاً: الرسول والنبي من حيث المعنى قريبان، فالنبي من النبأ، ولذلك في القراءة الصحيحة: ﴿النَّبِيِّنَ﴾ تقرأ «النبيئين»، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، «وكان رسولا نبيا» أي: من النبأ، والرسول هو المرسل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقال صاحب يوسف الذي كان معه في السجن للملك: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: اجعلوني رسولا إلى يوسف عليه الصلاة والسلام، فالرسول هو المرسل.

وقد ذكر أهل العلم ثلاثة أقوال مشهورة:

القول الأول: أن الرسول من أوحى إليه بشرع، وأمر بتبليغه، والنبي من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

القول الثاني: أن الرسول من بُعث بشرح مُستقل، والنبى: من يدعو إلى شرع الرسول الذي قبله، فيكون النبي تابعاً للرسول الذي سبقه.

القول الثالث: أن الرسول هو من بُعث إلى قوم كافرين، والنبي من بعث إلى قوم مسلمين، فيكون مَنْ بُعث إلى بني إسرائيل أنبياء؛ لأنهم كلهم تبع لموسى عليه الصلاة والسلام، أو تبع لإسرائيل عليه الصلاة والسلام، وهو يعقوب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة]، فالأنبياء هم الذين يبعثون إلى قوم مؤمنين، ولذلك آدم عليه الصلاة والسلام نزل إلى الأرض إلى قوم مؤمنين على الفطرة، وهي الإسلام، فكان أول رسول نوح؛ لأن الناس تركوا الفطرة، قال الله تعالى عن قوم نوح عليهم السلام: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]، فأرسل الله إليهم نوحاً صلوات الله وسلامه عليه، وهذا الثالث لعله أقرب الأقوال^(١).



(١) ولزيادة الفائدة في هذا المبحث راجع «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

عصمة الأنبياء

الأنبياء والمرسلون معصومون في ثلاثة أمور باتفاق هي:

- ١ - معصومون من الشرك والكفر بالله تبارك وتعالى، ومن الكبائر.
- ٢ - معصومون في التبليغ فلا يخطئون فيه.
- ٣ - معصومون من خوارم المروءة، وخوارم المروءة هي ما يُسقط قدر الإنسان عند الناس، كالاستهزاء بالآخرين، والضحك عليهم، والسخرية، والكذب، وما شابه ذلك، هذا كله من خوارم المروءة، وهو ما يعيبه الناس في عرفهم.

واختلف أهل العلم في الصغائر، هل تقع من الأنبياء أو لا تقع؟ مع اتفاقهم على أنّ هذه الصغائر إن وقعت من الأنبياء فإنهم لا يقرون عليها، بل يأتيهم التحذير من الله تبارك وتعالى مباشرة، وهذا القول هو الصحيح، وهذا قول جماهير أهل السنة؛ بل ذكر الحافظ ابن حجر رحمته الله أنه لم يختلف فيه السلف رحمهم الله تعالى من الصحابة والتابعين أن الصغائر يمكن أن تقع من الأنبياء، ومن هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه]، ومنه قول الله تبارك وتعالى لنوح: ﴿قَالَ يَنْتَهِ عَنْهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [مرد]، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [٧٨] ففهمتها سليمان عليه السلام، وكذلك لما حكم داود عليه الصلاة والسلام بين المرأتين، وسيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى في قصة داود عليه الصلاة والسلام، وكيف أن الله تبارك وتعالى صَوَّبَ فِعْلَ

سليمان لما أمر بقطع الولد بالسكين نصفين، ووافق حكمه حكم الله تبارك وتعالى، وكذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي: خرج قبل الإذن له، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤] وموسى ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابِحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وكذا قول النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء»^(١)، وهؤلاء من أولاد آدم بلا شك صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ لِمَ تُحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاحِكَ﴾ [التحریم: ١]، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [١] أن جلّه الْأَتَمَى ﴿٢﴾ [عبس].

فالصحيح أن الصغائر يمكن أن تقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولكنهم لا يُقَرَّون عليها، بل يستغفرون منها ويتوبون، ويكون حالهم بعد التوبة أفضل من حالهم قبل الوقوع في هذه الأمور.



(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥).

تعريف القصة والفرق بين القصة الأدبية والقرآنية

والقصة في اللغة: هي من قصَّ الأثر؛ أي: تتبعه، وقصَّ الأثر هو المشي على أثر من سبق حتى يصل إليه أو إلى مراده، والقصة القرآنية تختلف عن القصة الأدبية، وذلك أن القصة في القرآن الكريم لا مجال للخيال فيها، بل هي وقائع تاريخية شاهدة على التاريخ، وهي كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فقصاص القرآن على الصحيح في تفسير هذه الآية أنه ليس المقصود منها قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه، وإنما المقصود عموم قصص القرآن، فقصة موسى، وقصة إبراهيم، وقصة صالح، وهكذا، سائر الأنبياء تدخل قصصهم تحت قول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

ونحن نلتزم في قصص الأنبياء ما ثبت في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه محمد ﷺ، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأن قصص الأنبياء غيب، والكلام في الغيب لا يكون إلا عن طريق من عرف هذا الغيب، وهو الله تبارك وتعالى، الحي الذي لا يموت، وهو الذي أخبر نبيه محمداً ﷺ بما كان من قصص سلفه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، وهذه ميزة ثابتة لأهل السنة، وهو اعتمادهم على الإسناد الصحيح، فلا يقبلون إلا ما ثبت، ولا يتكلمون إلا بعلم، لا رجماً بالغيب، ولا كلاماً على الله ﷻ دون برهان، وهم

يتمثلون دائماً قول النبي ﷺ: «إن كذبا عليّ ليس ككذب علي أحد، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١).



(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فوائد دراسة قصص الأنبياء

إن في دراسة قصص الأنبياء فوائد كثيرة، منها:

أولاً: الاستفادة من الدروس والعبر: كما قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١٠].

ثانياً: تسليية النبي ﷺ وأتباعه: كما قال ﷺ: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثٍ بِهِ فُقَادًا﴾ [هود: ١٢٠].

ثالثاً: معرفة أساليب الدعوة: فالداعية إلى الله ﷻ يستفيد منها كثيراً في معرفة أساليب الدعوة وطرقها، وردود فعل المدعويين عادة؛ لأنها متشابهة في كل زمان ومكان، وإن اختلفت ففي أشياء يسيرة.

رابعاً: يتعلم الإنسان الصبر على الشدائد: والافتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كما قال ﷺ: ﴿فِيهِدَهُمْ آفْتِدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠].

خامساً: زيادة الإيمان: فإذا علم الإنسان أن الله تبارك وتعالى دائماً يجعل الغلبة والنصر في نهاية الأمر لعباده المرسلين، ﴿رَبَّنَا جُنَدْنَا لَهُمُ الْقَلْبُونَ﴾ [الصفات: ٧٣]، فتطمئن نفس الداعية إلى الله تبارك وتعالى في أن الله تبارك وتعالى مظهر أمره، وناصر رسله والدعاة إليه ﷻ.

سادساً: تأكيد لنبوة سيدنا محمد ﷺ: وذلك بإخباره عن أمور غيبية لم يحضرها، ويخبر عنها كأنه حاضر لها صلوات الله وسلامه عليه، كما قال - جل وعلا -: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَكْفَلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [٤٤].

[آل عمران] وكذا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف]، ومع هذا يخبر النبي ﷺ عن الأمور الغيبية بالتفاصيل الدقيقة صلوات الله وسلامه عليه.

سابعاً: معرفة كمال الشريعة: فيعرف العبد كمال هذه الشريعة التي ختم الله بها الشرائع السابقة في نسخ الأحكام التي وردت في الشرائع السابقة بعضها أو كلها.

ثامناً: بيان أن دعوة الأنبياء واحدة: فيعرف العبد صدق قول النبي ﷺ عن إخوانه الأنبياء أنهم أبناء علات أبوهم واحد وأمهماتهم شتى^(١)، وذلك أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له.



(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

حكم الإسرائيليات

قد يتطرق الإنسان أثناء قراءته أو سماعه لقصص الأنبياء إلى ذكر الإسرائيليات فما الإسرائيليات؟ وما موقفنا منها؟

الإسرائيليات نسبة إلى إسرائيل، وإسرائيل هو: نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، فله اسمان يقال له يعقوب، ويقال له إسرائيل، كما أنّ لنبينا محمد ﷺ أسماء، منها: الحاشر، والعاقب، ومحمد، وأحمد، والمقفي صلوات الله وسلامه عليه، قال تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ [مريم: ٥٨] وقوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣]، فإسرائيل هو يعقوب ﷺ.

فعندما يقولون: «أخبار بني إسرائيل»، أو «أنبياء بني إسرائيل» فيريدون نسل يعقوب ﷺ، ولذلك يقال عن بني إسرائيل: إنهم أبناء عمومة للعرب؛ لأن يعقوب ابنُ لإسحاق، وإسحاق أخو إسماعيل أبي العرب المستعربة.



طرق أخبار بني إسرائيل

أخبار بني إسرائيل لها أكثر من طريق:

الطريق الأول: ما جاء من أخبارهم في كتاب الله: كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِ مُوسَى إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ اللَّهِ لَنَا مَلَكَ نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فهؤلاء بنو إسرائيل والله يخبر عنهم، فهذا خبر عن بني إسرائيل ولكنه في كتاب الله تبارك وتعالى، وكذلك جميع قصص الأنبياء الذين بين يعقوب ومحمد ﷺ، كلهم أنبياء بني إسرائيل، وهم كثر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

الطريق الثاني: ما جاء في السنة: مما أخبر به النبي ﷺ، وهذا كثير جداً كما ذكر ﷺ من قصة جريج العابد، وقصة الثلاثة الذين دخلوا إلى الغار، ونزلت صخرة فأطبقت عليهم فم الغار.

فهذه نقلها، ونصدق بها، ونؤمن بها كما أخبر الله - جل وعلا - أو أخبر رسوله ﷺ.

الطريق الثالث: ما وجدناه في كتبهم: كما يوجد في التوراة أو يوجد في الإنجيل، أو يوجد في مزاميرهم ورسائلهم وغيرها، فهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقبول.

القسم الثاني: مرفوض.

القسم الثالث: يُروى ولا يصدق ولا يكذب.

فأما المقبول: فهو الذي يوافق ما في كتاب الله وما في سنة نبينا محمد ﷺ، فهذا مقبول، مثلاً قصة يوسف في التوراة، وقصة موسى وإبراهيم، ولا شك أنه يغنينا عنه ما في الكتاب والسنة.

وأما المرفوض: فهو ما خالف الكتاب والسنة، أو كان فيه طعن في الله ﷻ، أو في أنبيائه ﷺ، كما جاء في التوراة مثلاً أن الله تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فهذا لا شك أننا نكذبه، وكذا ما ذكرناه من طعنهم في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهذا كذلك مما نرده ونكذبه.

وأما القسم الثالث: فهو الذي لا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله محمد ﷺ، وليس فيه أي طعن في أنبياء الله أو في رب العزة تبارك وتعالى، فهذا تجوز روايته كما قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١)، وقال صلوات الله وسلامه عليه: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل علينا»^(٢).

فالمسلم موقفه من هذه الإسرائيليات التي لا تخالف ولا توافق؛ أنه لا يُكذَّب؛ لأنه قد يُكذَّب حقاً، ولا يُصدَّق؛ لأنه قد يُصدَّق باطلاً، فماذا يفعل؟

يجوز له أن يروي، كما قال ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

«حرج»، خاصة القصص التي تكون فيها بعض العبر والفوائد من قصص بني إسرائيل كبعض الحكم التي تنقل عن عيسى عليه السلام أنه قال عن الدنيا مثلاً: «اعبروها ولا تعمروها»، فهذه كلمة طيبة وحكمة، فيحتمل أن عيسى عليه السلام قالها، ويحتمل أنه لم يقلها، فالله أعلم بهذا، لذلك لا بأس أن نرويها، ولكن لا نُصَدِّق ولا نُكذِّب، فنقول: يُروى عن عيسى عليه السلام أنه قال كذا، و«يُروى» هذه كلمة فيها تمييز، يعني: يحتمل أنه ثبت ويحتمل أنه لم يثبت، وقصص بني إسرائيل كثيرة جداً تلك التي فيها شيء من المواعظ والفوائد التي يستفيدها المرء في دينه ولكن لا يحتاجها، وإنما يستفيد منها، كمثل القصة التي ذكرت أن ثلاثة نالوا مالاً، ثم خرج أحدهم، ليأتي بالطعام وجلس اثنان، فاتفقا على قتل صاحبهما، ليقسم المال بينهما بدل أن يقسم على ثلاثة، واتفقا على أنه إذا جاء قتلاه، فذهب وأتى بالطعام، فلما رجع، جاءه في غفلة فقتلاه، ثم أكلا الطعام فماتا؛ لأنه كان قد خطط كما خططا وقال في نفسه لماذا يقسم المال على ثلاثة؟ لم لا آخذه وحدي ودس فيه السم، فهذه عبرة وفائدة تبين أن الطمع كيف يؤدي بالإنسان، ولكن لا يحتاجها المسلم في دينه في حلال أو حرام، وإنما تُذكر للعبرة والاستفادة.

هذه الأخبار عن بني إسرائيل التي قد ذكرها وقد ذكرها أهل العلم وتسالوا على نقلها كمثل نقلهم عن أهل الكهف، ما أسماؤهم؟ ما لون كلبهم؟ عصى موسى، من أي الشجر كانت؟ وكذا الطيور التي ذبحها نبي الله إبراهيم عليه السلام من أي الطيور كانت، إخوة يوسف ما أسماؤهم؟ ما العجب الذي ألقوا يوسف فيه؟ ما اسم امرأة العزيز؟ وغير ذلك كثير من أخبار بني إسرائيل التي لا مانع من الاستئناس بها وذكرها ولكن الإنسان لا يعتمد عليها.

يقول الحافظ ابن كثير رحمته الله: «لسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما

أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو القسم الذي لا يُصَدَّق ولا يُكذَّب مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسوله ما صح نقله أو حسن...، فقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ﴾ [طه]، فما شهد له شرعنا بالصدق؛ فلا حاجة بنا إليه استغناءً بما عندنا، وما شهد له شرعنا بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال، فإذا كان الله - سبحانه وله الحمد - قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع، وكتبابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخوض، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير^(١).

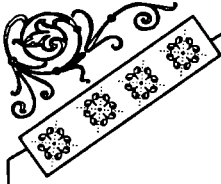
إذاً هذا هو موقفنا من روايات بني إسرائيل، فما فائدتها إذاً؟

فائدتها: أن يعرف العبد أو يتعرف على كيفية فعل الله تبارك وتعالى بأوليائه وكيف فعل ﷺ بأعدائه، والنبى ﷺ بين لنا كل شيء كما في حديث أبي زيد الأنصاري رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر، ثم خطبنا حتى صلى بنا العصر، ثم خطبنا حتى غابت الشمس، فنزل وصلى بنا المغرب، فحدثنا بما كان، وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا»^(٢).



(١) «البداية والنهاية» (٥/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩٢).



قصة أبي البشر آدم ﷺ

أول ما يبدأ الإنسان عند قراءته لقصص الأنبياء، بقصة أبي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وهو آدم ولا يقال ابن من؟ لأن آدم كما هو معلوم ليس له أب، بل هو أبو البشر صلوات الله وسلامه عليه.

صفة خلقه:

خلق الله تبارك وتعالى نبيه آدم من تراب كما قال - جل وعلا - :
 ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
 ﴿٥١﴾ [آل عمران]، ثم خلط التراب بالماء فصار طيناً كما قال ﷺ :
 ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ [السجدة]، ثم ترك هذا الطين حتى صار حمأ مسنوناً أي: له رائحة منتنة، وهو أملس في نفس الوقت قال ﷺ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٦٦﴾ [الحجر]، ثم ترك حتى جفَّ، فصار كالفخار، وهو مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿١٤﴾ [الرحمن]، فهذا الذي ذكره الله تبارك وتعالى، ذكر أن الإنسان خلق من صلصال كالفخار، خلق من طين لازب، خلق من تراب، كل واحد في وقت غير وقت الآخر، ثم بعد ذلك كان نسل آدم صلوات الله وسلامه عليه من مني كما قال ﷺ : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿٨﴾ [السجدة]، فآدم خلق من تراب، وذريته بعد ذلك خلقت من ماء مهين، من نطفة من مني

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَتِ الجن من نار، وخُلِقَ آدم مما وصف لكم»^(١).

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خُلِقَ آدم وطوله ستون ذراعاً.. فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»^(٢).

ثم خلق الله تبارك وتعالى من آدم وزوجه^(٣) حواء كما قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْمُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، فزوج آدم خُلِقَ من آدم صلوات الله وسلامه عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خُلِقَتْ من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج»^(٤).

وخلق الله تبارك وتعالى حواء لآدم؛ ليأنس بها، ويسكن إليها، ويكون بعد ذلك النسل منهما، فخلق الله تبارك وتعالى على أربعة أصناف:

■ الصنف الأول: من غير ذكر ولا أنثى، وهو آدم صلوات الله وسلامه عليه.

■ الصنف الثاني: من ذكر دون أنثى، وهي حواء.

■ الصنف الثالث: من أنثى دون ذكر، وهو عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

■ الصنف الرابع: من ذكر وأنثى، وهو سائر الخلق من البشر، فخلقوا من ذكر وأنثى.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

(٣) يقال: زوج وزوجة، وزوج أصح باللغة العربية، وزوجة صحيحة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

الأمر بالسجود لآدم ﷺ:

خلق الله تبارك وتعالى آدم صلوات الله وسلامه عليه، وبعد ذلك أمر الملائكة أن يسجدوا له، فقال ﷺ: ﴿وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة]، وهذا السجود قد يُشكل على بعض الناس كيف يأمرهم الله تبارك وتعالى أن يسجدوا لآدم والسجود لغير الله شرك؟

فالجواب: السجود على الصحيح ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: سجود عبادة.

القسم الثاني: سجود تحية.

فسجود العبادة لا يجوز إلا لله تبارك وتعالى، وهذا لم يأمر الله تبارك وتعالى الملائكة به أبداً.

وأما سجود التحية: فهذا السجود كان مشروعاً في الأمم السابقة ثم نُسخ وحُرِّم في شريعة محمد ﷺ، وهذا ليس فيه عبادة، وإنما فيه تحية.

ومنه أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية لا سجود عبادة.

وكذلك قول يوسف صلوات الله وسلامه عليه لأبيه يعقوب: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] ثم كان مصداق هذه الرؤية: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: سجود تحية، وكان مشروعاً في شريعتهم.

ومنه لما قدم معاذ ﷺ من الشام سجد للنبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «ما هذا يا معاذ؟» قال أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأسافتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال ﷺ: «فلا تفعلوا فإنني لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن

تسجد لزوجها»^(١)، فرؤية معاذ لأولئك القوم كان على ما هم عليه من العهد السابق، أنهم يسجدون لكبرائهم من باب التحية، لا من باب العبادة، فنهى النبي ﷺ عن ذلك.

ومنه الحديث الآخر لما سجدت الدابة للنبي ﷺ، فأخبر صلوات الله وسلامه عليه أن السجود لا يجوز إلا لله.

لكنه نُسِخ، ففي شريعة محمد ﷺ لا يجوز السجود، لا سجود العبادة، ولا سجود التحية، بل صار السجود علامة على العبادة، فلا يجوز السجود إلا لله تبارك وتعالى.

امتناع إبليس عن السجود لآدم ﷺ:

لما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم صلوات الله وسلامه عليه؛ كان إبليس مع الملائكة، فلم يسجد، امتنع أولاً ثم باح بالسبب، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، فهو يعترض على حكمة الباري ﷻ، وهذا الكلام مرفوض - ولا شك -؛ لأن الله تبارك وتعالى أمر، وأمر الله واجب التنفيذ، ولكن هل كان إبليس من الملائكة لما أمر بالسجود؟ أو كان مع الملائكة؟

الصحيح: أن إبليس كان مع الملائكة، ولم يكن من الملائكة، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فإبليس من الجن، والجن خلُقوا من نار، وإبليس قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ﴾ [ص: ٧٦]، والنبي أخبر أن الملائكة خلُقوا من نور^(٢)، فإبليس إذاً ليس من الملائكة، وإنما كان مع الملائكة، فأمره بالسجود بالتبعية؛ لأنه كان معهم، وذلك أنه قيل: كان من عبَاد الجن،

(١) أخرجه ابن ماجه «سننه» (١٨٤٣). (٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

فأكرم بأن جعل مع الملائكة، لكنه لم يكن منهم، ولذلك خانه طبعه اللئيم لما أمره الله بالسجود، فتكبر وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

ولذلك ذكر أهل العلم أن سبب هلاك الناس بشكل عام هو الحسد والكبر والحرص:

أما الحسد: فإن إبليس حسد آدم. وأما الكبر: فإنه تكبر على أمر الله تبارك وتعالى. وأما الحرص: فهو ما وقع لآدم صلوات الله وسلامه عليه وحواء عندما أكلا من الشجرة، فهذه الأمور الثلاثة، الحسد والكبر والحرص، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: هي سبب وقوع الناس في معصية الله تبارك وتعالى.

فلما امتنع إبليس عن السجود كان الرد من العزيز ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ أَلْسِنَةً وَلَا بِرَأْسٍ فَعْلًا سَبَّحْتَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا ذُو فَضْلٍ﴾ [الأعراف: ١٥٣]، فكان الجزاء من جنس العمل، فلما كان عمل إبليس تكبراً جاء الصغار عقوبة من الله تبارك وتعالى لهذا الشيطان المريد: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، فجاء الرد من الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٧) إلى يوم الوقت المعلوم [الحجر]، وكل هذا لحكمة أرادها الله ﷻ، وهي الابتلاء والامتحان حتى يميز الخبيث من الطيب^(١)، وعندها أعلن إبليس عداوته، وصاح بما كان يكتنم ابتداءً فقال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٨) ثُمَّ لَأَبْتَلَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فكان الرد من الله ﷻ: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ (١٩) وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ

(١) انظر أيضاً الكلام على الحكمة من تسليط إبليس على آدم ﷻ وذريته في: بداية «مفتاح دار السعادة» لابن القيم رحمه الله.

وَأَجَلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبْرِكَ وَرَجَّلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٦٦﴾ [الإسراء]، وقال له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٦٥﴾﴾ [الإسراء].

استخلاف آدم في الأرض:

ثم تأتينا الحادثة الثانية لآدم صلوات الله وسلامه عليه، وهي في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، يخطئ بعض الناس فيقولون: «خليفة عن الله» أو يقولون: «خليفة الله في الأرض»، وهذا خطأ، بل ﴿خَلِيفَةً﴾ أي يخلف بعضهم بعضاً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَيْفَ الْأَرْضِ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فالناس يَخْلُفُ بعضهم بعضاً، لا يخلفون الله تبارك وتعالى بل الله هو الخليفة، ولذلك إذا سافرنا نقول عن الله تبارك وتعالى: «وأنت الخليفة في الأهل»^(١)، فالله خليفة عن كل أحد، ولا يكون أحد خليفة عن الله تبارك وتعالى؛ لأنه يلزم منه أن الخليفة محتاج إلى من استخلفه، والله الغني ﷻ لا يحتاج إلى أحد أبداً، فالخليفة من الله، وليس الخليفة عن الله تبارك وتعالى.

فلما قال الله هذا للملائكة؛ قالوا: ﴿أَجْمَعُلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَائِجِبٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠] هذا سؤال من الملائكة، وهو كما قال أهل العلم: سؤال استعلام لا سؤال اعتراض، بدليل أنهم لما أمرهم الله بالسجود سجدوا أجمعون، فهم لا يعترضون، ولذلك قال الله تبارك وتعالى في وصفهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحریم: ٦] ووصفهم بأنهم عباد مكرمون، فقال: ﴿بَلْ

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر ﷺ.

عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿ [الأنبياء: ٢٦]، وغير ذلك من وصفٍ كريمٍ وصفَ الله به الملائكة، فسؤالهم إذا سؤال استعلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهنا يسأل كثير من الناس: كيف عرف الملائكة أن بني آدم سيفسدون في الأرض؟ وقد ذكر أهل العلم لهذا السؤال أربعة أجوبة:

الجواب الأول: أنه إلهام؛ أي: أوقع الله في قلوب الملائكة أن هذا سيحدث، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الجواب الثاني: أنه إخبار، ولكن لم يُذكر في القرآن؛ أي: أن الله أخبرهم، قال: إني جاعل في الأرض خليفة وهذا الخليفة سيفسد في الأرض، فتعجبوا وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الجواب الثالث: أنه توقع، فتكون الملائكة قالت هذا عن توقع؛ لأن الله خلق الملائكة وعصمهم، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، فلما علموا أن هذا المخلوق غير معصوم توقعوا أن يحدث منه هذا الأمر، إذا قالوه عن توقع لما عرفوه من طبيعة هذا الإنسان.

الجواب الرابع: أنه من باب القياس، وذلك أن الجن مخلوقون قبل الإنسان، فإبليس أبو الجن، وأُمِرَ بالسجود لآدم بعد أن خُلِقَ آدم، فأبى أن يسجد، والجن كانوا في الأرض وكانوا يفسدون في الأرض، فقياس الملائكة الإنس على الجن، فقالوا: إذا كان الجن الذين في الأرض يفسدون؛ فهذا الذي سينزل الأرض إذا سيفسد كما أفسد الذين من قبله، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فجاء الجواب من الله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

لَعَلُّكُمْ ﴿البقرة: ٣٠﴾ أي: من المصالح والمحاسن والحكم التي من أجلها خلق الله تبارك وتعالى الإنسان.

بيان تفضيل الله لآدم ﷺ:

فَضَّلَ اللهُ آدَمَ ﷺ، فقال ﷺ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، فعلمه أسماء كل شيء، كل ما ترون: جبل، شجر، حجر، أسد، نمر، وهكذا علمه أسماء كل شيء ﷺ، فلما علمه أسماء كل شيء أمر الملائكة أن يبنثوه بهذه الأسماء، ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١] أي: هؤلاء الأشياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة]، وهذا من أدب الملائكة مع رب العزة تبارك وتعالى، وهكذا يجب على كل مسلم إذا كان لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يتجرأ ولا يتكلم بدون علم، قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالإنسان دائماً إذا كان لا يعلم يقول: (لا أعلم)، ويرتاح.

وفي هذا بيان فضل العلم، إذ ميَّز الله آدم صلوات الله وسلامه عليه بالعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، ثم قال لآدم: ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] أي: أسماء هذه الأشياء لما أنبأهم بأسمائهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ لَأَسْبُوَنَّ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

فما الذي أبدوه وما الذي كتموه؟ قال العلماء: أبدوا ما أظهره من الكلام: ﴿أَنْجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وكنتموا يعني: إبليس الذي كتم الحسد والحقد على آدم صلوات الله وسلامه عليه. فأعلم ما تبدون؛ أيها الملائكة الطيبون، وأعلم ما تكتم أيها الشيطان المرید، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وهنا يظهر فضل آدم صلوات الله وسلامه عليه، وبيان ذلك:
أولاً: من العلم الذي أعطاه إياه.

ثانياً: لو أنّ الله تبارك وتعالى قال لآدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: أرايتم علمَ آدم؟ لقالوا: نحن نعرف هذه الأسماء، وليس لآدم فضل.

وكذلك في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام لما قال الملك لمن عنده: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ قَالُوا أَضْفَعْتُ أَخْلَطِ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف] فجاء فضل يوسف لما عجزوا، فلو أظهر الله فضل يوسف في البداية لقال أولئك العلماء: نعم هذا التأويل صحيح، ونحن نعرفه قبل أن يعرفه يوسف، ولكن أظهر عجزهم؛ ليُظهر فضل يوسف.

وكذلك هنا أظهر عجز الملائكة عندما قالوا: ﴿سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، فظهر فضل آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قال: ﴿أَلَيْسَ لَهُمْ بِأَسْمَاءُ يَوْمَ﴾ [البقرة: ٣٣].

قصة إسكان آدم الجنة وخروجه منها:

بعد أن أعلن إبليس عداوته وحقده وإرادته غواية آدم صلوات الله وسلامه عليه؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَتَقَادِمُ أَشْكُنُ أَنْتَ وَرَوْحِكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا﴾ [الأعراف].

فكيف وسوس؟

العلم عند الله، هل دخل في بطن حية أو أذن الله له أن يدخل أو وسوس لهما دون أن يدخل؟ علمه عند ربي تبارك وتعالى، ولا نخوض فيما لا نعلم.

المهم أنه وسوس كما أخبر الله تبارك وتعالى: ﴿يَبْدَىٰ لِمَا مَا
 وَرَىٰ عَنَّهُمَا مِنْ سَوَاءَٰنِيهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، وقال: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ
 الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] كَذَبَ
 عليهما، ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ اتَّصَيْبَتِ
 ٢١﴾ [الأعراف] كيف استجاب آدم وحواء لقول إبليس؟ مع أن الله
 حذَّره وحذَّرَ حواء فقال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ
 الْجَنَّةِ فَتَشْفَىٰ﴾ [طه: ١١٧]، كيف أطاعه آدم؟ قال أهل العلم: ما كان
 آدم يظن أن أحداً يجرو على أن يُقسم بالله كذبا، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي:
 أقسم ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ اتَّصَيْبَتِ ٢١﴾ [الأعراف]، فما ظن آدم
 أبداً أن أحداً يجرو على أن يقسم بالله كذبا، فأطاعه لهذا السبب،
 ولذلك قال الله تبارك وتعالى بعد: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]
 أي: في طاعته للشيطان ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لِمَا سَوَاءَٰنِيهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
 عَلَتِيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وهذا فيه أن الإنسان بطبعه يستر
 عورته، فما يحب أن تظهر، ولذلك بادر آدم وحواء إلى ستر العورة
 ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَتِيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] أي: يستران
 عورتيهما بهذه الأوراق ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ
 لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٣﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أي: في فعلنا
 هذا ﴿وَإِنْ لَوْ تَفَرَّرْنَا وَوَرَّحْنَا لَمُكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٢٤﴾ توبة، وندم،
 وأوبة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ
 ٢٥﴾ [الأعراف]، ويقول الله تبارك وتعالى في الآية الأخرى: ﴿فَنَلَقَىٰ
 آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٧﴾ [البقرة]، والكلمات
 هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَوْ تَفَرَّرْنَا وَوَرَّحْنَا لَمُكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

الشجرة التي أكل منها آدم ﷺ:

قال الإمام ابن جرير الطبري إمام المفسرين وإمام المؤرخين: «ولم يضع الله - جل ثناؤه - لعباده المخاطبين بالقرآن دلالةً على أيّ أشجار الجنة كان نهيه آدم أن يقربها، بنصّ عليها باسمها، ولا بدلالة عليها. ولو كان لله في العلم بأيّ ذلك من أيّ رضا، لم يُخل عباده من نضب دلالة لهم عليها يصلون بها إلى معرفة عينها، ليطيعوه بعلمهم بها، كما فعل ذلك في كل ما بالعلم به له رضا»^(١).

قلت: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا النبي في السنة الصحيحة، إذا أي شجرة أكل منها آدم؟ الله أعلم.

فأما اليهود - قبهم الله - فقد تجرؤوا وتكلموا بدون علم، فقالوا: إن الشجرة التي أكل منها آدم هي شجرة المعرفة؟ ولذلك قامت الحرب الشعواء من الكنيسة على العلم، ومنها خرجت العلمانية، فالكنيسة كانت تحارب العلم؛ لأن الجريمة التي أخرج لأجلها آدم من الجنة هي طلب العلم؛ لأنه أكل من شجرة المعرفة، فطلب العلم كان عندهم جريمة، وبالتالي قامت الثورة على الكنيسة؛ لأن الدين عندهم يحارب العلم، وما علموا أن ديننا أول ما نزل منه قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق].

الجنة التي خرج منها آدم ﷺ:

خُلِقَ آدم صلوات الله وسلامه عليه يوم الجمعة كما قال النبي ﷺ: «وفيه» - أي: في يوم الجمعة - «أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخْرِجَ منها»^(٢).

(١) «تفسير الطبري» (١/٥٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والجنة التي أُخْرِجَ منها آدم قيل: إنها جنة المأوى؛ أي: الجنة التي تكون في الآخرة. وقيل: إنها جنة في الأرض، والله أعلم، ولكن جماهير أهل العلم على أنها الجنة التي سيدخلها المؤمنون يوم القيامة، بدليل أن الناس عندما يأتون آدم في حديث الشفاعة المشهور، ويقولون له: «يا آدم أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته، اشفع لنا عند ربك، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة غيري»^(١)، فالظاهر - والعلم عند الله - أن الجنة التي أخرج منها آدم هي الجنة التي سندخلها جميعاً إن شاء الله تبارك وتعالى، آمين.

خصائص اختص الله بها آدم ﷺ:

واختص الله آدم ﷺ بأربع خصائص، وهي:

أولاً: خلقه بيده الكريمة، ولا يصح قول من يقول: (خلقه بقدرته)؛ لأن الله عاب على إبليس، وقال: ﴿مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ [ص: ٧٥] فثناهما، ولو كان المقصود القدرة والقوة لكان إبليس يرد على الله، ويقول: وأنا أيضاً خلقتني بيدك؛ لأنك خلقتني بقوتك وقدرتك، ولكن إبليس أعلم من الذين أنكروا أن يكون الله خلق آدم بيديه، وهما يدان حقيقتان تليقان بالله، ليست كأيدينا أبداً، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثانياً: نفخ الله تعالى فيه من روحه.

ثالثاً: أسجد له ملائكته.

رابعاً: أعلمه الله أسماء الأشياء كلها.

وقد ذَكَرَ اللهُ تبارك وتعالى آدم ﷺ في القرآن الكريم ست عشرة

مرة.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدروس والعبر المستفادة من قصة آدم ﷺ

وفي ختام هذه القصة نذكر العبر والدروس التي نخرج بها من قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه:

أولاً: ظهر من خلال هذه القصة مدى الضعف البشري، وذلك لما حرص آدم صلوات الله وسلامه عليه على الأكل من الشجرة، وكيف كان ذلك سبباً في خروجه من الجنة.

ثانياً: بيان مدى رحمة الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عندما تاب إلى الله.

ثالثاً: إنّ الإنسان إذا زلّت قدمه؛ فإن ملجأه إلى الله تبارك وتعالى، كما كان الحال منه ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

رابعاً: فضيلة العلم، فما عرف الملائكة فضل آدم إلا بالعلم الذي فضله الله به.

خامساً: بيان فضل الملائكة وأدبهم الجَمّ مع الله تبارك وتعالى لما قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

سادساً: بيان خطورة الحسد والكبر، حيث أخرج هذا الحسد والكبر إبليس بعد أن كان مع الملائكة إلى أن صار في الأرض، ثم بعد ذلك إلى جهنم وساءت مصيراً.

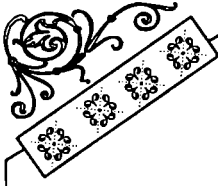
سابعاً: إنّ العبد إذا وقع منه الذنب؛ فعليه أن يبادر بالتوبة إلى الله تبارك وتعالى اقتداءً بأبيه آدم ﷺ.

ثامناً: إثبات اليدين لله تبارك وتعالى لما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾

تاسعاً: الحذر من الشيطان الرجيم؛ لأنه أقسم بالله، فقال: ﴿فِعْرَانِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿ص﴾، فخواص ذرية آدم من الأنبياء وأتباعهم حماهم الله تبارك وتعالى من الشيطان، وأقام عليهم سوراً منيعاً، وزاد على ذلك بأن أعطاهم الله السلاح الذي يستطيعون أن يقاوموا به ذلك العدو، وهذا السلاح متمثل في إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وفي بيان محاببه ومساخطه، حتى يفعل الإنسان محاباً لله، ويتجنب مساخطه، وأن يعلم علم اليقين أن كيد الشيطان ضعيف.

عاشراً: خطورة الحرص وكيف أنه أخرج أبانا وأمنا من الجنة، فكل شجر الجنة كانا مباحاً إلا شجرة واحدة فحرصا عليها فأخرجنا.





قصة نوح ﷺ

تكلمنا عن نبي الله آدم صلوات الله وسلامه عليه، وستكلم أيضاً عن آدم، ولكن عن آدم الثاني، أو آدم الأصغر، وهو نبي الله نوح صلوات الله وسلامه عليه، وقيل له: «آدم الثاني»، أو «آدم الأصغر»، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصفافات]، فكل من على وجه الأرض هم من ذرية نوح عليه الصلاة والسلام مصداقاً لطلب نوح من ربه تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، وذكر كثير من أهل العلم أن الذين نجوا مع نوح من المؤمنين لم يكن لهم نسل.

ونوح ﷺ من أولي العزم من الرسل، بل هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، وذلك أن آدم صلوات الله وسلامه عليه نبي، وليس برسول، وأول رسول هو نوح صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن الناس عندما يأتون آدم يوم القيامة يريدون منه أن يشفع لهم عند ربه تبارك وتعالى بأن يعجل الحكم فيهم، فيعتذر آدم صلوات الله وسلامه عليه، ويقول: «وهل أخرجكم من الجنة غيري اذهبوا إلى نوح أول رسول أرسل إلى الأرض»^(١)، فنوح صلوات الله وسلامه عليه هو أول رسول أرسل إلى الأرض. وقد جاء أن رجلاً سأل النبي ﷺ: كم كان بين آدم ونوح؟ فقال: «عشرة قرون»^(٢).

(١) تقدم تخريجه ص ٥٥.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٥)، وفي «الأوسط» (٤٠٣) =

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام^(١).

والقرن كما ذكر أهل العلم إما أن يكون مئة سنة، أو أن المقصود من القرن هو الجيل من الناس، فكل جيل قرن، فيكون قريباً من أربعين سنة.

ونوح صلوات الله وسلامه عليه ذكر في القرآن الكريم ثلاثاً وأربعين مرة.

إن الناس بعد آدم مكثوا قروناً طويلة، وهم أمة واحدة على التوحيد، على الفطرة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، حتى جاءتهم الشياطين، فأدخلت عليهم الشرور المتنوعة، وذلك أن قوم نوح صلوات الله وسلامه عليه مات منهم أناس صالحون، فجاءهم الشيطان، وأمرهم أن يصوروا لأولئك الصالحين صوراً، حتى إذا رأوهم تذكروهم، وتذكروا عبادتهم، فكان ذلك سبباً في نشاطهم في العبادة، واستمروا على ذلك زمناً حتى مات أولئك القوم، فجاء مَنْ بعدهم، ثم مَنْ بعدهم، فجاءهم الشيطان، وقال لهم: إن هذه الصور بها كانوا يستشفعون، وبها ينزل عليهم المطر، وكانوا يدعونها، فادعوها، فدعوها من دون الله تبارك وتعالى، وهو مصداق قول الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ مَا إِلَهُتُنَا وَلَا نَدْرَأُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقُ وَشَسْرًا﴾ [نوح]، فعبدوا هذه الصور من دون الله تبارك وتعالى، وهذا هو المشهور عن ابن عباس رضي الله تبارك وتعالى عنهما، وهو الذي صرح به كثير من أهل العلم: كالإمام القرطبي، وابن القيم، وابن كثير، وغيرهم من

= من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨)، (٣٢٨٩): «وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون».

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٥٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

أهل العلم، وقد أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة وأم حبيبة وهما زوجتا النبي صلى الله عليه وآله ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير، ذكرنها للنبي صلى الله عليه وآله ^(١)، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «إن أولئك كان فيهم الرجل الصالح فمات، فبنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» ^(٢)، ومصدق هذا ما ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز من قصة أهل الكهف، فقد قال صلى الله عليه وآله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَاهُمْ مَبْنِيًّا وَرَدُّهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ قَالُوا وَمَنْ نَعْبُدُ إِذْ أُنزِلْنَا مِن بَيْنِ سِدْرِهِمْ فَلْيَدْعُ عِبَادَ اللَّهِ حَتَّىٰ نَحْكُمَ لَهُمْ أَوَّلَهُمْ آخِرًا لَّا يُخْفَىٰ عَلَيْنَا ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ حَتَّىٰ تَوَلَّىٰ وُجُوهُهُم مُّسْتَوِيًّا﴾ [الكهف]، وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن الذين غلبوا على أمرهم هم شرار أهل القرية، فبنوا على أولئك الصالحين مسجداً كما فعل غيرهم.

اساليب دعوة نوح صلى الله عليه وآله لقومه:

لما كفر أولئك القوم من ذرية آدم صلوات الله وسلامه عليه؛ أرسل الله إليهم نبيه نوحاً، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده، فلم يُقَصِّرْ، واستخدم عدة أساليب في الدعوة إلى الله - جل وعلا -، فمن تلك الأساليب التي استخدمها:

أولاً: أسلوب الترغيب: كما في قول الله تبارك وتعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٥﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٦﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح].

ثانياً: أسلوب التهيب: فذكر الله عنه أنه قال لهم: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا

(١) وذلك أن أم سلمة وأم حبيبة كانتا قد هاجرتا إلى الحبشة قبل زواج النبي صلى الله عليه وآله بهما، ورأنا كنيسة يقال لها: (ماريا)، رأيتها في الحبشة، وكانت فيها تصاوير.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ ﴿١٦﴾ [هود].

ثالثاً: أسلوب المحاوره: ومنه ما ذكر الله تبارك وتعالى عنه أنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمُ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ [نوح].

رابعاً: أسلوب الصبر وتحمل الأذى: وكان هذا من أساليبه صلوات الله وسلامه عليه أن صبر وتحمل ما جاء منهم من أذى، وكلنا يعلم أن نوحاً صلوات الله وسلامه عليه مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كما أخبر الله تبارك وتعالى عنه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

خامساً: أسلوب التلطف في الخطاب: فكان ﷺ يتلطف معهم في الدعوة إلى الله ﷻ، وذلك لما جاءوه وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء الأراذل - على قولهم - فكان قول نوح ﷺ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١].

وكذلك لما اتهموه بالضلال، فما زاد أن قال صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَقُولُونَ لَيْسَ بِیْ ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ [الأعراف: ٦١] إي والله، كيف يكون به ضلالة، والله بعثه لتزول به الضلالة!؟

ولما قالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ يَقُولُونَ هَلْ نَمْنَمُ بِكُمْ إِن كُنتُمْ عَلَيَّا بِنَاءً مِّن رَّبِّي وَعَلَيْكُمْ رَحْمَةٌ مِّن عِندِهِ فَعَبَّيْتُمْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَّا أَنْتُمْ لَهَا كَادِرُونَ﴾ [هود]، وهكذا استمر في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وقومه يكيلون له الأذى كيلاً، حتى إن هذا الأذى تمثل في

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، هذا أول ردِّ ردوا به على نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] يعني: نراك اتبعك أراذلنا، وضعفاؤنا، وما اتبعك كبراؤنا.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: الذين لم يتمهلوا حتى في معرفة الحق من الباطل، بل كان رأيهم سريعاً، واتخذوا القرار دون تمهل، ودون دراسة، ثم قالوا كذلك: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧]، حتى تكونوا أنتم أفضل منا، ﴿بَلْ نَطَّكُمُ كَذِبِينَ﴾، وقالوا كذلك: ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الاعراف: ٦٠]، وقالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، [المؤمنون: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَىٰ حِجَّةً﴾ [المؤمنون: ٢٥]، هذا ردُّ قوم نوح عليه صلوات الله وسلامه، تمثل في هذه الأمور الثمانية:

الأول: أنت بشر كمثلنا، أنتع بشراً مثلنا؟!!

الثاني: أتباعك أراذلنا، الذين يتخذون الرأي دون دراسة.

الثالث: ما نرى لكم علينا من فضل، أنتم كأمثلنا، ما لكم علينا من فضل حتى نتبعكم.

الرابع: نظنكم كاذبين.

الخامس: نراك في ضلال مبين.

السادس: لو شاء الله لأنزل ملائكة، لِمَ لَمْ يُنَزَّلْ مَلَائِكَةً، فنتبع الملائكة؟!!

السابع: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

الثامن: بك جنون.

هكذا اتهموا وردّوا على نبي الله نوح صلوات الله وسلامه عليه .
وهو كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِّلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، فهذه التُّهَم كما سيأتينا في قصص الأنبياء هي التهم نفسها الموجهة لأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، تزيد تهمة أو تنقص تهمة، ولكنها بشكل مجمل هي التُّهَم التي توجه أو الأسباب التي يكون لأجلها امتناع الكافرين من اتباع المرسلين .

قوم نوح ﷺ يواجهوا دعوته بالرد والأذى:

ثم واجهوه بالأذى، آذوه صلوات الله وسلامه عليه، وإلا يَم صار نوح صلوات الله وسلامه عليه من أولي العزم من الرسل إلا لذلك الأذى الذي أصابه من قومه صلوات الله وسلامه عليه .

اتهموه بالجنون، وهو مصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا﴾ [القمرا].

واتهموه بالضلال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِي إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف]، اتهموه بالجدل العقيم: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدَّ جَدَلْنَا قَدْ أَكْثَرَتْ جِدَلْنَا﴾ [هود: ٣٢].

توعده بالرجم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْتُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء].

سخرُوا منه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

وأساؤوا الأدب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ⑤ ﴿لَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاوِي إِلَّا فِرَارًا﴾ ⑥ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرًا فِي عَادَاتِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا نِيَابِهِمْ وَآمَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ ⑦ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ ⑧ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَتَرَزْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ⑨ [نوح]، وكل هذا لم ينفذ مع قوم نوح صلوات الله

وسلامه عليه، وتأملوا قولهم: ﴿قَالُوا يَنْحُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا
يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٤٧] ﴿إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَنْكَ رَسُولٌ
مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَاتِنَّا بَأْيَةٍ، فلا حاجة إلى الإكثار من الجدل معنا،
فقد بلغتنا، ونحن كذبتنا، وسئنا من كثرة الخصومة معك، وقد توعدتنا
بعذاب فاتنا بالعذاب.

هكذا ردوا على نوح صلوات الله وسلامه عليه، فقال نوح: ﴿إِنَّمَا
يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] نعم، أما هو صلوات الله
وسلامه عليه فوظيفته البلاغ، أما العذاب فعند الله ﷻ، وهذا مصداق
قول النبي ﷺ لقومه: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا سْتَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨]، فالأمر ليس بيد نوح، ولا
بيد محمد، ولا إبراهيم، ولا عيسى، ولا موسى صلوات الله وسلامه
عليهم أجمعين، بل هو بيد خالقهم وربهم ﷻ.

نوح ﷺ يصبر على أذى قومه:

وبقي نوح ﷺ ثابتاً على دينه متوكلاً على ربه تبارك وتعالى،
مشفقاً على أمته، دائماً في دعوته مئات السنين وقومه لا يزدادون إلا
سخرية منه وعناداً وإصراراً على ما هم عليه من الشرك حتى قالوا: ﴿لَا
نُذِرُّكَ الْهَتَكُ وَلَا نُذِرُّكَ وَدَاً وَلَا سُوءًا وَلَا يَفُوتُ وَيَعُوقُ وَشَرًّا﴾ [نوح: ٢٣]، ومع
هذا استمر في دعوته حتى قال الله له: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ
ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، انتهى الأمر لن يؤمن أحد، أدت الذي عليك، ولن
يتبعك أحد بعد الذين اتبعوك، عندها قال نوح: ﴿رَبِّ لَا نُذِرُّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ
الْكَافِرِينَ دَيْبَارًا﴾ [٦٦] إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا﴾
[نوح:]، حكمت يا رب أنه لن يؤمن أحد بعد الذين آمنوا، إذا يا رب
عجل لهم العذاب، فدعا نوح صلوات الله عليه على قومه، ولذلك عندما
يأتي الناس نوحاً يوم القيامة فيقولون: «يا نوح أنت أول رسول أرسله الله

إلى الأرض، اشفع لنا عند ربك، فيقول: إني دعوت على قومي^(١).

نوح ﷺ والتحدي الأكبر:

كان نوح ﷺ لما واجهه قومه بالأذى وتوعده بالرجم وغير ذلك تحداهم أكبر التحدي، حتى قال بعض أهل العلم: إن معجزة نوح صلوات الله وسلامه عليه تتمثل في ذلك التحدي الذي تحدى به قومه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِي إِنَّ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]، هكذا تحدى نوح قومه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا الكلام من نوح يدل على ثقة ويقين، ولا يكونان أبداً إلا لأمثال نوح صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا التحدي تمثل في خمس صور:

١ - قوله لهم: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، لا تختلفوا عليّ، لا يقل أحد شيئاً والآخر شيئاً مع أن اختلافهم جيد بالنسبة له، ولكنه قال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ لا تختلفوا عليّ، اتفقوا حتى تكونوا كالجسد الواحد.

٢ - ثم قال: ﴿وَشُرَكَاءَكُمُ﴾، استعينوا بشركائكم من الجن والإنس والأصنام التي تدعونها من دون الله تبارك وتعالى.

٣ - ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، لا تكتموا، لا تسروا لبعضكم البعض، لا تجلسوا في الليالي، تحدثوا نهاراً جهاراً.

٤ - ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أنجزوا، اتفقوا، اعدموني، ارجموني، افعلوا

ما تشاؤون.

(١) تقدم تخريجه ص ٥٥.

٥ - ﴿وَلَا تُظْهِرُوا﴾ ، ولا تمهلوني .

ولننظر هل يستطيعون ذلك أم لا؟ ولم يستطيعوا أبداً، ولذلك ذكر بعض أهل العلم أن هذه كانت معجزة نوح صلوات الله وسلامه عليه، وهذا المقام الذي قامه نوح صلوات الله وسلامه عليه لا شك أنه تتقاصر عنه الصناديد من الرجال، عندما يقف في وجه الكفرة الفجرة الذين توعدوه وهددوه بشتى أنواع العذاب؛ يقف بينهم هذا الموقف العظيم، لا شك أنه يدل على ثقةٍ وتوكليٍ ويقينٍ بنصرِ الله تبارك وتعالى .

استمر نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى حتى بلغ السيل الزبي، عند ذلك قال نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء] و﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي قَوْمٌ جَاهِلُونَ ﴿١١٩﴾ وَأَتَّبَعُوا لِي سُلْبًا وَقَدْ كَفَرُوا ﴿١٢٠﴾ وَجَاءُوكَ بِالسُّفِينِ أَكْثَرًا مِّنْ نَّجْوَىٰ وَمَعَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [نوح]، و﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَلَا يَكُفِّرْ بَدَنِي ﴿١٢٢﴾﴾ [نوح]، وذكر الله عنه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٢﴾﴾ [القمر]، ومنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَمَّعَ الْمِجْيُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الصافات] عندها؛ بعد أن أتم نوح صلوات الله وسلامه عليه دعوته لقومه أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴿٣٨﴾﴾ [هود].

قال أهل العلم: سخروا منه لأمرين اثنين:

الأمر الأول: أنهم قالوا: يا نوح قد كنت نبياً فصرت نجاراً،

فسخروا منه .

الأمر الثاني: أنهم قالوا: يا نوح من يصنع السفينة يسير بها في البحر، وأنت في البر! ما تصنع بهذه السفينة؟

وكان نوح صلوات الله وسلامه عليه بكل ثقة ويقين، يقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، ولكن تسخرون عاجلاً، ونسخر آجلاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ٢٩ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ ٣٠ ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ ٣١ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ٣٢ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ ٣٣ ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ٣٤ [المطففين].

وتركوا نوحاً، وصنع السفينة، وذكروا أنه صنع السفينة في أربعين سنة، وذكر بعضهم أنه غرس أشجاراً ثم رعاها حتى قويت واشتدت، ثم أخذ منها الخشب، وصنع منها السفينة، وكل هذا من روايات بني إسرائيل التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب.

وقد بناها سفينة عظيمة وجعلها ثلاثة طوابق، وجعل الطابق السفلي للدواب والوحوش، والطابق الأوسط للبشر الذين معه، والطابق الأعلى للطيور، قال الله تبارك وتعالى بعدما صنع نوح السفينة وأتمها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ما آمن معه إلا قليل، جلس يدعو ألف سنة إلا خمسين عاماً، تسعمئة وخمسون سنة، وما آمن معه إلا قليل، فلا تحزن إذا كنت تدعو إلى الله تبارك وتعالى ولم يؤمن معك إلا قليل، بل لا تحزن إن لم يؤمن معك أحد، المهم احزن إن قصرت أنت في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، أما اتباع الناس لك فالأمر ليس في يدك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

رسولٌ من أولي العزم من الرسل، أعطاه الله تبارك وتعالى الخبرة

الطويلة في الدعوة إليه، وهو ملهم يُوحى إليه، جلس هذه المدة الطويلة، يقين، وصدق، وإخلاص، وتقوى، ومع هذا ما آمن معه إلا قليل، فلا يحزن الإنسان إذا لم يؤمن به إلا واحد، أو اثنان، أو ثلاثة، بل يفرح أنه هدى الله على يديه رجلاً واحداً، بل أخبر النبي ﷺ أن بعض الأنبياء يأتون يوم القيامة وليس معهم أحد^(١)، بل سيأتينا في قصة أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ وقول الله - جل وعلا -: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فذكروا أن إبراهيم ﷺ لم يؤمن به إلا لوط، ولوط نبي.

عدد مَنْ آمَنَ مع نوح ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وهذا القليل - كما ذكرت كتب أهل الكتاب أنهم - لم يتجاوزوا الثمانين من رجال ونساء.

وقال بعضهم: ثلاث وثمانون، والله أعلم بعددهم، ولكن يكفيننا قول الله: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ويكفيننا أنهم حملتهم مع دوابهم وطيورهم سفينة فهم لا شك قليل، وسفينة مشحونة كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩] أي: سُحِنُوا فِيهَا سُحْنًا.

نوح ﷺ يركب سفينته وينزل العذاب على قومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَزْكُبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] ﴿إِنْ نوحاً عليه الصلاة والسلام لما ركب السفينة قال: بسم الله تسير وتجري، وبسم الله ترسو، فهذا نوح ﷺ، دائماً يتعلق بربه تبارك وتعالى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس ؓ.

وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١٠﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١١﴾ فَفَنَحْنَا أَيْتَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿١٢﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٤﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا ﴿١٥﴾ [القمر]، فَجَرَّ اللَّهُ الْمَاءَ مِنَ الْأَرْضِ ﴿١٦﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴿١٧﴾ صَارَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا عُيُونًا، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ التَّقَى مَاءَ السَّمَاءِ بِمَاءِ الْأَرْضِ ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أَي: قُدِّرَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، هُنَا الْآنَ ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ [هود: ٢٨] تَضَعُ سَفِينَةَ فِي الْبَرِّ! صَرَتْ نَجَارًا بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا! هَذَا وَقْتُ السَّفِينَةِ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ الدُّسْرُ: الْمَسَامِيرُ، الْأَوَاحُ وَمَسَامِيرُ، ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أَي نُوْحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي: بِرِعَايَتِنَا، وَعِنَايَتِنَا، وَحِفْظِنَا، وَرَحْمَتِنَا، حَفِظَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا﴾ هَذَا الْجَزَاءُ يَا نُوحُ لِمَا كَفَرُوا وَعَادُوا وَأَدُّوا، انظُر الْآنَ كَيْفَ دَمَرَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

يقول الله - جل وعلا -: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] موج كالجبال، قد لا يستطيع الإنسان أن يتصور هذا الأمر، ولكن يكفينا أن نصدق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ ينادي ابنه ﴿يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ حتى تنجوا، فقال: ﴿سَوَّيْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي مِنِّي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] يقول لابنه: ﴿يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أولئك كفرون سيهلكهم الله، وهذه شفقة في قلب نوح على ابنه، شفقة الأب على ابنه، ولذلك الله تبارك وتعالى وصى الإنسان بوالديه، فقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] لكن لم يوصِ الأب أبداً، ولم يوصِ الأم بالولد؛ لأن هذه الشفقة مغروسة في قلوبهم، في قلوب الآباء والأمهات، ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، ﴿قَالَ سَوَّيْ إِلَى جَبَلٍ﴾ يظن أن الأمر تنفع معه الحيلة، بل هو كما في حال المؤمنين يوم

القيامة عندما يمشون على الصراط، أتظنون أن الذي يمشي على الجبل في الدنيا هو الذي سيمشي على الصراط!! بل التثبيت من الله تبارك وتعالى، كذلك الأمر هنا، أتظن أنه كلما صعد الإنسان إلى أعلى نجاة؟! لا، وإنما من أراد الله لهم النجاة ينجون، ولذلك لما قال: ﴿سَآوِيْ اِلَيْكَ جَبَلٍ يَعْصِيْ مِنْ اَمْرِ الْمَلِكِ﴾ [هود: ٤٣] جاء الرد من أبيه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ اَمْرِ اَللّٰهِ اِلَّا مَنْ رَّحِمْنَا﴾ [هود: ٤٣] لا جبل، ولا غير جبل، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ اَمْرِ اَللّٰهِ اِلَّا مَنْ رَّحِمْنَا﴾ وهم الذين ركبوا في السفينة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ الأمر إذا لحظات، اركب.. ساوي.. لا عاصم.. حال بينهما الموج.. ذلك أن السماء قد انفتحت كالقرب، والأرض تفجرت كالعيون، والتقى ماء السماء مع ماء الأرض حتى علا أعلى شاهق في الأرض، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وأنجى الله نوحاً ومن معه.

وذكر أهل العلم أن أولاد نوح أربعة: حام، وسام، يافث، ويام. حام من نسله القبط، والبربر، والسودان، وهم السود بشكل عام. وأما العرب، والفرس، والروم؛ فهم من نسل سام. وأما الترك، والصقالبة، وآجوج وآجوج من نسل يافث، والذي غرق هو يام، ويسميه أهل الكتاب كنعان.

ونجى الله تبارك وتعالى نوحاً والذين آمنوا معه، الذين يربطهم معه نسب الدين، وأما نسب الولادة؛ فإن الله أهلك ابنه كنعان أو يام.

بعد أن أغرق الله جميع الكافرين قال: ﴿رَقِيبٌ يَّتَّارِضُ اَبْلٰٓغِيْ مَآءِكِ﴾ [هود: ٤٤] أديت ما عليك، فهي جند من جنود الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ اِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿وَيَسْمَاةُ اَقْلِيٰ﴾ [هود: ٤٤] السماء، المقصود به المطر، توقف المطر، الأرض ابتلعت ما عليها، ﴿وَضِعْفَ

﴿الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٤] غِيضٌ: يعني نَقَصَ، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، هنا توقفت السفينة على البر مرة أخرى، والجدودي على المشهور: جبل في الموصل. وقيل: الجدودي هو اسم جنس يطلق على أي جبل، فيقال: جودي كذا، وجودي كذا، وجودي كذا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

هكذا لحظات وانتهى كل شيء كأنه حلم، موج، وعذاب، ولا أحد إلا نوح عليه الصلاة والسلام ومن معه في السفينة والأرض يباب^(١)، كل من عليها هلك، كل من على وجه الأرض، ولذلك قيل لنوح: إنه آدم الثاني أو آدم الأصغر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَامْرَأَتُهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح].

وذكرت هنا قصة إسرائيلية، وقد ذكرنا أنه لا بأس أن نروي القصص الإسرائيلية:

ذكر أن امرأة من قوم نوح لما بدأت السماء تمطر والأرض تنبع صعدهت بولدها لها رضيع إلى أحد الجبال خوفاً من الماء، فجاءها الماء، فصعدت، فجاءها الماء، فصعدت، فجاءها الماء، حتى وصلت إلى قمة الجبل، فجاءها الماء، فرفعت ولدها، فغطاها الماء، حتى وصل إلى عنقها، فرفعت ولدها إلى فوق، فغطاها الماء كما غطى غيرهما، وقد قيل: لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي، ولكنه أهلك الجميع ﷺ، ولا يعني هذا أن الصبي في النار، وإنما إذا جاء العذاب عمّ الجميع، ثم يبعث كل على نيته^(٢).

(١) اليباب: الخراب، «المعجم الوجيز».

(٢) وذلك لما أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤) بهذا المعنى.

يقول الله تبارك وتعالى بعد أن انتهى الأمر: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) لأن الله قال: ﴿فَلَمَّا أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]، فقال نوح: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعني: إنك أخبرتني أنك تُنجيني وأهلي وأنت أحكم الحاكمين، ما الذي حصل؟ لِمَ لَمْ ينجُ؟ ولكن هذا من أدب نوح مع ربه تبارك وتعالى أن تكلم بهذه الطريقة، فقال الله له: ﴿يَنْسُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] إنه عمل غير صالح، ما معنى إنه عمل غير صالح؟ قال بعض أهل العلم من أهل التفسير لها معنيان:

الأول: إنه عَمَلٌ غير صالح؛ أي: هذا العمل منك يا نوح غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم، يعني: دعاؤك هذا عملٌ غير صالح، ولذلك جاء بعده التأييب في قوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

الثاني: إنه عَمَلٌ غير صالح أي: ركوب الكافر معك، أنت لا يركب معك إلا المؤمن، وهذا كافر كيف يركب معك؟ إنه عمل غير صالح منا إذا أركبنا الكافر معك.

وهناك قراءة أخرى: «إنه عَمِلَ غير صالح» يعني: إن ابنك عَمِلَ عَمَلًا غير صالح، فلا ينجو معك، وهي قراءة سبعية صحيحة.

من ابظا به عمله لم يسرع به نسبه:

وهنا في غرق ولد نوح وغرق امرأته كذلك - كما سيأتي - يتبين أن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، وذلك أن الاتصال بين الناس مع الأنبياء فوق اتصال البنوة، والأبوة، والزوجية، بل هذا هو أشد اتصال بين الناس، أشد الناس

الذين تتصل بهم في هذه الدنيا وتشفق عليهم؛ إما أن يكون اتصال أبوة «أب أو أم»، أو اتصال بنوة: «ابن أو بنت»، أو اتصال زواج، ولكن هذا الاتصال إن لم يكن معه اتصال عقدي؛ فإنه لا ينفع، ولذلك لم يغنِ نوحٌ عن ابنه وزوجته، ولم يغنِ إبراهيم عن أبيه، ولوط كذلك عن زوجته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [المتحنة].

خيانة دين لا خيانة فراش:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم] هنا: الخيانة لا شك أنها خيانة الدين، وليست خيانة الفراش بأي حال من الأحوال، وذلك لأسباب كثيرة منها:

أولاً: أنه لو كان من امرأة نوح وامرأة لوط زنا؛ لكان قومهما غيرهما بهذا، كما كان يُعَيَّرُ نوح قالوا: ﴿وَأِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكٰذِبِيْنَ﴾ [الأعراف: 66]، وغير ذلك من الاتهامات التي اتهموا فيها نوحاً، ولو كانت امرأته كذلك لقالوا: فراشك غير طاهر، فلما لم يُتهم بهذا عَلِمَ أن الخيانة لم تكن خيانة الفراش.

ثانياً: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَادَى نُوحٌ ابْنُهُ وَكَانَ فِي مَعْرَظٍ﴾ [مرد: 42]، وقال: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ حَمِيْنُهُمْ بِسَعْرِ﴾ [القمر: 34] وذلك أن بعضهم قال: إن ابن نوح هذا الذي لم ينجُ كان ابن زنا، وهذا كذب، بل الله سماه ابناً له، فقال: ﴿وَتَادَى نُوحٌ ابْنُهُ﴾، فنسبه إليه، وقال عن لوط: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ فنسبهم إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثاً: قال الله تبارك وتعالى: ﴿الْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِ وَالْحَيْثُونَ لِلْحَيْثِثِ﴾

[النور: ٢٦]، ونوح طيب فله الطيبات، ولكنها خبيثة في الدين، في العقيدة، فأما الخبائة في العرض فالله نزه أنبياءه عن ذلك.

رابعاً: لو كانت الخيانة بالزنا لما قال الله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠]؛ لأن الزنا لا يخرج الإنسان من الملة، وإنما الذي أخرجها من الملة خيانه الدين، فلما خانت نوحاً عليه الصلاة والسلام في دينه؛ حكم الله عليها بدخولها النار.

خامساً: قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فلا يمكن أبداً أن الله يختار نساءً لأنبيائه أمثال هؤلاء، ولذلك نصَّ أهل العلم: أن من اتهم امرأة نبي بالزنا؛ فهو كافر خارج من ملة الإسلام.

أمة محمد ﷺ تشهد لنوح ﷺ:

وبعد هذه الدعوة الطويلة من نوح عليه الصلاة والسلام ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمه، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمه: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي» تصوروا تسعمئة وخمسون سنة، وبعد هذا كله تأتي أمة نوح يوم القيامة تقول: «ما جاءنا من نبي»، ما بلغنا، فيقول الله لنوح: «من يشهد لك؟» أنت تقول: بلغت، وهم ينكرون، من يشهد لك يا نوح فيقول: «محمد ﷺ وأمه» يقول النبي ﷺ: «فنشهد أنه قد بلغ»، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط العدل^(١).

فتشهد هذه الأمة، تشهد بماذا؟ تشهد بأن الله صادق، تشهد بأن

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٩).

النبي صادق، تشهد بأن ما جاء في كتاب الله حق، فتشهد أن نوحاً قد بلغ.

ومنه قصة خزيمة بن ثابت رضي الله عنه لما شهد أن النبي ﷺ لما ابتاع من الأعرابي الفرس، قال الأعرابي: هلم شهيداً، فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: «بم تشهد؟»، فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين^(١).

تنبيهان:

الأول: لا يُعرف بالتحديد القطعي مكان الأحداث التي وقعت لنوح مع قومه، فكلُّ من قال بالتحديد فهو رجم بالغيب.

الثاني: وكذلك لا يُعرف الزمان الذي كان فيه نوح عليه الصلاة والسلام، ولكننا نعلم علم اليقين أن هذه القصة قد وقعت، والتحديد ليس له أثر في العبرة المطلوبة من القصة، فيكفي أن نعلم أنها وقعت على الأرض قبل أن نولد، وأنا مكلفون بما كُلفوا به من عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، وموعودون كما وُعدوا، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

الدروس والعبر المستفادة من قصة نوح ﷺ

أولاً: عقاب قوم نوح فيه دليل على أن الجزاء قد يكون أحياناً في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

ثانياً: إنَّ جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ متفقون في الدعوة

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٨٦).

إلى التوحيد الخالص، كلهم يدعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له.

ثالثاً: من آداب الدعوة ما قام به نوح أنه دعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وصبر على هذا صبراً عظيماً.

رابعاً: ينبغي ذكر الله دائماً والاستعانة به ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ [هود: ٤١].

وقفة:

يُروى أن نوحاً بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل، فقيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيتٍ له بابان، دخلتُ من أحدهما وخرجت من الآخر.

مصير الآلهة التي كانت تعبد زمن نوح ﷺ:

قال الله تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح] هذه الآلهة بعد هلاك قوم نوح، ومضى السنين، جاء عمرو بن لُحَي الخزاعي إلى مكة، وكانت خزاعة تحكم مكة قبل قريش، فأتى بها عمرو بن لُحَي الخزاعي الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه أول من جلب الأصنام إلى مكة.

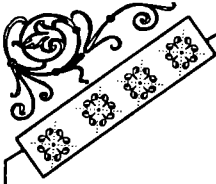
فأما «ود»: فكان لبني عذرة في دومة الجندل وهدمه خالد بن الوليد، وعمرو بن عبد ودة العامري، نسبة لهذا الصنم «عبد ودة» أي: عبد الصنم ودة.

و«سواع»: كان لِمُضَر، وعبدته هذيل.

و«يعوث»: لمذحج، قبيلة من قبائل العرب.

و«يعوق»: لهمدان، قبيلة في اليمن.

و«نسر»: لِحِمَيْر، وكانوا في سبأ يتوارثون عبادة الأصنام كابراً عن كابر، أو قولوا: صاغراً عن صاغر.



قصة هود ﷺ

ذكرنا أول رسول للعالمين وهو نوح ﷺ، والآن نذكر أول رسول عربي، والرسول من العرب أربعة كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الأنبياء والمرسلين، وذكر حديثاً طويلاً، وفيه أن النبي ﷺ قال له: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر»^(١).

نسبه وقبيلته ﷺ:

يرجع نسب هود ﷺ - كما اتفق أهل الأنساب - إلى سام بن نوح، وإن اختلفوا في عدد الآباء أو أسمائهم الذين هم بين هود وسام بن نوح.

ذكر نبي الله هود في القرآن سبع مرات، وذكرت قبيلته وهي عاد سبعاً وعشرين مرة، وهو من هذه القبيلة التي كانت تسكن الأحقاف، فهو أخو عاد الذي أنذرهم بالأحقاف، والأحقاف جبال من الرمل في اليمن يقال: إنها بين عمان وحضرموت في بلد هناك يقال لها: الشحر، وهي الآن في اليمن وهي بلد زراعية.

وعاد قوم هود من العرب، والعرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما قيل: عرب عاربة بائدة، وعرب عاربة باقية، وعرب مستعربة.

وهود من عاد، وعاد من العرب العاربة البائدة، ومثلهم قوم

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١) وضعف إسناده جداً الأرنؤوط.

صالح، وهم ثمود، وطسم وجُدَيْس، هؤلاء كلهم من العرب العاربة البائدة التي لم يبقَ منها أحد، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ [الفجر] وعاد إرم هم: عاد الأولى قوم هود، وعاد الثانية قيل: هم ثمود قوم صالح ﷺ، وقيل: هم من سبأ من قحطان، فالعلم عند الله تبارك وتعالى.

قوم هود أول من عبد الأصنام بعد نوح ﷺ:

وهم أول من عبد الأصنام من ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، بعد ما جاء الطوفان وعمَّ الأرض كما قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فقد عمَّ الطوفان الأرض كلها، ولم يبق إلا ذرية نوح كما ذكرنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْقَابِئِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات]، وهكذا تناسلت هذه الذرية حتى وصلت إلى قوم عاد.

وهم من نسل سام بن نوح، فأول من عبد الأصنام من ذرية نوح قبيلة عاد، وكانت أصنامهم ثلاثة: صَدَى، وسمود، وهَرَى أو هَبَاء.

هل بين نوح وهود أنبياء؟

قوم هود ﷺ ذكروا بعد نوح مباشرة، كما في قول الله تبارك وتعالى عن هود أنه قال لقومه: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ولذلك المشهور أنه ليس بين نوح وهود نبي، وقيل: بينهم أنبياء، ولكن الشاهد من هذا أن عاداً علموا بما حدث لقوم نوح، ولذلك ذكروهم نبي الله هود بنعمة الله عليهم إذ جعلهم من بعد قوم نوح صلوات الله وسلامه عليه، وعندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله

تبارك وتعالى يذكر قصة هود مع قومه بعد قصة نوح كما في سورة الشعراء^(١)، وسورة المؤمنون^(٢)، وسورة الأعراف^(٣)، مما يدل على أنه ليس بين قوم عاد وقوم نوح نبي.

الصفات الخَلْقِيَّة لِقَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أعطاهم الله تبارك وتعالى بسطة في الخلق كما قال لهم هود: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، فكانت أجسامهم عظيمة، وهناك روايات فيها مبالغات كثيرة جداً عن أجسامهم، منها أن أحدهم كان إذا وضع رجله على الأرض خرقها، وغير ذلك من الروايات المموججة التي لا يمكن أن تقبل، ولكن لا شك أن أجسامهم كانت عظيمة ويكفيها قول النبي ﷺ: «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»^(٤)، فأدم هو أعظم مخلوق خلقه الله تبارك وتعالى من الإنس، ثم الخلق بعد ذلك يقصُر إلى يومنا هذا، وهم لهم خَلْقَةٌ عظيمة كما بين الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال الله عنهم: ﴿الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلَادِ﴾ [الفجر]، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٦٦] إِذْ قَالَ لَهُمُ نُوحٌ هُوَذَا لَا تَقْبَلُونَ إِلَيَّ لِذِكْرِ رَسُولِ أَيْمِينٍ ﴿٦٧﴾ [الشعراء].

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَرَأَى نُوحًا إِذْ يَقُولُ لِوَلَدَيْهِ أَنْصَبُوا إِلَيَّ أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْغَافِقِينَ﴾ [المؤمنون].

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمِينِ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ الْأُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ [الأعراف].

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إرسال هود عليه السلام إلى قومه وموقفهم من ذلك:

أرسل الله تبارك وتعالى نبيه هود صلوات الله وسلامه عليه، وهو كسائر الأنبياء دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، فكان موقفهم كموقف قوم نوح من نوح، وسيكون موقف الأقوام من بعدهم كموقفهم من أنبيائهم، فكان موقف قوم هود من هود عليه السلام أن وجهوا الاتهامات إليه، وهي:

أولاً: أنهم اتهموه بالسفه، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦].

ثانياً: اتهموه بالكذب، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وقالوا كذلك: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨].

ثالثاً: اتهموه بالجنون صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بِعَضِّ أَلْهَتِنَا يُسْوَوُ﴾ [هود: ٥٤] أي: في عقلك.

وهذه الاتهامات التي اتهموا بها هوداً^(١) صلوات الله وسلامه عليه هي الاتهامات نفسها التي اتهم بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَتَوَّصَا بِدِيءٍ﴾ [الذاريات: ٥٣] أي: أتواصت هذه الأمم على هذه الاتهامات التي توجه إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات]، فليس بجديد إذاً على هود أن يتهم بهذا، فقد اتهم بهذا نوح من قبله صلوات الله وسلامه عليه، وليس بجديد على من يأتي بعد هود على أن يتهم بهذه الاتهامات، وفي قولهم: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بِعَضِّ أَلْهَتِنَا يُسْوَوُ﴾ [هود: ٥٤]

(١) يجوز فيه الصرف والمنع، فيقال: هود وهوداً.

يريدون بهذا الكلام: بث الرعب في قلب هود صلوات الله وسلامه عليه من آلهتهم كما قال - جل وعلا -: ﴿إِنَّمَا دَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

ولقد خُوف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكان رده عليهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام] هذا التخويف الذي خوفوا به هوداً صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ إِلَهَاتِنَا يَسُوءُ﴾ [هود: ٥٤]، وكان الرد من هود عجبياً، وذلك أنه قال لهم: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٥٤] من دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ [٥٥] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّا رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٥٦] فقوله: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ موقف ملؤه التحدي، ملؤه الإيمان، ملؤه الثقة التامة والتوكل العظيم على الله تبارك وتعالى، هم يقولون: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ إِلَهَاتِنَا يَسُوءُ﴾ [هود: ٥٤] فيرد عليهم ويقول: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾، ثم أشهدكم أنتم، ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ أني بريء من هذه الآلهة، فلتفعل ما شاءت، ﴿فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥] أنتم وآلهتكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ وسبب هذا التحدي: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الذي هو أعظم من آلهتكم جميعاً، بل هو: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، هو خالقكم ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾ كل ما يدب على وجه هذه الأرض، على وجه البسيطة ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الناصية مُقَدَّم الشعر، والأخذ بالناصية يعني: يقودها قوداً رغباً عنها، ولكن بدون ظلم بدون حيف ﴿إِنَّا رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يظلم ^{بشيء}.

هذا الموقف من هود عليه الصلاة والسلام ليس بجديد على

أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فقد مرَّ بنا موقف نوح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً تُدْ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [يونس: ٧١]، وهذا هود يعيد الكرة، فيكرر ما فعله أخوه في الدين، بل أبوه نوح عليه السلام.

وانظر إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم حين فرَّ الناس عنه في غزوة حنين، والمشركون مقبلون عليه، فيقبل وحده على المشركين ويصيح بهم قائلاً: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(١) صلوات الله وسلامه عليه، ثقة تامة، ويقين جازم، وتوكل عظيم على الله تبارك وتعالى لا يكون إلا من أمثال هؤلاء الرجال، ولذلك اختارهم الله على علم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ثم قال لهم هود صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [هود: ٥٧] يعني: إن توليتم ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [هود: ٥٧] أدت الذي علي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، فهو أدى ما عليه من البلاغ من أمر الله له أن يدعوهم، ثم قال: ﴿وَسَنَخْلَفُ رِبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧] فالأمر على الله يسير ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَسَنَخْلَفُ رِبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّنَّهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]، فالله لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(٢)، ﴿وَلَا نَضُرُّنَّهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]، وهذا مصداقه في حديث ابن عباس رضي الله عنهما لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء؛ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(١).

أليس هذا هو واقع قوم نوح مع نوح عليه السلام؟

أليس هذا هو واقع قوم هود مع هود عليه السلام؟

أليس هذا واقع قوم إبراهيم مع إبراهيم عليه السلام؟

أليس هذا واقع قوم محمد مع محمد ﷺ؟

ولكنَّ الناس متفاوتون في الإيمان، في اليقين، في التوكل، في الثقة بالله تبارك وتعالى، فهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥] وهود كذلك: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، كما قال نبينا ﷺ: «لو أن الأمة اجتمعت على أن يضروك بشيء»، الأمة اجتمعت على ضرِّ نوح فلم يضروه، اجتمعوا على ضرِّ هود فلم يضروه، إذا أنت لو اجتمعوا على أن يضروك فلن يضروك، ليس لأنك مثل نوح أو مثل هود، بل لأن الله أخبر بهذا، طالما أن الله لم يكتب هذا الشيء فلن تُصاب إلا بما كُتِبَ فقط ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

رابعاً: تَمَسَّكُوا بما كان عليه الآباء والأجداد: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الاعراف: ٧٠].

خامساً: أنكروا البعث فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِبَعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ [المؤمنون] هكذا قالوا، أنكروا البعث، وهذا كقول من يقول: إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، قيامة! حساب! جنة! نار! لا، حياة ثم موت، وينتهي الأمر كله.

(١) أخرجه أحمد (١/٢٩٣، ٣٠٧)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني. انظر: «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

سادساً: العناد، استخدموا العناد مع هود عليه الصلاة والسلام، قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظتْ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [١٣٦] **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾** [الشعراء]، وفي هذه الآية قراءتان سبعيتان صحيحتان:

الأولى: ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهي قراءة عامة القراء.

الثانية: «خَلَقُ الْأَوَّلِينَ» بفتح الخاء، وسكون اللام، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي عمرو بن العلاء.

وكل قراءة لها معنى، فعلى القراءة الأولى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه عادة الأولين يموتون وينتهي الأمر.

وأما على القراءة الثانية: «إِنْ هَذَا إِلَّا خَلَقُ الْأَوَّلِينَ» فيحتمل أمرين اثنين:

الأول: يقصدون أنّ خلقهم كخلق الأولين، نموت كما ماتوا، نحيا كما حيا، لا نُبعث كما لم يبعثوا إلى الآن أين الأولون؟ أُبْعَثُوا؟ لم يُبعثوا، إذا نحن نموت، ولن نبعث كذلك، ماتوا ونموت، عاشوا ونعيش، لم يُبعثوا، لن نبعث، نحن كالأولين.

الثاني: أي: من الاختلاق، وهذا الكلام الذي تقوله يا هود هو اختلاق الأولين؛ أي: كذب الأولين؛ أي: إنك تكذب يا هود فيما تقول إن هناك يوماً آخر.

سابعاً: واجهوه بالكذب والبهتان فقالوا: ﴿يَدْعُوهُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] ما جئتنا ببينة، أنكروا أن يكون أتاهم ببينة، وهذا كذب منهم وافتراء، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ الْأَقْرَبَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، والله أصدق قبيلاً ﷺ، الله أخبرنا أن الرسل جاؤوا بالبينات، قال ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا أعطى من الآيات ما على مثله آمن البشر»^(١) يعني: الآيات والبينات.

فائدة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكَ عَادٌ جَدُّوًا يَتَايَتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٥٩]، وهذه الآيات لم تُذكر لنا؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ حتى يذكر لنا كل شيء بالتفصيل، ولكنه كتاب هداية، وكتاب دعوة، وهو منهج يذكر الله لنا ما ننتفع به في حياتنا الدنيا، وفي آخرنا عند الله تبارك وتعالى.

الأساليب الدعوية التي استخدمها هود عليه السلام مع قومه:

أولاً: أسلوب الرفق واللين: فنجد أن قومه اتهموه بالسّفه فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرُّنَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فماذا كان رده عليهم؟ قال: ﴿يَقْوَرِ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، فاستخدم معهم اللين. وقوله: ﴿يَقْوَرِ﴾ فيها تلميح وتودّد.

ثانياً: أسلوب النصيح والتوجيه: فقال لهم: ﴿أُيْلُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

ثالثاً: التذكير بنعمة الله عليهم: فقال لهم عليه السلام: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال كذلك: ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿٧٠﴾ وَخَلَقَ وَعْيُونِ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٧١] فذكرهم بنعم الله ﷻ عليهم.

رابعاً: الترغيب بالخير عن طريق الاستغفار والتوبة: فقال: ﴿وَيَقْوَرِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرَبِّذَكُمْ قُوَّةً إِلَى قَوْمِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خامساً: أسلوب التهيب: فقال لهم لما آذوه، وبلغ الأذى مداه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ ۗ أَنْجِدُونِي فِي أَسْمَاءِ سَيِّئَتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١] أنتم سميتوها، آباؤكم سموها آلهة لكن في حقيقة الأمر ليست آلهة، أنتم قلتهم: إنَّ (صَدَى) إله، (صَمُود) إله، (هَبَاء) إله، فهل هي آلهة حقيقة؟ ليست آلهة، ما هي إلا أسماء سميتوها أنتم، لا تنفع نفسها، لا تدفع الضرَّ عن نفسها فضلاً عن أن تنفع أو تضر غيرها.

سادساً: أسلوب التحدي: فقال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ ۗ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [هود].

إذا قصة هود صلوات الله وسلامه عليه مع قومه هي كقصص من سبقه والذين يأتون بعده، وهي قصة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدعوة إلى توحيده - جل وعلا -، ينادي بها عبداً من عباد الله تبارك وتعالى في ظلمات كثيفة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ قَدْ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأعراف] وهذه هي أخوة الطين، وأما قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فهي أخوة الدين، وهذه الأخوة التي يذكرها الله تبارك وتعالى عن نوح مع قومه، وعن هود مع قومه، وعن صالح مع قومه، وهكذا سائر الأنبياء، فهي أخوة الطين؛ أي: النسب، أما أخوة الدين فهي لا تكون إلا بين المؤمنين، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا له: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ بَعْضَ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ ۗ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [هود] ثم قال لهم هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةَ تَبْنُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَعْبُدُونَ مَصَانِعَ لَكُمْ لَمَخْلُودَةً ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء] أي: تبنون في كل مكانٍ مرتفع بناءً عظيماً كالقصور ونحوها عبثاً، يبنون القصور ولا يسكنونها، يبنون القصور العظيمة ويسكنون في

الخيام، ﴿أَتَيْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨] أي: مكان ﴿آيَةً﴾ من الجمال، آية من القوة؛ آية من المتانة، لكن عبثاً، تعبثون ﴿وَتَتَخَذُونَ مِصْبَاحَ لَعَلَّكُمْ تَتَّخِذُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

قوم هود عليه السلام يستعجلون العذاب:

عند ذلك كان رد قومه عليه بعد هذه المدة، وبعد هذه الدعوة - التي لم يذكر الله لنا مدتها - بلغ عنادهم أقصاه، فقالوا: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ولما وصل هود إلى هذه المرحلة مع قومه ﴿قَالَ رَبِّ أَضْرِبْ بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون]، فكانت الإجابة من الله الذي لا يضيع عبده ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصِحِّحَنَّا لِلْبَنِينَ﴾ [المؤمنون] قليل فقط، وكل آتٍ فهو قريب، انقطع عنهم المطر مدة طويلة، فقيل: إنه انقطع ثلاث سنوات لم تأتهم قطرة ماء، ثم رأوا عارضاً مستقبلاً أوديتهم، سحاباً، قالوا: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وذكر الله تبارك وتعالى عذابهم في أكثر من موضع فقال - جل وعلا -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٦﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْفَعٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر].

وذكر في آية أخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُمْلِكُوا بِهِ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿١﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة]. وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ﴾ [الأحقاف].

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها، فنحن نرى بعض

النخل الذي يُقَطع ويبقى بدون رأس، عمود فقط، هكذا صاروا والعياذ بالله، رُفِعوا إلى السماء بهذه الريح القوية، ثم ضُربوا بالأرض، فصاروا أجساداً بلا رؤوس.

وقد ذكر ابن إسحاق قصةً عذابهم نقلاً عن رواية بني إسرائيل، يقول ابن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر بالله ﷻ أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جَهِدَهم ذلك، وكان الناس إذا جَهِدَهم أمر في ذلك الزمان طلبوا من الله الفرج، يلجؤون إلى الله، وإنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته، هم في اليمن، ومن عادتهم أنه إذا انقطع عنهم المطر أو أرادوا شيئاً من الله تبارك وتعالى، يذهبون إلى مكة، يطلبون الله هناك.

قال: وبه [أي: الحرم] قوم يقال لهم: العماليق، وهم من سلالة سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك: معاوية بن بكر، وكانت أم معاوية هذا من قوم عاد، واسمها: جلهذة بنت الخيبرى، فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم فذهبوا، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة [يعني: قريباً من مكة] فنزلوا عند معاوية، فأقاموا عنده شهراً كاملاً، يشربون الخمر ويسمعون الغناء، فلما طال مقامهم عنده تضايق معاوية؛ لأنه يعرف أنهم خرجوا للاستسقاء، ولا يستطيع أن يكلمهم خشية أن يغضبوا عليه، فأرسل جاريتين تغنيان بهذه الأبيات، عند هؤلاء القوم:

لعل اللّه يمنحنا غماما	ألا يا قيل ويحك قم فهيم
قد أمسوا لا يبينون الكلاما	فيسقي أرض عاد إن عاداً
به الشيخ الكبير ولا الغلاما	من العطش الشديد فليس نرجو
لقد أمست نساؤهم أياما	وقد كانت نساؤهم بخير
ولا يخشى لعاديّ سهاما	وإن الوحش يأتيهم جهاراً
نهاركم وليلكم تاما	وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم
ولا لُقوا التحية والسلاما	فَقُبِّحْ وفدكم من وفد قوم

فنتبهوا هنا، أنهم قُصِدُوا بهذا الكلام، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قَيْل بن عنز، فأنشأ الله ثلاث سحابات: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم نادى منادٍ من السماء: اختر لنفسك ولقومك، أيها تريد لقومك، قال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً، فناداه الصوت الذي في السماء:

اخترت رماداً وردداً.. لا تبقي من عاد أحداً.. لا والدأ تترك ولا ولدأ.. إلا جعلته همداً.. إلا بني اللوذية^(١) الهمدا.

فساق الله السحابة السوداء التي اختارها قَيْلُ بْنُ عَنزٍ لقومه، فلما جاءت رأوها من بعيد، فاستبشروا، وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف] أي: كل شيء أمرت بتدميره، فكان أول من أبصر هذه السحابة امرأة منهم، فضُعقت، فقيل لها ماذا رأيت قالت: رأيت ريحاً فيها كشهد النار أمامها رجال يقودونها.

سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً دائمةً متتابعةً، فلم تدع من عاد أحداً أبداً ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٥﴾﴾ [القمرا]، فلم يبقَ من عاد أحد إلا هود ومن آمن معه؛ لأنه اعتزل في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود، وأهلكت قوم عاد، ولذلك يقال لهم: عرب بائدة؛ أي: هلكوا جميعاً.

وافد عاد:

وفي الحديث الصحيح عن الحارث بن حسان البكري قال: خرجتُ أشكو العلاء بن الحضرمي^(٢) إلى رسول الله ﷺ، فرأيت

(١) بنو اللوذية هم الذين آمنوا بهود عليه السلام. (٢) وهو والي البحرين.

بالرَّبْدَةَ^(١) امرأة عجوز من بني تميم، فقالت له: إلى أين؟ قال: أنا ذاهب إلى المدينة، قالت: خذني معك أخشى أن أسافر وحدي، فأخذها معه، فدخل على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟» [يعني قتال بين بكر وتميم] قال: فقلت: نعم، وكانت لنا الدَّبْرَةُ^(٢)، ومررتُ بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وهي معي فأذن لها، فدخلت العجوز، فقال البكري للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء، فإنها كانت لنا، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مُضْرَكٌ؟ [والرسول من مُضْرٍ وتميم من مُضْرٍ، وهذا البكري من ربيعة]، قال: فالتفتُ إليها، فقلتُ: والله ما مثلي ومثل هذه العجوز إلا كما قال الأول: معزى حملتُ حتفها، حملتُ هذه المرأة، ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد، فقال له النبي ﷺ: «وما وافد عاد؟»، وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه، فقال الرجل: يا رسول الله إن عاداً قحطوا، فبعثوا وفدأ لهم يقال له: قيل، فمرّ بمعاوية بن بكر، وذكر القصة التي ذكرناها قريباً^(٣).

إذا أرسل الله عليهم هذه الريح العظيمة، وهي ريح عقيم لا خير فيها، لا تحمل المطر، ولا تُلْقِحُ الشجر، ولكنها تحمل الموت والدمار - والعياذ بالله - كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ريح تدمر كل شيء، ووصفها بأنها الريح العقيم أي: التي لا نفع

(١) الرَّبْدَةُ: من قرى المدينة على ثلاثة أميال، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز. «معجم البلدان» (٢/٣٠٩).

(٢) يعني: نحن انتصرنا.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/٣٨٢). والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣٢٥)، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/٤٤٢)، والعلامة الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣/٣٧٢).

فيها كالمراة العقيم التي لا ولد فيها، كذلك هذه ريح عقيم، لا خير فيها، ولكن كلها - والعياذ بالله - شر وأذى.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود]، فما نجا من عذاب الله إلا هود ومن آمن معه من قومه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به».

وإذا تخيلت السماء، [يعني: تغير لون السماء]، خرج ودخل، وأقبل وأدبر، [يعني: من الخوف صلوات الله وسلامه عليه]، فإذا مطرت سُرِّي عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة فسألته: لماذا تفعل هذا؟ فقال: «لعله كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»^(١).

فأهلك الله عاداً، دمرها عن بكرة أبيها، إلا ما وقع من النجاة لهود ومن آمن معه، وهذا مرثد بن سعد بن عفير من قوم عاد الذين خرجوا يستسقون لعاد، وكان قد آمن بهود لما بلغه ما فعل الله بعاد قال هذه الأبيات:

عصت عاد رسولهم فأمسوا	عطاشاً ما تبلهم السماء
وسُيِّر وفدهم شهراً ليسقوا	فأردفهم مع العطش العماء
بكفرهم بربهم جهاراً	على آثار عادهم العفاء
ألا نزع الإله حُلُومَ عاد	فإن قلوبهم كفر هواء
من الخبر المبين فلم يعوه	وما تغني النصيحة والشقاء
فنفسي وابنتاي وأم ولدي	لنفس نبينا هود فداء

(١) أخرجه الإمام مسلم «صحيحه» (٨٩٩).

أتانا والقلوب مصمدات على ظلم وقد ذهب الضياء
لنا صنم يقال له صمود يقابله صداء والهباء
فأبصره الذين له أنابوا وأدرك من يكذبه الشقاء
فإني سوف ألحق آل هود وإخوته إذا جن المساء
وخرج إلى هود صلوات الله وسلامه عليه.

الدروس والعبر من قصة هود عليه السلام

أولاً: أن عاقبة الغرور وخيمة، وقد قيل: كم قصم الغرور من ظهور، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِتًّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ثانياً: أن الصبر في الدعوة واللين مع المدعويين أمر مطلوب، ﴿يَقْوِرَ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ أَيْلِفُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكَرٌ نَّاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ [الأعراف]، وهكذا يجب على الإنسان إذا دعا إلى الله تبارك وتعالى.

ثالثاً: أن الريح جند من جنود الله تبارك وتعالى، عذَّبَ بها أقواماً كما في قوم هود صلوات الله وسلامه عليه، وسخرها لآخرين كما سخرها لسليمان، ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿٢١﴾ [ص]، فهي جند من جنود الله تبارك وتعالى يسخرها الله تبارك وتعالى لمن أطاعه، ويعذب بها مَنْ عصاه.

رابعاً: بيان أهمية التوكل على الله تبارك وتعالى، وذلك أن المتوكل على الله يكون جريئاً لا يهاب أحداً كما فعل هود مع قومه ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥].

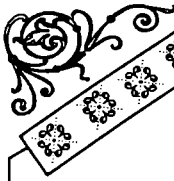
خامساً: اتخاذ المباني الفخمة للخيلاء أمر مذموم ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ [الشعراء] أما إذا كانت هذه المباني الضخمة للحاجة فجائز، كما تتخذ مثلاً الحصون أو السدود أو أن الإنسان يتحدث

بنعمة الله تبارك وتعالى ويسكن، هذا لا بأس به أبداً، وإنما البأس كل البأس فيمن يتخذ هذه للخيلاء والفخر على الناس جميعاً.

وأخيراً.. لا يوجد لذكر عاد شيء في الكتب القديمة، أعني التوراة والإنجيل، وهذا لعله من حسد بني إسرائيل للعرب؛ لأن عاداً من العرب، يريدون أن يقولوا إن جميع الأنبياء من بني إسرائيل.

وهلاكهم كان استئصالاً كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة]، فلم يبقَ منهم أحد، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يرحمنا برحمته.





قصة صالح ﷺ

نبي الله صالح ثاني نبي عربي، وهو أيضاً من نسل سام بن نوح، وجاء ذكر نبي الله صالح في القرآن الكريم تسع مرات، وذكُرت قبيلته (ثمود) أربعاً وعشرين مرة، وقبيلة ثمود، من العرب العاربة البائدة التي لم يبق لها نسل.

وثمود نسبة إلى الثَّمُد، وهو الماء القليل، وكانت هذه القبيلة تسكن الحِجْر، وهم أصحاب الحِجْر، وهذا الحِجْر ما بين الحجاز وتبوك، وهو تقريباً يبعد الآن عن المدينة المنورة ثمانين وثلاثمئة كيلو متر، جاؤوا بعد عاد كما قال الله تبارك وتعالى على لسان صالح: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

واختلف أهل العلم في مكانهم فيما يعرف الآن بمدائن صالح: فالمشهور أن مدائن صالح الموجودة الآن هي مدائن نبي الله صالح صلوات الله وسلامه عليه، وقال علم الدين البرزالي تلميذ الإمام المزي، وقرين شيخ الإسلام ابن تيمية: ومدائن صالح المعروفة قرب العلا على طريق الحاج ليست هي مدائن نبي الله صالح، وإنما هذه تنسب إلى صالح، وهو أحد بني العباس من أولاد العباس بن عبد المطلب رضي الله تبارك وتعالى عنه، وقد ذكر البرزالي أنه وجد في هذه البلاد أنصبه - يعني أماكن قبور - عليها تواريخ جديدة، من ثلاثمئة سنة، يعني: من عهد البرزالي وهو في القرن الثامن الهجري.

وثمود هي التي يقال لها: عاد الثانية، فقوم هود هم عاد الأولى، عاد إرم، وثمود يقال لها: عاد الثانية، كانوا أصحاب ماشية، وأصحاب

حرت وزرع، ولكنهم بطروا نعمة الله تبارك وتعالى وكفروها كما قال الله - جل وعلا - في وصف المشركين: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة] أي: تجعلون شكركم تكذيباً فبدل أن يشكر العبد ربه تبارك وتعالى على ما أنعم عليه من النعمة والخير في هذه الحياة الدنيا، فإنه جعل شكره تكديماً، تكديماً لمن أرسل إليهم رسولاً منهم، من أنفسهم، رجلاً يعرفونه، يعرفون خُلُقَه ويعرفون دينه ويعرفون أمانته ألا وهو: نبي الله صالح.

صالح ﷺ يدعو قومه إلى الله ﷻ:

جاءهم نبي الله صالح فدعاهم إلى الله - جل وعلا - وذكّرهم بنعم الله العظيمة التي أنعم بها عليهم، وأتاهم بآية عظيمة، ألا وهي: آية الناقة كما سيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى، فكانت هذه الناقة تَرُدُّ الماء يوماً، ويرد أهل القبيلة الماء يوماً آخر، وفي اليوم الذي لا ترد فيه القبيلة كانوا يردون إلى الناقة فيشربون من لبنها ذلك اليوم فيكفيهم جميعاً، واستمر هذا الحال مدة طويلة إلى أن جاء اليوم الذي سئموا مما هم عليه، ففقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم.

أعظم الخصومة:

قال الله تبارك وتعالى في قصة صالح مع قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ١٥]، إن أعظم خصام يكون في هذه الدنيا هو الخصام بين الكفر والإيمان، لا توجد أبداً خصومة أعظم من هذه الخصومة ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، فريق آمن بنبي الله صالح واتبعه، وفريق كفر بنبي الله صالح وخالفه، قال الله تبارك وتعالى في ذكر هؤلاء وأولئك: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَقْمَلُونَ أَنَّكَ

صَلِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ [الأعراف: ٧٥]، هكذا قال الكبراء المستكبرون للذين استضعفوا للذين آمنوا منهم، فليس كل الذين استضعفوا آمنوا، ولكن مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، قال لهم الكبراء: ﴿أَتَقْلُمُونَ أَنْتَ صَلِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ﴾ [الأعراف: ٧٥] أتبعتموه على بينة، أتبعتموه على يقين؟ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] ولم يقولوا: «نعم»، ولو قالوا: «نعم» لكانت إجابتهم صحيحة، ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا اتباعهم لصالح، فهم ليسوا مصدقين أنه مرسل فقط، بل متبعون له فيما جاء به ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قالوا: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

من اتباع الأنبياء ﷺ؟

وهكذا مضت سنة الله تبارك وتعالى، أن الضعفاء هم أتباع الأنبياء، المستضعفون الفقراء المساكين الذين لا حول ولا طول ولا قوة لهم، وذلك أنهم معتادون على تقبل الأمر والنهي، ثم هم مرؤوسون، فإذا كانوا مرؤوسين لظالم من البشر؛ فأولى بهم أن يكونوا مرؤوسين للصلحين من البشر، وهم أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، وعكسهم تماماً الكبراء، الذين ما تعودوا أبداً أن تُصَدَّرَ إليهم الأوامر والنواهي، بل تعودوا أن يُصَدِّروا هم الأوامر والنواهي، ما تعودوا أبداً أن يكونوا تابعين، بل تعودوا دائماً أن يكونوا متبوعين، فلذلك تثقل رسالة الأنبياء على الملأ، كبار القوم، ويتقبلها الضعفاء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۗ﴾ [هود: ٦١]، وهذا سبيل جميع المرسلين، كل المرسلين إنما جاؤوا بهذه الحقيقة ألا وهي: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ ۗ﴾، وما جاء المرسلون لنيل دنيا، وما جاؤوا لينافسوا الناس في أرزاقهم، وإنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة

العظيمة ألا وهي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات]، جاؤوا ليذكروا الناس بهذه الحقيقة، أنكم أيها الخلق إنما خلقكم الله تبارك وتعالى لتعبده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦)، فصالح إذاً من هؤلاء الأنبياء الذين جاؤوا لتحقيق هذه الكلمة، ووالله ما نafs نوح قومه على رئاسة البلد، ولا على الحكم، ولا نafsهم هود، ولا صالح ولا كما سيأتينا نبي الله إبراهيم نafs النمرود على الحكم، ولا نafs موسى فرعون على الحكم، ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة العظيمة ألا وهي: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦] هذه هي الحقيقة التي بها أرسل جميع الأنبياء، وهكذا أيضاً تكون النتيجة دائماً، هناك من يتبع الأنبياء، وهناك من يتجبر ويعاند ويجادل الأنبياء على ما جاؤوا به من الحق.

بداية دعوة صالح ﷺ:

بدأ معهم صالح صلوات الله وسلامه عليه، فقال لقومه: ﴿هُؤُ
أَشَأْكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] لستم أنتم الذين لكم الفضل في مجيئكم إلى هذه الحياة الدنيا، بل الله ﷻ هو الذي أنشأكم فيها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره، ماذا فعلت لكم هذه الأصنام حتى تُعبد، أنتم صنعتموها؟! أنتم أوجدتموها، أنتم أنشأتموها، فكيف تعبّدون من أنشأتم، ولا تعبّدون من أنشأكم، ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ واستعمركم هنا تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أي: عمركم، بلغت سنين عدداً في هذه الأرض.

المعنى الثاني: أي: جعلكم مُعمّرين لهذه الأرض، تبنونها، ولذلك جاء في الآية الأخرى: ﴿تَنْحَدُونَ مِّنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجَثُونَ
الْجِبَالَ يَوْمًا﴾ [الاعراف: ٧٤]، وهذا أظهر؛ أي: جعلكم مُعمّرين لهذه

الأرض بما تبنون فيها، فكان الرد من قومه: ﴿قَالُوا يَصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]، قبل أن تقول مقولتك هذه قد كنت فينا مرجوًّا، وهذا اعتراف منهم، كأنهم يقولون لصالح: أنت حيث تعلم من قبيلتنا، نعرف ولادتك، ونعرف خُلقك، ونعرف أمانتك، ونعرف صدقك من كذبك، نعرفك تماماً حقَّ المعرفة، بل كنت فينا مرجوًّا أن تتصدَّر فينا، وأن تكون صاحب كلمتنا، وكنا نرجو فيك العقلَ، ولكنك خيبتَ ظننا، تدعوننا إلى عبادة الله! نترك ما كان عليه آبائنا! ﴿أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

عبرة في قصة إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وفي قصة إسلام خالد بن الوليد عبرة، معلوم أن خالد بن الوليد تأخَّر إسلامه إلى آخر السنة السادسة من الهجرة، فقال له بعضهم بعد أن أسلم ودخل في دين الله تبارك وتعالى: يا خالد أنت من نعرفك بعقلك وسَمِّتِكَ، ما الذي أخَّرَ إسلامك؟ لماذا تأخَّرَ إسلامك؟ سبقك الناس بعشرين سنة إلى الإسلام، المهاجرون الأوائل: أبو بكر، عمر، عثمان، علي، طلحة، الزبير، عبد الرحمن بن عوف، أبو عبيدة، سعيد بن زيد، بلال، صهيب، عبد الله بن مسعود، هؤلاء أسلموا قبل خالد بعشرين سنة، عشرون سنة على الكفر لم تدخل في الإسلام! ما الذي أخَّرَ إسلامك يا خالد؟

فقال: قد كان يسوسنا رجال، وكنا نرى أن عقولهم تَزِنُ الجبال^(١)، فكنا تبعاً، فلمَّا ماتوا ورجع الناس إلينا؛ ففكرنا في الأمر، فعرفنا الحق فاتبعناه.

(١) يعني: أبا جهل، وأبا لهب، وأمّية بن خلف، وأبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وغيرهم من صنديد مكة وكبرائها.

إذاً في السابق ما كان يفكر، ما كان يسمح لنفسه أبداً أن يفكر؛ اتباعاً للآباء، اتباعاً للأجداد، اتباعاً للكبراء، فلما رجع الأمر إليه، وصار من كبار قريش؛ ففكر، فلما فُكِّر عرف الحق واتبعه.

طبيعة الكافر انه يلغي عقله:

وهذه هي طبيعة الكفار، يلغون عقولهم، لا يفكرون في الحجج التي يأتي بها رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - بحجة تقليدهم للآباء، يقول الله - جل وعلا -: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الزخرف]، طبيعة واحدة، رواية واحدة لا تتغير ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] قصة واحدة متكررة، تزيد هذه بشيء أو تنقص بشيء من مثيلاتها فقط، وهي متكررة على مرِّ الدهور والعصور.

ثم ذكَّروهم نبي الله صالح فقال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ثَنَاجِدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَتَجِثُونَ الْأَجَالَ يَبُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وذلك أنهم كانوا يبنون القصور الكبيرة في سهول الأرض، وينحتون الجبال، فيجعلون فيها بيوتاً، هذه كانت أعمالهم في هذه الدنيا، ولكنهم - مع هذا - كانوا وثنيين يعبدون الأصنام.

اسلوب صالح ﷺ في دعوة قومه:

أولاً: التذكير بعاقبة المجرمين: كما قال: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] تذكروا ما صنع الله بعاد، قد علمتم عاقبة عاد وثمود عاد الثانية.

ثانياً: الوعظ والتخويف: ﴿أَتُركُونَ فِي مَا هَلُمْنَا ءَامِنِينَ ﴿١٢٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُمُورٍ ﴿١٢٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَيْهَامُ هَضِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَتَنَجِثُونَ مِنَ الْأَجَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء]، فذكروهم بنعمة الله عليهم ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ

مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَ فِيهَا ﴿٦١﴾ [هود: ٦١] وهنا ربط النعمة بالمنعم، من الذي أنشأكم؟ الله، وإنشأؤكم نعمة، نعمة من منعم، ألا يُشكر هذا المنعم.

ثالثاً: الرفق واللين واللطف: فقال: ﴿يَنْقُورِ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَيَّ بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَعَآئِنِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِمَّنْ أَلَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْصِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] يقدم لهم عرضاً واضحاً، أنا يا قوم رسول من الله تبارك وتعالى مرسل إليكم ﴿فَمَنْ يَضُرُّنِي مِمَّنْ أَلَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣].

قوم صالح يقابلونه بالاستهزاء والرفض:

وقابلت ثمود صالحاً بأمور:

أولاً: السخرية والاستهزاء والانهام: ﴿قَالُوا يَصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٦] نحن في شك من كلامك ودعوتك، وفي ريبة من أمرك، قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا، أما الآن فلست كذلك، بل اتهموه بأنه مسحور فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أصبت في عقلك كما قالوا لهود، وكما قالوا لنوح، وكما سيقولون للأنبياء من بعدهم ﴿أَتَوْأَمَّوْا بِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٣] أيوصي كل قوم قوماً، هي كذلك ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَآخِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، شيء متكرر.

ثانياً: رفض الدعوة: رفضوا دعوته لحجج واهية، ﴿أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] تقليد أعمى، لا يجوز للإنسان أن يحتج بمثل هذه الحججة الواهية، هل لأن آباءكم كانوا كذلك فأنتم تبقون على ما كانوا؟

ولذلك لما جاء الموتُ أبا طالب وهو على فراش الموت والنبي ﷺ يذكره يقول: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشفع لك بها عند الله»، وفي رواية «أحاج لك بها عند الله»، فكان عنده عبد الله بن أبي سلمة

- أخو أم المؤمنين أم سلمة -، وعنده أبو جهل عمرو بن هشام، فكانا يقولان له: يا أبا طالب أترك دين الأشياخ؟ أترك ملة عبد المطلب؟^(١).

يصعب على النفوس، وهذا التقليد الأعمى هو الذي أضرَّ بالكثيرين، ولذلك تأتي الآيات كثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿لَمَلَكُم تَقْلُوتٌ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿أَفَلَا نَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وهكذا تأتي الآيات: أبصر.. تذكر.. ففكر.. اعقل..

ولكنه التقليد الأعمى الذي يعمي الناس عن اتباع الحق.

ثالثاً: المكر والكيد: كما قال الله - جل وعلا -: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا﴾ [النمل]، وهذا المكر منهم في قتلهم الناقة - كما سيأتي - وفي إرادتهم لقتل نبي الله صالح صلوات الله وسلامه عليه.

وكم يخطئ الجبارون والمعاندون وينخدعون بما يملكون من قوة ومكر وخداع، وما علموا أن الله أعظم مكرراً ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل]، ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] الذي يعلم السر وأخفى، الذي لا تنام عينه ﷻ، ولا يغفل - جل وعلا -، الذي يراهم ولا يرونه، هم يمكرون والله يمكر ﷻ^(٢) ولا يكون إلا ما يريد الله - جل وعلا -، عند ذلك قال لهم نبي الله صالح: ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] أي: أكون خاسراً إذا أطعتمكم.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) ومكر الله ﷻ في هذه الحال ليس نقصاً، بل كمالاً في حقه؛ لأنها من باب الرد، لا من باب الابتداء، ومثله ما جاء عن نوح ﷺ فقال لقومه: ﴿إِنْ تَسْعَرُوا نَارًا فَإِنَّ تَسْعَرَ نَفْسِكُمْ كَمَا تَسْعَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، فنوح لم يتدئ السخرية، وإنما ردّها. ولزيادة الفائدة راجع: «تفسير الطبري» (٣٠٥/١)، «القواعد المثلى»، وغيرها.

والقول الثاني: وهو أصح ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ أي: ما تزيدونني بكلامكم هذا إلا يقيناً أنكم خاسرون، فالخسارة عائدة إليهم لا إلى صالح صلوات الله وسلامه عليه، وهذا أظهر؛ لأن في قوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ إذا قلنا إن صالحاً يقول: ما تزيدونني أنا إلا خساراً، فكأننا أثبتنا لصالح بعض الخسارة وهم يزيدونه خسارة، ولكن إذا قلنا إن التخسير عائد إليهم فهم في خسار وإلى خسار، فهذا أظهر.

قوم صالح ﷺ يطلبون آية:

بعد أن دعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وملّوا دعوته قالوا: ﴿أَقْنَتَنَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧]، فطلبوا من صالح صلوات الله وسلامه عليه أن يأتيهم بآية، فأتاهم بآية، وهي الناقة، وذكر كثير من المفسرين نقلاً عن بني إسرائيل قصة هذه الناقة، فقالوا: جاء قوم صالح إليه، فقالوا له: إذا أردت أن نتبعك؛ أرايت هذه الصخرة العظيمة؟ قال: نعم، قالوا: أخرج لنا منها ناقة، ونحن نتبعك، ولكن اسمع: نريدها ناقة عُسراء، يعني الآن ولدت معها فصيلها، فقال لهم صالح ﷺ: «أرايتم إن فعلتُ أتؤمنون؟» قالوا: نعم، فقام صالح وصلى ركعتين صلوات الله وسلامه عليه، ودعا الله - جل وعلا - فانفجرت الصخرة عن ناقة عُسراء، فأمن بعض قوم صالح، وكفر الأكثرون.

وهذا شبيه تماماً بقصة قريش مع النبي ﷺ لما قالوا له: إن كنت صادقاً؛ فشق لنا القمر نصفين، فقال لهم النبي ﷺ: «أرايتم إن فعلتُ، وانشق القمر نصفين، أتؤمنون؟» قالوا: نعم، وما لنا ألا نؤمن؟ فدعا الله تبارك وتعالى، فشق الله القمر نصفين^(١) حتى رأوا جبل أبي قبيس بينهما،

(١) انظر الروايات الواردة في ذلك في: «الصحيح المسند من دلائل النبوة» للشيخ مقبل

بين نصفي القمر، فقالوا: جئت بسحر عظيم، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَبِّ السَّاعَةِ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرِ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾^(١) [القمر] أي: قوي شديد، شق القمر نصفين، وما علموا أنها الرسالة، وأنها الآيات، وليس السحر كما زعموا، وكذبوا لعمر الله تبارك وتعالى.

ولذلك قال الله - جل وعلا - عنهم: ﴿فَأْتَتْهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] هذا هو المشهور في كتب كثير من أهل العلم أن الناقة خرجت من الصخرة، وأما المشهور في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ أنها جاءتهم ناقة، ولم يُذكر أنها خرجت من صخرة، ولم يُذكر أنها كانت عُشراء، وإنما ذكر أنها ناقة ﴿لَمَّا شَرِبَ وَلَكُرَّ شَرِبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْوَاهَا يَسْوَى فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء].

إذا هي ناقة، الله أعلم بها، خرجت من صخرة أو لم تخرج من صخرة، وإنما هي ناقة، وكانت آية، وهذه الناقة عظيمة بحيث إن الناس كلهم يشربون في يوم، والناقة تشرب في يوم ﴿لَمَّا شَرِبَ وَلَكُرَّ شَرِبَ﴾ كلُّ له شرب، هذا هو المعلوم عن الناقة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وأما غير ذلك فكله الله أعلم به.

المعلوم أن هذه الناقة نسبها الله لنفسه، فقال: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]، والله قد ينسب الشيء إلى نفسه، مثل: روح الله، ناقة الله، بيت الله... فكلما نسب الله شيئاً إلى نفسه فهذا لتعظيمه وتشريفه، إما لأن هذه الناقة لا مالك لها من البشر، فتُنسب إلى مالِكها الأصلي، وهو الله ﷻ، وإما لأنها خرجت من الصخرة كما قيل، ليس لها أب معلوم ولا أم فنسبت إلى الله لأنها لم تتطور بالخلق كما يتطور غيرها، وإنما خلقت من غير ذكر ولا أنثى، ولذلك يلغزون، فيقولون، ثلاثة لم

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٢٢٧)، والترمذي في «الجامع» (٣٢٠٨).

يكونوا من ذكر ولا أنثى، ما هذه الثلاثة؟ فيقال: ناقة صالح، وعصا موسى، وسفينة نوح، يعني لم يكن لها مثل من قبل، فالله أعلم بهذا.

الشاهد من هذا: أن هذه الناقة لها شأن عظيم، هذا الذي نريد أن نصل إليه، فقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] لا تأكل من زروعكم التي زرعتموها أنتم، ولكن تأكل من أرض الله، مما أنبته الله ﷻ، ثم قال: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣] لا تمسوا هذه الناقة بسوء، في أكلها، في شربها، في الإضرار بها، بقتلها، بعقرها، بأي سوء، و«سوء» نكرة، فتشمل أي سوء، ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، إذا مسستم هذه الناقة بسوء، ثم قال: ﴿فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

قال الله تبارك وتعالى عن أولئك القوم: ﴿كَذَبَتْ نُوذُ بِالنُّذْرِ﴾ (١٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا بِنَا وَجِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿١٤﴾ لَمَلَقْنَا الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِيرٌ ﴿١٥﴾ [القمر]، ثم عقروا الناقة كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْصَلِحُ أَثْنَتَنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

كيف قتلت هذه الناقة؟

ذكر أهل العلم أنه قتلها امرأة يقال لها: صدوق بنت المحيّا، وهذه المرأة جاءت لرجل يقال له: مضرع بن مَهْرَج، فعرضت نفسها عليه، وكانت امرأة جميلة، فقالت: أتزوجك ومهري ناقة صالح.

وذكرت قصة أخرى، وهي لامرأة اسمها عنيزة، وهي عجوز، ولها أربع بنات، فجاءت لرجل يقال له: قَدَّار بن سالف، فقالت له: أزوجك أيّ بناتي شئت إن قتلت ناقة صالح، ويقال الاثنان معاً، يعني مضرع بن مَهْرَج وقَدَّار بن سالف، اجتمعا هذان ودعيا قومهما، فاستجاب لهما

سبعة آخرون كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل].

فلما صدرت الناقة^(١) - بعد أن وردت الماء، وشربت في يومها - رماها مِضْرَعٍ بسهم، فوقع السهم في ساقها، فخرجت النساء يُهَيِّجْنَ القبيلة، وَكَشَفْنَ عن وجوههن، وَحَسَرْنَ عن شعورهن، وَصِرْنَ بِصِخْرٍ بالناس: اقتلوا الناقة.. اقتلوا الناقة.. فقام إليها قَدَّار بن سالف هذا، فشَدَّ عليها بالسيف، فخرت ساقطة، ثم طعنها في لُبَّتِها، فلما رأى الفصيل قتل أمه فرّ، وصعد على الجبل، ثم رغا ثلاث رغيات، وقيل: إنه قُتِلَ مع أمه، والقرآن والسنة لم يأتي فيهما ذكر لهذا الفصيل، وإنما ذُكرت الناقة وحدها، فالله أعلم.

عاقرة الناقة:

عاقرة الناقة أخبر عنه النبي ﷺ، فقال: «انتدب لها رجل ذو عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ في قومه كأبي زمعة»^(٢)، ولم يذكر النبي اسمه، ولكن ذكر صفته، قال: «انتدب لها رجل ذو عِزَّةٍ»، يعني: أنه قليل مثله، «ومنعة» يعني صاحب شهامة وقوة، ثم قال: «ومنعة في قومه» أي: له مكانة وقدر في قومه.

وقد جاء من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال لعلي ﷺ: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» فقال علي: بلى يا رسول الله، قال: «رجلان، أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والثاني الذي يضربك يا علي» أخرجه ابن أبي حاتم، وفيه ضعف^(٣).

(١) أي: تركت الماء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زمعة ﷺ.

(٣) وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٣/٤)، والنسائي «السنن الكبرى» (٨٥٣٨)، والحاكم (٤٦٧٩).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۗ ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۗ ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۗ ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ۗ ﴿الشَّمْسُ﴾، والذي عقرها واحد، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، فنسب العقر إلى الجميع، وقال في الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] فنسب العقر إلى الجميع، ولم ينسبه إلى قَدَّار بن سالف أو مِضْرَع بن مُهَرَّج، وإنما نسبه إلى جميع ثمود، وذلك لرضا الجميع بقتل الناقة، ولذلك جاء عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ عَاقِرَ النَّاقَةِ قَالَ: لَا أَقْتَلُهَا حَتَّى تَرْضُوا جَمِيعاً، فَجَعَلُوا يَذْهَبُونَ وَيَسْأَلُونَ النَّاسَ حَتَّى كَانُوا يَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي خَدْرِهَا، فَيَقُولُونَ: أَتَرْضِينَ أَنْ تَقْتُلِ النَّاقَةَ؟ فَتَقُولُ: نَعَمْ، حَتَّى سَأَلُوا الصَّبِيَّةَ: أَتَرْضَى أَنْ تُعَقِّرَ النَّاقَةَ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ^(١)، فَلذَلِكَ نَسَبَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَقْرَ النَّاقَةِ إِلَى جَمِيعِ ثَمُودَ، وَفِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَٰلِحُ إِنَّا بِمَا نَعُدُّونَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۗ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف] أشنع الكفر والعناد والجبروت والجهل والعياذ بالله، وذلك أنهم جمعوا في كلامهم هذا كفراً بليغاً من أوجه كثيرة:

أولاً: خالفوا أمر الله وأمر رسوله؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٦٤]، فهم لم يكتفوا بمسها بسوء حتى عقروها.

ثانياً: استهزؤوا برسولهم: وذلك عندما قالوا: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فهذا تكذيب له واستهزاء به صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثاً: استعجلوا وقوع العذاب: فقالوا: ﴿أَنفِنَا بِمَا نَعُدُّونَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

(١) «تفسير الطبري» (١٢/٥٣٧).

حال الكفار في كل زمان ومكان:

وهذا حال الكفار في كل زمان ومكان، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَسَتَجِدُنَا فِي سَبِيلِنَا وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [الرعد: ٦] أي: هذا حالهم كمثل من كان قبلهم، ويقول الله تبارك وتعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْبَرِّ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهذا جهل عظيم، والمفروض أن يقولوا يا صالح إن كنت من المرسلين؛ فاسأل الله لنا أن يهدينا، أن يرحمنا، أن يتوب علينا، بل قالوا: ﴿أَتَيْنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

محاولة قتل نبي الله صالح:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [٤٨] قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [٤٩] وَمَكْرُوهًا مَكْرًا﴾ [النمل] وهذه جريمة ثانية أعظم من الجريمة الأولى، فالجريمة الأولى: قتل الناقة، والجريمة الثانية التي لم يتمكنوا منها: قتل صالح صلوات الله وسلامه عليه

قال الله تعالى على لسان أولئك القوم: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النمل: ٤٩] أي: حلف بعضهم لبعض، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: ندخل عليهم ليلاً، نقتلهم هو وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ إذا كان له أولياء، كانت له قبيلة، وهذا يدل على أنهم كانوا يخافون منهم ويحسبون لهم ألف حساب، ولذلك قصدوه ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ عجيب، قال بعض أهل العلم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، أنهم ما شاهدوهم؛ لأنهم جاؤوهم ليلاً، وقتلوهم ليلاً، في ظلمة.

أو يكون من باب الاستهزاء والسخرية ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: فيما

نقول، هذا مكرهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَنِيبَةُ مَكْرِهِمْ ﴿النمل﴾ هم مكروا والله مكر ﴿٥٦﴾، ﴿فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَنِيبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿النمل﴾ هذه هي النتيجة: أن الله دمرهم ﴿٥٧﴾.

وقالوا: نقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه إلى الجنة، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته، قتلوا الناقة، وقرروا أن يقتلوا نبي الله، الآن التدخل من الله تبارك وتعالى، فمنع الله عنهم المطر تخويفاً وإنذاراً، فقال المستكبرون: إن صالحاً سبب منع المطر، وهو شؤم علينا، هو ومن معه من المؤمنين، ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكُ﴾ ﴿النمل: ٤٧﴾، ﴿قَالَ طَطَّيَّرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿النمل: ٤٧﴾ الشؤم منكم، ومثل قولهم الذي جاء إلى القرية ودعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وجاء معه مرسلون آخرون، فدعوهم إلى الله تبارك وتعالى، قالوا: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، ﴿قَالُوا طَطَّيَّرْتُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِئُونَ﴾ ﴿١١﴾ [يس].

والتطير عند العرب هو أن الواحد منهم إذا قصد شيئاً: سفرأ، زواجاً، تجارة، أي شيء، يأخذ طيراً، ثم يرسله، فإذا اتجه الطير جهة اليمين قالوا: خيراً فيتجهون إلى مقصدهم، وإذا اتجه الطير جهة اليسار؛ قالوا: شراً فيمتنعون عن هذا العمل، وهذا من أجهل الجهل، فالطير بهيمة لا تفهم، ولا تدري ما يريدون من الأعمال، فهو يطير حيث يشاء يميناً أو شمالاً.

ويذكر عن طاووس بن كيسان - إمام من أئمة التابعين - أنه سافر مع رجل، وفي الطريق مرَّ غراب، فنق، فقال الرجل: خير، فالتفت إليه طاووس فقال: أي خير في الأمر، غراب نق أي خير في هذا وأي شر؟ والله لا أسافر معك أبداً.

قوم صالح ﷺ ينتظرون العذاب ويستعجلون به:

طلب قوم صالح من صالح أن يستعجل لهم العذاب، فواعدهم صالح ثلاثة أيام، وبعدها يأتيكم العذاب، وعدّ غير مكذوب، بدأ العذاب يوم الخميس، وذلك أنهم أصبحوا فإذا وجوههم مصفرة، كلُّ يرى الثاني وجهه مصفراً، فلما كان يوم الجمعة فإذا وجوههم محمرة، ولما كان يوم السبت؛ فإذا وجوههم مسودة، فجلسوا في أماكنهم ينتظرون العذاب، لما جاء يوم الأحد بمجرد أن أشرقت الشمس فإذا العذاب قد عمهم جميعاً^(١).

قال الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وعدهم صالح صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وحققت الحقائق ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيَيْنَ﴾ [الأعراف: ٧٨] لا أرواح فيهم، ولا حراك بها»^(٢).

وقد ذكر الله عذابهم في أكثر من آية، فقال - جل وعلا - :
﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال في سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤] وقال في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨]، وقال في سورة النمل: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ [النمل: ٥١] وقال في سورة فصلت: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَیْحَةً صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْمُؤْنِنِ﴾ [فصلت: ١٧] وقال في سورة القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ [القمر: ١٦].
الزرع اليابس المتفتت.

قال - جل وعلا - بعد أن أهلكهم وأبادهم: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢] أي: صاروا بسبب هلاكهم وخراب ديارهم كأنهم لم يقيموا بها ولم يسكنوها أبداً، وفي هذا تحذير شديد لمن يغتر بهذه الدنيا

(١) «تفسير الطبري» (١٢/٥٢٧، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧)، (١٥/٣٧٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/٤٤٢).

وزخارفها، والله إنه لمشهد مؤثر ما بين الحياة والموت إلا لمحة واحدة أو غمضة عين ﴿كَانَ لَمْ يَفْتَوُا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كأن لم يكن ما سبق من حياة ﴿تَنْخُدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، زروع وأنهار وخير، كأن لم يغنوا فيها.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: نبي الله صالح، وقال: ﴿يَنْقُورِ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَفَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وهنا كلمهم بعد هلاكهم، مرَّ عليهم وهم جثث هامدة، متناثرة، جائمين، وهذا حق كما خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر جلس عند رأس البئر بعد أن ألقى كفار مكة «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإنا وجدنا ما وعد ربنا حقاً؟» فالتفت إليه عمر، وقال: يا رسول الله! إنهم أموات، قال: «والله يا عمر ما أنت بأسمع لي منهم»^(١)، يُسْمِعُهُمُ اللهُ، خزي في الحياة الدنيا، وعذاب نفسي قبل العذاب البدني ثم يأتي العذاب الأخروي.

موقفنا من اماكن المعذبين:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ بقري ثمود، فاستسقى الناس من الآبار، وعجنوا، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين للإبل، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم لا تدخلوا عليهم»^(٢).

وبعض الجهلة يذهب إلى تلك الأماكن ويصور ويفرح ويضحك،

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣، ٢٨٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥٩٤٨)، ومسلم (٢٩٨١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٨١)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والنبي ﷺ نهى عن ذلك، وقال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين؛ فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(١).

وعن عامر بن سعد قال: لما كان النبي ﷺ في غزوة تبوك سارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟» فقال رجل: نعجب، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا، وسددوا، فإن الله لا يعاب بعبادكم شيئاً»^(٢).

الدروس والعبر في قصة صالح ﷺ

أولاً: دعوة الأنبياء واحدة: ومن كَذَّبَ واحداً فقد كذب الجميع كما قال الله - جل وعلا - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء].

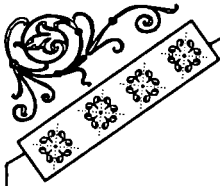
ثانياً: العاقبة دائماً تكون لرسول الله ﷺ: بعد أن يصل الطغيان إلى منتهاه، فإن الله يمهل ولا يمهل ﷻ.

ثالثاً: من أكبر موانع قبول الحق اتباع الآباء.

رابعاً: وإن الآيات مهما كانت واضحة فإن المجرمين قد لا يهتدون بها كما رأوا الناقة ثم لم يؤمنوا بها.



(١) أخرجه أحمد (٢٣١/٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٠١٢) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال في «مجمع الزوائد» (١٠٣٢٥): «فيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط»، وضعفه الأرنؤوط.



قصة إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء الذي قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [النحل] (١)، خليل الرحمن.

ذُكر نبي الله إبراهيم في كتاب الله تبارك وتعالى تسعاً وستين مرة، واختلف أهل العلم في اسم أبيه، فالذي ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «فهذه أربعة أنواع من الشناء؛ افتتحها بأنه أُمَّة، والأُمَّة هو: القدوة الذي يؤتم به...، والفرق بين الأُمَّة والإمام من وجهين:

أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصد وشعوره أو لا؛ ومنه سُمي الطريق إماماً... .

الثاني: أن الأُمَّة فيه زيادة معنى؛ وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكانه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدها في غيره.

الثناء الثاني: قوله: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾...، والقنوت يُفَسَّرُ بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثناء الثالث: قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عمّاً سواء.

الثناء الرابع: قوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾، والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان:

١ - الإقرار بالنعمة.

٢ - وإضافتها إلى المنعم بها.

٣ - و صرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة. والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم، والعمل بموجبه، وتعليمه ونشره. فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه. انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٥٢٣ - ٥٢٤).

العزیز أن اسم أبیه آزر، كما قال - جل وعلا - : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ
 ءَازَرَ ﴿[الأنعام: ٧٤]، وكذلك جاء في السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «يلقى
 إبراهيم أباه آزر يوم القيامة - وعلى وجه آزر فترة وغبرة -، فيقول له
 إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول لإبراهيم عليه الصلاة والسلام:
 فالיום لا أعصيك، عندها يقول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: يا رب
 إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، وأني خزي أخزي من أبي الأبعد،
 فيقول الله له: إني حرمت الجنة على الكافرين»^(١).

فالذي جاء في الكتاب والسنة أن اسم أبیه آزر، والمشهور في كتب
 الأنساب وفي كتب أهل الكتاب أن اسم أبیه تارح، وقيل: إن آزر عمُّ
 لإبراهيم، وهو الذي رباه، فسماه أباً، لقول النبي ﷺ: «عمُّ الرجل صنو
 أبیه»^(٢) يعني كأبيه، فسماه أباً من باب الاحترام.

والظاهر من نصوص القرآن الكريم أن آزر أبٌ صريح لإبراهيم
 صلوات الله وسلامه عليه، فجمع بعض أهل العلم هذا بقولهم: لعل أحد
 الاسمين لقب والآخر اسم، فيكون اسمه آزر، ولقبه تارح، أو العكس،
 أو يكون له أكثر من اسم، وأياً كان لا يهم كثيراً.

نشأة إبراهيم عليه السلام:

نشأ إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في العراق، في بيئة وثنية،
 تُقدس الأصنام، وتعبدها من دون الله تبارك وتعالى، بل قيل: إنهم كانوا
 صابئةً يعبدون الشمس، والقمر، والكواكب، وأياً كان؛ فعبادتهم للأصنام
 جاء النص عليها في كتاب الله تبارك وتعالى.

ذكر أن أباً إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان نجاراً، وكان

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام مسلم (١٦٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ينجر الأصنام، وكان أحياناً يعطيها لولده إبراهيم، يأمره أن يبيعهها، فيخرج بها - وهو صغير - إلى السوق، فينادي بالناس: «من يشتري ما يضر ولا ينفع»، وكان أحياناً يذهب بها إلى الماء، فيغسل رأسها في الماء ويقول: «اشربي» متهكماً صلوات الله وسلامه عليه.

ومن نظر في الكتاب والسنة يتبين له أن الله تبارك وتعالى لم يذكر لنا ولا النبي ﷺ شيئاً عن نشأة إبراهيم، لا عن بلده، ولا عن زمانه، ولا عن نشأته من الصغر، كيف نشأ؟ كيف رُبي؟ لم يُذكر شيء من هذا، وإنما أول ما ذكر عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، هو أنه جاء وخاطب قومه في عبادتهم للأصنام.

المسلمون أحق الناس بإبراهيم ﷺ:

انتسب إلى إبراهيم أربع طوائف: المسلمون، واليهود، والنصارى، والمشركون، كلُّ هؤلاء انتسبوا لإبراهيم، فهو إذاً عامل مشترك بين الجميع، فالكل يعظم هذا الإنسان صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك نبه الله تبارك وتعالى كثيراً في كتابه العزيز على حال إبراهيم، ومن الذي يستحق أن ينتسب إليه صلوات الله وسلامه عليه.

أما اليهود والنصارى فقد قال الله تبارك وتعالى يخاطب أهل الكتاب: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقال ﷺ: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ما كان يهودياً، ولا نصرانياً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَسْلَمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، فكان صلوات الله وسلامه عليه متحنفاً عن الشرك أي: منحرفاً عن الشرك إلى الإيمان.

حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام:

والآيات التي تبين حقيقة دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه على كثيرة جداً في كتاب الله تبارك وتعالى، فمنها قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا الآخِرَةُ لَئِنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا أَمِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل]، وقال جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام]، وقال ﷺ: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا أَمِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، إِنَّهُ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

فنبه الله تبارك وتعالى كثيراً في كتابه العزيز على هذه القضية المهمة، وهي أن إبراهيم ما كان مشركاً، ولذلك لما فتح الله تبارك وتعالى على نبيه مكة - شرفها الله - دخل الكعبة، فوجدهم رسموا إبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما وهما يستقسمان بالأزلام، فقَالَ النبي ﷺ: «والله إن استقسما بالأزلام أبداً»^(١)، (وإن) هنا بمعنى (م) النافية.

فضل إبراهيم عليه السلام:

نبه الله تبارك وتعالى وكذا نبيه ﷺ كثيراً على فضائل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فمما جاء في كتاب الله:

أولاً: الاصطفاء وتمام النعمة: فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَنُوحًا وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ [آل عمران]، وأتم نعمته عليه كما يقول ليوسف عليه السلام: ﴿وَيُسِّرْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْنَائِكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦].

ثانياً: وصفه الله بأنه نبي صديق: كما قال الله - جل وعلا -: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٤١﴾ [مريم].

ثالثاً: وصفه الله بالصلاح: فقال عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

رابعاً: وصفه بأنه أواه حلیم منيب: فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ﴿٧٥﴾ [هود].

خامساً: سليم القلب: قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٤﴾ [الصافات].

سادساً: آتاه الله رشده وهو صغير، فضلاً من الله ومنة، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الأنبياء].

سابعاً: رفع الله درجته: فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ ﴿٨٣﴾ [الأنعام].

ثامناً: اتخذه الله خليلاً: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

تاسعاً: أنه وفى ما عليه: فقال الله عليه السلام: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿٣٧﴾ [النجم].

وأما ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم:

فقد جاء رجل إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه، فقال له: يا خير البرية، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ذاك إبراهيم خليل الله»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

وجاء عن النبي ﷺ أن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه^(١).

وفي حديث المعراج: لما عُرج بالنبي ﷺ لقي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور^(٢).

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

بدأ نبي الله إبراهيم دعوته بأبيه، وتلطف معه أعظم التلطف، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]، فبدأ بأقرب الناس إليه، وهو أبوه، ولم يذكر الله تبارك وتعالى لنا شيئاً عن أمه، وإنما ذكر لنا أباه، فتلطف في الدعوة مع أبيه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [١١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا [١٢] يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا [١٣] [مریم]، ولم يقل له: (يا أبت إنك جاهل)، وإنما جاء بعبارة لطيفة، فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، مع أن أباه كان يعبد الأصنام وينحتها، وهذه طاعة للشيطان، وهذا يُسمى بشرك الطاعة، كما قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ أَخَذُوا عَهْدَ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس] أي: ألا تطيعوا الشيطان.

ثم قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [١٥] [مریم]، نعم، كلُّ كافر فهو ولي للشيطان، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أوليائه، وقال: ﴿فَقَتِلُوا أَوْلِيَآءَهُ﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، واللفظ له.

الشَّيْطَانِ ﴿النساء: ٧٦﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وكلمة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه هنا تضمنت - كما نرى - النصيح، والرفق، واللين، ومحبة الخير، وإقامة الحجّة على أبيه؛ لينقذه من عذاب الله تبارك وتعالى، ومن الضلال إلى الهدى، هكذا كانت دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكيف كان رد أبيه عليه؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ إِلَهِتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم]، إبراهيم يقول: (يا أبت.. يا أبت.. يا أبت)، وأبوه يقول: ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾، ولم يقل له: (يا بُني)، فسوة يجدها الكافر في قلبه، حتى كلمة (بُني) لم يقلها لإبراهيم، وإنما ناداه باسمه دلالة على القسوة التي في قلبه عليه.

ولذلك وصف الله تبارك وتعالى الكفار بأن قلوبهم قاسية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ إِلَهِتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، ثم زادت هذه القسوة فهدد بالرجم ثم زادت، فقال: ﴿وَأَهْجُرَنِي﴾، فطلب الهجر من إبراهيم، ثم أيُّ هجر قال: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ أي: اهجرني هجراً طويلاً، لا أريد أن أراك، لا أريد أن أسمعك، طلب من إبراهيم أن يتركه وألّهته، عندها قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، وهذا مصداق أمر الله تبارك وتعالى للمؤمنين في تعاملهم مع الجاهل، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْآرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الفرقان].

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصر] فطبق نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هذا الأمر، فقال لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧].

ثم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] وهذا وعد من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وقد وفى صلوات الله وسلامه عليه بهذا الوعد، فقال: ﴿وَأَغْفِرْ لِي يَا إِلَهُكَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، فوفى إبراهيم، ولكن لما تبين لنبي الله إبراهيم أن أباه عدو لله تبارك وتعالى تبرأ منه، قال الله - جل وعلا -: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ولما استغفر إبراهيم لأبيه - وهو على شركه وضلاله وكفره - اقتدى المسلمون بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فاستغفروا لموتاهم من المشركين، واستغفر النبي ﷺ لعمه أبي طالب، وكان يصلي على بعض المنافقين إذا ماتوا صلوات الله وسلامه عليه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالافتداء بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُمْ وَبَيْنًا وَّبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤]، ثم استثنى الله تبارك وتعالى استغفار إبراهيم لأبيه، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤] هذه مستثناة، في هذه لا تقتدوا بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فمنعهم الله - جل وعلا - من الاستغفار للمشركين، ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] إذا لا تقتدوا به في هذه، وهي استغفاره للمشركين؛ لأنه إنما كان عن موعدة ثم ترك ذلك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

كذلك قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا

ءَالِهَةٌ ۖ إِنِّي أَنرَبُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿[الأنعام: ٧٤]﴾، وقال ﷺ: ﴿وَأَنرَبُ عَلَيْهِم بَأًا ۖ إِنرَبِهِم ۖ﴾ (٦٩) ۖ إِذ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنظُلُّ لَهَا عَكَفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكَم أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَآلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الصَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الانباء]، وقال: ﴿وَإِبْرَهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَآلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت]، هذا حديث إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه يحذره من الشرك الذي وقع فيه.

دعوة إبراهيم ؑ لقومه ومناظرته لهم:

المرحلة الثانية من دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة قومه إلى التوحيد، فقال - جل وعلا - في ذكر المناظرة التي جرت لإبراهيم مع قومه،: ﴿وَكَذَآلِكَ نُرِي إِبْرَهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الأَيْلُ رءَا كَوْكَبًا قَالِ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الأَافِلِينَ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا رءَا القَمَرَ بَارِئًا قَالِ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا رءَا الشَّمْسَ بَارِئَةً قَالِ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنفَعُومِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِذِي فَطَرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

إن موقف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من هذه الكواكب موقف مناظرة لا موقف نظر، فلم يشك إبراهيم أبداً بالله - جل وعلا -، ولا فكر يوماً أن النجم يمكن أن يكون رباً، أو أن القمر يمكن أن يكون

رباً أو أن الشمس يمكن أن تكون رباً أبداً، وإنما هذا على سبيل التنزل في المناظرة مع قومه، وهذا أمر شائع في المناظرات، ولذلك قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، إذاً هو أراد أن يقيم عليهم الحجة، وما أراد أبداً أن هذا إله من دون الله تبارك وتعالى^(١).

وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال لقومه: تعالوا فلننظر هذا النجم هل يستحق أن يكون رباً؟ هذا القمر هل يستحق أن يكون رباً؟ هذه الشمس هل تستحق أن تكون رباً؟ أفل النجم، أفل القمر، أفلت الشمس، أفل أي: غاب، ولا ينبغي لرب أن يغيب، والمناظر قد يقول شيئاً وهو لا يعتقد من باب الإلزام، ولذلك سيأتينا قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لقومه لما جاءوا - وقد كسّر أصنامهم - فقالوا له: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [١٢٦] قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبْرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ [١٢٦] [الأنبياء: ٦٦]، فهذا على سبيل المناظرة لا على سبيل الاعتقاد، فهو أراد أن يلزمهم وأن يقيم عليهم الحجة صلوات الله وسلامه عليه.

وفي قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] يحتمل أمرين:

الأول: أن يكون هذا من باب الاستفهام، فكأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه جلس مع قومه، فلما رأى النجم قال لهم: (هذا ربي؟) بإسقاط الهمزة، (أهذا ربي؟) أهذا تزعمون أنه رب؟ فلما غاب طلع القمر، فقال: أهذا ربي؟ فلما غاب طلعت الشمس قال: أهذا ربي؟ وهو لا يقولها على سبيل التقرير، وإنما يقولها على سبيل الاستفهام، على وجه التوبيخ والتحقير لرأيهم، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي: إذا متت أنت هم يخلدون؟! أنت

(١) لزيادة الفائدة يراجع: «تفسير ابن كثير» (٢٩١/٣).

تموت وهم ميتون، فهذا يكون على سبيل التوبيخ في الاستفهام، لا على سبيل أنه يعتقد هذا الأمر.

والدليل على أن إبراهيم لم يشك أمور منها:

أولاً: الاعتقاد بأن النجم ربّ، أو أن القمر ربّ، أو أن الشمس ربّ كفر، والأنبياء معصومون من الكفر، وقد تقدم القول في هذا، وقد أجمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون من الكفر، ومن زعم أن نبياً من الأنبياء كفر بالله تبارك وتعالى؛ فهو الكافر.

ثانياً: إبراهيم أنكر الشرك في البداية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَنَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَوَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]، إذاً هو في البداية أنكر عليهم أن يعبدوا غير الله تبارك وتعالى، فكيف يشك في هذه المسألة؟

ثالثاً: هذه الآية إنما كانت بعد أن أراه الله تبارك وتعالى ملكوت السماوات والأرض؛ أي: عظمة خلق الله - جل وعلا -، ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦]، فالذي أراه الله ملكوت السماوات والأرض لا يمكن أبداً أن يشك بأن النجم رب، أو أن القمر رب، أو أن الشمس رب.

رابعاً: قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] دلّ على أنه أراد أن يقيم عليهم الحجة، لا أنه اعتقد ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

خامساً: نفى الله الشرك عن إبراهيم في كثير من الآيات، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿وَلَقَدْ يَكُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] في آيات كثيرة، وهذا يُسمى بنفي الكون؛ أي: لم يكن، ولن يكون أبداً من المشركين، فلم يكن إبراهيم يوماً من المشركين، وهذا نص من الله تبارك وتعالى إذ يستغرق جميع الزمن الذي عاش فيه إبراهيم ﷺ.

هل وقع الكذب من إبراهيم ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، ﴿أَفَنُكَا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصفات]، وهنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وذلك أن قومه أرادوا أن يخرجوا إلى عيدهم - كما ذكر أهل السير والتاريخ - وطلبوا من إبراهيم أن يخرج معهم، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، نظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم.

ومن المعلوم من الدين بالضرورة، أن الأنبياء صادقون في كل ما أخبروا به عن الله ﷻ، وأن من كذَّب نبياً في خبر فهو كافر بالله تبارك وتعالى، فهل كان إبراهيم سقيماً؛ أي: مريضاً؟ وهل يجوز أن ينسب إليه الكذب صلوات الله وسلامه عليه؟

قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وفي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وفي قوله: عن زوجته عند الملك الظالم: إنها أختي»^(١).

هذه ثلاث كذبات تنسب إلى نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بل قد جاء في الحديث الصحيح - حديث الشفاعة - أن الناس يذهبون إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فيقولون له: أنت خليل الله، اشفع لنا عند ربك، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «إني قد كنت كذبت ثلاث كذبات»^(٢)، فهل يجوز أن يُنسب لإبراهيم الكذب أو لا؟

النبي ﷺ الذي هو من أعظم الناس تعظيماً لإبراهيم صلوات الله

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) تقدم تخريجه ص ٥٥.

وسلامه عليه قال: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»^(١)، فنزهه، وكثيراً ما كان يفتخر بنسبته إلى إبراهيم، بل إن الله كثيراً ما كان يقول له: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النساء: ١٢٥]، وإبراهيم نسب هذا إلى نفسه، وقال: «كذبت ثلاث كذبات» وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «كذب في ذات الله»^(٢)، فكيف يُحمل هذا الكذب؟

أجاب أهل العلم بعدة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذه الكذبات الثلاث إنما كانت قبل النبوة، ونهيه لهم عن عبادة الأصنام، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إنما كان من باب الفطرة؛ أي: إن فطرة إبراهيم دفعته لهذا، ولذلك لما كان يبعثه أبوه لبيع الأصنام يقول: «من ذا الذي يشتري ما يضر ولا ينفع»، وكان ينكر على قومه عبادة الأصنام، كل ذلك قبل النبوة، ولذا يأتينا عندما يكسر إبراهيم الأصنام يقول قومه: ﴿سَعَيْنَا فَنَنْبَأُكَ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

إذاً هو غير معروف، هو فتى؛ أي: صغير، يقال له: إبراهيم، ولو كان قد بعث إليهم ما كانوا يقولون: ﴿فَنَنْبَأُكَ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

وكذا الأمر بالنسبة لقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ لأنها في قصة واحدة، وكذا في ذهابه إلى ذلك الملك، قالوا كذلك يكون قبل بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

والجواب الثاني: إنما قال هذا من باب التورية، خاصةً عندما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إذ لا يلزم أن يكون يريد المرض الذي هو علة في الجسد، وإنما هو سقيم كما قال النبي ﷺ: «إن الميت ليعذب ببكاء

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه قريباً، وهو في الصحيحين.

أهله»^(١) أي: العذاب النفسي، يتعذب لأجلهم، لأجل ما يرى ما هم عليه من الضلال، وكذلك يقول: إني سقيم مما أراه منكم من ضلال، سقيم مما أراه منكم من باطل، ومن كفر بالله، وعبادة للأصنام التي لا تضر ولا تنفع، بل تضر ولا تنفع فيكون هذا من باب التورية لا من باب الكذب.

وكذا قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] إنما قاله لهم من باب الاستهزاء والتحقير لهم، ولذلك قال بعدها: ﴿فَتَشْكُرُونَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] أسألوهم، مَنْ كسرهما؟ أسألوا هذا الكبير هل هو الذي كسرهما أو لا؟

وأما قوله لزوجته إنها أخته، فإن هذا على سبيل دفع أعظم المفسدتين، وذلك أنهم ذكروا أن ذلك الملك إذا عرف أن لها زوجاً قتلها، وأخذها لنفسه، فلذلك دفع إبراهيم أعظم المفسدتين بأخفهما، فكذب وقال: هي أختي؛ لينجو من القتل، وتنجو هي من الاغتصاب، وهذا عين العقل، وهذا هو الواجب في الشرع أن الإنسان إذا اعترضته مفسدتان - ولا بد من الوقوع في إحداهما - فإنه يقدم أخف المفسدتين.

ولذلك ولو أن مظلوماً خلفه من يريد أن يقتله أو يؤذيه، ثم جاء واختبأ عند شخص، ثم سئل أين فلان؟ فقال له: والله لولا أن الكذب حرام لقلت أنه غير موجود، هو في الداخل، فهو آثم ومجرم بفعله هذا لأنه عرض للقتل بجهله، بل إن الكذب هنا واجب.

فالقصد أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إنما قال هذا من باب دفع أعظم المفسدتين^(٢).

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٨).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «إذا تأملت شرائع دينه سبحانه التي وضعها بين عباده؛ وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تزاومت قدم =

ولذلك لما دعا إبراهيم قومه إلى عبادة الله تبارك وتعالى لم يقل له قومه إنك تكذب وما اتهموه بالكذب؛ لأنهم ما فهموا أبداً أن في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وأن في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] أنه كذاب، بل فهموا أنه أراد إلزامهم بالحجة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم كذلك ليس فيه أنه خاطبهم بهذا، فقال لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، بل قالها في نفسه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي: مما أراه من ضلال قومي.

هدم الأصنام من سنن الأنبياء والمرسلين:

خرج قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيدهم، وإبراهيم فيه حرقة على ما يفعله قومه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَأَى إِلَى آلِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي: مسرعاً متخفياً، فدخل على الآلهة، فوجدها في بهو عظيم، ومكان متسع، وقد وُضع لها الطعام، فدخل عليها، ووجد الطعام كما هو لم يتغير، فقال لهم: ألا تأكلون؟

وهذا يفعله بعض الجهال الآن يذهبون إلى المقابر ويضعون الطعام والشراب عند قبر الميت ليشاركهم في الطعام، هؤلاء يقال لهم كما قال إبراهيم لهذه الأصنام: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فجاء إلى هذه الأصنام، فقال: ألا تأكلون؟ كلوا، وُضع الطعام لأجلكم، ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ ﴿٩٢﴾ [الصافات] قولوا: لا نريد، قولوا: لا نأكل، قولوا: لا نجوع، قولوا: نحن آلهة، ﴿مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ﴾ عبّروا عن رأيكم مالكم لا

= أهمها وأجلها، وإن فاتت أدناها، وتعطيل المفسد الخالصة أو الراجعة بحسب الإمكان وإن تراحت عطل أعظمها فساداً باحتمال أدناها». «مفتاح دار السعادة»

تنطقون؟ ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرِيحًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٦)؛ أي: كسرهما صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلوا إليه يزفون فواجههم، وقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا نَحْنُونَ﴾ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ [الصافات].

ويقول ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٩٦) إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عُنُقِينَ ﴿٩٦﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٩٨﴾ قَالَ أفرءيتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٥﴾ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٩٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ [الشعراء]. وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ هذه يسمونها حيدة؛ أي: حادوا عن الجواب، هو ما قال لهم: هل كان يعبدها آباؤكم أو لا؟ إنما قال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٩٧) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٩٧﴾ المفروض أن يكون الجواب بنعم أو لا، لكن قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء].

وهذا إقرار واعتراف منهم أنها لا تنفع، ولا تضر، ولا تسمع، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عُنُقُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عُنُقِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٤﴾ [الأنبياء] كأنهم في كلامهم محبوب للحق وأنهم يتبعونه، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ (٥٤) قَالَ بَلْ زَكَّرْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَاللَّهُ لَآكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ [الأنبياء]، إذا هددهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيكيد هذه الأصنام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جُدَاذًا﴾ أي: حطمهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جُدَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّمْ نَعْلَمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨) [الأنبياء].

وهذا فيه إشارة إلى غيرة الكبير المتعال ﷻ الذي لا يرضى أن

يَعْبُدُ أَحَدَ غَيْرِهِ ﷺ، فإبراهيم كسر جميع الأصنام إلا كبيرهم لعلمهم إليه يرجعون، كأن يقول لهم: كما أن هذا الكبير غارَ مِنْ هذه الأصنام أن تعبد، فالله يغار أن يعبد غيره ﷺ.

وهنا في قوله ﴿وَتَأَلَّهُ﴾ هذه حلف، تقول: والله، بالله، تالله، الله، هذه كلها أقسام، يقسم صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وهنا قال بعض أهل العلم: إنما قال هذا إبراهيم في نفسه يعني ما قالها لهم، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته لما قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧] هذه لما قالها ما سمعوها، وإنما قالها في نفسه أنتم شرٌّ مكاناً، وكذلك إبراهيم هنا قال: ﴿وَتَأَلَّهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧] يُحَدِّثُ نَفْسَهُ، فإذا ما أن يكون قالها في نفسه صلوات الله وسلامه عليه، وإما أنه أسمعهم، ولذلك سيأتينا قول الله تبارك وتعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَنَّى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أي: هدد بكسر هذه الأصنام.

فلما رجعوا ووجدوا الآلهة مكسرة محطمة جذاذاً كما أراد إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَنَّى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ [الأنبياء: ٦١]، ﴿سَمِعْنَا فَنَّى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يذكرهم بالعيب والنقص، ينتقص هذه الأصنام، هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون، ينتقص هذه الأصنام ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، وهذا الذي يريده إبراهيم، يريد أن يتكلم على أعين الناس، ولذلك لما جاء موسى لفرعون ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، يوم

العيد، ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] حتى يرى الناس.

وكذا غلام الأخدود عندما أراد الملك قتله ولم يستطع، قال له غلام الأخدود إذا أردت قتلي فافعل ما أمرك، اجمع الناس ثم افعل كذا وكذا^(١)، فهو يريد هذا الأمر صلوات الله وسلامه عليه، وهو أن يُحضره على أعين الناس حتى يقيم الحجة على الجميع صلوات الله وسلامه عليه.

فلما جمعوا الناس قالوا له أمام الناس: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴿[الأنبياء]، وأشار إلى الصنم الكبير ﴿فَسْتَأْذِنُكُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، وإن كانت لكم عقول تعقلون ما تقولون، فاسألوهم إن كانوا ينطقون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الأنبياء]، كلامه صحيح، ﴿أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، لماذا تركتم الآلهة بدون حراسة، وتركتم إبراهيم يكسرها، ﴿أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تستحقون ما أصابكم، وهذا ما أراده إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بأنهم كما اعترفوا أمامه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أرادهم أن يعترفوا أمام الناس مرة ثانية أن هذه الآلهة لا تنطق، فقامت عليهم الحجة.

ومن هذا أخذ أهل العلم في قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٧﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَسْتَأْذِنُكُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء] أن الله تبارك وتعالى يوصف بالسمع والكلام ﷻ؛ لأن إبراهيم عاب على الآلهة أنها لا تسمع، فعيب على إله ألا يسمع، وعاب على الآلهة أنها لا تتكلم، لا ينطقون، فعيب في الإله ألا يتكلم، ويوصف بالكلام من آيات أخرى كذلك، ولكن عيب في الإله ألا يكون فيه هذا أو ذاك، قال إبراهيم:

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه.

﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (١٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء] آلهة تُصنع! آلهة يُقدم لها الطعام! آلهة تُحرس! آلهة تُنصر! ما فائدة هذه الآلهة؟!

ولكن الإنسان مفطور على أن يَعْبُد، إن لم يعبد الله عَبَدَ غيره رغماً عنه، ولو كان إلهاً يصنعه هو، ولو كان إلهاً يُطعمه يحرسه ينصره، لكن يريد أن يعبد، لا يستطيع ألا يعبد، وأنتم تعلمون الآن أن هناك من يعبد الفأر، وهناك من يعبد النملة، وهناك من يعبد الحجر، والشجر، والشمس، والقمر. والسعيد من وُفق إلى عبادة من يستحق أن يعبد وهو الله ﷻ.

ولذلك ذَكَرَ عن بعضهم من كفار قريش أنه رأى إلهه من بعيد وإذا عنده ثعلب يبول عليه، يبول على الصنم، فأخذته غيره على إلهه فصار يركض، فلما رآه الثعلب قَرَّ، فوصل إلى الإله وإذا البول فوق رأس إلهه الصنم، فنظر إليه، ثم فكر قليلاً، وقال: أربُّ يبول الثعلبان برأسه؟! ما هذا الرب؟ ربُّ يبول عليه ثعلب، والثعلب من أحقر الحيوانات عند العرب، قال: أربُّ يبول الثعلبان برأسه؟! فَصَبَّحَ من رب. ثم نظر إلى نفسه، فقال: وَقَبَّحَ عابده.

وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم:

وحينما أقرّوا بهذه الهزيمة، وأقام إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه عليهم الحجّة؛ لجؤوا إلى القوة، وذلك أن نبي الله إبراهيم لما قال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمُ إِنَّ كَاثِرًا بِطَافُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، ألزمهم أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم، لا ينطقون، ولا يسمعون، ولا يدافعون عن أنفسهم.

الأمر الثاني: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم فعله كبيرهم هذا، وفي كلا الحالتين يخرج منها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهم ألزموا واعترفوا بالأولى، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطُقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، ولكنهم لما أعيتهم الحجة؛ استخدموا القوة والبطش، قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَأَصْرُواْ ءَالِهَتِكُمْ إِن كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وهذه تسمى بشرية الغاب، شريعة الظفر والناب بالقوة، لا بالحجة، والعقل، والمنطق، ولا إقناع ﴿حَرِّقُوهُ﴾، ومثله ما قاله فرعون لموسى: ﴿لَئِن آتَّخَذَتِ إِلَهُهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، انتهى الإقناع، يناقشون في البداية، فإذا ألزموا الحجة لجؤوا إلى القوة، وهكذا الأمر مع أبيه لما قال له: (يا أبت.. يا أبت..) فجاء الجواب: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ إِلَهِتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، اللجوء إلى القوة بعد أن تعييبهم الحجة.

إلقاء إبراهيم في النار:

أشعلوا ناراً عظيمة، أرادوا أن يحرقوا إبراهيم ﷺ فيها، وقد ذكروا أن المرأة كانت إذا مرضت نذرت، إن شفيت لأجمعن حطباً لحرق إبراهيم، فجمعوا حطباً عظيماً لحرق إبراهيم، حتى قالوا: إنهم أشعلوا ناراً عظيمة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا منها ليلقوا إبراهيم فيها من شدة حرّها، فوضعوه على آلة المنجنيق ورموه رمياً، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٦٨] [القوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل» الله أكبر، المؤمن الصادق التقي النقي المخلص الذي امتلأ قلبه يقيناً وإيماناً بالله تبارك وتعالى، يقول هذه الكلمة في هذا الوقت الحرج «حسبي الله

«ونعم الوكيل»، يرى الموت بعينه، سيلقى في هذه النار العظيمة، «حسبي الله ونعم الوكيل».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم لما أُلقي في النار، وقالها محمد وأصحابه لما قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١).

بعد أن لجأ إبراهيم عليه السلام إلى ربه تعالى جاء الفتح، وجاء النصر من القوي العزيز الذي ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت كما قال الله - جل وعلا -، فسبحان الله، لا إله إلا هو ملاذ المؤمنين، ومنجى الصالحين، النار التي أعطاه الله خاصية الإحراق سلبها منها، عندما أُلقي فيها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم «أن إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار لم تكن دابة إلا تطفئ النار عنه غير الوزغ، فإنه كان ينفخ عليه، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله» (٢).

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم» (٣)، وهو حيوان الأصل فيه الإفساد (٤).

واشتهر عند الناس أنه لما رُمِيَ إبراهيم في النار، وهو في الهواء جاءه جبريل، وقال: هل من حاجة تدعو الله تبارك وتعالى؟ فقال إبراهيم: «علمه بحالي يغني عن سؤالي» وهذا كما قال شيخ الإسلام ابن

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٣/٦، ١٠٩، ٢٠٠، ٢١٧)، وابن ماجه (٣٢٣١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) وتسميه العامة «البريعصي».

تيمية كذب موضوع، لم يثبت، بل إنه لجأ إلى الله وقال: «حسبي الله ونعم الوكيل».

هجرة إبراهيم ﷺ:

بعد أن أيقن نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن قومه مصررون على ما هُم عليه من العناد والكفر بالله تبارك وتعالى، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، حتى بعد أن أظهر الله تبارك وتعالى أمره، وغلبت حجة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه باطلهم، وبعد أن ظهر ضعف آلهتهم، وسفه عقولهم، بعد هذا كله يشس منهم نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وفكر في الهجرة من هذه البلاد إلى بلد آخر يعبد الله تبارك وتعالى فيه.

واختلف أهل العلم في البلد التي هاجر إليها نبي الله إبراهيم ﷺ على قولين:

القول الأول: إنه هاجر إلى مكة المكرمة شرفها الله.

القول الثاني: إنه هاجر إلى الشام، وهو لا شك دخل الشام، ودخل مكة المكرمة.

والهجرة ذُكرت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٧] فاعتزلهم في العبادة، واعتزلهم كذلك في المكان.

الموضع الثاني: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦].

الموضع الثالث: في قول الله تبارك: ﴿وَبَجَيْنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ

أَلَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ [الأنبياء]، وفي قوله: ﴿فَنَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت].

نصيحة للدعاة:

بعد كل هذه الدعوة لم يؤمن لإبراهيم عليه السلام إلا لوط، ولذلك يأتينا في قصة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال لامرأته عندما تدخل على الجبار: «قولي له إنك أختي فأنت أختي في الإسلام ولا يوجد على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك»^(١)، ونبي الله إبراهيم، خليل الرحمن، خير الخلق بعد رسول الله ﷺ بذل ما بذل في سبيل الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وناظر قومه عياناً جهاراً وأبطل حججهم وباطلهم، وأظهر الله الحق على لسانه، وأظهر الله معجزته بأن نجاه من النار التي بذلوا ما بذلوا في سبيل جمع الحطب إليها وإشعالها، ومع هذا لم يؤمن به أحد، فما نقول نحن عندما نقصر في الدعوة إلى الله، ويكون قليل من الإخلاص، مع قليل من العلم، مع قليل من التقوى، وقليل من الجهد، ثم يحزن الواحد منا إذا دعا ولم يستجب له أحد!! ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ويقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] والواجب علينا أن نفعل ما يأمرنا الله به، علينا أن نؤدي ما علينا، ألا نأتي يوم القيامة وقد قصرنا في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، ولذلك لما قال أهل السبت بعضهم لبعض: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] يقولون للذين أنكروا علي أهل السبت فعلهم، ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّا رَبِّكُمْ وَاللَّهُمَّ تَبَلَّغْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فنحن نحتاج إلى أمرين اثنين:

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).

الأمر الأول: نحتاج إلى أن نعتذر بين يدي الله تبارك وتعالى أننا قد بلغنا .

الأمر الثاني: وهو أن يهتدي الناس، وهداية الناس ليست بأيدينا، القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء ﷻ^(١)، بيده الهداية، نحن علينا أن ندعو إلى الله، ولا يضررك ولا يضرنا إن لم يستجب لك أحد.

فهل أنزل الله من منزلة إبراهيم عليه السلام لَمَّا لَمْ يستجب له أحد؟ بل إبراهيم هو إبراهيم، وهو بالمنزلة العظيمة عند الله، وهو الذي رآه النبي ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، وهو خليل الرحمن، قبل أن يدعو قومه وبعد أن دعا قومه، وبعد أن لم يستجب له أحد، هو خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه، وبعد أن دعا وبذل الوسع والجهد الكثير ولم يستجب له أحد جاءت المسألة الثانية ألا وهي الهجرة من هذه البلاد، وذلك أن المسلم مطالب بالهجرة من الأرض التي لا يستطيع فيها أن يعبد الله - جل وعلا - .

فهذا نبينا محمد ﷺ خرج من مكة، وهو يقول: «والله إنك لأحب البلاد إلي، ولولا أن قومك أخرجونني ما خرجت»^(٢) خرج ليدعو إلى الله تبارك وتعالى، وخرج أبو بكر يسبح في الأرض يعبد الله - جل وعلا -، فالمسلم أبداً لا يتعلق قلبه بأرض، ولا يتعلق قلبه بأهل، وإنما يتعلق قلبه بالدين، فأى أرض استطاع فيها أن يقيم دين الله تبارك وتعالى، فهي أرضه، وهي بلده، وهؤلاء هم عشيرته.

هاجر إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، والهجرة كانت واجبة

(١) هذا المعنى أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٧٠٨٩).

عليه، وهي واجبة على كل أحد، ولا تنقطع الهجرة - كما يقول النبي ﷺ - حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها^(١).

ولذلك قال الله تبارك وتعالى يعيب على الذين لم يهاجروا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٧٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ١٠٠].

إبراهيم ؑ مع النمرود:

لما هاجر إبراهيم دخل إلى بلاد بابل، وقيل: إن بلاد بابل هي التي كان فيها إبراهيم قبل الهجرة، يعني هذه الحادثة التي سنتكلم عنها الآن هي قصة إبراهيم مع الملك (النمرود)، هل كانت قبل خروجه من بلاده أو بعد خروجه؟ المهم أن الله ذكر لنا هذا الذي حاج إبراهيم في ربه، قال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، والسبب الذي من أجله حاج هذا الرجل إبراهيم في ربه هو أن الله آتاه الملك وأنعم عليه، فكان هذا المال نقمة على هذا الرجل، فأحياناً المال يكون نعمة، وأحياناً يكون نقمة، فكان هذا المال وذلك الملك نقمة على هذا الرجل بأن صار جباراً متكبراً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾ [العلق]، وبدل أن يشكر هذه النعمة وأن يستعملها في طاعة الله تبارك وتعالى كان العكس، كما قال - جل وعلا -: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ نَكْدِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة] يعني: تجعلون شكركم تكديباً.

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩) من حديث معاوية ؓ وهو في «صحيح الجامع» (٧٤٦٩).

قال الله - جل وعلا - ذاكراً هذه القصة القصيرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

[البقرة].

المشهور عند أهل العلم أن هذا الرجل هو ملك بابل، ويقال له: النمرود أو النمرود - بالذال المعجمة - بن كنعان، وكان من ملوك الدنيا، وذكر أن الذين ملكوا الدنيا أربعة، ملكان كافران، وملكان مؤمنان، أما المؤمنان: فسلیمان صلوات الله وسلامه عليه، وذو القرنين، وأما الكافران: فهذا النمرود، والثاني بختنصر.

وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قد جاء إلى هذا الملك يطلب الميرة؛ أي: الطعام، فناظر إبراهيم في ربه تبارك وتعالى، فقال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] لأن ذلك الرجل كان يدعي أنه رب مع الله، إله ثاني، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقد ذكر أهل العلم أن مقولته: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أراد أنه يأتي برجلين فيحكم عليهما بالموت، ثم قبل التنفيذ يسامح أحدهما، وينفذ في الآخر، فيكون الذي سامحه كأنه مات فأحياه، ويكون الذي حكم عليه بالموت قد أماته، وهذا لا شك أنه تلبيس وتدليس وكذب، الله يحيي من العدم ﷻ، وهذا يلبس على الناس، ولما قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ تركه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إلى دليل أوضح من هذا الدليل، وذلك ليفضحه على الملأ، وليكشف عجزه عن الأول والثاني، كأنه يقول له: إذا كنت تدعي أنك تحيي وتميت، فأنت الذي تُنشأ الخلق، وتُوجد من العدم، فأنا آتيك بأبسط منها: إنني بالشمس من المغرب، فلم يقل النمرود: أنا آتي

بالشمس من المشرق، فليأت بها ريك من المغرب؛ وذلك أنه لو قال ذلك لظهر كذبه؛ لأنه لا يمكنه ذلك؛ لأن إبراهيم سيقول له بعدها: فإن كان الأمر كذلك؛ فأت بها من المغرب إذا كنت أنت الذي تأتي بها من المشرق، وأيضاً لم يطلب من إبراهيم أن يأتي بالشمس من المغرب؛ لأنه يعلم أنها سنن كونية، وأن هذه السنن لا تتغير لأجل مناظرة أمثال هذا الرجل.

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقالاً من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية. وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويُبَيِّن بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني»^(١).

وذكر أهل العلم أنه بعد هذه المناظرة القصيرة، منع النمرود إبراهيم من الميرة، يعني: لم يعطه الطعام، عقوبة لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه؛ لأجل هذه المناظرة، حيث أظهر عجزه أمام الناس كما قال - جل وعلا -: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] بُهِتَ؛ أي: انقطع ولم يجد جواباً، رجع إلى أهله، فلما كان في الطريق بعد هذه المناظرة، وهذا الخوف من ذلك الرجل الذي كان يمكن أن يبطش به، فَمَرَّ على تراب فحمل منه بدل الطعام حتى إذا دخل البيت قالت زوجته: أين الطعام؟ قال: هذا الطعام، ثم ذهب ليرتاح، فدخل البيت، ووضع العذلين الذين ملأهما تراباً ثم دخل ونام صلوات الله وسلامه عليه، فلما استيقظ وإذا زوجته سارة قد أعدت الطعام، استغرب، وقال: من أين لكم الطعام؟ قالت: هذا الذي جئت به، فعرف أن الأمر من عند الله - جل وعلا -، وأنه رزق ساقه الله ﷻ إليه.

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٦٨٦).

قصة إبراهيم مع الملك الظالم:

ووقعت لإبراهيم كذلك حوادث كثيرة، منها أنه ابتلى بملك جبار، قيل: هو النمرود نفسه الذي ذكرناه، وقيل غيره.

قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وبيننا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها، قال: من هذه التي معك؟ فقال: هي أختي.

ثم أتى نبي الله إبراهيم لسارة، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك؛ فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يقصد الأرض التي هو فيها، وإلا فنبي الله لوط مؤمن، ولكن ليس معهم في هذه الأرض، «فأرسل إليها وقام إبراهيم يصلي» لا يملك شيئاً، لا يملك أن يقاتل هذا الجبار، ولا يملك أن يمنعه، قام يصلي، لجأ إلى الله تبارك وتعالى، وهكذا المؤمن، إذا ضاقت به الأمور؛ فإنه يلجأ إلى مفرج الشدائد سبحانه.

«ودخلت سارة على ذلك الملك فذهب يتناولها بيده» يعني: أراد أن يمسكها بيده فأخذ، صارت يده كأنها خشبة لا يستطيع أن يحركها، فقال: «ادع الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق»، ثم تناولها الثانية، «فأخذ أشد من الأولى، فقال: ادع الله لي ولا أضرك، فدعت الله، فأطلق، ثم نادى بعض حجبه، فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، وإنما جئتموني بشيطان، أخدموها هاجر» أي: أعطاهما خادمة «وأخرجوها عني»، فأتت سارة معها الخادمة إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو ما زال يصلي، فأوماً بيده، ماذا حدث؟ أشار وهو يصلي، فقالت: «رد الله كيد

الكافر» ولم تقل رددته أنا، وإنما «رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر» قال أبو هريرة - راوي الحديث -: تلك أمكم يا بني ماء السماء^(١).

ومعنى قول أبي هريرة: «تلك أمكم يا بني ماء السماء»: يقول للعرب: هذه هاجر التي أخدمها هذا الملك لسارة هي أمكم يا بني ماء السماء، وماء السماء هو زمزم الذي أخرجه الله تبارك وتعالى لإسماعيل عليه السلام كما سيأتينا، وسُمي ماء السماء؛ لأنه إنما خرج بأمر الله تبارك وتعالى، فأنتم أبناء المرأة التي بسببها خرج هذا الماء لكم في الأرض التي تعيشون أتم فيها.

لو قال قائل: لِمَ قال إبراهيم إنها أختي؟ ولِمَ لَمْ يقل زوجتي؟ خاصة وأن الملك إذا أراد أن يغتصب هذه المرأة لا يختلف الأمر عنده أختاً كانت أو زوجة، فإنه سيغتصبها، فهل إذا كانت أختاً سيمتنع، وإذا كانت زوجة سيغتصبها؟

ذكر أهل العلم أن الفرق كما وجدوه أيضاً في كتب أهل الكتاب هو أن ذلك الرجل كان إذا عرف أن لامرأة أعجبهت زوجها قتلها واغتصبها، فأخف الضررين أن يغتصبها ولا يقتل إبراهيم عليه السلام. وقيل: يقتله غيره؛ لأنه يريد لها. وقيل: كذلك أنه كان من دينه، أنه لا يقرب امرأة حتى يقتل زوجها، فقول إبراهيم إذا صلوات الله وسلامه عليه: «إنها أختي» حتى يسلم من القتل، لا أن تنجو هي من الاغتصاب أو عدمه؛ لأن هذا لم يكن سيؤثر في ذلك الأمر.

وهذا الكذب جائز؛ لأنه إذا تعارضت مفسدتان - مفسدة الكذب ومفسدة القتل - فلا شك أن مفسدة الكذب أهون من مفسدة القتل.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

غيرة النساء:

كانت سارة عاقراً، فلما أهداها الملك هاجر أهدتها لإبراهيم، ليتسرّرها؛ أي: ليجامعها، فقربها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فأنجبت له إسماعيل، فوقعت الغيرة في قلب سارة، عند ذلك خرج إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهاجر وابنها إسماعيل مهاجراً أيضاً، أخذهما إلى مكة، وهذا يُقَرَّب أن إبراهيم إنما هاجر في بداية الأمر إلى الشام، ثم بعد ذلك هاجر بأمّته هاجر وبولده إسماعيل إلى مكة.

ترك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمته هاجر وولده إسماعيل في مكة، ويذكر لنا الإمام البخاري هذه القصة في صحيحه^(١):

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المنطق^(٢) من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها عن سارة، لشدة غيرة سارة منها، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت؛ أي: الحرام، عند دوحه^(٣) فوق زمزم في أعلى المسجد، ولم تكن زمزم موجودة في ذلك المكان، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء فقط، ثم قفى منطلقاً، تركهما وانصرف، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً تردّد عليه، وهو منطلق عنها وجعل لا يلتفت إليها، عندها أدركت شيئاً معيناً، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، يأمره أن يترك ولده، أول ولد له مع أمه في هذا المكان القفر مع جراب من تمر وسقاء من ماء فيستجيب، ما صار خليلاً للرحمن إلا بهذا، قالت:

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٦٤).

(٢) المنطق: هو ما يشد به الوسط. «فتح الباري».

(٣) الدوحة: هي الشجرة.

الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، الله أمرني بهذا، قالت: إذاً لا يضيعنا.

الله أكبر، يقين، صدق عند هذه المرأة عجيب، وتوكل على الله لا تكاد تجده عند الرجال، ومن كان الله معه؛ فلا شك أن الله كافيه ﷺ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه - جل وعلا -، إن التوكل على الله فيه راحة للنفس وطمأنينة قلما يجدها الناس من غير المتوكلين على الله - جل وعلا -.

وقد أخرج الإمام الطبري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وحسنه الحافظ ابن حجر من حديث عليّ أنها ناداها جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أو قالت أنا أم ولد إبراهيم، فقال لها: إلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله، فقال: وكلكما إلى كافٍ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ثم انصرف صلوات الله وسلامه عليه.

وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ الماء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى من العطش، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه بهذا الوضع، فوجدت الصفا أقرب جبل من الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، وكان وادياً، فكانت تجري فيه حتى تصعد الوادي^(١)، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات،

(١) والرجال اليوم يسعون سعياً شديداً في هذا الوادي اقتداء بسنة نبينا محمد ﷺ.

ترجع بين الصفا والمروة، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذاك سعي الناس بينهما»، قال: فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه، تريد نفسها مع أنه لا يوجد من تسكته، وإنما تُسكت نفسها، تحدث نفسها^(١).

ثم قالت قد أسمعُت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم - عند الصبي الصغير -، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه - أي: تمنع الماء من أن ينتشر، تعمل له مثل الحوض -، وتقول بيدها هكذا، - يعني: تَزُمُّه ولذلك سمي زمزم -، ثم قال: وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، - كلما غرفت بالسقاء كلما فار الماء -، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً»^(٢) قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة^(٣)، فإن هاهنا بيت الله يُبنى بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله ﷺ.

قال ابن عباس: وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، وإن هذا الطائر ليدور على ماء، فأرسلوا جرياً

(١) يقول أهل اللغة: هناك فرق بين صو - بالتثوين - وصه - بالتسكين -: صه: اسكت ولا تتكلم، وصو: اسكت لحظة أريد أن أسمع شيئاً.

(٢) ولكن قدر الله وما شاء فعل، ولو كان أحد مكانها لفعل كما فعلت؛ لأنه يخشى أن يكون هذا الماء قليلاً، ثم إذا تركته ذاب في الأرض ولم تستفد منه.

(٣) أليست قلت إذا لا يضيعنا، لا تخافوا الضيعة.

أو جريين^(١)، فإذا هم بالماء، فرجعوا وأخبروهم بأن في هذا المكان ماء، فأقبلوا إلى الماء، قال ابن عباس: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نجلس عندك، - وهذه من أخلاق العرب، استأذنها وهي امرأة ضعيفة معها ولد رضيع، وهم جماعة كثيرة، ومع هذا يستأذنونها -.

قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء - هي إلى الآن تخشى قلة الماء، وإنه بالكاد يكفيها وولدها - . قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس» يعني: جاءها الذي يؤنسها، وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى.

قال ابن عباس: فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، واستقروا في هذا المكان حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام، وتعلم العربية منهم.

وهذا يعني أن إسماعيل لم يكن يتكلم العربية قبل ذلك، ولذلك قلنا: إن العرب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عرب عاربة بائدة، وهم قوم صالح، وقوم هود، وقوم شعيب، وجديس، وطسم.

القسم الثاني: عرب عاربة باقية، ومنهم هؤلاء جُرْهُم قحطان.

القسم الثالث: وهناك عرب مستعربة وهم عدنان نسل إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

(١) الجري: الرسول.

إبراهيم ﷺ يؤمر بذبح ابنه:

وفي هذه الأثناء حين كبر إسماعيل قليلاً، وتمكن حبه من قلب إبراهيم والده صلوات الله وسلامه عليه؛ أراد الله - جل وعلا - أن يمتحن إبراهيم، وذلك لتقديم محبة ربه وُحَلَّتْه التي لا تقبل المشاركة ولا المزاحمة؛ لأن الخلقة أعلى أنواع المحبة، ولذلك قال النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»^(١).

إن الله تبارك وتعالى أمره أن يذبحه كما قال الله عن إبراهيم ﷺ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَارِ آتِيًّا أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وهذه السن - تقريباً - هي السن التي يكون فيها الولد أحب شيء إلى والده؛ لأنه بدأ يمشي معه ويذهب ويجيء ويساعده، كما قال أهل العلم: ذهبت مشقته وجاءت منفعته.

ولنا جميعاً أن نحاول تصور هذه القضية بالنسبة لإبراهيم ﷺ، إبراهيم الوحيد، إبراهيم المنقطع، إبراهيم المهاجر من أهله، إبراهيم الذي جاءه الولد على كبر، بعد هذا كله يأتيه الأمر من ربه أن يذبح هذا الولد.

جاء إبراهيم إلى ولده وقال: ﴿يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَارِ آتِيًّا أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، هكذا جاءني الأمر من الله - جل وعلا -؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، والشيطان لا تسلط له على الأنبياء؛ لأن الحلم من الشيطان، والرؤيا من الله، والشيطان قد عصم الله الأنبياء منه، فكل ما يراه الأنبياء في منامهم فهو وحي من الله تبارك وتعالى، فأخبر ولده بما رآه فيأتي الجواب من الابن البار التقي الحليم المستسلم لأمر الله

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وهو أيضاً في الصحيح عن جندب وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

تبارك وتعالى الراضي به: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصفات: ١٠٢] كما تلتطف إبراهيم مع أبيه عندما دعاه إلى الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]، ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥]، فجاء كذلك إسماعيل بهذه الكلمة التي ابتدأها إبراهيم لأبيه، فقال له: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَجْدُيَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢] خضعا لأمر الله - جل وعلا -، وانقادا له، ووطنا نفسيهما على القبول، مع أنه أمر مزعج لا تكاد النفوس أن تصبر عليه أو أن تصبر على أقل منه، ولكن:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وذلك أن نفس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ونفس إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه كانتا من النفوس الكبار عند الله - جل وعلا -، ولذلك قال الله - جل وعلا -: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويقول الله - جل وعلا -: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا لِلجَيْنِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصفات: ١٢٤] عند ذلك جاء الفرج من الله تبارك وتعالى ﴿وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَتَّيْبَهُهُ ﴿١٦٤﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا﴾ [الصفات: ١٦٤] صدقتها بقلبك، وصدقته بعملك وهذا وقع لإبراهيم ولولده الذي أراد أن يذبحه، حصل لهما الأجر والشواب والشرف والقرب من الله تبارك وتعالى لاستسلامهما لأمر الله - جل وعلا -، عندهما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾ [الصفات: ١٦٧] لأن الذبح الآن لا فائدة منه، ولا محصلة من ورائه؛ لأن مراد الله قد تحقق، وودَّ إبراهيم قد صفا الله - جل وعلا -، فصار بعد ذلك سفك الدم وإزهاق الروح لا فائدة منه ولا معنى له، وذلك أن الله تبارك وتعالى لا يريد تعذيب عباده، ولكنه يريد أن يتليهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقد ابتلى إبراهيم وحقق الابتلاء مراد الله - جل وعلا - وجاء نفعه، وظهر أثره وتحققت النتيجة، إذ لا داعي للذبح بعد ذلك ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾.

وصارت بعد ذلك سنة للمسلمين الذين يتبعون ملة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن نذبح في الأضحى في كل سنة كما فدى الله ولد إبراهيم من الذبح.

من الذبيح؟

اختلف الصحابة رضي الله عنهم في تحقيق الذبيح على ثلاثة أقوال، وكذلك أهل العلم اختلفوا على ثلاثة أقوال بناء على اختلاف الصحابة:

القول الأول: إن الذبيح إسحاق.

القول الثاني: إن الذبيح إسماعيل.

القول الثالث: التوقف أسلم، لا نجزم.

ولا شك أنه ليس هناك نص قطعي يحسم هذه المسألة هو إسحاق أو إسماعيل، لا من القرآن ولا من السنة.

والأمر لا يهم كثيراً سواء كان الذبيح إسماعيل أو إسحاق أو لم يُعرف، المهم العبرة التي تؤخذ من هذه القصة، وهي استسلام إبراهيم لأمر الله وكذا ولده، وكيف أن الله تبارك وتعالى حمى أولياءه رضي الله عنهم، وأنه لما تحقق مراد الله - جل وعلا - وصفا حبّ إبراهيم لربه - جل وعلا - ألغى الله الأمر بالذبح وفداه بذبح عظيم.

أدلة من قال: إن الذبيح هو إسماعيل رضي الله عنه:

أولاً: إن الله تبارك وتعالى لما ذكر هذه الآيات عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (١١) رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ فَسَخَّرْنَاهُ بَعْلَ حَاسِبٍ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴿١٤﴾ [الصفافات] إلى نهاية الآيات، ثم قال: ﴿وَسَخَّرْنَاهُ بِإِذْنِنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٦) [الصفافات] فقالوا: إذا جاءت البشارة بإسحاق بعد ذكر هذه القصة، ولا يمكن أن يكون السياق القرآني هكذا، يذكر الله

قصة ذبح إسحاق أو إرادة إبراهيم لقتل أو ذبح إسحاق ثم بعد نهاية القصة يقول: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ هذا ينافي جمال السياق القرآني، بل جمال السياق القرآني يقول: إنه بعد أن أراد أن يذبح إسماعيل بشره الله تبارك وتعالى بإسحاق نبياً من الصالحين.

ثانياً: الذبيح اتصف بالصبر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢]، وقد وصف الله إسماعيل بالصبر، فقال - جل وعلا -: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) [الأنبياء].

ثالثاً: وصفه الله بصدق الوعد: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مریم: ٥٤]، وصدق الوعد متحقق عندما قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

رابعاً: في قوله - جل وعلا -: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ [الصفات: ١١٢] يقول أهل العلم: كيف يبشره بإسحاق نبياً ثم يأمره قبل أن يصير نبياً، إذاً لن يتحقق مراد الله - جل وعلا -، أو يكون الأمر ليس على وجه الجد، وليس الأمر كذلك.

خامساً: لما جاءت البشارة بإسحاق جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فلو كان إسحاق هو المأمور بقتله فكيف يبشره بأنه يأتي من ذريته يعقوب وهو سيقتل، فلا تكون الاستجابة كما أمر الله تبارك وتعالى، ولا يكون ابتلاء من الله - جل وعلا -.

سادساً: ذكروا أن من الأدلة قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أنهم وجدوا في مكة قرن الكبش معلقاً في الكعبة^(١) ومعلوم أن الذي كان في مكة إنما هو إسماعيل، وهذا دليل على أن الذبيح هو الذي كان عند

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٣٠)، وأحمد (٦٨/٤)، (٣٨٠/٥).

الكعبة، والذي كان عند الكعبة هو إسماعيل، وليس إسحاق؛ لأن إسحاق كان في الشام صلوات الله وسلامه عليهما.

سابعاً: عند أهل السير أن النبي ﷺ كان يقول: «أنا ابن الذبيحين»^(١) ولكنه لم يثبت، والذبيح الأول هو إسماعيل؛ لأن محمداً ﷺ من نسل إسماعيل، وأما الذبيح الثاني فهو عبد الله والد النبي ﷺ كما هو معلوم من قصة عبد المطلب لما نذر أن يذبح واحداً من أولاده إن رزقه الله بعشرة من الولد.

ثامناً: معلوم أن سارة إنما غارت من هاجر لما ولدت، والابتلاء لإبراهيم إنما يكون بالولد الأول لا الثاني، فالولد الأول أحب من الثاني، ولذلك دائماً يشعر الأولاد الصغار بأن الأب يقدم البكر عليهم، وإنما يكون الابتلاء إذا أمر بذبح إسماعيل وليس له غيره.

تاسعاً: إن الله إذا ذكر إسحاق في القرآن الكريم يصفه بالعلم كما قال - جل وعلا - عن الملائكة أنهم بشروا إبراهيم، فقالوا: ﴿قَالُوا لَا تَزَلْ إِنَّا نَشْرِكُ بِعَلِيِّمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ [الحجر]، وكذلك في الذاريات قال: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُ بِعَلِيِّمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ [الذاريات: ٢٨]، فإسحاق يوصف بأنه عليم، وإسماعيل هو الذي وُصف بأنه حليم^(٢)، وإبراهيم إنما بشره مع سارة، ولذلك جاء في الآيات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، وكان إبراهيم يقول: ﴿أَبَشِّرْهُنِي بِعَلِيِّ الْكَبِيرِ فِيمَا

(١) هذا الحديث لا أصل له كما قاله الشيخ الألباني رحمه الله، وانظر الكلام عليه في: «السلسلة الضعيفة» (٣٣١، ١٦٧٧).

(٢) قال ابن جماعة رحمه الله: «إنما وصفه هنا بالحلم؛ لأن المراد إسماعيل، فناسب ما ذكر عنه من الأتقياء إلى رؤيا أبيه مع ما فيه من المرارة والمشقة على النفس، وأما في الذاريات فالمراد إسحاق؛ لأن تبشير إبراهيم بعلمه ونبوته، ففيه دلالة على بقاءه إلى كبره، وهذا يدل على أن الذبيح إسماعيل والله أعلم». في «كشف المعاني» (ص ٣٠٨).

تُبَشِّرُونَ ﴿[الحجر: ٥٤]، فالشاهد من هذا أن هذه الآيات تدل على أن الذي يوصف بالعلم هو إسحاق، وأما الذي يوصف بالحلم وهو الذي أمر إبراهيم بذبحه إنما هو إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

وعن محمد بن كعب القرظي أنه ذكر لعمر بن عبد العزيز أيام كان خليفة، إن الذبيح إسماعيل بدليل قوله - جل وعلا - : ﴿فَبَشِّرْنَهَا يَا سَحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، يعني: استدل على أن الذبيح إسماعيل بأنه لما بُشِّر إبراهيم بإسحاق بُشِّر أيضاً بيعقوب فكيف يؤمر بذبحه؟ فقال عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، يعني: ما كلفت نفسي أن أنظر هل الذبيح إسحاق أو الذبيح إسماعيل، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، وكان يهودياً وأسلم، وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء اليهود قبل أن يُسلم، فقال له عمر: أي بني إبراهيم أمر بذبحه - يسأله السؤال بعد أن أثار عنده الموضوع محمد بن كعب القرظي - قال: إسماعيل يا أمير المؤمنين^(١)، وإن يهوداً لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معاشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم.

وهذا الأصمعي - الأديب المعروف - يقول: سألت أبا عمرو بن العلاء - أحد القراء المشهورين - عن الذبيح، من هو؟ فقال لي: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة، وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحرف بمكة، ألا يكفيك هذا أن يكون دليلاً على أن الذبيح إنما هو إسماعيل دون إسحاق؟! فسكت الأصمعي.

(١) مع أن أهل الكتاب مجمعون على أن الذبيح إسحاق، ولو رجعت إلى التوراة لوجدت أن الذبيح إسحاق، وهم متفقون على هذا الأمر.

أدلة من قال: إن الذبيح هو إسحاق ﷺ:

أولاً: استدلو بأن هذا هو المشهور عند أهل الكتاب.

واستدلو بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ

﴿[الصافات]﴾ [١١٧] وبقول الله تبارك وتعالى: ﴿بَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿[

الصافات]﴾، وقالوا: إن الذي بُشِّر به هو إسحاق، فيكون الذي بُشِّر به وفرح به هو الذي أمر بذبحه حتى يتساوى الفرح من الحزن.

ولكن هذا لا يستقيم - حقيقة - مع ما ذكرناه من الأدلة التي أرى - والله أعلم - أنها قوية في بيان أن الذبيح إنما هو إسماعيل دون إسحاق، وأيُّ الأمرين كان؛ فإن هذا نبي كريم، وذاك نبي كريم وكلاهما نتولاهما ونحبهما ونعتقد نبوتهما صلوات الله وسلامه عليهما، ولكن من باب تحقيق هذه المسألة علمياً.

حياة إسماعيل ﷺ:

قال ابن عباس: «وشبَّ الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب» «وأنفسهم» أي: صار من أحسنهم وأفضلهم. «وأعجبهم» أي: الذي وقع من بروز إسماعيل وأخلاقه ودينه وتقواه ومعرفته، فأعجبوا به صلوات الله وسلامه عليه، ولما أدرك زوجته امرأة منهم.

لما تزوج إسماعيل منهم جاء أولاد إسماعيل عرباً عاربة، وإسماعيل من العرب المستعربة.

وماتت أم إسماعيل بعد ذلك «فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته» أي: ولده، «فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، وهي لا تعرفه فقالت: خرج بيتني لنا» أي: طعاماً «ثم سألتها عن عيشتهم وهيتهم، فقالت: نحن بشرٌّ، وشكَّت إليه حالها، قال لها إبراهيم: فإذا جاء

زوجك، فاقترني عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، وذهب، فرجع إسماعيل، فكانه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، وصفته له، فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عشنا فأخبرته أننا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء، قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، وما تدري أنها جرت الأمر لنفسها «قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها» صلوات الله وسلامه عليه.

مسألة فقهية:

لو جاء أبٌ لولده، وقال: طلق امرأتك، فهل يجب عليه أن يطيع والده أو لا؟

ثبت أن عمر رضي الله عنه أمر ولده عبد الله أن يطلق امرأته، فجاء عبد الله إلى النبي ﷺ، فقال له: «أطع أبك»^(١) يعني طلق امرأتك.

فالآن لو جاء رجل إلى ولده، وقال: طلق امرأتك، هل يطيعه ولده كما أطاع إسماعيل إبراهيم، وعبد الله أطاع والده عمر؟ أم إنه لا يطيعه، هل يبهر بهذا أو لا يبهر؟

قال بعض أهل العلم: إذا كان والد هذا الرجل كإبراهيم أو عمر فليطلق، وإذا لم يكن الوالد كذلك فلا يطيع والده، فالمسألة إذاً ليست على إطلاقها، كلٌّ من جاءه والده قال: طلق امرأتك؛ لأنه سمع منها كلاماً أساءه، أو طلب منها شيئاً فمنعته، أو ما شابه ذلك، فالولد لا يطيع والده في هذا إلا إذا كانت المرأة سيئة، وهنا يبهر والده، وأما إذا كانت المرأة سالحة؛ فإنه لا يظلمها بطاعة والده.

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٨)، والترمذي (١١٨٩)، وابن ماجه في (٢٠٨٨)، وحسنه الشيخ الألباني «السلسلة الصحيحة» (٩١٩)، «إرواء الغليل» (١٣٦/٧).

وتزوج منهم أخرى، يقول ابن عباس: «فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده أيضاً، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله - جل وعلا -، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء»، استجاب الله لإبراهيم، وذلك أن أي إنسان عليه دم فإنه يكون لفقراء مكة، فمن أخطأ في النسك أو ما شابه ذلك من الأشياء التي تُلزم الدم فإنما يذبحه لفقراء مكة، فاللحم لا ينقطع عن أهل مكة إلى اليوم، والماء كذلك، فماء زمزم يذهب إلى كل بلاد الدنيا، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب»، مكة أرض جدباء ليست زراعية، يقول: «ولو كان لهم لدعا لهم فيه»، يعني لو قالت: طعامنا اللحم والبقلاء، اللحم والفاصوليا، اللحم والشعير، اللحم والقمح، وما شابه ذلك من الحبوب؛ لدعا لهم أيضاً، لكن لم يكن موجوداً، لذلك لم يدعُ لهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فيه، قال النبي ﷺ: «فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه» يعني: لو كان في غير مكة والإنسان فقط يأكل لحماً ويشرب ماء يتضرر ويتعب، لكن أهل مكة لو أكلوا لحماً وماء يبارك الله تبارك وتعالى فيه.

قال النبي ﷺ عن إبراهيم ﷺ أنه قال لها: «فإذا جاء زوجك فاقترني عليه السلام ومُريه يشب عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أنا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشتنا، فأخبرته أنا بخير. قال: أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك».

إبراهيم وإسماعيل ﷺ بينان الكعبة:

قال ابن عباس: «ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً^(١) له تحت دوحه^(٢) قريبة من زمزم فلما رآه^(٣) قام إليه، فصنع كما يصنع الوالد بالولد» ثم قال إبراهيم: «يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة^(٤) على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني^(٥)، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا نَقَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال فجعلنا بينان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا نَقَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

هل البيت كان موجوداً قبل إبراهيم ﷺ:

هناك قول بأن البيت كان موجوداً زمن آدم صلوات الله وسلامه عليه، وأن سفينة نوح طافت حول البيت، وأن الأنبياء قبل إبراهيم كانوا يحجون إلى هذا البيت، ولكن ليس في هذا كله شيء ثابت في الكتاب أو في السنة، وكلها من روايات بني إسرائيل، والنبى ﷺ قد أمرنا بأمر، فقال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»^(٦)، فنحن لا نُصَدِّقُ ولا

(١) أي: يجزها ويجعلها مديبة.

(٢) أي: شجرة.

(٣) أي: لما رأى إسماعيل أباه إبراهيم، وهذه هي الزيارة الثالثة لإبراهيم ﷺ. وقد زار ابنه ثلاث مرات بعد أن أتى بهما إلى مكة ﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

الأولى: لما طلق إسماعيل زوجته الأولى.

الثانية: لما ثبتت زوجته الثانية. وهذه هي الزيارة الثالثة.

(٤) يعني: كوم تراب مرتفع.

(٥) يعني: مقام إبراهيم.

(٦) تقدم تخريجه ص ٤١.

نُكذَّب، ولكن ظاهر النصوص أن إبراهيم هو أول من بنى هذا البيت، فمن هذه النصوص قول إبراهيم لولده إسماعيل: «إن الله أمرني أن أبنى ههنا بيتاً»، ولذلك جاء في الحديث الصحيح أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن أول بيت وضع في الأرض، فقال: «هو مكة، بيت الله الحرام» قال: والثاني؟ قال: «بيت المقدس، المسجد الأقصى» قال: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(١)، والمعلوم باتفاق أن الذي بنى المسجد الأقصى هو يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، حفيد إبراهيم.

إذاً أول بيت وضع وأول بيت بُني هو المسجد الحرام، والظاهر - والله أعلم - أن أول من بناه هو إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه. أما استدلال بعضهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فإنه لا يدل أبداً على أن القواعد كانت موجودة، ولكن وضعها ورفعها صلوات الله وسلامه عليه.

وأما دعاء إبراهيم ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فإن الله يكون قد أمر إبراهيم ببناء البيت من مدة، ولكن لم يأت وقت البنين، ولذلك قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ﴾ أي: الذي سألني حتى جاء الوقت الذي كبر فيه إسماعيل، فجاء إليه إبراهيم، وقال: «الآن نبني البيت»، فيكون عند بيتك المحرم الذي أمرتني أن أبنيه لك لا عند بيتك المحرم الموجود، ولذلك لما ترك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هاجر وابنها لم يكن البيت موجوداً في ذلك الوقت.

بناء البيت في عهد النبي ﷺ:

هذا البيت استمر مدة طويلة، ثم بعد ذلك جاءته السيول، ومع طول المدة تهدم منه شيء كثير، وفي زمن النبي ﷺ اجتمع أهل مكة

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

وقالوا: نبنيه من جديد أو نرمم البيت؟ فقال بعضهم: نهدهم ونبنيه من جديد، وقال أكثرهم: بل نرممه، وذلك أنهم خافوا إذا هدموا البيت أن يرسل الله عليهم الطير الأبابيل، كما أرسلها على أبرهة وأتباعه لما أرادوا هدم البيت.

وقال آخرون: لا، أبرهة جاء ليهدمه عدواناً، ونحن نريد أن نبنيه من جديد، إذا النية اختلفت، شتان بين من أراد أن يهدم البيت احتقاراً له، وبين من أراد أن يهدم البيت ليعيد بناءه بناءً سليماً، فقالوا: والله لا نفعل، يخشون على أنفسهم أن يعذبهم الله تبارك وتعالى، حتى قال قائلهم: أرأيتم لو كان بيتاً لأحدكم أيرضى أن يرممه أو يهدمه وبينه من جديد؟ قالوا: بل يهدمه وبينه من جديد، قال: بيت الله أولى.

وكان القائل - كما ذكّر - هو الوليد بن المغيرة والد خالد، فاقتنعوا برأيه، وقالوا: نعم نهدم، ولكن ابدأ أنت، حتى إذا وقع شيء يقع عليك، طالما أنت صاحب الفكرة، قال: نعم، فجاء ومعه الفأس واقترب من البيت وأراد أن يضرب وقال: اللهم لن تُرع، يعني: لا تخف يا رب إنما نريد الحسنى، ولا شك أن في هذه الكلمة سوء أدب مع الله ﷻ؛ وذلك أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذا من جهلهم بالله تبارك وتعالى، ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فكلما ازداد الإنسان علماً بالله ازداد له خشية، وكلما ازداد الإنسان جهلاً بالله ازداد خطؤه وخطله، فهذا الرجل جاهل بالله تبارك وتعالى ولم يقدر الله حق قدره، ولذلك قال - جل وعلا -: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ثم ضرب فلم يحصل له شيء، فقال: اهدموا فإني لم أصب، فقالوا: لا حتى تنام الليلة وتصبح من الغد، ونراك سليماً صحيحاً بعد ذلك نهدم.

فلما جاء الغد وإذا بالرجل كما هو لم يصب بأذى، فقالوا: إذا نهدم، فهدموا البيت، والقواعد موجودة التي هي الأسس، فلما أرادوا

أن يبنوا من جديد، وإذا الأموال لا تكفي؛ لأنهم قرروا أن يبنوا البيت من مال حلال لا يدخل فيه مهر بغي، ولا مال ربا، ولا مال قمار، ولا مال مسروق، فهم يعرفون المال الحلال من الحرام، فبنوا البيت ولم يُكملوه، فلما لم يكملوه وضعوا ما يسمى بالحِجْر الذي يسميه العامة: «حِجْر إسماعيل»، وهو ليس لإسماعيل، إسماعيل لا يعرف الحجر عليه الصلاة والسلام^(١)، فاليبت كان مستطيلاً إلى الحجر، وهم بلغت أموالهم للبناء إلى هذا المكان، فعملوا هذا القوس، الحِجْر ليبنوا أن هذا المكان من البيت ولكننا لم نستطع أن نكمله.

ومن طاف داخل هذا الحجر؛ فإن طوافه لا يصح؛ لأن المطلوب الطواف حول البيت لا داخل البيت، ومن صلى فيه يعتبر صلى داخل البيت، ولما سألت عائشة النبي ﷺ أن تصلي داخل البيت، قال: «صلي في الحجر فإنه من البيت»^(٢).

وذهبت الأيام والليالي والسنون حتى فتح الله مكة لنبيه محمد ﷺ، فأراد النبي ﷺ أن يكمل هذه الزيادة، لكن إذا أراد أن يكمل هذه الزيادة سيهدم الجهة التي إلى الشام والعراق، الركن الشامي والركن العراقي الذي فيه الميزاب، لكنه خشى صلوات الله وسلامه عليه أن يتكلم الناس فيه، ماذا يقولون؟ يقولون: هذا محمد الذي يدعي أنه يعظم البيت أول ما فتح مكة هدم البيت!! لذلك أثر أن لا يهدم حتى تثبت قدم الإسلام في قلوب الناس، وحتى تكون عنده النفقة الكافية.

(١) قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد رحمته الله: «ذكر المؤرخون، والإخباريون: أن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام مدفون في «الحِجْر» من البيت العتيق، وَقَلَّ أن يخلو من هذا كتاب من كتب التاريخ العامة، وتواريخ مكة - زادها الله شرفاً - لذا أضيف الحِجْر إليه، لكن لا يثبت في هذا كبير شيء؛ ولذا فقل: «الحِجْر»، ولا تقل: «حِجْر إسماعيل» والله أعلم». «معجم المناهي اللفظية» (ص ٢٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٢٨)، والترمذي (٨٧٦)، والنسائي (٢٩١١، ٢٩١٢).

بناء البيت في عهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

ذهبت الأيام وجاءت خلافة أبي بكر، فعمرو، فعثمان، فعلي، فالحسن، فمعاوية، فيزيد حتى جاءت خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة أربع وستين (٦٤هـ)، فلما كانت خلافته قال: أريد أن أكمل البيت، وقال: أما وأنا الآن لا أخشى أحداً وعندني المال.

قال عطاء: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجروهم أو يحربهم^(١)، فلما صدر الناس قال: أيها الناس أشيروا علي في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها، فأنا أرى ذلك، أنقضها ثم أبني بناءها مرة ثانية على قواعد إبراهيم، أو أصلح ما وهى منها، ما رأيكم. قال ابن عباس: فإني قد فرقت لي رأي فيها، قال: قل، قال: أرى أن تصلح ما وهى منها.

وكان للكعبة بابان: باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون منه، فجعل كفار مكة لها باباً واحداً، وكان الباب ملتصقاً بالأرض، فرفعه كفار مكة عن الأرض، وعبد الله بن الزبير الآن يريد أن يعيدها كما كانت زمن إبراهيم، يجعل لها بابين، وينزلهما إلى الأرض.

قال ابن عباس: أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتنا أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجده، فكيف ببيت ربكم إني مستخير ربي ثلاثاً، ثم عازم على أمري، فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء^(٢)، حتى صعد رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم

(١) يعني: على أهل الشام.

(٢) أيضاً خافوا أن ينزل أمر من السماء.

يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة؛ أي: جعل لها أعمدة، فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه.

ويقال: إن عبد الله بن الزبير أول من جعل الستور على الكعبة.

قال ابن الزبير: إني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه؛ لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت لها باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه»، إذاً ليس كل الحجر من الكعبة وإنما خمسة أذرع فقط.

قال ابن الزبير: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر أدخلها في الكعبة، حتى أبدى أساً نظر الناس إليه^(١)، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره، فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يُدخَل منه، والآخر يُخرَج منه.

هدم ما بناه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

قُتِلَ عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين من الهجرة (٧٣هـ) على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، ورأى الحجاج - لما دخل مكة - الكعبة متغيرةً مختلفةً تماماً، فأرسل الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك: أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍ نظر إليه العدول، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطّيح ابن الزبير في شيء، أما ما زاده من طوله فأقرّه^(٢)، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه كما كان، وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعادّه إلى بنائه.

(١) أراهم أساس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) يعني: أبقه كما كان.

ثم بعد ذلك وَفَدَّ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب^(١) سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها^(٢). قال الحارث: بلى أنا سمعته منها أيضاً، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: سمعتها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه»، فأراها قريباً من سبعة أذرع.

قال: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً»، ثم قال لها: «وهل تدرين لِمَ كان قومك رفعوا بابها؟» قالت: لا، قال: «تعزراً ألا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقي حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط».

قال عبد الملك للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: ودَدْتُ أني تركته وما تحمل^(٣).

ثم تُرِكَ البيت حتى جاء زمن المهدي الخليفة العباسي، فأرسل إلى الإمام مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبد الله نريد أن نستشيرك، قال: ماذا؟ قال: أهدم البيت وأعيده إلى قواعد إبراهيم مرة ثانية؟ فقال الإمام مالك: أرى أن تدعه، قال: لِمَ؟ قال: أخشى أن يتخذة الملوك لعبة، هذا يهدم وهذا يبني، فتذهب هيبة البيت من قلوب الناس. فترك إلى يومنا هذا.

إذاً البيت الآن من حيث البنيان ناقص البنيان، والحجر خمسة أذرع منه من البيت.

(١) يعني: عبد الله بن الزبير.

(٢) يعني: قول النبي ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية..».

(٣) أخرجه مسلم (١٣٣٣).

وهذه الكعبة المشرفة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد أخبر النبي ﷺ أنه: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»^(١)، وذلك بعد وفاة عيسى صلوات الله وسلامه عليه بعد أن ينزل، وقيل قبل ذلك، والعلم عند الله - جل وعلا -، ولكن المشهور أنه يكون بعد عيسى عليه السلام؛ لأن عيسى سيحج كما في «صحيح مسلم»^(٢) حيث لا يكون بعد ذلك حج حتى تقوم الساعة على شرار الخلق.

كذب المشركين على إبراهيم وإسماعيل عليه السلام:

ولما فتح الله تبارك وتعالى مكة على نبيه محمد ﷺ، وذلك في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان، دخل صلوات الله وسلامه عليه الكعبة، فرأى فيها العجب، وذلك أنه رأى في الكعبة الصور، فلم يدخل حتى مُحيت، وكان مما رأى من الصور صورة نبي الله إبراهيم ونبي الله إسماعيل بأيديهما الأزلام يستقسمان بهما، وهي الأعواد التي كانت يستقسم بها أهل الجاهلية، زعموا كذباً وزوراً أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وولده إسماعيل كانا يستقسمان بالأزلام، فلما رأى ذلك النبي ﷺ قال: «قاتلهم الله، والله إن يستقسما بالأزلام قط»^(٣)، و(إن) هنا نافية، يعني: لم يستقسما بالأزلام قط، وهي كمثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ فِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] إن استطاعوا، يعني: ولن يستطيعوا، وكذلك هنا، «إن يستقسما» أي: لم يستقسما، فهي نافية، لم يستقسم إبراهيم ولا إسماعيل ولا غيرهما من الأنبياء بالأزلام قط، كيف وقد أخبر الله تبارك وتعالى

(١) أخرجه البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «صحيح مسلم» (١٢٥٢). (٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٢).

في قوله: ﴿إِنَّمَا لَفَتْرُ وَالْتَبِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذَلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] فكيف يقع الرجس من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟! وهم الذين عصمهم الله واختارهم وقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

مقام إبراهيم عليه السلام:

لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه مقام معروف، يقال له: (مقام إبراهيم)؛ أي: ما أقامه إبراهيم من الحج، فمقام إبراهيم عرفة، ومقام إبراهيم مزدلفة، ومقام إبراهيم الجمرات، ومقام إبراهيم الحرم، وذهب الأكثر إلى أن المقصود من مقام إبراهيم هذا الذي يصلي خلفه الناس فيه خطوة يقول الناس إنها خطوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو قريب من الكعبة، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم.

قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقلت: يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال عمر: وبلغني معاتبه النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه، فدخلت عليهن، فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾ [التحريم: ٥]^(١).

وأخبر قتادة رضي الله عنه - وهو من أئمة التابعين - عن المقام، فقال: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يأمرؤا بمسحه - وذلك أن بعض الجهلة كانوا يأتون إلى المقام ويمسحونه - ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفتها الأمم قبلها^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩).

(٢) تفسير الطبري (٣٥/٢).

ثم قال أهل العلم - كابن كثير^(١) وغيره - نقلاً عن بعض السلف، ونُقل حتى عن أنس رضي الله عنه أن آثار قدم إبراهيم كانت واضحة، فكان أثر قدمه واضحاً، وأثر أصابعه واضحاً، وأثر عقبه واضحاً، يقول: فما زال الناس يتمسحون به حتى خفي ذلك الأثر، وكان هذا المقام مُلصقاً بالكعبة، فلما كان زمن عمر أعاد المقام حتى يرتاح المصلون من الطائفين، ويرتاح الطائفون من المصلين، هذه القدم التي نراها كما قلنا، ذكر قتادة أنه اخلولق وانمحي؛ أي: تأثر من كثرة مسح الناس له، ولذلك قال شاعرهم:

وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطن إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وفيه قراءتان، قال الله - جل وعلا -: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّنَابِتَ لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وجاءت القراءة الثانية بالفعل الماضي «وَاتَّخِذُوا» إذاً هناك أمر «اتَّخِذُوا»، وهناك خبر (اتَّخِذُوا من مقام إبراهيم مصلي) وكلا القراءتين ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

حديث ضيف إبراهيم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أُنثِيَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ٢٥ إذ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمْنَا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُّكْرُونَ ٢٥ فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧ [الذاريات] ضيوف غرباء دخلوا على إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، رأيهم واستغربهم ﴿قَوْمٌ مُّكْرُونَ﴾، ولكن لم يمنعه هذا من أن يذهب إلى أهله ويأتيهم بعجل سمين، وقربه إليهم ليأكلوا، فلم يأكلوا، فتعجب منهم صلوات الله وسلامه عليه، فأخبروه بأنهم ملائكة الرحمن صلى الله عليه وسلم، وذلك أن الملائكة خُلِقوا من نور،

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٤١٧).

وجعل الله لهم القدرة على التشكل، تتشكل الملائكة على صورة
الآدميين، كما تشكل جبريل على صورة رجل جاء يسأل النبي ﷺ عن
الإسلام والإيمان والإحسان^(١).

وهنا تشكلت الملائكة لإبراهيم، على صورة بشر، وتشكلت
الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام على صورة بشر، وتشكل ملك
الموت لموسى على صورة بشر^(٢)، وهكذا تتشكل الملائكة كيف شاءت.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: في هذه الآية: ﴿هَلْ أُنْذِرُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ
الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات] يقول: في هذه الآية مدح من الله - جل وعلا -
لإبراهيم من أوجه:

أولاً: وصف ضيوفه بأكرم وصف، فقال الله - جل وعلا -: ﴿هَلْ
أُنْذِرُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إذا ضيوف إبراهيم كانوا مكرمين، إما من
قول الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] أي: عن الملائكة،
أو وصفهم بمكرمين؛ أي: بما قام به إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه
من الإكرام لهم.

ثانياً: قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ [الذاريات: ٢٥] ولم يذكر لهم استئذاناً،
وإنما قال: ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ قال ابن القيم: مما يدل على أن إبراهيم
صلوات الله وسلامه عليه كان مضيفاً، وكان بيته مفتوحاً للضيوف.

ثالثاً: قالوا له: ﴿سَلَامًا﴾ فقال لهم: ﴿سَلَامٌ﴾ فقولهم: ﴿سَلَامًا﴾
بالنصب جملة فعلية، كما يقول أهل العلم تدل على التجدد والحدثة،
أما إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿سَلَامٌ﴾، وهذه جملة اسمية
والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فقوله: ﴿سَلَامٌ﴾ أعبر من قولهم

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأيضاً أخرجه مسلم
(٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿سَلَّمَ﴾ فأكرمهم حتى في رد السلام صلوات الله وسلامه عليه .

رابعاً: ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَبَجَّءَ يَعْجَلُ سَمِينٌ﴾ [الذاريات] والروغان هو: الذهاب بسرعة وخُفية حتى لا يزعج ضيوفه صلوات الله وسلامه عليه .

خامساً: ذهب إلى أهله، فجاء بالضيافة مباشرة، ولم يقل: ثم جاء بعجل سمين، مما يدل على أن الضيافة كانت عنده جاهزة صلوات الله وسلامه عليه، وذلك لكثرة دخول الضيوف عليه، وإنما هو استغرب أشكالهم صلوات الله وسلامه عليه، حيث إنهم ليسوا من أهل بلده، ولعلمهم جاؤوه بصورة جميلة كما هي حال الملائكة إذا تشكلوا إنما يتشكلون بأجمل صورة.

سادساً: جاءهم بعجل سمين، وهذا من كرم الضيافة .

ذُكِرَ أن رجلاً أضاف رجلاً، قال: أدعوك إلى منزلي، قال: بثلاثة شروط، قال: ما هي؟ قال: لا تخون، ولا تجور، ولا تتكلف. قال: قبلت، ولكن اشرحها لي، قال: لا تتكلف ما ليس عندك، قال: لك هذا، قال: ولا تخون فتُخفي عني ما عندك، أكرمني. قال: لك هذا، قال: ولا تجور فتعطيني طعام أولادك، تظلمهم لأجلي، قال: لك هذا .

سابعاً: ﴿فَبَجَّءَ يَعْجَلُ سَمِينٌ﴾ [الذاريات: ٢٦]، لم يقل إيتونا بعجل، لا بل أكرمهم بنفسه، ثم كذلك جاء بالعجل كاملاً، ما جاء بفخذ، أو رقبة، أو يد، أو رأس، وإنما جاء بالعجل كله، ووضع أمامهم صلوات الله وسلامه عليه .

ثامناً: قرّبه؛ أي: بنفسه كذلك، وأيضاً قرّبه ولم يقربهم، لم يقل لهم: تفضلوا، وإنما جاء ووضع أمامهم لشدة إكرامه لهم حتى لم يكلفهم بالقيام من مكانهم .

تاسعاً: لما وضعه أمامهم، قال: ألا تأكلون؟ وهذا من التلطف مع

الضيف، ولم يقل لهم: كلوا يأمرهم أمراً، وإنما قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، يتلطف معهم صلوات الله وسلامه عليه.

عاشراً: ثم إنه خافهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه لم يظهر لهم هذا الخوف من أدبه مع ضيوفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم^(١).

إبراهيم عليه السلام يختتن وهو ابن ثمانين:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة»^(٢)، والختان للرجل والمرأة، وهو قطع رأس الفرج بالنسبة للمرأة، وقطع رأس الذكر بالنسبة للرجل، أما المرأة فيؤخذ منه شيء يسير، وأما الرجل فتؤخذ القلفة التي تكون فوق رأس الذكر، وجمهور العلماء على أنه سنة مؤكدة، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه واجب، وأما بالنسبة للنساء فهو مكرمة، إن شاءت فعلت، وإن شاءت تركت.

اختتن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وهو ابن ثمانين سنة بالقُدُوم، والقُدوم منطقة في بلاد الشام؛ أي: اختتن وهو ابن ثمانين سنة بالقُدوم؛ أي: في منطقة القُدوم في الشام، وقُرأت بالقُدوم، بتخفيف الدال، وهو الفأس، أو يشبه الفأس، يعني اختتن بهذه الآلة، وسواء اختتن بالقُدوم - أي: في بلاد القُدوم - أو اختتن بالقُدوم: آلة النجارة المهم أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة صلوات الله وسلامه عليه.

(١) انظر الأوجه كلها في: «جلاء الأفهام» لابن القيم رحمته الله وقد قال بعدها: «فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف، إنما هي من أوضاع الناس وعواندهم، وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين». (ص ١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٦)، ومسلم (٢٣٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صفة إبراهيم عليه السلام:

قال النبي ﷺ في صفته: «أتاني الليلة آتيان فأتياي على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طويلاً وإنه إبراهيم عليه السلام»^(١).

وأخبر النبي ﷺ - كما في البخاري - أنه أشبه الناس بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنه وصف موسى، ووصف عيسى، فلما قيل له: صِفْ لنا إبراهيم، قال: «أشبهكم به صاحبكم»^(٢)، يعني نفسه صلوات الله وسلامه عليه.

إبراهيم عليه السلام وإحياء الموتى:

قال الله - جل وعلا -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٦﴾ [البقرة].

قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ سؤال من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، سأل ربه - جل وعلا - مسألة، وهي أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أُولَٰئِمُتُؤْمِنٌ﴾ أي أحيي الموتى؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ وهذا السؤال من الله لا على سبيل الاستفهام؛ لأن الله تبارك وتعالى ما اختار إبراهيم إلا على علم، ومدحه الله مدحاً لا يكاد يوصف في كتابه العزيز، وأمر باتباع ملته في أكثر من آية: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]، فالله تبارك وتعالى سألته ﴿أُولَٰئِمُتُؤْمِنٌ﴾ أأنت أنتهى الأمر؟ قال: بلى يا رب، ولكن أردت شيئاً آخر، ماذا تريد يا إبراهيم؟

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٤) من حديث سمرة عليه السلام.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة عليه السلام، وأخرجه أيضاً مسلم (١٦٧) من حديث عليه السلام.

قال: ﴿يُطْمِئِنُّ قَلْبِي﴾، قال أهل العلم: أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ [النكاثر]، هذا إيمان قلبي، ﴿لَرَوُوتَ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ [النكاثر] أي: في قلوبكم، وتعرفون صفتها وتؤمنون بوجودها، ﴿ثُمَّ لَرَوُوتَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [النكاثر].

وكما قال موسى صلوات الله وسلامه عليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أراد أن ينظر إلى الله تبارك وتعالى.

قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾»^(١)، وهذا دفاع من النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم أنه لم يشك، يعني: فطالما نحن لم نشك؛ إذاً هو أيضاً لم يشك صلوات الله وسلامه عليه.

والمسألة واضحة أن سؤال إبراهيم لم يكن عن شك، بدليل أنه سأل عن الكيف، ولم يسأل عن القدرة، لم يقل: رب هل تستطيع أن تحيي الموتى؟ ولكن سأل عن الكيفية، فقال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

وقارن بين قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هذا وبين قول حواربي عيسى ﷺ لما قالوا له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] هذا السؤال للشك، ولذلك كان الرد من عيسى: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا رَبُّدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا وَقَلَّمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة]، فدعا عيسى ربه - جل وعلا - : ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

[المائدة: ١١٤] ماذا قال الله - جل وعلا - : ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ تهديد، ووعيد من الله تبارك وتعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، إذا فرّق بين جواب الله للحواريين وبين جواب الله لإبراهيم .

استجاب الله لإبراهيم، وهدد الحواريين، فدلّ هذا على أن سؤال الحواريين كان مرفوضاً؛ لأنهم قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، وسؤال إبراهيم كان مقبولاً؛ لأنه قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ما هذه الطيور؟ أنواع هذه الطيور لا تُعلم، ولا فائدة من معرفتها؛ لأنه لو كان ثمّ فائدة من معرفتها لذكره الله لنا سبحانه، المهم العبرة، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ يعني: أي طير ﴿فَصُرْنَهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: اجمعهن ثم قطعهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، يعني قطعها وضع جزء من هذا الطائر على هذا الجبل، وجزء منه في ذاك الجبل، وكذلك الطائر الآخر، وهكذا فرّق هذه الأجزاء على هذه الجبال، ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ ادع هذه الطيور ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا﴾ يعني: يعيد الله خلق هذه الطيور مرة أخرى ﷻ، والله على كل شيء قدير إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

صحف إبراهيم ﷺ:

قال الله - جل وعلا - : ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزِدَّ وَزْرًا ﴿٣٨﴾ وَوَزْرًا أُخْرَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَن سَعِيَّهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَابُكَ وَأَنَّكَ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن تُلْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم] هذا في صحف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، كذلك جاء في صحف إبراهيم

صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥) بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ [الأعلى] إذا أخبرنا الله تبارك وتعالى عن بعض ما في صحف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وليس عن كل ما في صحف إبراهيم ﷺ وأما تفاصيلها فلا علم لنا بها، وعلمها عند الله ﷻ.

أولاد إبراهيم ﷺ:

ذكر أن له أولاداً كثر، أكثر من سبعة أولاد، وقيل: ثمانية أولاد، والله أعلم، لكن المشهور إسحاق من سارة وإسماعيل من هاجر.

الدروس والعبر المستفادة من قصة إبراهيم ﷺ

الفائدة الأولى: أننا مأمورون باتباع إبراهيم أمراً خاصاً ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [المتحنة: ٤]، وذلك مما هو عليه من التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق، ولم يستثن الله - جل وعلا - شيئاً أبداً، لك في إبراهيم أسوة حسنة إلا في شيء واحد فقط: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّكَ﴾ [المتحنة: ٤] هذه ليس لكم فيها أسوة؛ لأن هذا نسخ ومُنع، كان ماذوناً لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يستغفر لأبيه، ثم منعه الله تبارك وتعالى من ذلك.

الفائدة الثانية: في قصة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من أصول المناظرة، وذلك لما ناظره الرجل الذي يدعي الألوهية.

الفائدة الثالثة: أن من نعمة الله تبارك وتعالى على عبده، أن يلهمه شكر هذه النعم، ولذلك قال إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، والإنسان إذا أنعم الله عليه يتذكر

هذه النعم، ويقتدي بنبي الله إبراهيم، فيحمد الله - جل وعلا - على ما ينعم عليه به .

الفائدة الرابعة: أن أفضل الوصايا ما وصى بها إبراهيم بنيه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة].

الفائدة الخامسة: كرم الضيافة، وهو ما وقع لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كما تقدم في قصة الملائكة .

الفائدة السادسة: مشروعية السلام، فلما دخلت الملائكة على إبراهيم قالوا سلاماً، قال سلام، فالسلام مشروع، بل مستحب أن الإنسان يبدأ أخاه بالسلام .

الفائدة السابعة: بيان إكرام الله لأولياته، لما وهب لإبراهيم وسارة ولداً على الكبر، وهذا من نعمة الله - جل وعلا - كما وهبهما إسحاق ووهب إبراهيم كذلك إسماعيل من أمته هاجر .

الفائدة الثامنة: التأمل في الكون يهدي الإنسان إلى ربه - جل وعلا -، إلى وجود خالق، كما قال الأعرابي: سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير، كذلك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لما ناظر قومه، وقد رأى النجم قال: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْوِمُنِي إِلَىٰ رَبِّي وَمِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام]، فالنظر في الكون يهدي الإنسان إلى ربه - جل وعلا - .

الفائدة التاسعة: مشروعية الهجرة، فإذا أوذى الإنسان في سبيل الله، ولم يستطع أن يظهر دينه؛ فعليه أن يهاجر أسوةً بنبي الله

إبراهيم، بل وبأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

الفائدة العاشرة: الثقة بنصر الله وإن طال الأمد، لا بد أن تثق بنصر الله - جل وعلا -، وإبراهيم ألقى في النار، ويقول: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وجاء النصر من الله - جل وعلا -.

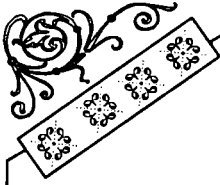
الفائدة الحادية عشرة: المسلم إذا أراد أن يناظر لا بد أن يكون عنده حجة، ليس لكل أحد أن يناظر بدون حجة وبدون برهان، بل استعد بحجتك وبرهانك بالعلم وناظر من شئت بعد ذلك.

الفائدة الثانية عشرة: من يتق الله يجعل له مخرجاً كما فعل الله تبارك وتعالى بأم إسماعيل وولدها لما تركهما إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في مكة، قالت: إلى من تتركنا، فما رد عليها، ثم قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا، ثقة بالله - جل وعلا -، وما ضيعهم ﷺ.

الفائدة الثالثة عشرة: رؤيا الأنبياء حق، وذلك لما رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده امثل واستجاب ولده إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

الفائدة الرابعة عشرة: الابتلاء والامتحان والاختبار من الله - جل وعلا - ليس المقصود منه المشقة والإيذاء، وإنما كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوا بِأَمْثَلِ مَا يَمْشُونَ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت] إذاً الاختبار ليس للمشقة، وليس للأذى وإنما حتى يعلم الله تبارك وتعالى الصابرين، ويعلم الصادقين ﷺ.

الفائدة الخامسة عشرة: الأنبياء أشد الناس بلاءً، وإذا أحب الله امرءً ابتلاه ﷺ.



قصة إسماعيل ﷺ

إسماعيل ﷺ، ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم].

المشهور أنه أرسل إلى العرب، ولذلك جاء في الأخبار أن العرب الذين كانوا يطوفون حول الكعبة، وقد خلطوا الحج بشركيات، فوضعوا عند المروة صنماً وعند الصفا صنماً، ووضعوا داخل الكعبة أصناماً فوقها وحولها وكانوا يطوفون بالبيت، يغنون، يصفقون ويصفرون، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] لكن أصل الحج موجود عندهم، إذا هم على دين إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر النبي ﷺ أن أول من أتى بالأصنام إلى مكة هو عمرو بن لحي الخزاعي لما كانت خزاعة تحكم مكة قبل قريش، جاء بها عمرو بن لحي من جدة، ثم عبدتها العرب بعد ذلك ومما يدل على أنهم على دين إسماعيل أمور، منها:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ كان حنيفاً، كان يعبد الله تبارك وتعالى في غار حراء كما هو مشهور على ملة إبراهيم، لكن لا يعرف تفاصيل الشرع لكن يعرف أن هناك رباً ﷻ وأنه يجب أن يُعبد وأن هذه الأصنام لا يجوز أن تُعبد، هذا يعرفه، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى] أي: ضالاً عن تفاصيل الشرع، لا أنه كان مشركاً^(١).

(١) انظر للأهمية: «زاد المسير» لابن الجوزي عند هذه الآية.

لما سألت عائشة النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان، من أجدادها، من بني تيم، وأنه كان يكرم الحجيج إذا جاءوا فقالت: يا رسول الله قد علمت ما كان من عبد الله بن جدعان فهل له شيء عند الله؟ هل ينفعه ذلك عند الله؟ فقال النبي ﷺ: «إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١).

الأمر الثاني: وأخبر النبي ﷺ الرجل الذي جاءه وقال له: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «أبوك في النار»، فولى الرجل وهو متضيق، فناداه النبي ﷺ، قال: «أبي وأبوك في النار»^(٢).

ولما خرج النبي ﷺ من المدينة في عام الحديبية مر على قبر أمه وجلس عنده، وبكى، فسأله أصحابه ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «استأذنت ربي في أن أزور قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في أن أستغفر لها فلم يأذن لي في الاستغفار لها»^(٣).

فالشاهد أن أهل مكة كانوا مطالبين بدين إسماعيل، وبملة إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، ولكنهم كفروا بها، ومن بقي على دين إسماعيل كزيد بن عمرو بن نفيل مثلاً وكان موحداً على دين إسماعيل، ومحمد ﷺ كان على دين إسماعيل كان موحداً.

محمد ﷺ من ذرية إسماعيل ﷺ:

وإسماعيل لم يكن من ذريته من الأنبياء إلا واحد وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيدهم، ويثبت أن محمداً من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه: إخباره هو صلوات الله وسلامه عليه أنه من ولد إسماعيل،

(١) أخرجه مسلم (٢١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

«إن الله اصطفى قريشاً على العرب واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»^(١). فهو خيار من خيار من خيار صلوات الله وسلامه عليه، وسمى الله تبارك وتعالى إبراهيم أباً له فقال: ﴿مَلَّةَ أَيِّكُمْ إِزْرِهِمُ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا باتفاق أن النبي ﷺ من ذرية إسماعيل، والعرب كما هو معلوم قحطان وعدنان، عدنان باتفاق أهل العلم من ولد إسماعيل، ولكن الكلام في قحطان هل هم من ولد إسماعيل أو ليسوا من ولد إسماعيل يعني من العرب العاربة، أو من قوم جرهم، الذين تزوج منهم إسماعيل؟ هذا هو المشهور أن قحطان ليسوا من ولد إسماعيل، وإنما الذين من ولد إسماعيل هم عدنان الذين منهم النبي ﷺ، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ جاء إلى بني أسلم فقال لهم النبي ﷺ: «ارموا بني فلان وأنا معكم فإن أباكم إسماعيل كان رامياً» وتوقف الفريق الثاني فقال لهم النبي ﷺ: «ما لكم لا ترمون؟» قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ تأدباً مع النبي ﷺ، فخرج النبي ﷺ فقال: «أنا معكم جميعاً» صلوات الله وسلامه عليه.

وقبيلة أسلم كما ذكر أهل العلم من خزاعة، وخزاعة من قحطان، فكيف يقول أبوكم إسماعيل وهم ليسوا من ولد إسماعيل، فأكثر أهل العلم على أنه إنما سماهم كذلك على أن إسماعيل أباهم من الأم، يعني جدهم لأمه لا أنه جدهم لأبيهم، كما يقال عن أولاد فاطمة ﷺ أنها منهم أبناء النبي ﷺ، يعني الحسن والحسين وذريتهما ﷺ هؤلاء يقال: أولاد النبي ﷺ.

البشارة بالنبي ﷺ في التوراة:

وإسماعيل - كما تقدم - هو والد النبي ﷺ، وكذلك هو في التوراة

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ.

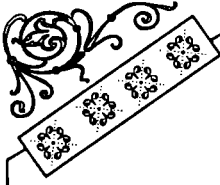
الموجودة الآن، وهذا في «سفر أشعياء» إصحاح (٤٢)، يقول: «لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي يسكنها قيدار». وقيدار من هو؟

وفي «سفر التكوين» (٢٥): وهذه مواليد بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم ثم ذكرهم فقال: «نبايوت بكر إسماعيل^(١)، وقيدار، وأردئيل، ومبسام» وذكر باقي الأسماء.

إذا قيدار من ولد إسماعيل في كتابهم، ثم قال: «لترنم سكان سالع»، وسالع هو جبل سلع، الذي في المدينة.



(١) يعني: الكبير.



قصة إسحاق ويعقوب ﷺ

ولد لإبراهيم على المشهور ولدان من الأنبياء، وقيل: إن له أولاداً
كثراً، والعلم عند الله - جل وعلا -، ولكن ذكر الله تبارك وتعالى ولديه
إسماعيل وإسحاق، وقد تقدم الحديث على إسماعيل، أما إسحاق فقد
وُلِدَ لإبراهيم على كبر، ولما جاءت الملائكة تبشّر إبراهيم صلوات الله
وسلامه عليه بإسحاق قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تَبَشَّرُونَ﴾
[الحجر: ٥٤]، فبشّروه بإسحاق، وزوجة إبراهيم سارة ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرًا فِي
صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] سببان مانعان للولادة
والحمل، كِبَرٌ وَعَقْمٌ، قالوا: ﴿أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ هذا أمر الله ﴿إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] أليس الله تبارك
وتعالى خلق آدم دون ذكر ولا أنثى؟ وخلق حواء من غير أنثى؟

فالأمر عند الله تبارك وتعالى لا يحتاج إلى كبير مشقة ولا إلى
قليل.

ولد إسحاق لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ولم يُذكر كذلك
كبير حديث عن إسحاق، والظاهر - والعلم عند الله - أنه كان نبياً على
دين أبيه إبراهيم، وعلى شريعته كذلك، وهو نبي كريم، ولكن ليس
هناك أي تفصيل عن حياته ودعوته، وإنما ذُكِرَ ذكراً صلوات الله
وسلامه عليه.

وذكّر كذلك إنه وُلِدَ لإسحاق ولدان: يعقوب والعيص، ويقال له:
عيصو.

قصة باطلة:

وذكرت قصة في كتب بني إسرائيل، ونقلها البعض نذكرها لأنهم ذكروها ثم نبين فسادها:

ذكروا أن إسحاق كان قد عمي، وكان يحب ولده العيص أكثر من يعقوب، وكانت الأم على العكس تحب يعقوب أكثر، فطلب إسحاق من العيص أن يأتيه بجدي مشوي ليأكل منه، فخرج العيص يصطاد الجدي لأبيه، وهنا استغلت الأم الفرصة، فقالت لولدها يعقوب: خذ جدياً من الحظيرة واذبحه لأبيك واشوه حتى يباركك بدل العيص، فقام يعقوب وأخذ الجدي وذبحه وشواه وقدمه لأبيه، وكان العيص مُشعراً^(١)، ولم يكن يعقوب كذلك، فلبس ثوباً من شعر حتى لا يشعر به أبوه، فقدم الجدي لأبيه، فقال له أبوه: من أنت؟ قال: ولدك العيص، فلمسه ثم قال له: الصوت صوت يعقوب، واللمس لمس العيص، ثم دعا له وباركه.

وبعدها جاء العيص بالجدي، فشواه وقدمه لأبيه، فقال له: ما هذا؟ قال: يا أبتِ هذا الجدي الذي طلبته، قال: ألسَتْ جئتَ به؟! قال: أبدأ ما جئتَ به إلا الآن.

قال: بلى جئتَ به وأكلته، قال: ما جئتَ به إلا الآن، فعرف العيص أن أخاه يعقوب قد خانه في هذه.

ولا شك أن هذه القصة مكذوبة باطلة؛ لأن فيها اتهاماً ليعقوب بالكذب والخديعة، ولأن فيها اتهاماً لإسحاق بالغفلة، وكذلك فيها اتهام للأُم بالخيانة والغدر، وليس أمرهم كذلك صلوات الله وسلامه عليهم أبدأ.

(١) ذو شعر كثير.

بيت إيل:

ذهب يعقوب ﷺ إلى خاله لابان في حرّان، وقبل أن يصلَ إليه أدركه الليل في الطريق، فوضع حجراً ونام عليه، فرأى رؤيا في المنام، رأى الله - جل وعلا - في المنام، وأن الله - جل وعلا - يقول له: «سأبارك عليك، وأكثر ذريتك، وأجعل هذه الأرض لك»، فاستيقظ يعقوب ووضع علامة على الحجر الذي نام عليه حتى يعرف الأرض التي قال الله له في المنام: أنني سأبارك لك ولذريتك، وأجعل هذه الأرض لك ولذريتك، ثم سمي ذلك المكان: «بيت إيل»، وإيل معناها: الله، يعني بيت الله، وذهب على أساس أن هذا المكان سيبني فيه بيت الله - جل وعلا - .

زواج يعقوب ﷺ من ابنة خاله:

ذهب يعقوب إلى خاله لابان، واستقر عنده مدة طويلة، ثم طلب من خاله أن يتزوج ابنته، واسمها: راحيل، فوافق الخال، وقال: لا مانع على أن تأجرني سبع سنين، وأزوجك راحيل، قال: لا مانع، فعمل عنده سبع سنين، فقال: زوجني الآن. قال: أفعل، فزوجه، فلما دخل عليها يعقوب؛ فإذا هي ليست راحيل، زوّجَ أختها، واسمها: ليا، فقال: يا خال إنما طلبت راحيل ولم أطلب ليا، قال: ليس من سنتنا يا بُني أن تُزوّجَ الصغرى قبل الكبرى، وليا هي الكبرى، فأنا وافقت، ولكن غيرت رأيي لا بد أن تتزوج الكبرى قبل الصغرى، قال: ولكنني أريد راحيل. قال: لا مانع تجلس عندنا سبع سنين أخرى ونزوجك راحيل. قال: نعم أفعل، فجلس عند خاله سبع سنين أخرى، فزوجه خاله راحيل^(١)، ومكث بعد هذه السنوات ست سنين حتى أتم عشرين سنة عند

(١) وكان جمع الأختين جائزاً في الشرائع السابقة، ثم حرمه الله تعالى، فقال في سياق =

خاله في حرّان، وكان يرعى له الغنم ورزقه الله تبارك وتعالى خيراً كثيراً، حتى كثر ماله جداً، ورُزِقَ بأولاد كُثُر صلوات الله وسلامه عليه، رزق من ليا: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيصخر، وزيلوم، ستة أولاد ولدتهم ليا ليعقوب عليه الصلاة والسلام، وراحيل لم تنجب ليعقوب شيئاً.

ولما يئست راحيل من الولادة أهدت لزوجها يعقوب جارية عندها، فدخل على الجارية وولدت له ولدين، وقيل: إنه سماهما: دان، ونيفتالي، ثم أهدت ليا ليعقوب جاريته أيضاً، فولدت له كذلك ولدين سمّاهما: حاد أو جاد، وأشيط، ولم تلد راحيل شيئاً، يعني: عشرة أولاد الآن ليعقوب عليه الصلاة والسلام، ولم تلد راحيل شيئاً أبداً، فيذكر أنه دعا الله تبارك وتعالى أن يُرزق بولد من راحيل، وكانت راحيل كذلك، ثم حملت راحيل وولدت له يوسف، وبنيامين.

يعقوب عليه السلام يبني بيت المقدس:

وكانت ليعقوب أموال كثيرة فقدمها بين يديه بشارة لأبيه وأخيه العيص، ثم مرّ على المكان الذي غادره قبل عشرين سنة ووضع عنده العلامة، وهي الصخرة التي نام عليها صلوات الله وسلامه عليه، وبني هناك بيت المقدس، ولذلك ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «بين بناء البيت الحرام وبناء بيت المقدس أربعون سنة»^(١)، وإبراهيم وإسماعيل بنيا الكعبة، ويعقوب حفيد إبراهيم بنى بيت المقدس، فهو ثاني مسجد وضع في هذه الأرض، ثم رجع إلى أبيه، وتوفي إسحاق بعد مدة، وقيل: إنه بلغ من العمر ثمانين ومئة سنة، والعلم عند الله - جل وعلا - .

= ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

(١) تقدم تخريجه ص ١٥٥.

من هم الأسباط؟

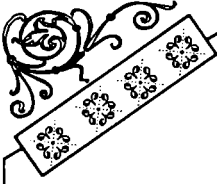
ليعقوب أولاد كُثُر - كما ذكرنا - اثنا عشر ولدًا، واختلف أهل العلم في أولاد يعقوب هل هم الأسباط أو لا؟ والصحيح أنهم ليسوا الأسباط؛ لأن الأسباط أنبياء، والصحيح أن أولاد يعقوب لم يكونوا أنبياء بدليل ما سيأتي من فعلهم الشنيع بيوسف عليه الصلاة والسلام، حيث فكروا في قتله، ثم ألقوه في الجُبِّ، ثم كذبوا على أبيهم، وكذبوا على يوسف، فمثل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا من الأنبياء، فالصحيح أنهم ليسوا الأسباط، ولكن الأسباط من ذرية يعقوب عليه الصلاة والسلام.

يعقوب وإسرائيل:

يعقوب هو إسرائيل يقال له: يعقوب ويقال له: إسرائيل، و(إيل) في العبرية: اسم من أسماء الله - جل وعلا -، هكذا يقولون، ولكن لا يجوز لنا الآن أن نسمي الله بإيل؛ لأن أسماء الله توقيفية، و(إسرا) بمعنى (عَبْدٌ)، وإسرائيل بمعنى: عبد الله، ومثله جبرائيل، ميكائيل، عزرائيل، وهكذا: خادم الله، حبيب الله، المقرب لله، وما شابه ذلك من هذه المعاني.

وكما ذكرنا وُلِدَ ليعقوب هؤلاء الأولاد، ورجع إلى أبيه في القدس، وهناك تأتينا قصة جديدة، وهي قصة نبي الله يوسف، وهي مزيج من قصة يوسف وقصة يعقوب صلوات الله وسلامه عليهما.





قصة يوسف عليه السلام

قصة يوسف ذكرها الله تبارك وتعالى مفصلة في سورة طويلة سميت باسمه؛ وقال بعض أهل العلم: قراءتها تغني عن تفسيرها، والذي يقرأ سورة يوسف يفهمها تماماً، وما تحتاج إلى تفسير، لكن التفسير يأتي بذكر الفوائد وبعض النكت وبعض الأشياء التي تحتاج إلى توضيح زائد، وأما جملة القصة؛ فإنها واضحة لكل أحد، ولذلك يلتذ الجميع بقراءة هذه السورة، فناسب أن يكون كلامنا عن هذه السورة مفصلاً حتى نستخرج منها الفوائد والعبر.

وقد اشتملت قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه على الجليل من الأحكام والحكم والآداب، وفيها كذلك من مكر النساء وكيدهن وكيد الرجال كذلك، وفيها من تدبير الخطط وحسن العاقبة، وصبر الأنبياء، وبيان أن الحذر لا يُنجي من القدر، وكذلك أمور أخرى كثيرة سنجدتها واضحة جلية عند قراءتنا لهذه القصة العجيبة.

التعريف بيوسف عليه السلام:

سُئِلَ رسول الله ﷺ عن يوسف فقال: «هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم»^(١)، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴿آل عمران: ٣٤﴾، نعمت الذرية والله، ويوسف عليه الصلاة والسلام كما أخبر النبي صلوات الله وسلامه عليه في الحديث

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» أعطاه الله شطر الحسن^(١)، شطر الجمال لا يمكن لأحد منا أن يتصور هذا الجمال، ويكفينا أن نعرف أن النساء لما دخل عليهن يوسف قَطَعْنَ أيديهن، وهنَّ يرينه منبهرات بجماله صلوات الله وسلامه عليه، بل قلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] لجماله صلوات الله وسلامه عليه، أعطاه الله - جل وعلا - جمالاً ظاهراً، «شطر الحسن» وأعطاه جمالاً باطنياً من التقوى والخلق العظيم.

قال الله - جل وعلا - في بداية هذه السورة لنبيه محمد ﷺ: ﴿تَنقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وعلى الصحيح أن أحسن القصص ليست قصة يوسف فحسب، وإنما المقصود: مجمل القصص ﴿تَنقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قصة يوسف، قصة إبراهيم، قصة موسى، قصة عيسى، قصة شعيب، قصة آدم، قصة صالح، قصة هود، ﴿تَنقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

بداية قصة يوسف ﷺ:

بدأت قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه عندما رأى رؤيا عجيبة ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾ قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقُصُّ رُءُوبَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يوسف]، عرف يعقوب لما أعطاه الله - جل وعلا - من علم أن هذه الرؤيا حق، وعرف أنها بشرى نبوة، وأن يوسف صلوات الله وسلامه عليه سيكون نبياً، فخاف عليه من إخوته، وكان يوجس منهم شراً، فقال: ﴿لَا نَقُصُّ رُءُوبَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

وجاء في كتب أهل الكتاب أن يوسف قَصَّها على إخوته، والله سبحانه ما ذكر لنا ذلك، والظاهر أنه استجاب لأمر أبيه، فلم يقص هذه القصة على إخوته.

عندها قال له أبوه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِبُكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] هذا اجتناباً يا يوسف ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]؛ أي: كما أراك الله - جل وعلا - هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها سيجتبيك ربك، ويخصك بأنواع اللطف ﷺ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴿وَبِتَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦] بالوحي فتصير نبياً ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بسببك أنت، فلا تقص هذه الرؤيا على إختوتك.

قال الله - جل وعلا - : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، آيات بينات واضحات وعلامات على صدق محمد ﷺ كيف؟ رجل أمي عاش في مكة، وما خرج منها إلا مرة لتجارة قصيرة، ورجع ثم يأتي يقصُّ هذه القصة بتفاصيل دقيقة تعجب منها أهل الكتاب، بل كتموا أشياء منها كقصة يوسف مع امرأة العزيز فذكرها محمد ﷺ، آيات على صدقه صلوات الله وسلامه عليه حيث قصَّ هذه القصة بهذا الجمال، وهذه التفاصيل ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾ أي: في قصك لقصة يوسف وإخوته ﴿آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ﴾ الذين يسألونك عن أخبار ما قد سبق.

بداية البلاء مع إخوة يوسف ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، اجتمع إخوة يوسف وهم متضايقون، فقال بعضهم لبعض: يوسف وأخوه بنيامين ابنا راحيل أحبُّ إلى أبينا منا ﴿وَنَحْنُ غُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة مجتمعة، فألقى الشيطان في قلوبهم الحقد والحسد على يوسف صلوات الله وسلامه عليه، ثم اتهموا أباهم النبي الكريم، فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا لا يقوله أنبياء أبداً،

ولا يقال هنا: إنهم لم يصيروا أنبياء بعد؛ لأن الله تبارك وتعالى يختار الأنبياء منذ نعومة أظفارهم، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والسؤال هنا: هل كان يوسف فعلاً أحبَّ إلى أبيه منهم؟ فإذا كان الجواب: بنعم، فليَمَّ؟ لِمَ كان يوسف أحبَّ إلى أبيه منهم؟
الجواب: نعم يوسف كان أحبَّ إلى أبيه من إخوته.
قال أهل العلم: يمكن أن يجاب عن هذا بخمسة أجوبة:

الجواب الأول: أن الحُبَّ شيء فطري لا يملكه الإنسان: فلا يملك الإنسان أن يحب أو أن يبغض إلا إذا كان في الدِّين، أما المحبة الفطرية؛ فهذه لا يملكها الإنسان، فقلبك ليس في يديك، وإنما يرغمك أحياناً على أشياء لا تريدها لحب في قلبك لشخص ما، ولذلك ترى نفسك أنك تعاقب شخصاً على فعل لو فعله غيره ممن تحب ما عاقبته، ولذا قيل:

وإذا أتى الحبيب بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيح

فله في القلب محبة لا يملكها الإنسان، ولذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك، فلا تلمني على ما لا أملك»^(١)، فالقصد أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان يحب يوسف حباً فطرياً، وهذا لا يلام عليه إذا كان يعدل في المعاملة، وهذا الذي نجزم به في حق نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه.

الجواب الثاني: صغر السن: فكما قلنا: إن راحيل ولدت يوسف وأخاه آخر شيء، فهما صغيران، وهذا أمر فطري في القلب، ومعاملته

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١)، وفي إسناده ضعف.

للصغير تظهر أنه يحبه أكثر، فهم كانوا متوهمين في دعواهم أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم.

الجواب الثالث: سئلت امرأة: من أحب أولادك إليك؟ قالت: المريض حتى يشفى، والمسافر حتى يعود، والصغير حتى يكبر.

فهذا أمر طبيعي دائماً، فتجد الأم أو الأب يفكران في الغائب أكثر من الحاضر، وفي المريض أكثر من المعافى، وفي الصغير أكثر من الكبير، وهذا أمر طبيعي في الإنسان.

الجواب الرابع: أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان يرى في يوسف آثار النجابة - كما قلنا -، فأعطاه الله - تبارك وتعالى - جمال الظاهر، وجمال الباطن، فكان يرى فيه هذه الآثار الطيبة، فأحبه لحسن خلقه، ولدينه، ولنجاته، وهكذا.

الجواب الخامس: للرؤيا التي رآها يوسف صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن يعقوب عَلِمَ أن ولده يوسف سيكون نبياً، فلذلك كان يحنو عليه، ويحرص عليه، ويرعاه، ويخاف عليه؛ لأنه سيكون له شأن عظيم عند الله - جل وعلا -.

وقد قيل: إن أمهما قد ماتت، فإن صحَّ هذا فهو سبب سادس لزيادة الرعاية لفقدان الأم، فكانا فاقدي الأم - أعني يوسف وبنيامين -، فكان الأب يحنو عليهما ليعوض حنان الأم الذي فقده يوسف وأخوه.

التأمر على يوسف ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، هذه مشكلة، وكل مشكلة تحتاج إلى حل، ما حلکم؟ قالوا: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]، هذا هو

الحل، وبدليل آخر ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، والنتيجة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩] إذا مشكلة، وحل، ونتيجة:

المشكلة: ﴿لِيُؤْسَفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَّا مَنَّا﴾، والحل ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، والنتيجة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾، إذا معادلة واضحة، ثم ماذا؟ هذه معصية، أخوكم، ألا تخافون الله؟! ألا تخافون العذاب؟! ألا تخافون الحساب؟! قالوا: نتوب بعد ذلك ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] بعد أن نقتل يوسف أو نلقيه أرضاً ويخل لنا وجه أبينا ونكون قد نلنا ما أردنا؛ نتوب إلى الله ﷻ، ونكون من بعده قوماً صالحين.

فهل هذه المشكلة يحتاج حلها إلى قتل يوسف؟! وهل قتل يوسف حل لهذه المشكلة؟! ليس الأمر كذلك، ولذلك ألقوا يوسف في الجب كما سيأتي، فهل خلا لهم وجه أبيهم؟! بل قال أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٨٣]، إذا ما خلا لهم وجه أبيهم، بل حزن عليه، وغضب عليهم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ هل تابوا إلى الله تبارك وتعالى؟ يحتمل أنهم تابوا إلى الله - جل وعلا -، وهو الظاهر في قول الله تبارك وتعالى ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ اللَّهُ عِلْمًا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ [يوسف: ٩٦]، وفي قولهم لأبيهم: ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، فهم تابوا إلى الله تبارك وتعالى ولكن متى؟ بعد سنين عدداً، فماذا لو مات أحدهم قبل ذلك؟ ولكن هل هذا الأمر متهيئ لكل أحد؟!

وهل يجوز لكل أحد إذا أراد أن يقدم على معصية أن يقول: أفعَل المعصية ثم أتوب!! إن هذا الأمر إن وُفِّقَ له إخوة يوسف فقد لا يوفق إليه غيرهم، ولذلك ينبغي ألا يقدم الإنسان على مثل هذه المعاصي ثم يقول أكون بعدها من القوم الصالحين؛ لأنه يحتاج إلى أن يضمن ثلاثة أشياء:

أولاً: أن يعيش إلى أن يصير صالحاً، فقد يموت قبل أن يتوب.

ويخوض الشيخُ في بحرِ المنايا ويرجع سالمًا والبحر طامي
ويأتي الموتُ طفلاً في مَهوودٍ فيلقى حَتْفَهُ قبل الفطام

ثانياً: أن يضمن أن يوفق إلى التوبة، فقد لا يوفق الإنسان إلى التوبة؛ لأن من شؤم المعصية أنها تجلب المعصية، والمعصية تجلب المعصية، وهكذا حتى يهلك الإنسان والعياذ بالله، وذلك أن التوبة توفيق من الله - جل وعلا -.

ثالثاً: أن يضمن أن الله ﷻ يقبل هذه التوبة، فقد لا يقبل الله التوبة، وقد تكون هناك موانع من قبول هذه التوبة لا يوفق الإنسان إلى إزالتها، فلا تُقبل توبته عند الله - جل وعلا -.

وهنا خططوا ثم عرضوا المشكلة، ووضعوا الحل، وتوقعوا النتيجة النهائية، وما ذنب يوسف؟ هل أذنب يوسف شيئاً؟ أبداً ولكن الإنسان إذا أراد أن يعاقب فإنه يعاقب المذنب - في نظره على الأقل - فما ذنب يوسف أن أباه يحبه؟!

وهل هذا ذنب ليوسف صلوات الله وسلامه عليه؟! وما هذا إلا أن الشيطان أعمى بصائرهم حتى لم يروا الحق، فجمعوا بين الجريمة والظلم.

هنا قال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ هناك حل آخر يمكن أن تصلوا به إلى نفس النتيجة، ويخلو لكم به وجه أبيكم، قال: ﴿وَأَلْفُؤُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْفُظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠] ويذهبون به، وكان هذا القائل أبرهم وأتقاهم لله، وأحناهم على يوسف، وإن كان قد اشترك في الجريمة، ولكن كما قيل:

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فهذا الشر الذي جاء من هذا الأخ - وهو إلقاء يوسف في الجُبِّ -

أهون وأخف من الشر الذي كان يعزم عليه بقيّة الإخوة - وهو قتل يوسف ﷺ -، فهناك حلٌ آخر تصلون فيه إلى مبتغاكم، ولا تؤذون يوسف هذا الإيذاء، خاصة أنه لم يصل إليكم منه شرٌّ، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾، أي: السائرين، وترتاحون منه، ولا يُقتل، واختاروا هذا الرأي؛ لأن الإنسان مهما بلغ من الشر فإن فيه بذرة خير، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس]، فبذرة الخير ظهرت هنا حينما طلب منهم أحدهم ألا يقتلوه، وظهرت حين وافقوا على هذا الاقتراح، وقرروا إلقاء يوسف صلوات الله وسلامه عليه في الجُبِّ.

إلقاء يوسف ﷺ في الجُبِّ:

اتفقوا على هذه القضية وهي أن يُلقى يوسف في الجُبِّ، فذهبوا إلى أبيهم، فقالوا: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَىٰ يُونُسَ وَإِنَّا لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف]، نحن ناصحون له، وأبوهم لم يكن يرى ذلك، ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ﴾، نريد أن يذهب معنا لمصلحته، يرتع ويلعب، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف].

فقال يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبَابُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]، ولم يقل: أخاف عليه منكم، مع أنه يخاف عليه منهم كما مرّ بنا ﴿لَا تَقْصُصْ رُءُوبَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، فكان يتوجس منهم شرّاً، ولكنه كذلك لا يستطيع أن يظهر لهم هذا التوجس؛ حتى لا يقدموا على أمر عظيم في شأن يوسف، ولم يكن يعلم - صلوات الله وسلامه عليه - أنهم فعلاً قد أقدموا على هذا العمل العظيم، وهو قتل ابنه يوسف، فاعتذر لهم، وقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف] ما أرى مفارقتة، ولعل هذه الكلمة زادتهم

غيظاً، فنحن نفارقك ولا تحزن، وهو يفارقك فتحزن! ثم ماذا؟ ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] أنتم تدافعون عن أنفسكم، فأنتم أقوياء وكبار- وهو صغير لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

فقالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] وهنا يعقوب عليه السلام عندما قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] أعطاهم الحلّ بصورة غير مباشرة، أعطاهم حلاً لمشكلتهم أنهم إذا ألقوا يوسف في الجُبِّ ماذا يقولون؟ فقالوا: نقول: أكله الذئب، أنت كنتَ تخاف من الذئب، وقد أكله الذئب، فسيصدق هذه مباشرة.

إلقاء يوسف عليه السلام في الجُبِّ:

وذهبوا به من الغد ثم قالوا ماذا نفعل؟ قالوا: كما اتفقنا نلقيه في الجُبِّ، فجاؤوا ليوسف وأرادوا أن يلقوه، فقال: أنا أخوكم كيف تصنعون بي هذا؟!

قالوا: ليس عليك ذنب، الذئب ذنب أبيك، وليس لك ذنب، ثم ألقوه في الجُبِّ صلوات الله وسلامه عليه، وكانوا أذكفاء، فنزعوا قميصه قبل أن يلقوه في الجُبِّ، وألقوه بدون هذا القميص، ثم ذبحوا عاجلاً أو تيساً، ولطخوا القميص بالدم، وقالوا: حتى نقول لأبينا إن الذئب قد أكله.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَ وَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] بكاء التماسيح، يكون كذباً وزوراً.

قيل لأحد القضاة لما جاءه رجل يشكو ويبيكي، فقال قائل: والله إنني آراه صادقاً، قال القاضي: لِمَ؟ قال: يبيكي، فقال القاضي: إخوة يوسف ذهبوا يبيكون وهم كاذبون.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَيْنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف] أنت دائماً تتهمنا بالكذب، وضعوه في زاوية ضيقة: أنت لا تصدق ما نقول: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ وجاءوا على قميصه، يدبر كذباً [يوسف] قالوا: تريد الدليل؟ هذا هو الدليل، أليس هذا قميص يوسف؟ قال: بلى، قالوا: مُلَطَّخٌ بدمه، أكله الذئب، قال: سبحان الله! ذئب أكل يوسف ولطخ قميصه بالدماء ولم يشقق القميص؟! نسوا أن يشقوا القميص، قميص غير مشقق ملطخ بالدماء، ويقولون: هذا قميص يوسف الذي أكله الذئب، وهو يلبسه.

وهذه تسمى بالجريمة الناقصة، فلا توجد على وجه الأرض جريمة كاملة، فكل مجرم لا بد وأن يترك شيئاً يفضح جريمته، يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله.

صبر نبي الله يعقوب ﷺ:

لما رأى يعقوب القميص سليماً لم يشق قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨] كاذبون ﴿فَصَبِّرْْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] لا يملك إلا أن يقول: صبر جميل ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وقول يعقوب: ﴿فَصَبِّرْْ جَمِيلٌ﴾ يدل على صبر عظيم عند البلاء وتفويض لأمر الله تبارك وتعالى وعدم الجزع، وعرف أن إخوته كادوا به صلوات الله وسلامه عليه، ومع هذا قال: ﴿فَصَبِّرْْ جَمِيلٌ﴾، فصبر على هذا البلاء صلوات الله وسلامه عليه، ولم يجزع.

أخرج الإمام البخاري عن عائشة ؓ لما رُميت بالإفك وأتهمت بالزنا في عرضها وفي شرفها ؓ، وجاءها النبي ﷺ وقال لها: «يا عائشة إن كنتِ ألمت بشيء فتوبي إلى الله، فإن التوبة تجب ما كان قبلها» قالت: والله لا أدري ما أقول، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا

يوسف، تقول: ونسيتُ اسمه، وكان عمرها في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة، فقالت: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] (١).

الحسد من أصول الذنوب:

هذا الذنب الذي وقع من إخوة يوسف صلوات الله وسلامه عليه سببه الحسد، فهم حسدوا يوسف على مكانته من أبيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أصل الذنوب ثلاثة أسباب: الحسد، والكبر، والحرص»، فلو نظرت في ذنوب العباد لوجدتها تدور على هذه الأمور الثلاثة.

المرحلة الثانية من حياة يوسف ﷺ:

لم تطل مدة يوسف في الجُبِّ على ظاهر القرآن، فإنه بمجرد أن رجعوا إلى أبيهم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩] أي: قافلة تسير ﴿فَأَزَلُّوا وَاِرْدَهُمْ﴾ [يوسف: ١٩] أي: الذي يرد الماء ليأتي به، والظاهر أن هذه البئر دائماً يمرُّ عليها المسافرون، ولذلك عندما ألقوه في الجُبِّ قالوا: ﴿يَلْقَيْتُهِ بِعَضِّ السِّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، وذكر الله تبارك وتعالى أنهم بعد أن ألقوه جاءت سيارة، ولعلَّ إخوة يوسف كانوا يتابعون هذا الأمر، فلما رأى يوسف الدلو تعلق به، فلما رفع الرجل الدلو وإذا ليس فيه ماء، وإنما فيه غلام، فأخذ الغلام، وقال: ﴿يَبْشُرِي﴾، وفي قراءة «يا بشراي» ﴿هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ يَضَعَنَّ﴾، ولم يقل وجعلوه بضاعة، وإنما قال: ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ من الإسرار؛ أي: الإخفاء ﴿وَأَسْرُوهُ يَشْرِبُ بِحَيْرٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] شروه أي: باعوه بثمان قليل، والدليل على أنه قليل قوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَّ﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

الزَّهْدِيْنَ ﴿ يوسف] حين باعوه، مَنْ الذي باع؟ مَنْ الذي أسر؟ احتمالان:

الأول: أن إخوة يوسف كانوا يراقبون الوضع، ويخافون أن يرجعه أحد إلى أبيه، وتكون الفضيحة الكبرى، وهم الذين باعوه، قالوا: هذا عبد عندنا نبيحك إياه، ولزم يوسف الصمت خوفاً من إخوته، لأنهم كادوا أن يقتلوه، وخشي إن أخذه إخوته أن يرموه مرة ثانية في جُبِّ آخر أو يقتلوه، فما عاد يأمنهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٩] أي: من الجريمة البشعة؛ لأن بيع الحر من أكبر الجرائم، وقد تبرأ النبي ﷺ ممن باع حراً فأكل ثمنه^(١)، ﴿وَشَرُّهُ بِشَرِّ بَيْعِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ هذا هو الثمن البخس، وباعوه بثمان بخس؛ لأن المال لم يكن هماً بالنسبة لهم، فهم لا يريدون المال أصلاً، هم يريدون التخلص من يوسف ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الزَّهْدِيْنَ﴾ أي: إخوة يوسف ﷺ.

الثاني: أن الذي جاء وألقى الدلو وخرج له الغلام أسره بضاعة هو ومن معه دون أن يُعلم بقية القافلة، ثم لما ذهبوا إلى مصر باعوه أيضاً دون أن يعلم الباقون، وباعوه بثمان بخس؛ لأنهم رابحون على كل حال، لا اشتروه بثمان، ولا تكلفوا فيه، وإنما وجدوه فباعوه، فعلى كل حال هم رابحون، ولذلك باعوه بثمان بخس للتخلص منه، وكذلك لأخذ المال المقابل.

بل لو قلنا: إنهم باعوه بثمان كثير؛ فهو بخس في حق نبي أن يباع صلوات الله وسلامه عليه^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة»، فذكر منهم: «ورجل باع حراً فأكل ثمنه».

(٢) انظر: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة ص ٢١٣ - ٢١٥، وفيه أيضاً حل لهذا الإشكال.

يوسف عليه السلام يدخل مصر:

دخل يوسف إلى مصر، وبدأت حياة جديدة، ومرحلة جديدة لهذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، إذأ باعه إخوة يوسف على القافلة ثم باعته القافلة في مصر أو أخذه الذين وجدوه ثم باعوه على أهل مصر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وهذا تمكين من الله تبارك وتعالى، ولهذا يقول بعدها - جل وعلا -: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] تمكين من الله تبارك وتعالى أن جعله في بيت هذا الرجل، جعله في بيت رجل أحسن مثواه وأكرمه وأعطاه لزوجته، وقال لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ إذا كبر ينفعنا، فإن لم ينفعنا بعمل فتتخذه ولداً على الأقل، وظاهر هذا الكلام أنه لم يكن لهما ولد، وقال ذلك بعد أن رأى في يوسف عليه السلام علامات الصلاح من حسن وجهه وكريم خلقه صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك قال عبد الله بن سلام لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة: فلما رأيته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب^(١)، وهذا بمجرد أن رأى يوسف ارتاحت نفسه إليه صلوات الله وسلامه عليه ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وهذا ما يسمى بالتبني، والتبني حرمة الإسلام، فقد تبني النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فصار يُنادى بزید بن محمد حتى أنزل الله تبارك وتعالى قوله - جل وعلا -: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] أما التبني بمعنى العناية والرعاية والعطف، وما شابه ذلك؛ فهذا جائز

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، وقال الترمذي: «حسن

مباح أما التبني بحمل الاسم، فهذا لا يجوز أبداً أن يحمل اسماً غير اسم أبيه.

دخل يوسف ﷺ بيت العزيز، قال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز، لما قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، وبنيت الرجل الصالح لما قالت عن موسى ﷺ: ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر لما جعل عمر مكانه عند وفاته ﷺ^(١).

يوسف ﷺ وفتنة امرأة العزيز:

واستقرت الأمور ليوسف في هذا البيت، ولكن كما يقولون: الشيطان لم يَمُتْ، وبدأ الشيطان يؤدي دوره الذي تعهد أن يستمر عليه ﴿فَبَدَأَ بِفِعْرَيْنِكَ لَأَعْوَبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) [ص]، فبدأ الشيطان يعمل عمله حتى ألقى في قلب هذه المرأة أن تراود يوسف عن نفسه، قال ﷺ: ﴿وَرَزَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. تجهزت لك، الأمور كلها مهياً حتى تقع الفاحشة.

فكان الجواب المباشر من يوسف صلوات الله وسلامه عليه ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] وهكذا المؤمن، فالإيمان إذا خالط بشاشته القلوب؛ زاد وارتفع، فيجد الإنسان نفسه تبتعد ابتعاداً شديداً عن المعصية، وتنفر عنها كما تنفر الحمر حين ترى الأسد أو أشد.

قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] مَنْ رَبِّهِ؟ قيل: إنه أراد بربه الله - جل وعلا - ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ بعد أن ألقاني إختوتي في الجُبِّ، أخرجني ثم أكرمني في هذا البيت.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨٩٤٩، ١٨٩٥٠، ١٨٩٥١).

وقيل: الرب المقصود هو صاحب البيت، وهو العزيز كما قال عبد المطلب لما دخل على أبرهة وسأله عن إبله فقال: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه.

قال: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ أكرمني فقد كنت أباغ فأكرمني، ثم قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] وهذا العمل ظلم، ظلمٌ للنفس، وهو الوقوع في الزنا، وظلمٌ للرجل الذي أكرمني، والذي استأمنني على عورته وعلى أهله، وهذا يذكرنا بقول النبي صلى الله عليه وآله: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم النبي صلى الله عليه وآله: «ورجل دعت امرأه ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»^(١)، هذا هو موقع يوسف عليه السلام، بل هو رأس هذه المجموعة.

وهكذا المسلم يلجأ إلى الله تبارك وتعالى دائماً ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: أستعيذ بالله، أُلجأ إلى الله، ما لجأ إلى قوته، وإنما لجأ إلى القوي؛ لجأ إلى الحفيظ عليه السلام فحفظه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِئَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِنِينَ﴾ [٢٤] وأستبقاً الباب﴾ [يوسف]، يوسف تسابق معها أيهما يصل إلى الباب، هو يهرب إلى الباب، وهي تهرب خلفه، هو يريد الباب وهي تجري تريد يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فكان كالسباق، ولكنه ليس بسباق، فهو يريد شيئاً، وهي تريد شيئاً آخر. وعادة يكون السباق إلى شيء واحد، ولكن لما كانت شهوتها قد بلغت مداها صارت من سرعتها خلفه كأنها تريد أن تسبقه إلى ما يريد أن يذهب إليه، وهذا من جمال بيان القرآن.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

وقد وقعت قصة مشابهة في هذه الحثيات، فيذكر أن رجلاً يقال له: عمرو بن قمئة - من قبيلة عربية - راودته زوجة عمه عن نفسه حيث خرج عمه إلى الصيد، فنادته امرأة عمه، فلما دخل عليها راودته عن نفسه، قال: عمي!! قالت: إن لم تفعل ما أمرك لأقولن لعمك إنك راودتني عن نفسي، وإنك حاولت الاعتداء عليّ، قال: عمي ولن أخونه في عرضه أبداً. قالت: هو ما قلته لك، قال: افعلي ما بدا لك، ثم خرج، وجاء عمه من الصيد، فقالت: ابن أخيك حاول أن يعتدي عليّ في غيبتك، فأخذ العم سيفه وذهب لابن أخيه ليقتله، فلما رأى الشرّ في عين عمه، وأنه آتٍ إليه وقاتله لا محالة؛ صار بين ثلاثة أمور، أحلاها مرّ:

الأمر الأول: إما أن يقف، فيقتله عمه.

الأمر الثاني: وإما أن يقول لعمه امرأتك هي التي راودتني عن نفسي، فيفضح عمه.

الأمر الثالث: وإما أن يهرب ويؤتم، فاختر أيسر الثلاثة، فهرب.

ويوسف صلوات الله وسلامه عليه كذلك رأى أنه إذا بقي والمرأة نائرة؛ فإنه قد يحدث ما لا يُحمد عقباه، قد تمسه، قد تدفعه، قد يضربها، قد يُتهم بها صلوات الله وسلامه عليه، لذلك أثار السلامة بالهرب، وهذا على الصحيح أنه هو برهان ربه، أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه: أن اهرب، هذا هو الحل.

همّ يوسف ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، وهنا وقف المفسرون كثيراً، بِمَ هَمَّتْ؟ وَبِمَ هَمَّ هَمَّ صلوات الله وسلامه عليه؟ على أقوال:

القول الأول: أنها همّت به بالفاحشة، وهمّ هو بالخاطر النفسي، أي: خطر في قلبه أن يقع منه ما تريد هي؛ أي: الفاحشة، قالوا: وهذا شيء جبلي طبيعي في الإنسان، فالإنسان الطبيعي تأتيه امرأة جميلة تغلق الأبواب تقول له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فيميل إليها بطبعه، ثم تكون هناك أمور أخرى: إما أن يقع الزنا، وإما أن يتذكر خوفه من الله تبارك وتعالى، وإما أن تمنعه علاقة طيبة بزوجها، وإما موانع أخرى.

فالهّمّ البشري الطبيعي موجود في كل إنسان، فكل رجل فيه ميل للمرأة، وكل امرأة فيها ميل للرجل، فإذا هي همّت بالفاحشة همّاً فعلياً، وهو عَبْدٌ جاءه خاطر مجرد، وهذا الخاطر صرفه التقوى والدين والإيمان الذي في قلب يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

القول الثاني: أنه لم يقع أصلاً همّ من يوسف؛ لأنه جاء بعدها بـ ﴿لَوْلَا﴾، فيكون في الكلام تقديم وتأخير، همّت به بالفاحشة، وهذا همّ متفق عليه؛ لأنها في البداية غلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، إذاً الأمر بالنسبة لها محسوم؛ ولكن الكلام في أمر يوسف، هل وقع همّ من يوسف أم لم يقع؟ قالوا: لم يقع همّ فعلي، حتى الهّمّ النفسي لم يقع من يوسف، ولا حتى الخاطر؛ لأن الله قال بعدها: ﴿لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَانَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٢٤]، وفي الآية تقديم وتأخير، فيكون التقدير: (ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهّمّ بها)، إذاً لم يهّمّ هو؛ لأنه رأى برهان ربه، وهو أن يهرب، واستدلوا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] يعني: أم موسى صلوات الله وسلامه عليه، ويكون معنى الآية: لولا أن ربطنا على قلبها كادت لتبدي به؛ لأنها لم تبدي به؛ لأن الله ربط على قلبها.

القول الثالث: أنها همّت لتضربه، وهمّ ليضربها، فليس الهّمّ إذاً منها هو إرادة الزنا، ولكن الهّمّ منها كان همّ الضرب، ولماذا تضربه؟!!

الجواب: لأنها صُدمت ودهشت؛ لأنها ما كانت تتوقع أبداً أن يردّها، كأنها تقول: أنا امرأة العزيز، وبهذا الجمال، وأنت عبدٌ لي، وفي قَصْرِي، وأتھياً لك، وأغلق الأبواب، وأقول لك: هيت لك، وتردني؟! فعزّت عليها نفسها، كيف تُردّ؟! فجاءت لتضربه غضباً لما جرح من كبريائها، فيكون الهمّ منها لضربه، وهمّ كذلك ليضربها تأديباً لها على ما أرادت أن تفعل، ثم رأى برهان ربه ألا يفعل؛ لأنه لو ضربها لاتهموه بها، هو هرب وأتھمّ ولم يضربها، فكيف لو ضربها؟! لذلك قالوا: لم يُردّ الفاحشة، وإنما أراد أن يضربها، هذا هو الهمّ من يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

وأياً كان الأمر فكلهم متفقون على أن يوسف لم يُردّ الزنا أبداً، وأما الروايات المكذوبة التي تقول: أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، أو أنه حل سراويله، والبرهان أنه رأى يعقوب عاضاً على أصبعه، رآه في الجدار، فهذا كله كذب، وإنما هذه من روايات بني إسرائيل التي فيها مطعن على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قميص يوسف ﷺ:

هرب يوسف ﷺ من امرأة العزيز، فلحقت به ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: جرته؛ لأنها تريده، فانشق قميصه بيدها ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾، يقول أهل العلم في اللغة: إذا كان الشق في الطول يقال له: «قَدّه»، وإذا كان الشق بالعرض يقولون: «قَطَّه»، وإذا مزقه يقولون: «قَطَّعَه».

وقميص يوسف عجيب، قميص يوسف أخذه إخوة يوسف، وأعطوه لأبيهم وقالوا: أكله الذئب، وهنا يأتينا أيضاً قميص يوسف ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ وسيأتينا أيضاً قميص يوسف ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾

هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَيَّ وَجْهَ أَبِي ﴿ [يوسف: ٩٣]، ولذلك يقول الإمام الشعبي رحمه الله تعالى: قصة يوسف في قميصه، دائماً يُذكر هذا القميص، مع أن القميص الذي أعطيه يعقوب؛ غير القميص الذي قدته امرأة العزيز، غير القميص الذي ألقى على وجه يعقوب صلوات الله وسلامه عليه.

لما وصل يوسف إلى الباب وفتحه يريد الخروج ﴿وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] وسيدها: زوجها وكانوا في زمنهم يقولون للزوج: «سيد» ولم يقل: «سيدهما»، مع أن يوسف في الأصل عبد عندهما، ولكن الله تبارك وتعالى كما يقول أهل التفسير: أراد الله أن يبين أن مُلكهم ليوسف خطأ، وغير صحيح؛ لأن يوسف حر، ولذلك لم يسمه سيداً ليوسف أبداً، بيع وهو حر صلوات الله وسلامه عليه.

وهنا شيء عجيب جداً من تصرف هذه المرأة واستعادتها لوعيتها مباشرة لما رأت سيدها، قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أي: يوسف، مع أن الأمر واضح، فهو الذي فتح الباب عليه الصلاة والسلام وهي خلفه، ثم قالت: ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، إذاً هي القاضية، هي الخصم وهي الحكم، والأمر كما قيل:

يا أعدل الناس إلا في محاكمتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وهذا دليل على قوة شخصيتها، وضعف شخصية الزوج، بدليل أنها من جراتها وقوة بأسها، تقول لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، إذا خيَّرته بين أمرين: السجن أو العذاب، وكل هذا والزوج لا يحرك ساكناً، حتى قال بعض أهل العلم: وهذا دليل على أن الرجل كان ديوثاً لا يغار على امرأته، ولذلك سيأتينا قوله لها ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وهذا منتهى غيرته على عرضه، وسيأتينا أن امرأة العزيز لما تكلمت مع النسوة بعد أن قلن: ﴿أَمْرَأْتُ

الْعَزِيزِ تَرْوُدُ فَفَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴿ [يوسف: ٣٠]، ثم قطعن أيديهن لما رأين يوسف صلوات الله وسلامه عليه قالت: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ وَلَقَدْ رَودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ ﴿ [يوسف: ٣٢]، ولم تذكر هذه المرة العذاب الأليم، والسبب في ذلك كما قالوا: لأنها هنا مغتابة من يوسف، خاصة إذا قلنا: إن الهمّ منها الضرب، فلا مانع عندها أن يضرب، بل لا مانع عندها أن يقتل؛ لأنه جرح كبرياءها ﴿يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ [يوسف: ٢٥]، لكن هناك ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ ﴿ [يوسف: ٣٢] ولكن بغير عذاب أليم؛ لأنها تريده الآن، رجوعها لها وعليها مرة ثانية، والآن تريد يوسف مرة ثانية.

وشهد شاهد من أهلها:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴿ [يوسف].

أولاً: مَنْ هذا الشاهد؟ قيل: الشاهد ابن خالتها، وقيل: هو زوجها، وقيل: الشاهد طفل رضيع، شهد ليوسف في هذه القضية، وأياً كان، فالمهم أنه شهد شاهد من أهلها، وهذا دليل على براءة يوسف؛ لأن الشاهد من أهلها الأصل أنه يقف معها، ولذلك الله تبارك وتعالى لبيان براءة يوسف جاء بشاهد من أهلها، والدليل على أن هذا الشاهد معها ليس مع يوسف أنه قدم براءتها على براءة يوسف، فقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ [يوسف: ٢٦]، هذا الاحتمال الأول، وهو الذي تمناه الشاهد حتى يكون يوسف هو المخطئ، وتكون هي البريئة.

لِمَ تكلم الشاهد بهذا الكلام؟

لما قالت هي: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ سكت ولم يتكلم،

وأراد الستر، وما قال: راودتني أبدأ، لكن هي اتهمته زوراً وظلماً ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] وهنا كان لابد ليوسف أن يدافع عن نفسه قال: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

وأخبر الشاهد أن القميص مشقوق، وهي تقول: هو راودني، وهو يقول: هي راودتني، قال: انظروا في قميصه، فإن كان قُذِّ من الأمام؛ فهو الذي راودها، وهو الذي أرادها بالسوء، وإن كان قُذِّ من الخلف، فهي التي راودته.

والأظهر أن الشاهد ابن خالتها، وهذا أشهر الأقوال.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] تراوده عن نفسه، وتغلقت الأبواب وتتهياً له، ثم تتهمه هو صلوات الله وسلامه عليه؛ حتى صار المجرم بريئاً، وصار المظلوم ظالماً، انقلبت الحقائق عند الناس: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وماذا قال سبحانه عن كيد الشيطان؟ قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، إذا كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، ولكن من هداها الله تبارك وتعالى واستقامت على الطريقة الصحيحة، فهذه ليست من أولئك النساء، ولكن إذا فسدت المرأة - والعياذ بالله -؛ فإن كيدها عظيم كما قال هنا، إما الشاهد، وإما زوجها، وأقره الله على هذا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ الَّذِينَ أَدْبَسُوا لَهُمُ الْبُزْءَ الْمُجْتَازَ﴾ [النساء: ١٥].

والغالب أن القائل هو زوجها، ثم التفت إلى يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩] لا تفضحني، المسألة انتهت الآن، ثم التفت إليها وقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٣].

الأدلة على عدم الهم من يوسف:

تقدم أن يوسف لم يهّم على الصحيح، لا همّ الزنا، ولا الهمّ النفسي، فلم يقع من يوسف همّ، والدليل على ما اخترناه:

أولاً: شهود لهم تعلق بالواقعة، أو لهم يوسف صلوات الله وسلامه عليه، قال: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، ثم كذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ثانياً: امرأة العزيز تخبر أنه لم يقع شيء من يوسف، ولذلك ستقول: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وستقول في الآية الأخرى: ﴿الْقَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وهذه شهادة من الخصم، وهي امرأة العزيز.

ثالثاً: زوجها قال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

رابعاً: الشاهد: قال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ فَكٰذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف].

خامساً: النسوة، لما أدخل يوسف السجن، وأراد الملك أن يخرج به بعد ذلك قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] ناداهن الملك، وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ زَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

وقبل هؤلاء الشهود: الله تبارك وتعالى، فقال ﷻ: ﴿كَذٰلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُتَّخٰلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وفي القراءة الأخرى: ﴿إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُتَّخٰلِصِينَ ﴿٢٤﴾﴾، أخلص الله فأخلصه الله لنفسه ﷻ، وكان الشيطان قد قال: ﴿فِعْرٰتِكَ لِأَعْوٰتِهِنَّ أَجْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُتَّخٰلِصِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [ص] ويوسف من المخلصين، إذ لا سبيل للشيطان عليه أبداً.

وإذا أضفتَ إلى هذا كله: العصمة التي جعلها الله تبارك وتعالى لأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأضفتَ إلى ذلك أن الصالح من المسلمين من أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «ورجل دعت امرأه ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»^(١)، ويوسف أولى بها صلوات الله وسلامه عليه أن يكون رده مباشراً، وأن يقول لها: إني أخاف الله، وهذا ظاهر في قوله ﷺ: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

إذاً رد يوسف كان مباشراً صلوات الله وسلامه عليه، ولم يتأخر، ولم يتردد، وإنما كان رداً مباشراً بمجرد أن قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

عفة يوسف ﷺ:

يوسف ﷺ عفيف، والدليل على عفته أمور:

الأمر الأول: أنه غريب، والغريب يفعل ما يشاء، يقول المثل: «يا مَعْرَبَ حَرْبٍ»؛ لأنه غير معروف، حَرْبٌ وسينسك الناس، وإنما يتكلم الناس فيمن يعرفونه، فلو كان يوسف غير عفيف لفعل ما يريد.

الأمر الثاني: هو مملوك لها، وعادة الناس أنهم يطيعون من له سلطة عليهم في أي أمر.

الأمر الثالث: الأبواب مغلقة، والأمور مهيئة، فلا أحد يرى، ولذلك جاء في بعض الروايات أنه كان صنم في الغرفة، فجاءت وغطتِ الصنم، فقال: ماذا تفعلين؟ قالت: حتى لا يراني إلهي. قال: وأنا يراني إلهي ولا أستحي من إلهي! أنا إلهي لا يغيب، ولا يخفى عليه شيء ﷺ.

الأمر الرابع: امرأة جميلة، ومثل هذه تفتن الرجال.

(١) تقدم تخريجه ص ١٩٦.

الأمر الخامس: هو شاب، والشاب يميل إلى النساء، وهو غير الشيخ الكبير، ولو تتعرض له من تتعرض، فإنه لا شهوة له ولا صبوة، ولذلك قال النبي ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكبيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان^(١)؛ لأن المفترض أن الشيخ شهوته ضعيفة، فلا يميل إلى هذه الأمور، يمنعه سنه، ويمنعه شبعه، ويمنعه ضعفه من هذه الأمور، ولكن الشاب الأعزب عنده الدافع القوي لأن يفعل مثل هذه الأمور، ولكن عفة يوسف هي التي منعت صلوات الله وسلامه عليه.

الأمر السادس: توعده وهددته ﴿وَلَيْنَ لَمَّ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف].

الموانع التي منعت يوسف ﷺ:

الموانع التي منعت يوسف من الوقوع في الفاحشة هي:

أولاً: تقوى الله ﷻ: هو المانع الأول الذي منع يوسف من الوقوع في هذه المعصية.

ثانياً: مراعاة حق العزيز: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فلا يصلح أبداً أن أخون من أحسن مثواي.

ثالثاً: صيانة النفس عن الظلم: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولن أكون ظالماً، يصون نفسه عن أن يكون ظالماً صلوات الله وسلامه عليه.

رابعاً: البرهان: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٢٤] هذا إذا قلنا: إن الهم هو الهم الفطري من يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فلما رأى برهان ربه، وهو الإيمان الذي ألقاه الله في قلب يوسف حتى يمتنع عن هذا الأمر.

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خبر امرأة العزيز ينتشر في المدينة ومكر النسوة:

قال الله - جل وعلا - : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف] ولم يقل: فلما سمعت قولهن مع أن ظاهر الكلام أنه كلام عادي، ولعل هذا الكلام قاله الكثير وهو الواقع، فكيف سمي الله تبارك وتعالى، ذلك الكلام مكرًا؟

الجواب: قال أهل العلم: إن المكر في كلام أولئك النسوة من وجوه كثيرة، لو تدبر الواحد منا هذه الآية لوجد المكر ظاهراً وبارزاً من كلامهن:

أولاً: ذكرتها بالوصف: ولم يسميها، بغض النظر عن اسمها ما هو؟ هل هو زليخة كما هو مشهور عند أهل الكتاب أم لا؟ وهذا من المكر.

ثانياً: قلن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾: ليست كسائر النساء أنتِ امرأة العزيز.

ثالثاً: في قولهن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾: أي: إنكِ امرأة متزوجة، ولو كان هذا وقع من امرأة غير متزوجة كان قيل، لكنكِ امرأة متزوجة.

رابعاً: قولهن: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾: راودت مملوكاً لم تراود حراً، وإنما راودت مملوكاً ومثل هذه إنما تراود من في مستواها، تراود الملك، تراود وزيراً في منزلة زوجها، أما أن تراود مملوكاً فهذا لا يليق، ثم مَنْ هذا المملوك؟ فتاها الذي هو في بيتها، ولو كان في غير بيتها كان من الممكن أن يهون الأمر.

خامساً: قولهن: ﴿تُرَاوِدُ﴾: إذا هي المراودة، وليس هو، ولو كان هو الذي راودها فقبلت كان يهون الأمر، ولكن هي التي تراود، فهذا

سادساً: ثم لم يقلن: «راودت» ولكن جئن بالفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار، مما يفيد أنها راودته وسترأوده أيضاً.

سابعاً: قلن: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾: فهو حفظ حق العزيز، وحفظ حق البيت الذي تربي فيه، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وهي لم تحفظ حق زوجها.

ثامناً: قلن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وقد قالوا: شغاف القلب هو ما يحيط بالقلب أو سويداء القلب؛ أي: بلغ الحب عندها مداه، حتى أفقدها صوابها، فلا تستطيع أن تتصرف تصرفاً طبيعياً.

تاسعاً: قلن هذا في ظهرها غيبة في الخفاء، وهذا مكر.

عاشراً: أردن رؤية يوسف بعد أن سمعن عن جماله، إما من أهل البيت بعد انتشار هذا الأمر، وإما من الشاهد الذي شهد، وإما هي التي قالت لهن: أي: أسرّت لبعض صديقاتها ذلك، فأردن النساء أن يرين هذا الذي أذهب عقل هذه المرأة، وكيف يرينه؟ بهذه الطريقة، الطعن في امرأة العزيز حتى تثور، ثم تريهنّ هذا الفتى؛ لتدافع عن نفسها.

حادي عشر: قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذا تزكية لأنفسهنّ، يعني: نحن لا نفعل مثل هذا الشيء، وإن هي فعلت.

إذاً كل هذا المكر موجود في خلال هذين السطرين، ولما كان هذا المكر منهنّ لم تسكت امرأة العزيز، وإنما قابلت المكر القولي بمكر فعلي، النساء مكرهنّ باللسان أما مكر امرأة العزيز فبالفعل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُكَيَّا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ مِكْيَاً وَقَالَتِ امْكُرِيْنَ﴾ [يوسف: ٣١]، وكيف كان مكرها؟

أولاً: أرسلت إليهن، وظاهر الأمر دعوة لا يراد منها إلا الإكرام.

ثانياً: أعدتْ لهن متكئاً، وهيئت ذلك، وظاهر الأمر إلى الآن الإكرام من الدعوة، وإعداد المجلس.

ثالثاً: خبأت يوسف صلوات الله وسلامه عليه في مكان، فهو خادم عندها في بيتها، قالت له: ادخل هذه الغرفة، فدخل صلوات الله وسلامه عليه بحيث لا مخرج له إلا من طريقهن.

رابعاً: أتت كل واحدة منهن سكيناً، ولم تجعل بعض السكاكين تستخدمها هذه مرة وهذه مرة، وإنما تعمّدت أن تكون عند كل واحدة منهن سكيناً.

خامساً: أتت بطعام يُحتاج في أكله إلى سكين.

سادساً: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ أدخلته عليهنّ فجأة، فاستخدمت عنصر المفاجأة، ولم تقل لهن: «سيدخل، الآن سيأتي، دعن الطعام، انتبهن»، وإنما استخدمت عنصر المفاجأة؛ لترى ردّة الفعل. إذاً مكرّ قولي قابله مكرّ فعلي، فكيد النساء إذاً عظيم.

دخل يوسف صلوات الله وسلامه عليه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَسْبَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، هذه إذاً ردّة فعل النساء لما رأين يوسف صلوات الله وسلامه عليه، عظمنه في أنفسهن لكمال خلقه وخُلُقِه، جمالاً وهيبة فيه صلوات الله وسلامه عليه، لذلك لما رأينه أكبرنه أي: أعظمن شأنه ﴿وَقُلْنَ حَسْبَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾، وكانت السكاكين معهنّ يقطعن الطعام، المهم أن السكاكين في أيديهن، فلما رأينه ذُهلن من جماله صلوات الله وسلامه عليه، وقد لا يتصور الإنسان ذلك، وقد يقول: هل يعقل إلى هذه الدرجة؟

الجواب: نعم إلى هذه الدرجة وأكثر، ولولا هيبة النبوة لكان الأمر أشنع من ذلك.

ذهبت العقول، وطاشت الألباب لما رأين هذا الجمال الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه أوتي شطر الحسن^(١)، أعطى الله تبارك وتعالى يوسف شطر الحسن، فكان كالبدر، ولذلك طاشت عقول النساء، وصارت السكين تعمل، والذهن لا يعمل، اليد تتحرك حركة لا إرادية، والذهن مشغول بهذا الذي رأيته، فَجَرَحَنَ الأيدي^(٢)، ﴿وَقَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، لم يُبَيِّنْهَا؛ أي: لم تقطع اليد تماماً، ولكن جرحت يعني: قطعن الجلد، وقلن ﴿حَشَّ لِلَّهِ﴾ يُقْسِمَنَّ بِاللَّهِ ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾، ما رأينا بشراً هكذا، نحن بشر، ورأينا كثيراً من البشر، وليس هذا من البشر، والنسوة إما قلن هذا الكلام لما فيه من الجمال، جمال الخُلُقِ، وإما لما فيه من جمال الخُلُقِ، والدين، والعفة، والهيبة - هيبة النبوة ونورها .. ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف] هل رأين الملائكة حتى يقلن: ملك؟ ما رأين الملائكة، الإنسان ما رأى الملائكة، وهذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: يحتمل أنهنَّ أردنَّ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ [يوسف: ٣١] أي: من الجمال، وقد انطبع في أذهان الناس أن غاية الجمال في الملائكة، وغاية القبح في الشياطين، هذا ثابت في أذهان الناس، ولذلك إذا رأوا صورة جميلة قالوا: ملك، مع أنهم ما رأوا الملك، وإذا رأوا صورة قبيحة قالوا: شيطان مع أنهم - كذلك - ما رأوا الشيطان على خُلُقته، ولكن انطبع في أذهان الناس أن الصورة الحسنة صورة الملائكة، وأن الصورة القبيحة صورة الشياطين، ولذلك قال الله تبارك وتعالى عن الشجرة التي في النار: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿٦٥﴾ [الصافات] مع أن الناس ما رأوا الشياطين، ولكن انطبع في أذهانهم قبح الشياطين.

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢) يخطئ البعض فيرى أن هذه الخطوط التي في الأيدي الآن هي من تلك النسوة، وهذا غير صحيح؛ لأن تلك النسوة من الأقباط، وهن خمس أو عشرون أو أربعون امرأة، وكل الناس أيديهم هكذا، فليس من ذلك التقطع.

ويُذكر عن الجاحظ صاحب كتاب «الحيوان» وكتاب «البيان والتبيين» وغيرهما من الكتب، وهو أديب معروف أنه كان قبيح المنظر، حتى قالوا: إنه سمي الجاحظ؛ لبحوظ عينيه، وهو بروزهما، وقد دُكِرَتْ طرفه وقعت له: أنه كان في السوق، فجاءته جارية، وأمسكتْ بيديه، وجرته، فمشى معها، فوفقت عند الصائغ - صائغ الذهب -، فقالت: مثل هذا، ثم ذهبت، يقول الجاحظ: فصرتُ أنظر إلى الصائغ، وينظر إليّ، ويضحك، فقلت له: لِمَ تضحك؟!

فقال له الصائغ: ولِمَ جئت؟ قال: لا أدري أمسكتُ بيدي، فمشيت معها. قال: أتدري ما كانت تريد؟ قال: ما أدري. قال: قالت: أريد أن تصنع لي عقداً، ويكون وسطه رأس شيطان، فقلت لها: لم أرَ الشيطان في حياتي حتى أصنع لك رأس شيطان، فجاءتني بك.

المعنى الثاني: أردنَ ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي: من العفة، والطهر، والنقاء، تنهياً له امرأة العزيز في بيتها، وهي امرأة جميلة، وتعلقت الأبواب، وتقول له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وهو عبْدٌ عندها، ومع هذا يبتعد عنها؟!

قد شغفها حباً:

ولما قَطَعْنَ الأيدي وقلنَ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قامت امرأة العزيز وأعلنت ذهاب الحشمة والعفاف الآن تماماً، وأعلنت عن حبها الشديد ليوسف صلوات الله وسلامه عليه غير مبالية بهؤلاء النساء؛ لأنها رأَتْ رَدَّةَ الفعل، فقالت: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي لَمُنْتَنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، نظرة واحدة وقطعتن الأيدي، وأنا أعيش معه في بيت واحد كيف أتحمل؟ ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهنا أعلنت براءته صلوات الله وسلامه عليه، واستعصم بمن؟ استعصم بالله لما قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

وهنا عندما نرى هذا المنظر عندما دخل يوسف صلوات الله وسلامه عليه على هؤلاء النسوة، وقطعن أيديهن قالت امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] فهل ما زال اللوم قائماً؟ هل ما زلتن تلمنني؟ ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ [يوسف: ٣٢] كأنها تقول: أقولها أمامكنن، واسمع - أي: يوسف - لئن لم تفعل ما أمرك فحلمي: ﴿لَيْسَجَنَّ وَإِيكُونَا مِنَ الضَّعِيفِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهنا في قول امرأة العزيز: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ يدل عليه قول النسوة لها: ﴿تَرَوُدُ﴾ إذا ما زالت تراود يوسف صلوات الله وسلامه عليه حتى بعد الفضيحة، فُصِحَتْ، وشهد الشاهد، وقال لها زوجها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩].

وشاع الخبر بين النساء، لكنها إلى الآن مفتونة بيوسف صلوات الله وسلامه عليه، وأعلنت أنها غير مبالية بأحد غير يوسف ﷺ، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ أي: من طاعتي في هذا الذي أريد ﴿لَيْسَجَنَّ وَإِيكُونَا مِنَ الضَّعِيفِينَ﴾ وفي المرة الأولى قالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [يوسف: ٢٥]، والآن قالت: ﴿لَيْسَجَنَّ وَإِيكُونَا مِنَ الضَّعِيفِينَ﴾ في المرة الأولى يسجن أو عذاب أليم؛ لأنها كانت منفعلة جداً، فكانت ردة فعلها قوية؛ لأن المرأة في طبيعتها انفعالية، تغلب عاطفتها عقلها، ولذلك قالت: ﴿يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾، والآن لا تريد العذاب؛ لأنه رجع لها عقلها نوعاً ما، والآن تريد يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فلم تذكر العذاب، بل قالت: ﴿لَيْسَجَنَّ وَإِيكُونَا مِنَ الضَّعِيفِينَ﴾ إن لم يطعها، وهنا جمعت له الترغيب والترهيب صلوات الله وسلامه عليه، فهي امرأة جميلة ذات منصب، وهي التي تراوده عن نفسه، والنفس تميل بطبيعتها إلى النساء، ثم تهديد ووعيد؛ سجن، وصفار، وذل ﴿لَيْسَجَنَّ وَإِيكُونَا مِنَ الضَّعِيفِينَ﴾.

فجاء الجواب من يوسف صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، مع أن السجن غير محبوب، ولكنه إذا قارنه بالفاحشة؛ فهو أحب إليه من الوقوع في الفاحشة.

ولنتدبر قوله: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: «تدعوني»، وإنما قال: ﴿يَدْعُونِي﴾ إذا في المرة الأولى كانت الداعية امرأة العزيز وحدها، والآن كلهن يُردن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما رأينه، فكلهن يُردنه، وقد ﴿قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، ولذلك راودنه كلهن عن نفسه بعد أن كانت المراودة امرأة العزيز، الآن المراود كل هؤلاء النساء، ويأتينا قول الله تبارك وتعالى عندما يأمر الملك بإخراج يوسف من السجن صلوات الله وسلامه عليه يقول للرسول الذي جاءه: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَيْكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، فقال لهن الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١] كلهن إذا راودن يوسف عن نفسه، وهذا بلاء عظيم، وهؤلاء مَنْ؟ هم: عليّة القوم، فما كان من يوسف صلوات الله وسلامه عليه إلا أن اعتصم بالله ﷻ، وهذا حال المؤمن دائماً، كما يقولون: إذا ادلهمت الخطوب، وحاصرته المشكلات فإنه لا يجد ملجأ إلا إلى ربه تبارك وتعالى.

قال: ﴿وَالْأَصْبَحُ كَيْدُهُنَّ أَصْبَحُ إِلَيْنَ﴾ [يوسف: ٣٣] فأنا ضعيف بدونك يا رب، لا حول ولا قوة ولا طول للإنسان إلا أن يلجأ إلى الله تبارك وتعالى.

وهنا تصوروا هذه الدعوة من يوسف ﷺ: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، رب ﴿وَالْأَصْبَحُ كَيْدُهُنَّ أَصْبَحُ إِلَيْنَ﴾ لضعفي ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْبُغْيَالِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وهي دعوة نبي مظلوم، والمظلوم

- ولو كان كافراً - فإن الله ينصره ﷻ؛ لأنه مظلوم، ولأن الله تبارك وتعالى أمر بالعدل، ولا يقبل الظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال سبحانه في الحديث القدسي: «إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً»^(١)، ويقول النبي ﷺ لمعاذ: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(٢)، ولذلك كان الرد سريعاً من الله تبارك وتعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٤]، والفاء هذه للتعقيب، ولم يقل: «ثم استجاب له ربه»، وإنما جاءت الاستجابة مباشرة من الله تبارك وتعالى سريعة.

يوسف ﷻ يدخل السجن ظلماً:

قال الله - جل وعلا -: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ [يوسف: ٣٥] أي: ظهر واستقر عندهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُوهُ، حَتَّىٰ جَاءَ مِنْهُ﴾ [يوسف: ٣٥] والآيات هي: أولاً: الأدلة على براءة يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

ثانياً: محاولة العزيز أن يستر على زوجته.

ثالثاً: إسكات الناس الذين كثر حديثهم في امرأة العزيز.

رابعاً: العزيز إلى الآن يخاف من امرأته؛ لأنها ما زالت تريد يوسف، بل صارت تصرح بذلك، فأوا بعد ذلك - أي: العزيز وبطانته - وكأنني به يقول لهم: ما تقولون؟ أتركه فهو بريء، نحن رأينا الأدلة، وشهد الشاهد، وقلتُ لها: استغفري لذنبك.

ما ترون؟ أنا العزيز أفضح أمام الناس لأجل يوسف؟!!

ما ترون؟ أنا العزيز ما زلت أخاف من امرأتي أن تأتي يوسف عليه

الصلاة والسلام.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس ؓ.

ما تقولون؟ أسكت هذه الألسنة التي صارت تلوك قصة امرأتي مع يوسف .

فأوا بعد ذلك أن يسجن يوسف عليه الصلاة والسلام .

وهذه مصيبة عندما يغيب العدل، ويسود الظلم، يصير البريء متهماً، والظالم يصير مظلوماً، ويُستر على بيوت مجرمة مقابل إيذاء أناس برآء، كما وقع ليوسف صلوات الله وسلامه عليه .

وهذه المحنة هي الخامسة ليوسف عليه الصلاة والسلام، فالمحنة الأولى: إلقاءه في الجُبِّ، والثانية: بيعه مملوكاً، والثالثة: مراودة امرأة العزيز له، والرابعة: مراودة النسوة له، والخامسة: دخول يوسف ﷺ السجن .

إذاً حياته مليئة بالابتلاءات ﷺ، ولذلك قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى المرء على قدر دينه»^(١) .

يوسف ﷺ في السجن:

دخل يوسف السجن، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ [يوسف: ٣٦]، ذكر أن هذين الرجلين، كان أحدهما ساقى الملك، والثاني طباخ الملك، والمشهور عند أهل التفسير أن بعض الناس كانوا يريدون قتل الملك، فذهبوا إلى الساقى وقالوا له: ضع في شرابه سُمًّا، ونعطيك كذا وكذا، فرفض، فذهبوا إلى طباخ الملك، فقالوا له: ضع في طعامه سُمًّا، ونعطيك كذا وكذا، فقبل، فوضع له السمَّ، فلما وُضع طعام الملك؛ قال الساقى للملك: لا تأكل، قال: لِمَ؟ قال: في الطعام سُمٌّ، وهنا قال الطباخ: لا، في الشراب السُمُّ، إذاً تقرّر عند الملك أن هناك سُمًّا، لكن هل هو في الطعام أو في الشراب؟ لا يدري، فأمر

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وهو في «صحيح الجامع» (٩٩٢).

بالبهائم، فأتى بها، فعزلها في جانبين، وقُدِّمَ لهذه الطعام ولهذه الشراب، وانتظروا النتيجة، فإذا ماتت من الطعام؛ فيكون السُّمُّ في الطعام، وإذا ماتت من الشراب فيكون السُّمُّ في الشراب، ومن حين وضع الطعام إلى حين خروج النتائج، أمر بهما الملك كليهما، فأدخلا السجن ريثما تظهر النتيجة.

دخل هذان الرجلان مع يوسف صلوات الله وسلامه عليه في السجن، وقدَّرَ الله تبارك وتعالى أن يرى كل واحد منهما رؤيا في منامه، فلما أصبحا أقبلا علي يوسف صلوات الله وسلامه عليه، قال أحدهما: ﴿إِنِّي أَرْنَيْتُ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] وكيف عرفا أن يوسف من المحسنين؟ قد يكون بلغهما خبر يوسف؛ لأننا قلنا: إن أمر يوسف ﷺ صار حديثاً متداولاً، وقد يكون - وهو الظاهر - أنه من سَمِّته عرفوا أنه من المحسنين، هيبَةً وجمالاً، وكان الله تبارك وتعالى - كما ذكر أهل العلم - نبأً يوسف وهو في السجن.

قال يوسف صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧] ما معنى هذا الكلام؟ و﴿تَأْوِيلِهِ﴾ تعود على ماذا؟

قبل أن يأتي الطعام أقول: سيأتيكم طعام كذا وكذا، يعني يخبرهما بالغيب، كما قال الله تبارك وتعالى عن عيسى ﷺ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ولأن هذين الرجلين كانا في أشد الحاجة إلى يوسف؛ لأن كل واحد منهما رأى رؤيا شغلته، فرأى يوسف عليه الصلاة والسلام أنه الآن من المناسب أن يدعوها إلى الله تبارك وتعالى؛ لأنه لو فسر لهما الرؤيا

لانشغل كل واحد بما فُسر له، ولكن هما في انتظار تفسير الرؤيا لذلك قال: عندي كلام أريد أن أقدمه قبل تفسير هذه الرؤيا، فقال: ﴿أَرْيَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] لأن من رؤيه الناس من رؤيه بقرة، ومن الناس من ربه شجرة، ومن الناس من ربه شمس، ومنهم من ربه قمر، ومنهم من ربه ملك، ومنهم من ربه نبي، ومنهم من ربه نجم، ومنهم من ربه فأر، ويختلف الناس في هذا اختلافاً عظيماً، فقال: ﴿أَرْيَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فيوسف ﷺ إذا حقر الآلهة في عيونهما، ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ﴾ [يوسف: ٤٠] يعني: أنتم سميتموها آلهة، لكن هي في حقيقة الأمر ليست آلهة، أعطيتموها اسماً لا تستحقه، ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [النجم: ٢٣] أنتم سميتموها أرباباً، أنتم سميتموها آلهة، لكنها ليست آلهة، ولا هي بأرباب، وإنما هي تسميات من عند أنفسكم كما سمي كفار مكة أو من قبلهم الصنم باللات، أنثى الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

ثم أجابهما بما يريدان، وهذا لا شك أنه من كمال عقل يوسف صلوات الله وسلامه عليه، ويقول أهل العلم عن ذلك: إن هذا جواب الحكيم، وهو الذي يعطيك ما ينفعك زيادة على سؤالك، أو كان سؤالك غير نافع، أو يقدم لك بين يدي السؤال ما هو أنفع لك، كأنه يقول لك: لو سألت عن كذا لكان أولى بك، ولذلك لما سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩] لماذا الهلال يبدأ صغيراً، ثم يصير بديراً، ثم يعود هلالاً بعد ذلك؟ سؤال لا يترتب عليه شيء، فجاء الجواب: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فمن المفروض أن تسألوا عن الحكمة التي من أجلها وجد هذا الهلال، فأجابهم بخير من مسألتهم، وكذا في قول النبي ﷺ لما قيل له: أنتوضأ من ماء البحر؟

قال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»^(١)، فأجابهم إجابةً خيراً من سؤالهم الذي سألوه^(٢).

وكذلك هنا هم سألوه عن رؤيا، فقال: كان الأولى أن تسألوا عن أشياء أولى من هذه، أنتم الآن إذا متم تكونون ماذا؟ تعبدون أرباباً متفرقة، ولا تعبدون الذي يستحق أن يعبد، هذه أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم، ثم بعد ذلك فسر لهم الرؤيا، فقال: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمْ فَسَيَقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١]، وهنا لم يقل: أما أنت فكذا، وأما أنت فكذا حتى لا يحزنه، بل قال: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمْ فَسَيَقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ يعني: سيخرج بريئاً، قال: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلَّبُ﴾، يُقتل وتأكل الطير من رأسه ﴿فَقِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

ثم قال: ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢] وهو الذي رأى أنه يسقي ربه خمرًا، ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] يعني: عند الملك، قل له: إن هناك إنساناً دخل السجن ظلماً، امرأة العزيز أدخلته السجن؛ لأنه ما طاعها إلى ما تريد، فأدخلته السجن ظلماً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنسَلْهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] قال بعضهم: أنسي يوسف ذكر ربه، يعني استعان بالبشر، ولم يستعن بالله، وهذا باطل، كيف ويوسف عليه الصلاة والسلام في كل آية يقول: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، ﴿فَأَسْتَعِمْ﴾، ﴿وَأِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٣٧)، وأبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (١٧٦)، وابن ماجه (٣٨٦)، وصححه الألباني «إرواء الغليل» (٩).

(٢) قال الخطابي تعليقاً على الحديث السابق: «وفي حديث الباب دليل على أن المفتي إذا سُئل عن شيء وعَلِمَ أن للسائل حاجة إلى ذكر ما يتصل بمسألته؛ استحَب تعليمه إياه، ولم يكن ذلك تكلفاً بما لا يعنيه لأنه ذكر الطعام وهم سألوه عن الماء لعلمه أنهم قد يعوزهم الزاد في البحر».

لِبُتَيْلَانَ ﴿يوسف: ٣٣﴾، ما نسي الله أبداً طرفة عين صلوات الله وسلامه عليه، إذاً من الذي أنساه الشيطان ذكر ربه؟

الجواب: هو الساقى، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك عند رؤيا الملك: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ [يوسف: ٤٥] يعني تذكر، إذاً الذي تذكر هو الذي نسي.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: اذكر حالي ومظلمتي، يقول جل ذكره: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: أنسى الشيطان الرجل الذي أمره يوسف صلوات الله وسلامه عليه أن يذكره عند ربه، أنساه ذكر سيده، فكان أن ترتب على ذلك أن لبث يوسف في السجن بضع سنين.

والمشهور عند أهل العلم أن السنوات التي مكثها يوسف صلوات الله وسلامه عليه بعد هذه الحادثة سبع سنين، وهذا من لطف الله - جل وعلا - وعظيم حكمته.

رؤيا الملك:

قدر الله تبارك وتعالى أن رأى الملك رؤيا، قال - جل وعلا -: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣] هذه رؤيا رآها ملك مصر في ذلك الزمان.

واختلف في هذا الملك من يكون، على قولين:

القول الأول: إنه فرعون من فراعنة مصر.

القول الثاني: إنه من الهكسوس الذين حكموا مصر في ذلك

الزمان.

وأياً كان الأمر؛ فإن معرفة الملك لا تفيدنا شيئاً، وإنما يفيدنا

المعنى الذي اشتملت عليه هذه الآيات، والمشهور كذلك أن هذا الملك اسمه: الريان بن الوليد، رأى هذه الرؤيا العجيبة، ولم يقل: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، وإنما قال: ﴿إِنِّي أَرَى﴾، والأظهر أن يقول: «رأيت»؛ لأنه منام قد مضى، ولكنه قال: ﴿أَرَى﴾، يريد أن ينبه الحاضرين إلى أن الأمر رؤيا، وأنه يستحضرها تماماً كأنه يراها الآن.

والذي استغربه هذا الملك هو أنه رأى أن الناقص الهزيل الضعيف يأكل القوي الكامل، وهذا أمر غريب، خاصة أنه ذكر في كتب أهل الكتاب: أن الملك رأى البقرات السمان والبقرات العجاف، وكيف أن هذه العجاف تأكل السمان، فقام من نومه مفزوعاً، ثم عاد ونام مرة ثانية، فرأى السنابل، سنابل يابسة وسنابل خضراء، ثم تأتي هذه السنابل اليابسة، فتلتف على السنابل الخضراء، حتى تكون كأنها التهمتها، فقام فزعاً مرة ثانية، ولما كان الأمر غريباً - وهو أن الهزال من البقر تأكل السمان، وكذلك السنابل اليابسات تلتف وتأكل السنابل الخضراء - أيقن أن في الأمر شراً.

عندها جمع الملك الحكماء، والسحرة، والكهنة، والعلماء في ذلك الزمان، ثم قصَّ عليهم هذه الرؤيا، فكان الرد: ﴿قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف]، والضغث هو: الخليط، يعني: الشيء الرطب مع الشيء اليابس^(١)، ولو كانت هذه رؤيا كنا فسرناها لك، ونحن لا نعلم تأويل الأحلام، وإنما نعلم تأويل الرؤى، وهنا يقول أهل العلم: جمعوا السوء من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الجهل؛ لأن الأمر كان رؤيا ما كانت أضغاث

(١) الضغث: يقال: أتانا بأضغاث من أخبار: بضروب مختلطة منها.

وأضغاث الأحلام: ما كان منها ملتبساً مضطرباً يصعب تأويله. «المعجم الوجيز» ص ٣٨١.

أحلام، ولكن زعموا جهلاً أن رؤيا الملك أضغاث أحلام، وهو جهل.
الوجه الثاني: تكلموا بدون علم، وكان الأولى بهم أن يقولوا لا
نعلم.

الوجه الثالث: ادّعوا أنهم علماء بالرؤى، فهم جهّال، ثم أفتوا
بباطل، ثم ادّعوا أنه لو كان رؤيا لكنا علمناه، وادّعوا فضلاً ليس لهم،
هذه ثلاثة أمور سيئة وُجدت في أولئك القوم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمْ أَذْكَرٌ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا
أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]، والرؤيا كما مرّ كانت سبباً في
بلاء يوسف والشدة التي وقعت له لما رأى أحد عشر كوكباً والشمس
والقمر له ساجدين، ثم جاءت هذه الرؤيا لتكون بشرى ورحمة ليوسف
صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك الرؤيا التي رآها الرجلان في السجن
مع يوسف كانت كذلك ابتداء الفرج ليوسف صلوات الله وسلامه عليه،
إذاً ليوسف مع الرؤى قصص وأحداث.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمْ أَذْكَرٌ أَي: تذكر بعد مدة،
وتقول العرب كذلك: تذكر بعد أمه أي: بعد نسيان، لكن الذي في
كتاب الله تبارك وتعالى إنما جاءت ﴿أُمَّةٍ﴾ بمعنى: مدة.

و﴿الَّذِي نَجَا مِنْهُمْ﴾ هو ساقى الملك، لما رأى أن الملك جمع
السحرة، والكهنة، والعلماء، وسألهم عن هذه الرؤيا، فعجزوا عنها؛
تذكر يوسف صلوات الله وسلامه عليه، وهذا يؤكد أن قول الله تبارك
وتعالى: ﴿فَأَنسَنُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] أن المقصود هو
الساقى؛ لأن الذي نسي هو الذي تذكر هنا.

قال: ﴿أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ﴾ قالها على صيغة الجزم، مع أنه رأى
عجز العلماء، والحكماء، والسحرة، والكهنة، رأى عجزهم لكن لثقتهم
المفرطة بيوسف صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ﴾،

وقالها جهراً، ولم يقلها سراً، ولم يذهب إلى يوسف ويسأله ثم يرجع إليهم، أبداً، ولكن قالها عن ثقة تامّة بيوسف صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: بتأويله، كأنه يرد عليهم، ويقول: ليست أضغاث أحلام، وإنما هي رؤيا، ولها تأويل، وأنا سأنبئكم بتأويله، لكن الأمر يحتاج إلى أن ترسلون، فأرسلوه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦].

وهنا - كما يقول أهل العلم - يوجد اختزال وهو: اختصار الكلام، حذف كلاماً كثيراً؛ لأنه مفهوم دون أن يسمع هذا الكلام؛ لأن الأصل في كلام العرب ما قلّ ودلّ، والتقدير أنا أنبئكم بتأويله، فأرسلون، فأرسلوه، فدخل على يوسف، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦].

ثناء بين يدي السؤال:

وقدم بين يدي سؤاله ثناء على يوسف لما يعرفه عنه من كمال الأخلاق، فقال له: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ ولم يقل له: «أيها الصادق»، وإنما قال: ﴿الصِّدِّيقُ﴾ كما قال النبي ﷺ: «وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(١).

قال: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَكٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَتِ لَللَّيْلِ أَنْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦] وذلك أنه خشي ألا يخبره يوسف صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه سجن ظلماً، ولعل يوسف أن يقول كذلك: أضغاث أحلام، ولذلك استدرك بقوله: ﴿لَعَلَّيْ﴾.

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ تحتل أمرين:

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

الأمر الأول: لعلمهم يعلمون تفسير هذه الرؤيا، فيصنعون ما يجب عليهم أن يصنعوه.

الأمر الثاني: لعلمهم يعلمون فضلك، ويعلمون الظلم الذي وقع عليك، فيكون هذا سبباً لخروجك من السجن.

لطف الله بيوسف ﷺ:

وهنا يظهر لطف الله ﷻ؛ لأن لطف الله - جل وعلا - يكون أحياناً من طرف خفي^(١)، لو أن الملك كلم الساقى ابتداءً، وقال له: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُوبُكَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَ يَأْسِتُ﴾ [يوسف: ٤٣]، ما تقول فيها؟ لقال هذا الساقى أنا أعرف رجلاً يفهم بالرؤى، أسأله لك، ثم ذهب إلى يوسف وسأله، ثم أفتاه يوسف، فرجع، فأخبر الملك بتفسير هذه الرؤيا، ثم الملك بعد ذلك يجمع السحرة والكهنة، ويقول لهم: انظروا إلى فضل هذا الرجل كيف فسروا لقالوا: نحن نعلم، ولو سألتنا لأخبرناك، ولكن أراد الله تبارك وتعالى أن يظهر فضل يوسف صلوات الله وسلامه عليه بإظهاره عجز أولئك، كما في قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ قَالَ يَتَادَمُ أَنْبَتْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴿[البقرة] فأظهر الله فضل آدم بعد أن أظهر عجزهم، وكذا الأمر يوم القيامة عندما يذهب الناس لآدم، فيقولون: يا آدم اشفع لنا عند ربك، خلقتك بيده وأسجد لك ملائكته، ونفخ فيك من روحه، اشفع لنا عند ربك، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى نوح، فيذهبون إلى نوح، فيقول: لست لها، فيذهبون إلى إبراهيم، فيقول: لست لها،

(١) اللطيف: هو الشيء الخفي الذي لا يكاد يراه كل أحد.

اذهبوا إلى موسى، فيذهبون إلى موسى، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى عيسى، فيذهبون إلى عيسى، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى محمد، فيقول: «أنا لها، أنا لها»^(١)، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلو ذهب الناس - ابتداءً - إلى محمد ﷺ وقالوا له: اشفع لنا عند ربك، وقبل الله شفاعته؛ لكان لقاتل أن يقول: لو ذهبوا إلى إبراهيم لشفع، ولو ذهبوا إلى موسى لشفع، وكذا عيسى، وآدم، ونوح، لكن أظهر الله فضل محمد ﷺ بعد أن أظهر ﷺ أن آدم ونوحاً وإبراهيم، وموسى، وعيسى ليسوا لها صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا من لطف الله ﷻ.

ومن لطفه - جل وعلا - أنه لم يجعل هذه الرؤيا تراها زوجها الملك، ولم يجعل هذه الرؤيا يراها وزير عند الملك، ولا ساقى الملك، ولا رجل من العامة فيأتي على باب الملك، فيقول رأيت هذه الرؤيا، فيهجئها الملك، ولا يهتم لها، وإنما جعل هذه الرؤيا يراها الملك، فلما شغلت بال الملك؛ شغلت بال الناس كلهم.

تفسير الرؤيا:

سئل يوسف صلوات الله وسلامه عليه عن هذه الرؤيا، ففسرها مباشرة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (١٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لهنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿١٩﴾ [يوسف] فسر الرؤيا صلوات الله وسلامه عليه.

وهنا في تفسيره لطائف: قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي: باستمرار، ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾، أي: اتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾ حتى لا ييبس، ولا يفسد، ولا تَأْتُر فيه الأمطار، ولا يؤثر فيه التكديس، ﴿إِلَّا

(١) تقدم تخريج حديث الشفاعة ص ٥٥.

قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ؛ لأنه سيأتي بعد ذلك ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سنوات شداد ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: يكون جذب، لا تستطيعون أن تأكلوا شيئاً في هذه السنوات إلا الذي خزنتموه، وأحصنتموه، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (١٩)، مع أن هذا العام ما ذكر في الرؤيا، وإنما رأى الملك سبعاً شداداً، وسبعاً عجافاً، وسبعاً خضراً، وسبعاً يابساً، فمن أين عرف يوسف ﷺ أنه سيكون عامٌ فيه يغاث الناس؟

قالوا: إلهامٌ من الله تبارك وتعالى، أعلمه الله تبارك وتعالى أنه بعد السبع الشداد سيأتي عام فيه يغاث الناس.

وقال آخرون: بل هذا علم الرؤى؛ لأنه لما كانت السبع السمان تأتي بعدها الشداد، وحُدِّث بسبع؛ فدل على أنها بنهاية السبع ينتهي الجذب، ونهاية الجذب بداية الغيث.

ولذلك تفسير الرؤى كما إنه علمٌ يدرس هو أيضاً فضل من الله ﷻ يؤتیه من يشاء.

قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾، وقال ﴿يُغَاثُ﴾ ولم يقل: يمطر الناس؛ لأنه ليس على كل حال أن المطر يكون رحمة، فقد يكون عذاباً، وإنما الرحمة بالغيث، قال النبي ﷺ: «ليست السنة إلا تُمطروا» السنة يعني: الجذب والقحط، «ولكن السنة أن تمطروا ولا تنبت الأرض»^(١)، فلا يكون نافعاً إلا إذا كان غيثاً، ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً»^(٢)، فيسأل الغيث، لا مجرد المطر.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (١١٦٩) من حديث جابر ﷺ، وأيضاً أخرجه ابن ماجه (١٢٧٠)، من حديث ابن عباس ﷺ، وأيضاً أخرجه ابن ماجه (١٢٦٩) من حديث كعب بن مرة ﷺ، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٤١٦).

قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ (١٩)، قال أكثر المفسرين: أي يعصرون الزيت من السمسّم والزيتون وغيره (١)، وقال بعضهم يعصرون أي: يمطرون، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَجَّابًا﴾ (٢٤) [النبا] سماها معصرات؛ لأنها تنزل المطر.

وقفه دعوية:

من المعلوم أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه نصح لهم في دنياهم، كما إنه نصح لهم في دينهم لما وعظ الرجلين بقوله: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وهكذا يجب على المسلم أن ينصح لمن يعمل عنده، ولو كان كافراً، فلا يجوز غشه بحجة أنه كافر، طالما أنه استأمنه وجب عليه النصح، وعدم الخيانة، والوفاء العهد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال النبي ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» (٢)، فالمسلم له تربية خاصة، له دين يعتقد أن له رباً يراه.

ولذلك ينصح حتى للكافر، وأما من يقول: إنه يجوز غش الكفار، أو الكذب عليهم، أو السرقة منهم، أو استحلال أعراضهم، فلا شك أنه باطل، ليس من دين الله في شيء، بل دين الله هو الذي تعامل به يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

إذاً يوسف بذل ما عنده من العلم بلا تأخر، ولا شرط، ولو كان غير يوسف؛ لقال: الآن أسجن ظلماً، وأترك بدون محاكمة، ثم تأتون وتريدون أن أنصح لكم؟!!

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/١٢٩)، روي عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، والضحاك، وقناة.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة ؓ، وهو في «صحيح الجامع» (٢٤٠).

ولكن يوسف بيّن كل ما يعرفه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يشترط الخروج، بل أثر أن يبقى كما هو طالما أنه لم تظهر إلى الآن براءته أمام الناس جميعاً، بل زاد على ذلك، وهذه أخلاق لا يستطيعها إلا أولئك الخواص من البشر.

إعجاب الملك بتأويل يوسف ﷺ وبيان براءته:

رجع الساقى بتفسير هذه الرؤيا إلى الملك والذين عنده، فذكر لهم ما قال يوسف، فأعجب الملك بهذا التأويل، ورأى أنه أراحه، عند ذلك أحب أن يسمع من يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فقال الملك: ﴿أَتُونِي بِهِ﴾، فدخل الوسيط على يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فقال: الملك يدعوك، قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾؛ أي: سيدك الملك، ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ الْمِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] أنتم في موضوع يشغلكم، وهو موضوع رؤيا الملك، وأنا في موضوع آخر يشغلني، أنا سُجنت ظلماً، أسأل الملك، والظاهر - والله أعلم - أنه أشيع عند الناس أمر يوسف، وأن النساء قطعن أيديهن؛ لأن هؤلاء النساء من كبريات أهل البلد، فرجع الرسول إلى الملك، فأخبره بما قال يوسف، واستدعى الملك النساء مباشرة، استعلم الأمر، فجمع النساء، وهنا قال يوسف: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ الْمِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، ولم يقل: ما بال امرأة العزيز سجتني، مع أن فعل امرأة العزيز معه أشنع، فهي التي راودته، وهي التي دعت النساء، والصحيح أنه تناسها رعايةً لحسن العشرة صلوات الله وسلامه عليه، إنه في يوم من الأيام تربى في هذا البيت، فلم ينس تلك العشرة، تلك الرعاية، ذلك الإنفاق الذي حصّله في بيت العزيز، فغض الطرف عن امرأة العزيز، وهو يدري أن الأمر سيصل إليها.

دعاهنَّ الملك، فاستفصل الأمر عند ذلك قال: ﴿مَا خَطَبُكُنَّ إِذْ

رَوَدْتَنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْتَ حَسْبَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴿٥١﴾ [يوسف: ٥١]، ولما وصل الأمر إلى هذه الدرجة، ورأت امرأة العزيز ذلك الخُلُقَ العظيمَ عند يوسف - مع ما صنعت به، ومع حبها له - كَبُرَ يوسف في عينها أكثر من الأول، وعظم عندها، عند ذلك لم تجد بُدًّا من الاعتراف علناً أمام الجميع، فقالت: ﴿أَلَيْسَ خَصَّصَ الْخَلْقُ أَي: ظهر ووضح ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ [يوسف] قالت امرأة العزيز هذا الكلام عند الملك في حضرة النساء، ولعله حضر غيرهن.

واختلف في هذا الكلام، لمن؟ على قولين:

القول الأول: إن هذا الكلام ليوسف صلوات الله وسلامه عليه، لما قالت امرأة العزيز: ﴿أَلَيْسَ خَصَّصَ الْخَلْقُ أَنَا رَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وبلغ الخبر يوسف صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾، فالضمير عائد إلى العزيز في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، فالأصل في النفس أنها أمانة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾، ليرجع الفضل كله لله كما قال: ﴿وإِلَّا نَصْرَفِ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْخٰٓئِبِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

القول الثاني: أن هذا من كلام امرأة العزيز، وليس من كلام يوسف، أي: أن امرأة العزيز قالت هذا الكلام، واعترفت، وهو غير موجود، أنا راودته عن نفسه، ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخٰٓئِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿يوسف﴾.

ولعل - والعلم عند الله - أن القول الثاني هو الصحيح، وهو أن هذا الكلام من كلام امرأة العزيز لأمر، منها:

أولاً: سياق الكلام مرتبط مع بعضه، قالت امرأة العزيز: ﴿الَّذِي حَصَّصَ الْوَدَانَ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٥١] ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، فالكلام متصل، ولم يقل: «قال يوسف: ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب».

ثانياً: يوسف لم يكن حاضراً في هذا المجلس، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصَّصَ الْوَدَانَ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٥١] ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاسِقِينَ [٥٢] وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَحَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ [٥٣] وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي [يوسف]، إذا يوسف لم يكن حاضراً هذا المجلس.

ثالثاً: أن نفسَ يوسف من أزكى النفوس، فكيف يصح أن يقول يوسف: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي؟!﴾ بل هو لما راودته امرأة العزيز عن نفسه ثم ألقيا سيدها لدى الباب قال: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، فكيف الآن لا يبرى نفسه؟!

وذلك أن النفوس على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: النفس الأمارة بالسوء.

القسم الثاني: النفس اللوامة.

القسم الثالث: النفس المطمئنة.

ولا نشك أبداً أن نفس يوسف كانت نفساً مطمئنة معصومة.

رابعاً: لماذا يقول يوسف للعزيز: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] مع أن العزيز يعلم ذلك، أليس العزيز قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنَّا هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]، فالعزيز يعلم علم اليقين أن يوسف بريء.

خامساً: نفس امرأة العزيز كانت أمارة بالسوء، بل هذه حالها كما

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْيَابَ﴾، وافترت عليه كذباً، وسجنته ظلماً، واستعانت بالنسوة عليه، فماذا بقي في النفس الأمانة بالسوء؟^(١).

ولو قال قائل: أليسوا كفاراً؟ نقول: بلى، قال: كيف تقول: ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّيَّ إِنَّ رَبِّيَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، وكيف اعتبرت هذا الأمر إثماً وذنباً مع أنهم كفار لا يفرقون بين الطاعة والمعصية؟

الجواب: أولاً: أن الزنا قبيح عند الكافر والمسلم إلا من انتكست فطرته، امرأة ذات بعل وتطلب الزنا قبيح عند كل عاقل.

ثانياً: أنهم كانوا مشركين ولكن عندهم أصل توحيد الربوبية، ولذلك قال لها زوجها: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ﴾ [يوسف: ٢٩] فهم يعرفون الله، ولكن خلطوا شركاً كما وقع لقوم نوح أنهم عبدوا الله وعبدوا معه غيره من الأصنام، ولذلك أكثر الشرك الذي وقع في الدنيا إنما هو الشرك في الألوهية، وهو صرف العبادة إلى غير الله تبارك وتعالى معه.

ولما بايع النبي ﷺ النساء في المدينة؛ قرأ عليهن قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْذِينَ بِيْهْتِنَ بَفَرْسِنَهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلَهُنَّ وَلَا يَصِيبَنَّ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٢]، فقامت هند بنت عتبة، وقالت: وهل تزني الحرة؟!^(٢) مع أنها كانت على شرك، لكنها ترى أن الحرة لا يمكن أن تزني، فالزنا إذاً قبيح على كل حال في الإسلام وفي الكفر.

(١) انظر: «التفسير القيم» ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٤٢/٢٣) من حديث عمر ﷺ.

سبب امتناع يوسف عليه السلام من الخروج:

ولسائل أن يسأل: لماذا امتنع يوسف من الخروج من السجن؟ ألم تكن فرصة خروجه من السجن مواتية، لما قال الملك: ﴿أَتُؤْتِنِي بِهِ؟﴾ في البداية، لماذا قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسْئَلُهُ مَا بَأَلُ الْيَسْوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠]؟ لِمَ لَمْ يطلب الخروج، ويأتي للملك، ويقول للملك: أنا سُجنت ظمأً، وأنا فسرتُ الرؤيا الآن، اعمل تحقيقاً أو ما شابه ذلك.

فماذا أراد يوسف عليه السلام؟

قال أهل العلم:

أولاً: أراد ألا يخرج إلا وساحته مبرأة؛ لأنه خشي أنه إذا خرج من السجن قبل أن تُبرأ ساحته أن يقول الناس: إنما خرج من السجن لأنه فسّر الرؤيا، لا لأنه بريء، فأراد أن يبين للناس أنه بريء لا أنه مؤول للرؤى.

ثانياً: خشي أن يبقى شيء في قلب الملك عليه بعد أن يخرج، ثم تأتي بطانة السوء إلى الملك وتقول: هذا الذي وقع له مع امرأة العزيز كيت وكيت، فأراد يوسف صلوات الله وسلامه عليه أن تُبرأ جهته ابتداءً.

ثالثاً: حتى يعرف جميع الناس أنه بريء، ويكبر في عيونهم، فيكون ذلك أدعى لقبول دعوته صلوات الله وسلامه عليه.

رابعاً: هو يعلم علم اليقين أن الله مظهر أمره عليه السلام، وأن العاقبة للتقوى، وأنه سيخرج من السجن إن عاجلاً أو آجلاً، فأراد ألا يخرج إلا على عزة وكرامة صلوات الله وسلامه عليه.

جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ولو مكثت في السجن ما مكث يوسف؛ لأجبت الداعي»^(١) عندما أمر الملك أن يخرج يوسف من

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السجن، قال يوسف: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْنِسْوَةِ﴾، فهل يقال: إن يوسف أكمل من محمد ﷺ صبراً؟ أو يقال: إن محمداً ﷺ قال هذا على سبيل التواضع، كما قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(١)، قال أهل العلم: يحتمل أمرين:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ إنما قاله على سبيل التواضع، وليس يوسف أكمل صبراً من محمد ﷺ، وإنما قال ذلك ليرفع من قدر يوسف، لا لينزل من قدر نفسه.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ قصد ذلك، وهو أن النبي ﷺ يخرج من السجن، وأن يوسف صلوات الله وسلامه عليه أخذ بالحزم، وأن النبي ﷺ سيأخذ بالجائز؛ لأنه قد يُنسى، فلو رجع الرجل إلى الملك وقال الرجل: يوسف يقول: لا أخرج حتى تظهر براءتي، لقال: اتركوه في السجن، المهم أنه بين لنا الرؤيا وعرفنا ماذا نصنع، ويُنسى يوسف كما نُسي أول مرة.

تعظيم الملك ليوسف وكلامه معه:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ [يوسف: ٥٤] من الذي كلم الملك؟ يحتمل أمرين:

الأول: فلما كلمه أي: يوسف كلم الملك، ودعاه إلى الله تبارك وتعالى، قال الملك ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

الثاني: أن الملك قال: ﴿أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾، فلما جاء يوسف، وكلمه الملك وقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، والمكين: هو الممكن في الأرض. فبعد هذا الذي رأيناه منك أنت مكين أمين.

عندها قال يوسف: ﴿أَجْمَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾

[يوسف: ٥٥].

(١) انظر التخريج السابق.

لماذا عَظُم يوسف في عين الملك؟

أولاً: لعلمه، عَلِمَ تفسير هذه الرؤيا، والرؤيا التي قصها عليه الساقى .

ثانياً: لصبره وثباته، يريدون إخراجه من السجن، وهو يقول: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَشَكَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَةِ﴾ .

ثالثاً: لطهارته وعفته، امرأة العزيز تراوده، النساء يراودنه، يُهَدَّد بالسجن، ومع هذا: العفة فوق كل شيء .

رابعاً: لثناء ساقى الملك عليه لما كان معه في السجن، فما سماه إلا: الصديق .

خامساً: لأنه مظلوم، فعظم لأجل ذلك كله في عين الملك .

تمكين الله ﷻ ليوسف ﷺ:

قال يوسف ﷻ مخاطباً العزيز: ﴿أَجْعَلِنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، ولم يقل: إني جميل وسيم، فجمال يوسف أتاه بالبلاء: سجن، ومراودة، وأذى، وتهديد، ووعيد، وإنما أخرجه وفضَّله ومكَّنه علمه، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٦] [يوسف] بعد السجن، والضيق، والحصر، والشدة صار يوسف هو المُمَكَّن، هو المتصرف في شؤون مصر صلوات الله وسلامه عليه .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا جُرُ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف] ولذلك قال الشاعر:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن
فلا تياسن فإله مَلَك يوسف
وأول مفروح به غاية الحزن
خزائنه بعد الخلاص من السجن

وهنا طلب نبي الله يوسف الولاية والإمارة، وهذا ليس مما يعيبه في شيء، وذلك أنه يجوز للرجل أن يطلب الإمارة إن كان يرى أنه أهل لها، أو كان يرى أنه لا يقوم بهذا العمل إلا هو، وهذا الأمر هو الأظهر، بل - والعلم عند الله تبارك وتعالى - يظهر أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه كان يرى أن الأمر عليه واجب عيني، إذ إنه لا يمكن أن يقوم بهذا العمل أحد غيره، ولذلك طلب الإمارة.

مُكِّنَ يوسف ﷺ في أرض مصر، وصار وزيراً فيها مُمَكِّناً، ومرّت تلك السنوات السبع الخصبة، سبع بقرات سمان، سبع سنبلات خضر، واستعد لها يوسف صلوات الله وسلامه عليه أتمّ استعداد، وذلك أنه زرع كل أرض في مصر يمكن أن تزرع، حتى لا يضيع الفرصة، وجعل مخازن عظيمة للغلات، والحبوب، والطعام، الناس يأكلون بقدر حاجتهم فقط، لا زيادة على ذلك.

ومرّت هذه السنوات السبع على مصر كما مرت على غيرها من البلاد، ثم لما جاءت السنوات السبع العجاف؛ ظهرت الحاجة في الأرض كلها، حيث انقطع المطر ولم تُثبت الأرض، ولكن يوسف صلوات الله وسلامه عليه كان قد خَزَّنَ من الطعام شيئاً كثيراً، يكفي مصر وأهلها وغيرهم، وشاع بين الناس أنه لا طعام إلا في مصر، فانصب الناس على مصر من كل حدبٍ ليشترؤا منها الطعام، وكان ممن جاء إلى مصر إخوة يوسف من فلسطين يمتارون كما يمتار الناس، ويشترؤن كما يشتري الناس، وقد شاع عندهم كما شاع عند غيرهم عدلُ وزير مصر، وعِلْمُهُ وكرمه.

إخوة يوسف ﷺ يأتون إلى مصر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [يوسف]، وهنا أشكل البعض، كيف عرفهم ولم يعرفوه؟

وكان الأصل أنه يعرفهم ويعرفونه، فهم إخوته، أو لم يعرفهم ولم يعرفوه، وقد أجاب أهل العلم عن هذه المسألة بأجوبة، منها:

أولاً: إن يوسف عليه السلام لما فارق إخوته كان صغيراً، والصغير إذا كَبُرَ تتغير أشباهه، وهو مكث في بيت العزيز حتى بلغ أشده، ثم مكث حتى راودته امرأة العزيز، ثم مكث حتى حكموا عليه بالسجن، ثم سُجِنَ صلوات الله وسلامه عليه، والمشهور عند أهل العلم أنه سُجِنَ سبع سنوات، ثم خرج من السجن عند رؤيا الملك، ومرّت السبع السنوات السمان، ثم جاء إخوة يوسف في السنة الأولى العجفاء أو الثانية، إذاً أربع عشرة سنة في السجن وفي الوزارة، وقبلها سنوات غير معروفة قضاها في بيت العزيز صلوات الله وسلامه عليه، فلا يقل الأمر عن عشرين سنة، فتغيرت أشباه الصغير، وأما الكبير فإن أشباهه في الغالب لا تتغير كثيراً، ولذلك عرفهم، وهم لم يعرفوه.

ثانياً: كانوا عدداً، وكان واحداً، فهو إذا خفي عليه معرفة أحدهم، فلا يخفى عليه معرفة الثاني أو الثالث أو الرابع، فبمجموعهم عرفهم، وهو لما كان واحداً، فكان يمكن أن يُنسى شبهه.

ثالثاً: إنهم كلّموه بلغتهم، فعرفهم من لهجتهم، وهم لم يعرفوه؛ لأنه كلّمهم بلسان أهل مصر.

رابعاً: هيبة المُلك، دخلوا وهم ضعفاء، وهو وزير، فهيبة المُلك لم تمكنهم من تدقيق النظر إليه.

خامساً: كان ينتظرهم؛ لأنه يعلم أن هذه السنوات العجاف قد مرّت على البلاد كلّها، فكان ينتظر مجيئهم، وبعكسه هم ما كانوا يتوقعونه أبداً.

سادساً: ما كان يمكن أن يخطر على بالهم أن يوسف يكون في هذا المكان صلوات الله وسلامه عليه، فأحسن الأحوال عندهم أن يكون

واحداً من شعب مصر إن كانوا علموا أنه في مصر، أما إذا لم يعلموا أنه في مصر فالأمر في هذا واضح.

سابعاً: أمر الله، الله عرّفهم له، ولم يُعرّفه لهم؛ لحكمة عنده ﷻ.
المهم عرفهم وهم له منكرون، لم يعرفوه.

قال الله - جل وعلا -: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتُّوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٥٩] كيف عرف أخاهم من أيهم؟
قال بعض أهل العلم:

أولاً: سألهم عن أحوالهم، من أنتم؟ من أي البلاد؟ متى جئتم؟ ماذا تريدون؟ هل أنتم إخوة؟ هل أنتم أبناء عم؟ هل لكم أب؟ هل لكم أخ؟ سألهم عن أحوالهم، فكان من سؤاله أن عرف أن لهم أخاً.

ثانياً: بعد أن زودهم بالطعام، قالوا: أعطنا أيضاً لأبينا وأخينا، وعندها قال لهم يوسف صلوات الله وسلامه عليه: اتنوني بأخيكم هذا حتى أراه وأعطيكم زيادة، ولذلك قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ [يوسف: ٥٩]، ألا ترون أنني زدتكُم، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]، ألا ترون الكرم، ألا ترون السماحة، ألا ترون الإنعام، ﴿فَإِن لَّر تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرُونُ﴾ ﴿١٠﴾ [يوسف] فاستعمل الترغيب والترهيب، رغبهم ابتداءً، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، ثم رهبهم وقال: ﴿فَإِن لَّر تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرُونُ﴾ ﴿١١﴾ قالوا سزودُ عَنْهُ آبَاءُ، سنحاول، ﴿وإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ إما إنا لفاعلون أي آتون به، أو إنا لفاعلون؛ أي: نكلم أبانا ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [يوسف]، البضاعة هي: المال أو الحاجيات التي جاؤوا بها، جاؤوا بفضة، بذهب، جاؤوا بمتاع عبارة عن جلود، آنية، أو أي شيء، فقال: لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم زيادة على ما أعطيناهم من الميرة والطعام ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا

أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦١﴾، وهذا صبرٌ وجَلْدٌ، وإلا يوسف مشتاقٌ جداً للرجوع إلى أبيه وأهله، ولكن لحكمة أرادها الله - جل وعلا - .

وهنا قوله: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢] لماذا وضع بضاعتهم في رحالهم؟

قال أهل العلم:

الأمر الأول: أنه من باب الكرم والسخاء، فما أحب أن يظهر لهم أمام الناس وضع هذه البضاعة، حتى لا يلحقهم في هذا منة منه .

الأمر الثاني: أن يوسف ﷺ خشي ألا تكون معهم بضاعة للسنة القادمة فلا يأتون، وهو يريد لهم أن يأتوا، فجعل بضاعتهم في رحالهم .

الأمر الثالث: رأى أنه من الجفاء وسوء الخلق والعقوق أن يأخذ من أبيه وإخوته مالا نظير الطعام .

الأمر الرابع: حتى يكون هناك اطمئنان من قبيلهم جهة يوسف، فيأتون في السنة القادمة بأخيهم .

الأمر الخامس: بالغ في الإحسان إليهم من باب ردّ الإساءة بالإحسان، فهم أسأؤوا إليه، فردّ الإساءة بالإحسان كما قيل:

يزيد سفاهة وأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيباً

فعاملهم بتقيض معاملتهم له صلوات الله وسلامه عليه .

رجعوا إلى أبيهم، ولم يعلموا بعد أن البضاعة رُدّت إليهم في رحالهم، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣] أي: في السنة

القادمة، أعطينا كيل هذه السنة، ولكن منع منا الكيل مستقبلاً، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانًا نَحْنُ كَيْلٌ﴾ [يوسف: ٦٣]، لن يكون كيل إلا إذا كان أخونا

معنا، ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، هذا الآن بنيامين أخو يوسف الشقيق وأخوهم من أبيهم، ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ

أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴿يوسف: ٦٤﴾ أنتم لا تُؤتمنون عليه، هذه الكلمات: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكَتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، هي الكلمات ذاتها التي أطلقت زمن يوسف، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [يوسف: ١٢]، وما كنتم حافظين ليوسف، ضيعتم الأمانة، جئتوني بقميص لم يقطع، وقلتم أكله الذئب، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ [يوسف: ٦٤] أي: لن أرسله معكم.

عندها سكتوا، فلا يستطيعون أن يجيبوا بشيء، يعلمون أنهم مذنبون، ولذلك لزموا الصَّمتَ، رجعوا إلى رحالهم، أنزلوا بضاعتهم، وإذا البضاعة التي ذهبوا بها ليأخذوا مكانها الميرة رُدَّتْ إليهم، فرحوا كثيراً ثم رجعوا إلى أبيهم، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا بَغَىٰ هَذِهِ يَصْنَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]، تريد دلالة على صدقنا، انظر جئنا بالطعام، وهذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، ما كذبناك، وهذا من إحسان الوزير إلينا، وسنرجع، ونحفظ أخانا، ونزداد مع هذا كيل بعير، وهذا كيل يسير سهل، كل القضية أن يذهب معنا أخونا.

قال: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]، تقسمون بالله ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] وآتوه موثقه لأنهم - فعلاً - صادقون، رضي يعقوب ﷺ، وقال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

لماذا رضي يعقوب، ولماذا وثق بهم؟ وهو قبل قليل قال لهم: لن أرسله معكم؟

قالوا لأمر:

الأمر الأول: إن إخوة يوسف صلح أمرهم بعد غياب يوسف هذه المدة، أكثر من عشرين سنة، ما رأى عليهم شيئاً من الفساد، بل رآهم

صالحين محبين لأبيهم، أليسوا قالوا: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] وكان كما قالوا، فلما رأى صلاحهم اطمأن إليهم.

الأمر الثاني: هم لم يظهروا حسداً للأخ الصغير، وإنما كان حسدهم ليوسف صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك ما كان يعقوب يخشى على بنيامين كثيراً كما كان يخشى على يوسف ﷺ.

الأمر الثالث: أنه إنما رضي بوحي من الله، الله أمره لحكمة عنده ﷻ، ولأمر يدبره - جل وعلا -.

الأمر الرابع: أن يعقوب اطمأن لما وجد البضاعة رُدَّت إليهم.
الأمر الخامس: مال إلى تصديقهم.

نصيحة الأب المشفق:

ثم نصح لهم يعقوب، فقال: ﴿يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، ذكروا أن مصر في ذلك الوقت كان لها أربعة أبواب، وأمرهم يعقوب - عليه الصلاة والسلام - ألا يدخلوا من باب واحد، وذلك أنهم كان لهم جمال ظاهر، وهم عشرة إخوة، فلذلك خاف عليهم أن يصابوا بعين، فقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ﴾ والعين حق^(١)، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ [الفلق]، وكان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين من العين فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(٢)، وقال: «لو كان شيء سابق

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس ؓ.

القدر لسبقته العين»^(١).

دخول مصر مرة ثانية:

دخلوا على يوسف فأوى إليه أخاه، كيف آواه؟ الله أعلم، وذكرت أشياء كثيرة، ذكر أنه دعاهم إلى طعام، ثم ناداه وحده، وذكر غير ذلك، المهم أنه آواه إليه دون أن يشعروا، وقال: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ [يوسف] والسقاية: الذي يكيلون به وهو صاع الملك، وفتح رحل أخيه باتفاق بينه وبين أخيه ووضعه فيه ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، وهذا ليس من كلام يوسف صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن هذا كذب فيوسف لم يقل: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، ولكن الذين جُعلوا على الطعام لم ينتبهوا، أخذه يوسف دون علمهم، ووضعه في رحل أخيه، لم يعلم أحد إلا يوسف وأخوه.

قال: ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ يعني: الجماعة المسافرة معها الإبل عليها الطعام ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ [يوسف] ولم يقولوا: «ماذا سرقنا»؛ لأنهم لا يرون أنهم سارقون، ﴿قَالُوا فَفَقَدْ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧١) [يوسف]، وأراد هنا أن يبين لهم أن هذا الصواع له قيمة عظيمة، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٢) [يوسف]، بدليل أننا جئنا واعترفنا لكم أننا وجدنا متاعنا رُدَّ إلينا لما رجعنا إلى بلادنا، خشينا أن يكون الأمر وقع فيه خطأ، فجئناكم وقلنا لكم: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٣) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأُزُوتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كَذَلِكَ كَذَّبْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١٥﴾
 [يوسف] سبحان الله، قالوا: ما جزاء من وجد في رحله، هذا من الكيد،
 قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق]، ﴿وَمَكُرُوا
 وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، هذا من كيد الله ليوسف، كيف؟

أولاً: جعل يوسف السقاية في رحل أخيه دون أن يشعروا.

ثانياً: ناداهم، وبين لهم قيمة هذا الصواع، بحيث أنه بعد ذلك إذا
 حوسب من أخذه حساباً عسيراً لم يعترض أحد.

ثالثاً: جعلهم هم الذين يحكمون عليه، لا هو، ففي العادة الذي
 يحكم الحاكم لكن هنا طلب منهم أن يحكموا هم، قال: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ
 إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ أُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف]
 أي: السارق جزاء الصواع، يعني: تأخذونه عبداً عندكم، وهذا في
 شريعة يعقوب عليه الصلاة والسلام، فألزمهم بشريعة يعقوب؛ لأنه لو
 حاكمهم على شريعة الملك ما كان يمكن أن يأخذه؛ لأن في قانون
 الملك أنه من سرق يضرب ويحبس، لكن في شريعة يعقوب الذي يسرق
 يُسْتَرَق؛ أي: يكون عبداً، وهذا من الكيد، جعلهم هم الذين يحكمون
 على أخيهم بأن يكون عبداً عند يوسف ﷺ.

رابعاً: بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ بأخيه لوقع في
 قلبهم شك أن المسألة مدبرة، لكن بدأ بوعاء الأول، ثم الثاني، ثم
 الثالث، وهم يطمئنون أنهم لم يسرقوا، وهكذا حتى وصل إلى الحادي
 عشر، فلما فُتِّش وجد الصواع، فَصُدِّمُوا وَذُهِلُّوا، ولذلك يقول الله تبارك
 وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

ثم قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [يوسف: ٧٧]،
 وهنا أرادوا أن ينزهوا أنفسهم، قالوا اعلم أيها الملك: إذا كان سرق
 فنحن لسنا مثله، وإنما هذا أخونا من أبنينا، وإنما تأثر بأحواله، ﴿إِنْ

يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴿٧٧﴾، أخوه من أمه وأبيه، أما نحن فلا نسرق، يعني: لا تجعل هذا عيباً فينا، هذا عيب فيه، وفي أخيه الذي سرق من قبل ﴿إِنْ يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

متى سرق يوسف ﷺ؟

أولاً: أن يوسف سرق من جده لابان والد راحيل صنماً، فكسره عندما أرادوا الخروج مع أبيهم يعقوب عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إن يسرق فقد سرق يوسف صنم جدنا.

ثانياً: أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان عند عمته التي ربهته، ولم يكن لها أولاد، وكانت تحب يوسف حباً شديداً، فلما كبر يوسف قليلاً أراد أبوه أن يأخذه منها، فأبت عليه، قالت: دعه عندي، قال: لا أستطيع، فأخذت نطاقها وربطته على يوسف، ثم ألبسته الملابس، فلما جاء أبوه ليأخذه، قالت: إني أفقد نطاقي، وأخشى أن يكون سرقه ولذلك، فتشّه، فنزعوا ملابس يوسف فوجدوا النطاق، قالت: من سرق استرق، فأخذت يوسف عندها حتى ماتت، ثم رجع إلى أبيه، فقالوا: سرق نطاق عمتنا، وهذا موجود عند أهل الكتاب.

الثالث: وهو الأظهر قالوا هذا الكلام كذباً.

وهذا يدل على أن الحسد لا يزول، فهو داء عضال.

عين الحسود عليك الدهر حارسة تبدي المساوي والإحسان تخفيه
يلقاك بالبشر ببيديه مكاشرة والقلب مضطغن في الذي فيه

فكان رد يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما قالوا هذا الكلام: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾ [يوسف: ٧٧] ولكنه أسرها في نفسه ولم يبدها لهم، ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

عندها قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا

مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا ﴿يوسف﴾ تأمروني بالظلم، لا يمكن أبداً أن أكون ظالماً، ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] خلصوا نجياً؛ أي: انفردوا وتناجوا، ولذلك قال أحد الأعراب لما سمع أحدهم يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ قال: والله لا يخرج هذا الكلام إلا من (إل) يعني: من إله، لما فيه من البلاغة، اختصر خروجهم وانفرادهم عن الناس وتناجيهم بقوله: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي: ابتعدوا وتناجوا بينهم، ماذا قالوا؟ ﴿قَالَ كَيْفَهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتَ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠]، لما قال لهم أبوهم: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِّي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، ﴿أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتَ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠] عندكم سابقة، ﴿فَلَنْ أُنَبِّئَكَ الْآرَضَ حَتَّى يَأْتِيَ بِكَ أَوْ يَخُوكَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]، قولوا الحق، ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] لما قلنا لك: ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ما كنا للغيب حافظين، ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْبَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾، ماذا قالوا عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] لم يتغير الكلام، رجعوا إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام وقالوا له هذا الكلام بعد فقد بنيامين، فما قال لهم؟ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ٨٢].

وهذا يدل على أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن يعقوب عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، إذ لو كان يعلم الغيب لعلم أنهم في الأولى كاذبون وفي الثانية صادقون، لكنه لا يعلم الغيب، ولذلك كان قوله في الثانية كقوله في الأولى ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ٨٢].

الأمر الثاني: عاقبة الكذب سيئة على كل حال، ولذلك لو لم يكن من آفات الكذب إلا أنه يرد صدق الكاذب لكفى؛ لأن عنده سوابق، ومن هدي أهل الحديث أنهم لا يقبلون حديث الكذاب ولو تاب.

الضييق يزداد على يعقوب ﷺ لفقد ولديه:

قال الله تعالى مبيناً حال يعقوب: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] تذكر يوسف؛ لأن الحالة مشابهة، أخذوا يوسف، وقالوا: أكله الذئب، والآن أخذوا أخاه، وقالوا: إن ابنك سرق، فتذكر يوسف ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤] حرك المواجع، وابيضت عيناه من الحزن، صار أعمى من شدة الحزن، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، حزين أشد ما يكون الحزن، فقد يوسف، والآن فقد أخاه، والمتهم في يوسف وأخيه إخوته، حزنٌ عظيمٌ أصاب يعقوب عليه الصلاة والسلام.

وليس في هذا عدم صبر، بل هذا هو الصبر، والحزن لا ينافي الصبر، ولذلك قال له أبناؤه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: ٨٥] أي: ضعيفاً، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] لست أشكو لكم، وإنما أشكو بتي وحزني إلى من يشتكي إليه الخلق، وهو الله ﷻ، وكان عمر ﷺ إذا قرأ هذه الآية يبكي ﷺ.

ثم قال يعقوب ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] مع هذا كله أعلم من الله ما لا تعلمون، أي: من الفرج الذي سيأتي، يوسف قال لي: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وستتحقق، ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧]، يوسف حيٌّ، فتحسسوا من يوسف، وأيضاً من أخيه ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ﴾ [يوسف: ٨٧]، ما زال يعظهم، فيهم إيمان، ولكن فيهم أيضاً معاصي، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إخوة يوسف ﷺ يتعرفون عليه:

لما جاءت السنة الثالثة؛ دخلوا على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الْفُرُوجُ وَحِشْنَا يَبْضَعُهُ مُزْجَلَةٌ﴾ [يوسف: ٨٨] سيئة رديئة، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾، أعطنا كيلاً مقابل هذه البضاعة الرديئة، وأوفه لنا، فقد عودتنا الوفاء، وتصدق علينا بترك أخينا الذي استعبدته، أرجعه إلى أبيه.

فقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]، الآن كلمهم بلسانهم، كلمهم بدون ترجمان، ما فعلنا بيوسف؟! تتكلم إذا العبرية، تتكلم بلغتنا، فنظروا إليه، كأنه يوسف، الآن بدأت الصورة ترجع من جديد، ﴿قَالُوا أَوَإِنَّمَا أَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾، ناداه، وإذا هو معزز مكرم، ليس عبداً، ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] هنا سُقِطَ في أيديهم ولم يكن من بد إلا الاعتراف بالذنب: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِبِينَ﴾ [يوسف: ٩١] انتصارات ليوسف عليه الصلاة والسلام، أول شيء ابتلاءات والآن انتصارات، ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ﴾ [يوسف: ٩٢] ماذا ينفع التثريب؟ وهذا هو العفو عند المقدرة، ﴿بَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

حادثة مشابهة:

وهذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ لما جاء إلى النبي ﷺ مسلماً تائباً إلى الله - جل وعلا - وكان قد هجا النبي ﷺ قبل إسلامه -، فبايعه النبي ﷺ وصد عنه، وصار كلما أتى ليجلس مع النبي ﷺ قام وتركه، فتضايق أبو سفيان، وهو ابن عم النبي ﷺ، فاشتكى إلى عليّ، فقال له علي: ويحك أو ما تدري ما فعلت، أنت ابن عم النبي ﷺ وتهجوه بالشعر، قال: وماذا أصنع؟ قال: اذهب إلى رسول الله فقل له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا

لَخَطِئِينَ ﴿يوسف: ٩١﴾ أي: كما قال إخوة يوسف ليوسف، وهذا استنباط عجيب من عليّ رضي الله عنه، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ وهو جالس، فقابله، وقال: ﴿تَأَلَّوْا لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾، فلم يكن من بُد أن قال النبي ﷺ كما قال أخوه يوسف: ﴿لَا تَزِرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

إقرار بالذنب:

وعندها بعد أن أقروا بالذنب قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام بعد أن ذكروا له أحوالهم وما حصل لأبيهم، وأنه عمي لفقده ليوسف وأخيه، قال لهم يوسف: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣] وهذه من علامات النبوة، ودلائلها، ومن الآيات الباهرة التي أعطها الله تبارك وتعالى لنبيه يوسف ﷺ، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ﴾ [يوسف: ٩٤] أي: اقتربت وجد يعقوب رائحة القميص الذي مسّ جلد يوسف عليه الصلاة والسلام، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: لولا أن تتهمونني بالكبر والخرف ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥] إنك مخطئ، ومن هؤلاء الذين اتهموه؟ هم الذين جلسوا عنده؛ لأن إخوة يوسف هنا تفرقوا إلى قسمين: قسم ذهب إلى يوسف، وقسم بقي عند الأب.

تصديق بشري يعقوب ﷺ:

جاء البشير ومعه القميص، ألقاه على وجه يعقوب، ﴿فَأَرَادَ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ [يوسف: ٩٧] وذكر كثير من أهل التفسير أنه أحرهم إلى وقت السحر؛ لأن هذا الوقت وقت إجابة،

حيث ينزل الرب ﷻ في الثلث الأخير من الليل، قال: أدعو لكم في هذا الوقت.

ذُكِرَ أن عمر ﷺ كان ذاهباً إلى المسجد فسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي. فنظر عمر فإذا الصوت خارج من دار ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه.

تصديق رؤيا يوسف ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ﴾ [يوسف: 99]، قريهما إليه، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف]، سجدوا له، سجد الأب والأم - الشمس والقمر - وسجد إخوة يوسف - أحد عشر كوكباً -، وقيل: إن أم يوسف قد ماتت، وأن هذه التي سجدت مع أبيه هي خالته، أم إخوته، والعلم عند الله تبارك وتعالى، ولكن ظاهر الآية أنها أمه.

حكم السجود:

والسجود - كما قال أهل العلم - ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: سجود على وجه التعظيم والعبادة، وهذا لا يجوز إلا لله، ومن سجد لغير الله سجود تعظيم وعبادة فهو كافر مشرك في كل الشرائع.

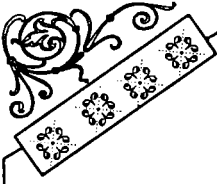
القسم الثاني: سجود إكرام وتحية، وهذا كان جائزاً في الشرائع السابقة، وحُرِّم في شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ومنه سجود الملائكة لآدم، ومنه سجود يعقوب وأم يوسف وإخوته له، ومنه سجود معاذ للنبي ﷺ لما جاء وسجد للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «ما هذا يا معاذ؟» قال: يا رسول الله وجدتهم - يعني: أهل اليمن - يسجدون لملوكهم وبطارقتهم، فأنت والله أحق بالسجود منهم، وكان هذا مشروعاً

عندهم فنهاه النبي ﷺ عن ذلك^(١).

وبهذا تنتهي هذه القصة العظيمة، قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه مع أبيه وإخوته.



(١) تقدم تخريجه ص ٤٧.



قصة لوط عليه السلام

المشهور في نسبه عند أهل الكتاب والنسابين أنه لوط بن هاران بن تارح أو آزر على الصحيح، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه يكون عمّاً له؛ لأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هو ابن آزر كما جاء مصرحاً به في كتاب الله - جل وعلا - .

لوط صلوات الله وسلامه عليه ذُكِرَ في القرآن سبعمائة وعشرين مرة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن إبراهيم لما دعا إلى الله - جل وعلا - لم يؤمن به قومه، بل كفروا به وعادوه، وما آمن معه إلا قليل، وكان ممن آمن به لوط عليه السلام: ﴿فَتَمَنَّى لَهٗ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فهاجر إبراهيم بأهله، وهاجر معه لوط ابن أخيه، ويقال له: لوط، لوط؛ أي: يصرف ولا يصرف، كما هو الحال في هود، فيقال: رأيت لوط، ويقال: رأيت لوطاً.

بعثة لوط عليه السلام:

بُعِثَ نَبِىُّ اللهِ لُوطٌ إِلَىٰ قَوْمٍ بَلَغُوا غَايَةَ السَّفَهِّ، وَالْجَهْلِ، وَقَلَّةِ الْحَيَاءِ، وَدَنَاءَةِ الْأَخْلَاقِ، وَكَانُوا يَجْمَعُونَ إِلَى الْإِنْحِطَاطِ فِي الْأَخْلَاقِ مِمَّا مَرَسُوا الْمُنْكَرَاتِ الَّتِي تَسْتَقْبِحُهَا وَلَا تَرْضِيهَا الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَجَعَلَهُ ذَكَرًا وَأُنْثَى، وَجَعَلَ فِي الذَّكَرِ مِيلًا إِلَى الْأُنْثَى، وَجَعَلَ فِي الْأُنْثَى مِيلًا إِلَى الذَّكَرِ، وَجَعَلَ فِي تَرْكِيبِ الذَّكَرِ، وَتَرْكِيبِ الْأُنْثَى قَابِلِيَّةً لِاجْتِمَاعِهِمَا مَعَ بَعْضٍ، وَجَعَلَ مِنْهُمَا النِّسْلَ، وَقَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَشْذِبَ بَعْضُ النَّاسِ عَنِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، فَيَمِيلُ الذَّكَرُ

إلى الذكر، وتميل الأنثى إلى الأنثى، ولذلك يقال عنهم: (شواذ)؛ لأنهم خارجون عن القاعدة، خارجون عما عليه عامة الناس، أما أن يشذ المجتمع كله، فهذا هو الشيء الغريب، وهذا هو الذي أنكره لوط ﷺ وقومه، وهذا الشذوذ لا شك أنه مدعاة لانتشار الأمراض، وفساد المجتمعات، بل انقراضها.

قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: لولا أن الله ذكر ذلك في القرآن ما ظننتُ أن ذكراً ينزوي على ذكر لكن لما ذكره الله في القرآن علمت أنه حق.

قال الله - جل وعلا - عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الشعراء] هذه دعوة لوط صلوات الله وسلامه عليه.

يُخبر الله - جل وعلا - أن قوم لوط كذبوا المرسلين، وقد ذكرنا في قصة نوح وهود وصالح أنه من كذب رسولاً واحداً فهو كمن كذب جميع الرسل، ولذلك قال الله - جل وعلا - عن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء] مع أن نوحاً هو أول رسول، وقال الله عن قوم لوط هنا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء]، طالما أنهم كذبوا لوطاً؛ إذاً كذبوا إبراهيم، وكذبوا نوحاً، وكذبوا موسى، وعيسى، وكذبوا جميع المرسلين.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ﴾ وهذه أخوة الطين؛ لأن الأخوة أختوتان: أخوة الطين وأخوة الدين، فأخوة الطين ينسبها الله تبارك وتعالى للمرسلين مع أقوامهم، وأما أخوة الدين فهي لا تكون إلا بين المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] هذه أخوة الدين، وهنا

قال: ﴿إِذْ قَالَ لَمَنْ أَحْوَهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء]، أمين فيما أقوله وأدعو إليه من عند الله تبارك وتعالى، فلا أزيد ولا أنقص ولا أكذب على الله - جل وعلا -، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء]، وهكذا جميع المرسلين، ما سألوأ أحداً أجراً أبداً، وإنما أجرهم على رب العالمين ﷻ .

ثم قال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء] إذا جمعوا كفراً وأموراً شنيعة أخرى، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء]، وهذا مصداق لقول الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المعارج] قال لهم لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] ترى ماذا كان جواب قومه؟ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء] وتالله لقد جاؤوا بحجة غريبة لإخراج رسولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، جريمة لوط وجريمة أهله أنهم أناس يتطهرون، أناس لا يتدنسون ولا يخوضون الوحل الذي خاضه قومهم، فصار ذلك مدعاة لدمهم، فجعلوا غاية المدح ذمًا، بل - والله - لا يُمدح في قوم لوط إلا لوط وأهله الذين امتنعوا عن هذه الفاحشة، وهذا دليل على فساد الفطرة عند قومه، وما دفعهم إلى ذلك إلا اللجاج والعناد - والعياذ بالله -، فكان الله - جل وعلا - في عون المصلحين من الأنبياء والدعاة، كيف يتهم المصلح بمثل هذه التهم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

غاية القبح والفحش في قوم لوط ﷻ:

جمع قوم لوط معاصٍ كثيرة، أول معصية هي الكفر بالله - جل

وعلا - والكفر بلوط صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك قال الله - جل
وعلا - عنهم: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَاظِكَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة]، والمؤتفكات هم قوم لوط، وسموا
بالمؤتفكات لقلب بلدهم عليهم، من الإفك وهو قلب الخبر عن وجهه
الصحيح إلى الوجه الباطل.

إذاً جريمتهم الأولى التي بها كفروا وعذبوا هي الكفر بالله - جل
وعلا -، ولكنهم جمعوا مع هذه الجريمة الكبرى جرائم أخرى كبيرة،
ولكنها - لا شك - أصغر من هذه الجريمة العظمى، ومن هذه الجرائم
التي لم يسبقوا إليها، وصاروا مثلاً فيها ما قال لهم نبيهم لوط،
صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وهي
الفاحشة التي عُرفوا بها، يأتون الرجال دون النساء، قال: ﴿وَتَقَطُّعُونَ
السَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، يقطعون الطريق على المسافرين بقتلهم، وأخذ
أموالهم، والاعتداء عليهم، قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾
[العنكبوت: ٢٩] ذهب كثير من المفسرين إلى أنهم كانوا يتضارطون في
مجالسهم، ولا يستحيون من ذلك، كما هو فعل الكفار الآن، في الغرب
يتضارطون في مجالسهم ولا يأبه أحد لأحد، وقال آخرون من أهل
التفسير عن إتيانهم في ناديهم المنكر، قالوا: عموم المنكرات من
الأقوال والأفعال الشائنة^(١).

وذكر من فساد أخلاقهم ما جاء أن أحدهم - ويقال له: لعازر -
ضُرب بحجر فذهب إلى القاضي يشتكي، وأمسك الذي ضربه، وقال:
هذا ضربني بحجر، فشج وجهي. فقال الضارب: بل أنا الذي أشتكي
أريد مالاً عوضاً على ضربي له، فنظر القاضي، فقال: نعم عوضه!!
انتكاسة تامة، هذا القضاء عندهم، فقال: أهكذا حكمك؟ قال: نعم،

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٩ - ٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٦/٢٧٦).

فأخذ حجراً وضرب القاضي، فشج وجهه، قال: خُذ حسابك منه، ثم خرج وترك القاضي والمجرم الذي معه، بل ترك المجرمين معاً.

إرسال الملائكة بالعذاب إلى قوم لوط عليه السلام:

ذكر الله - جل وعلا - أنه أرسل الملائكة إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ومَرَّتْ هذه الرسل على إبراهيم في طريقها إلى لوط، وبشرته بإسحاق، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرُومِ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمًا قَوْمٌ مُّكْرُونَ ۗ﴾ (٢٥) فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَعِيدٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَرْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَظْ وَبَشِّرْهُ بِعَلِيِّمِ عِيسَى ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكُمْ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ [الذاريات] يعنون: قوم لوط صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣٣) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٤﴾ [العنكبوت] فترك الملائكة نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، واتجهوا إلى قرية لوط.

وَذَكَرَ أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم إبراهيم: أتهلكون قرية بها خمسون مسلماً؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مسلماً؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها عشرة من المسلمين؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها مسلماً واحداً؟ قالوا: لا. قال: فإن فيها لوطاً، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت] (٣٤)، ثم قيل له:

﴿يَتَابِرُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ [هود: ٧٦] حُسِمَ الموضوع
 ﴿وَأَنبَأَهُمُ عَذَابَ عَازِبٍ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦] فسكت إبراهيم صلوات الله
 وسلامه عليه.

وانطلقت الرسل إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ودخلوا
 القرية، قيل: إنهم وجدوا ابنته، فاستغريبتهم، وقالت: من أنتم؟ قالوا:
 ضيوف، قالت: مكانكم، وكانت تعلم أن قومها يعملون الفاحشة في
 الرجال، فذهبت إلى أبيها، فقالت: يا أبتِ إنني رأيت رجالاً حسان
 الوجوه، ليسوا من أهل هذه البلد، وإني أخاف عليهم من أهل بلدنا،
 فانظر في حالهم، فذهب إليهم لوط صلوات الله وسلامه عليه، وقال: ما
 جاء بكم، وبدأ يذكر لهم أن هذه البلد أهلها خبيثون لا يحسنون استقبال
 الضيوف، ولم يُصرح لهم بما يفعله أهل هذه البلد، ولذلك قال الله
 - جل وعلا -: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا
 يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] وليست هذه عادة الأنبياء مع ضيوفهم، ولكن
 الأمر أعظم من ذلك، أعظم من أن يكونوا مجرد ضيوف، بل إن لوطاً
 سيء بهم لما يخاف عليهم من اعتداء قومه على أعراضهم، ضاق صدره
 صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، والمشهور أن هؤلاء
 الضيوف هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، تصوروا بصورة البشر،
 وكانوا حسان الوجوه، وهكذا الملائكة إذا تشكلت بصورة البشر؛ فإنها
 تشكل بصور حسنة، والشياطين تتشكل بصور قبيحة، وكان قوم لوط قد
 نهوه عن الضيوف، وهذا يدلنا على أمر عظيم، ألا وهو أن الأنبياء
 صلوات الله وسلامه عليهم لا يعلمون الغيب، وإلا كان لوط علم أن
 هؤلاء ملائكة.

أدخل لوط ضيوفه إلى البيت، ثم جاءه قومه يُهرعون إليه، ﴿أُولَئِكَ
 تَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أما قلنا لك لا تضيف أحداً.

قال الله - جل وعلا -: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] يهرعون: مسرعون، كيف عرفوا؟

قالوا: أخبرتهم زوجته، وهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٌ تُوْج وَأَمْرَأَتٌ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، الخيانة في الدين، وكانت إذا رأث مثل ذلك أشعلت ناراً حتى يعلم قومها بوجود أولئك الضيوف، فهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، ولم تخنه في عرضه، فإن الله - جل وعلا - حمى الأنبياء من أن تلتطخ أعراضهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّرُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ بِكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بِنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٧٨-٨٠]

لو أن لي بكم قوة أدفعكم بها أو آوي إلى ركن شديد.

واختلف في معنى ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أنها على ظاهرها، ويكون التقدير: (لو أني أجد قوة أدفعكم بها أو تكون هناك قبيلة)، ركن شديد آوي إليه، يدفع عني شركم.

القول الثاني: أنها للإضراب بمعنى «بل»، كما في قول الله تعالى عن الكفار: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] بمعنى: بل أشد قسوة، ولذلك ذكر فضل الحجارة على قلوبهم، قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٨] ويكون كذلك قول لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ [هود: ٨٠] أي:

أدفعكم بها، ثم رجع وقال: بل آوي إلى ركن شديد، وهو الله ﷻ، وهذا من تمام يقينه بالله - جل وعلا -، وتوكله عليه.

هؤلاء بناتي:

وفي قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [مرد: ٧٨] لأهل العلم فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أراد بناته لصلبه، يعني خذوا بناتي لصلبي، ولا تأخذوا ضيوفي؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، تزوجوا بناتي، ولا يريد ازنوا ببناتي، فإن الإنسان يموت في الدفاع عن عرضه، فكيف بنبي كريم، ولكن كأنه أرشدهم إلى الحلال الطاهر، ويدل على هذا أن النبي محمداً ﷺ قبل بعثته زوج بناته لكافرين: فزوج رقية وأم كلثوم لعتبة وعتيبة ابني أبي لهب، قالوا: ولعل هذا في شرع من قبلنا، أي في شرع لوط كان يجوز للمؤمنة أن تتزوج الكافر، ومع أن لوطاً لم يكن له بنات كثيرات، وإنما أراد أن يتزوج بناته رؤساء القوم.

القول الثاني: أنه أراد بنات القرية، بشكل عام، كما في قول الله - جل وعلا -: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلَهُنَّ﴾ [الاحزاب: ٦]، وجاء في قراءة ابن مسعود: «وهو أب لهم»^(١)، فيريد ببناته؛ أي: بنات القرية؛ لأن النبي هو أبو أهل القرية، واستدلوا على ذلك بأن النبي لا يزوج بناته لكفار، ثم كذلك المشهور أن لوطاً له ابنتان، وقيل: ثلاث بنات، وهل تكفي ابنتان أو ثلاث لجميع أهل القرية؟!

القول الثالث: وهو أنه لا يريد أن يزوجهم بناته، ولكنه قالها من باب الإلزام، قالوا: كمثل أن يضرب رجلٌ رجلاً فتأتي للضارب - وهو

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠٩/٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٦/٣٨١).

يحترمك ويقدرك - فتقول له: لا تضربه، فيستمر في ضربه، فتقول لا تضربه اضربني أنا، وأنت تعلم علم اليقين أنه لن يضربك لمكانتك عنده، فتقول اضربني أنا إن كنت لا بد فاعلاً، ولذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقِّ﴾ [هود: ٧٩]، لماذا تقول هؤلاء بناتي؟ وأنت تعلم علم اليقين أنه ليس لنا في بناتك من حق، وهذا لعله أقرب الأقوال في هذه المسألة، وهو كما قال نبي الله سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما اختلفت امرأتان في طفل، وكل واحدة تقول هذا ولدي، فقال سليمان: «أقطعه بنصفين لهذه نصف، ولهذه نصف» هو لا يريد قطعه، ولكن أراد أن يختبر ردة فعل المرأتين، فقالت الكبرى: «نعم اقطعه»، وقالت الصغرى: لا تفعل هو لها^(١)، فهو لا يريد قطعه، وإنما أرادها من باب الإلزام^(٢)، فكذلك هنا يكون لوط صلوات الله وسلامه عليه إنما قال هذا الكلام من باب الإلزام، لا من باب التقرير.

لو أن لي بكم قوة:

قال الله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فيها قولان للمفسرين:

القول الأول: إنه يخاطب الملائكة - الضيوف - لما حوَصر في بيته، وأراد قومه أن يكسروا الباب عليه، التفت إلى ضيوفه، وقال: لو أن لي بكم قوة لكنت رددتهم، لكنت منعتهم.

القول الثاني: أنه كان يخاطب قومه.

قال عليه السلام: «ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»^(٣)، يعني: الله تعالى.

(١) أخرجه النسائي في «السنن» (٥٣٠٩). (٢) وسيأتي في قصة سليمان عليه السلام.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

قال الله تعالى: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَّ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٦] حاول لوط صلوات الله وسلامه عليه أن يستثير في قومه النخوة، فقال: ﴿فَأْتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨]، والخزي هو: فضح الإنسان أمام الناس، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] واحد فقط يمنع القوم، يردُّهم، يدافع، يتكلم، وهذا يدل على أن المجتمع كان فاسداً كله، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ وهو كما قيل:

تُجَاب لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

والغريب أن أولئك الضيوف مع هذا الحديث الذي كان يدور بين لوط وقومه والخوف الذي اعتري لوطاً صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وقومه يطرقون عليه الباب ﴿أَوَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] سَلِّمْ إِلَيْنَا هؤُلاءِ الرجال، ﴿فَأْتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾، والضيوف في منتهى الهدوء، لا يهتمون إلى ما يجري بين لوط وقومه صلوات الله وسلامه عليه، وكأن الأمر لا يعينهم.

وهنا التفت الضيوف إلى نبي الله لوط، وقالوا: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] اطمئن، ولذلك كلما ضاق الأمر، واشتدت المحنة جاء الفرج من الله، بل يأتي الفرج كالغيث ينزل على الأرض بعد أن اشتدت حاجتها إليه، وفي الآية الأخرى قالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْعَصِيْبَةِ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

نزول العذاب على قوم لوط:

لما حاولوا كسر الباب والدخول عليه خرج إليهم جبريل صلوات الله وسلامه عليه، فضرب وجوههم بطرف جناحه، فطمس أعينهم، فصاروا يتدافعون، ويصطدم بعضهم ببعض بالجدر لا يدرون أين يذهبون، ثم رجعوا إلى بيوتهم، وهددوا لوطاً وقالوا: نأتيك غداً، انصرفوا وهدأت

الأمور، واطمأن نبي الله لوط صلوات الله وسلامه عليه، قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وهنا قولهم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ذُكِرَ أن لوطاً صلوات الله وسلامه عليه بعد هذه المحنة الشديدة قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ قال لهم لوط: «فالألآن؟»، فقالت له الملائكة، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ لأن الأمر ليس بيد الملائكة، فهم رُسل، والأمر لله من قبل ومن بعد ﷺ.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ﴾ [هود: ٨١]، فيها قراءتان:

القراءة الأولى: بالفتح ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ﴾، فيكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى (فأسر بأهلك إلا امرأتك) اتركها.

القراءة الثانية: قراءة الضم (إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ) فيكون معنى الآية: إلا امرأتك فلتلتفت، فتكون بدلاً من ﴿أَحَدٍ﴾، ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ﴾ فلتلتفت، فأخذت.

والمشهور أنه خرج بأهله، وخرجت معه امرأته، ثم لما كانت الصبيحة التفت امرأته، فأخذت مع قومها، ولكن قراءة الفتح أشهر، بدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات] وامرأة لوط ليست من المؤمنين، ولم تخرج معهم، إذاً هذا يظهر منه أنه قراءة الفتح أي: (فأسر بأهلك إلا امرأتك) لا تسربها، لا تأخذها معك، وجاء في آية أخرى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥]، ولم يذكر المرأة، فدل على أن المرأة لم تخرج أصلاً مع لوط، بل بقيت مع قومها لما أراد أن يهاجر من البلد قالت: لا أريد أن أخرج

معك، وهذا أيضاً من خيانتها له؛ لأنها على دين قومها قبحها الله.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٨٢] أي: بعد أن خرج لوط، وخرج معه أهله، وهنّ بناته، قال الله - جل وعلا -: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، ولذلك سمّيت المؤتفكة، التي قُلبت رأساً على عقب، قال: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، والسجيل هو الحديد الشديد، ﴿مَنْضُورٍ﴾ [هود: ٨٢] حجارة وراء حجارة، حجارة وراء حجارة، ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣] على كل حجر اسم رجل منهم.

قال الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

كيف فعل الله بهم؟

قيل: إن جبريل - صلوات الله وسلامه عليه - رفع القرية كلها عن وجه الأرض بجناحه حتى بلغ بها السماء الدنيا، وسمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب، وصياح الديكّة، ثم قلبها، ثم جاءت بها الحجارة، ولذلك قال - جل وعلا -: ﴿وَالْمَوْئِدَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣] أي: رفعها ثم أهوى بها إلى الأرض، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] ما المقصود بـ﴿هِيَ﴾؟

المعنى الأول: أي: أن هذه الفعلة بقوم لوط ليست ببعيدة على من يفعل مثل فعلهم؛ لنفعلن بهم كما فعل بقوم لوط.

المعنى الثاني: أي: القرية من الظالمين ببعيد، كما قال الله - جل وعلا -: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا سَوَاءً فَأَكْمَمُوا فِيهَا رُءُوسَهُمْ وَكَرُوهَا﴾ [الفرقان: ٤٠] يعني: هذه القرية ليست ببعيدة من الظالمين، بل يرونها ويعرفونها ويعرفون ماذا حل بأهلها.

حكم تسمية فعلهم الخبيث باللواط:

هل يجوز أن نقول: إن ما فعله قوم لوط «لواطاً»، كما يسميه كثير من الناس؟

الصحيح أن هذه التسمية خطأ، وقد كان شيخنا أبو عبد الله محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - يُنكر هذه التسمية، ويقول: من الخطأ أن نسميه لواطاً، بل نسميه كما سماه الله تبارك وتعالى، ونقول: «عمل قوم لوط» وكما سماه النبي ﷺ، أما أن تنسب إلى لوط فهذا خطأ، خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، بل وخطأ من حيث العقل:

أما خطأها من حيث اللغة: لأن اللواط في اللغة الإصلاح، لا يط لوطاً؛ أي: أصلح الشيء ولذلك أخبر النبي ﷺ أن الساعة عندما تقوم، أول من يُصعق رجلٌ كان يلوط حوضه^(١)؛ أي: يصلح حوضه.

ثم كذلك اسم لوط اسم طيب؛ أي: المصلح، وعندما نقول هذا لوطي أو هذا يلوط أو هذا لواط، هذا مثل تسمية الخمر مشروبات روحية، أو الربا فائدة، بل اللواط الإصلاح، واللوطي المصلح.

وأما الخطأ من حيث الشرع: لأنه يُنسب هذا إلى لوط، ولوط بريء من ذلك، بل هو الذي كان ينهى عن هذه الفعلة الشنيعة، فصارت تنسب إليه!!

وأما الخطأ من حيث العقل: أنت الآن هل تأنف أن يقال لك: «محمدي»، لا تأنف، بالعكس تفرح أن يقال لك: محمدي أي: أنك تابع لمحمد صلوات الله وسلامه عليه، ولكن يأنف الكثير أن يقال له: «لوطي» أي: نسبة إلى لوط، أو نسبة إلى اللواط، بل نسبة إلى لوط كما يقال: عيسوي، وموسوي، وإبراهيمي.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

فالصحيح أن تسمية هذا الفعل الشنيع لواطاً خطأ، بل جاء في الحديث: «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط»^(١)، ولم يقل: من رأيتموه يلوط أو يلاط به، فهي خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، وخطأ من حيث العقل كذلك^(٢).

انتشار الفواحش:

من نظر في واقع الناس اليوم يجد أن الليلة تُشبه البارحة، وقد انتشر هذا الفعل الآن في كثير من المجتمعات، ويذكر هؤلاء الشواذ جنسياً في إحصائياتهم أن عددهم يبلغ ستمئة مليون شخص، يفتخرون الآن على وجه الأرض بأنهم شواذ جنسياً - والعياذ بالله -، وهذه بعض الإحصائيات:

- ٦٤٪ من المصابين بمرض الإيدز هم من هؤلاء الشاذين جنسياً.
 - ٦٠٪ من هؤلاء مصابون بأمراض جنسية أخرى كالهربس وغيره.
 - متوسط أعمارهم مع أعمار غيرهم، هم أقل عمراً من غيرهم من الناس بخمس وعشرين سنة.

- متوسط وفياتهم في الخامسة والثلاثين.
 - عدد الزيجات الرسمية بين رجل ورجل بلغت ألف زواج رسمي.
 - وأما الذين يعيشون ذكر مع ذكر بدون ورقة فهم ثلاثة ملايين.
 هذه انتكاسة بالفطرة لا شك، بل إن هذا الفعل تعافه حتى الحيوانات، وقد دُكر أن الحيوانات لا يمكن أبداً أن ينزو ذكر على ذكر، وقد ذكر الجاحظ أنه لم يُعرف في الحيوانات أنه ينزو ذكر على ذكر إلا في الحمير والخنازير، فهي التي فيها ينزو الذكر على الذكر، أما في غيرها من الحيوانات فلا ينزو الذكر على الذكر.

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١).

(٢) انظر للأهمية: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر أبو زيد رحمته الله ص ٤٧٦ - ٤٨٠.

حكم من وقع في هذه الفاحشة:

حكى شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع من الصحابة وغيرهم أن من فعل هذا الفعل يُقتل، وإن كانوا اختلفوا في صفة القتل:

فَقُنِلَ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يُرمى من شاهر، كما فُعِلَ بقوم لوط، رُفعت قريتهم ثم أهوي بها.

وقال علي: يهدم عليه حائط.

وقال ابن عباس: يقتل بالحجارة، الفاعل والمفعول به رجماً، كما يفعل بالزناة^(١).

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهذه الجريمة أشنع من الزنا؛ لأن وطء من لا يباح بأي صورة من الصور أشدُّ عند الله من وطء من يباح في بعض الصور»؛ لأن هذه الزانية قد تتوب وتتوب ويتزوجها ويجوز له أن يطأها، لكن بأي حال من الأحوال لا يجوز أبداً أن يطأ رجل رجلاً.

الدروس والعبر المستفادة من قصة لوط عليه السلام

أولاً: شناعة جريمة قوم لوط.

ثانياً: إذا انتكست الفطرة؛ فإنها ترى القبيح حسناً، وتصير الجريمة أمراً مألوفاً.

ثالثاً: صبر لوط صلوات الله وسلامه عليه، على قومه.

رابعاً: اللجوء إلى الله عندما قال: ﴿أَوْءَاوَيْتُ إِلَىٰ رَبِّي شَدِيدًا﴾ [هود: ٨٠] إذا قلنا إن «أو» بمعنى «بل»، أي للإضراب.

(١) انظر كلام العلماء في حد من عمل قوم لوط في: «الموسوعة الفقهية» (٢)

خامساً: سقوط الأخلاق سبب لنهاية المجتمعات كما قيل:

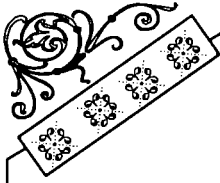
إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُم ذهب أخلاقهم ذهبوا

سادساً: أن قوم لوط لم يُسبقوا في هذه الفاحشة، فهم أول من أظهر هذه الفاحشة، قال الله - جل وعلا -: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت].

سابعاً: كرم لوط، ورعايته لضيوفه، ومدافعتة عنهم صلوات الله وسلامه عليه.

ثامناً: أن الزوجة لا شأن لها بزوجها إذا كانت على دين يخالف دينه، بل إن هذا لا يراعى عند الله تبارك وتعالى، بل الرعاية عند الله - جل وعلا - للمؤمنين.





قصة شعيب عليه السلام

أُرسل شعيب عليه السلام إلى مدين، والمشهور عند أهل التاريخ وأهل النسب أن مدين أحد أبناء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وقوم شعيب من نسل هذا الرجل؛ أي: من نسل مدين بن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر نبي الله شعيب في كتاب الله تبارك وتعالى إحدى عشرة مرة، أُرسل إلى أهل مدين، في مكان يُقال له: معان، في الأردن، قريب جداً من قرية قوم لوط عليه السلام.

والمشهور في لقبه: أنه خطيب الأنبياء، وذلك لحسن مراجعته لقومه، وظهوره بحجته عليهم، ودحضه لشبهاتهم.

لم يذكر الله - جل وعلا - المعجزة التي أُرسل بها شعيب، ولكن بيّن أنه أُرسل بيّنة من ربه، كما أُرسل غيره من الأنبياء، ولكن كما ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بحيث يذكر لنا كل نبي، ومعجزته، وأولاده، وزوجته، وبلده، وغير ذلك، ولكنه كتاب هداية وبيان، وهو يوضح لنا أن شعيباً نبيّ، وأنه أُرسل إلى قومه، ودعاهم إلى الله كما دعا غيره من الأنبياء، وأن هناك من تابعه، وهناك من صدّ عنه، وكفّر به، ثم كيف أظهر الله تبارك وتعالى الحقّ، وأبطل الباطل، فيعتبر الناس من ذلك، هذا هو المقصود من ذكر قصص الأنبياء؛ ليعتبر من يعتبر، وليتسلى المؤمنون بهذا الأمر، وليعلموا علم اليقين أن العاقبة للفقير.

شعيب عليه السلام يدعو قومه وينصح لهم:

أرسل نبي الله شعيب - صلوات الله وسلامه عليه - إلى أهل مدين، وقد اشتهروا بأنهم:

أولاً: كفروا بالله - جل وعلا - .

ثانياً: يقطعون السبيل.

ثالثاً: يبخسون المكيال والميزان.

أما كفرهم: فالمشهور أنهم كانوا يعبدون شجرة يُقال لها: الأيكة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ آلِ يُثْرَيْنَ آلِ الْيَكَّةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ عَلِيمٌ ۗ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِهِ فَذُوقُوا عَذَابَ الْيَوْمِ ۗ﴾ [الشعراء: ١٧٧]، والأيكة نوع من أنواع الشجر، يسجدون له، ويسألونه من دون الله - جل وعلا - .

ثم كذلك كانوا يقطعون السبيل على الناس ويأخذون أموالهم، وقيل: كانوا يأخذون العُشر من الناس، كلما مر رجل بتجارة قالوا له: ما تمرُّ من عندنا حتى تدع شيئاً من أموالك، وهي ما يُسمى الآن بالجمارك، وكانوا يطففون في الكيل، قال الله - جل وعلا -: ﴿وَتِلْكَ لَمِطْفِفِينَ ۚ إِذْ أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۚ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۚ﴾ [المطففين: ١، ٢، ٣]، فإن كان الكيل لهم أخذوا الزيادة، وإن كان عليهم أنقصوا.

وكانوا يُفسدون في الأرض بشتى أنواع الفساد كما أطلق الله - جل وعلا -، وكانوا يصدون عن سبيل الله، قال الله - جل وعلا -: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۗ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال لهم كذلك: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ ۗ﴾ [الأعراف: ٨٦]، حذرهم نبي الله شعيب من كل هذه الأفعال

المشينة، ثم قال لهم: ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [٨٦] [هود]، قال أهل العلم في تفسير (بقية الله) أي: ما فضل من الربح - ولو كان قليلاً - خيرٌ من الربح الكثير إذا كان في حرام، قال الله - جل وعلا -: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فالمال الحلال - ولو كان قليلاً - هو خيرٌ وأبقى عند الله - جل وعلا - من المال الحرام ولو كان كثيراً، قال الله - جل وعلا -: ﴿يَمْحُقْ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزَيِّرِ الْعَصَدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

دعوة جميع الأنبياء إلى التوحيد وطريقتهم في ذلك:

دعوة شعيب ليست غريبة وإنما هي دعوة سائر الأنبياء، الدعوة إلى توحيد الله - جل وعلا - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] كل الأنبياء إنما جاؤوا لتحقيق هذه القضية العظيمة، أن يعبد الله ﷻ وحده قال - جل وعلا -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء] هذه دعوة جميع رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، بل لأجلها قامت السماوات والأرض، ولأجلها كانت الجنة والنار، ولأجلها خلق الله العالمين ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات].

طرق شعيب في دعوته:

أولاً: الدعوة بالحسنى كما قال عنه - جل وعلا -: ﴿قَالَ يَتَوَارَىٰ مِنْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَيَتَوَارَىٰ مِنْهُ نَجَارٌ وَآيُوثٌ فَاسْتَخَارَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَمِنْ أَجْلِ آلِ هَارُونَ هَمُومٌ﴾ [هود: ٨٨].

ثانياً: القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله - جل وعلا - فقال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وهكذا يجب على الداعي إلى الله - جل وعلا - أن يكون قدوة، ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم

عنه، ما أنهاكم عن شيء ثم آتبه ولا أمركم بشيء ثم أتركه، بل أنا ملتزم بما أدعوكم إليه.

ثالثاً: الترغيب والتذكير بنعم الله - جل وعلا - فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] فرغبهم في حسن عطاء الله لهم ﷻ، كنتم قليلاً فكثركم ﷻ.

رابعاً: استخدم الترهيب، فقال لهم: ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [٨٩] [هود].

خامساً: دعاهم كذلك إلى أصلين عظيمين:

الأصل الأول: عبادة الله - جل وعلا -.

الأصل الثاني: الوفاء بالحقوق، وعدم ظلم الناس، وعدم أخذ أموالهم بالباطل.

سادساً: بين لهم أنه لا يريد أجراً على هذه الدعوة أبداً ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء].

سابعاً: بين لهم شرف مقصده صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨] لا أريد ملكاً، ولا مالاً، ولا جاهاً ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ و«إن» هنا نافية بمعنى «ما».

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] ماذا يقصد بهذا؟ قال أهل العلم بالتفسير: وما قوم لوط منكم بعيد من حيث المكان، معان قريبة من سديم «بلد لوط»، وقيل: من حيث الزمان، ولذلك في كتاب الله - جل وعلا - في سورة هود والشعراء والحجر، وغيرها بعدما يذكر الله تبارك وتعالى قصة قوم لوط يذكر بعدها مباشرة قصة مدين، إذا هم ليسوا بعيدين بالمكان وليسوا بعيدين كذلك بالزمان، فهم قريبون مكاناً وقريبون زماناً ثم كذلك هم قريبون من حيث

الصفات والأفعال والإجرام والفساد، ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وكيف صنع الله بهم، فأنتم ماشون على جادتهم وعلى طريقتهن فسيصيكن مثل ما أصابهم.

قوم شعيب عليه السلام يردون دعوته بالسخرية والتكذيب:

وجاء الجواب من قومه: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ﴾ [هود: ٩١] مع أنه خطيب الأنبياء، أوتي من الفصاحة والبلاغة وإقامة الحجة ورد الشبهات الشيء العظيم، ومع هذا يقول له قومه: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ﴾، وهذا زور وبهتان منهم على نبي الله شعيب صلوات الله وسلامه عليه، وهو قريب مما قاله كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] وقال لهم نبي الله شعيب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٨٧] إذا هما طائفتان، طائفة آمنت بشعيب صلوات الله وسلامه عليه وطائفة أخرى لم تؤمن قال: ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] وهذا هو المطلوب، الصبر حتى يحكم الله، هذه دعوة شعيب لقومه صلوات الله وسلامه عليه فلننظر كيف كان رد قومه عليه:

أولاً: السخرية والاستهزاء، قالوا له: ﴿أَمْ لَوْلَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي ءَمْوَالِنَا مَا نَشَآؤُآ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يستهزئون، ويسخرون منه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿أَمْ لَوْلَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ نترك الأيكة التي كان يعبدها آباؤنا، أصلاتك تأمرك بهذا، أو أن نعمل في أموالنا ما نشاء، أتمنعنا من أكل أموال الناس بالباطل، أتمنعنا من البخس، أتمنعنا من المكوس، أتمنعنا من السرقة؟! دعنا نعمل في أموالنا ما نشاء، ثم قالوا له كلمة: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يريدون السخرية منه صلوات الله وسلامه عليه.

ثانياً: التهديد بالنفي والرجم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] وقالوا له كذلك: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١].

ثالثاً: اتهموه بالسحر، فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

رابعاً: الكذب، فقالوا: ﴿وَإِن تَطَّئِكَ لَيَنَ الْكَذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

سادساً: حاولوا صد الناس عنه، قالوا: ﴿لَئِن آتَيْتُمُ شُعَيْبًا إِتَّكُرَ إِذَا لَخِصِرُونا﴾ [الأعراف: ٩٠].

وفي قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١] تحتاج إلى وقفة؛ لأن معنى هذا أن رهط شعيب كانوا سينصرونه فيما لو أراد الكفار أن يضرروه، وهذا كما وقع من رهط النبي محمد ﷺ إذ كانوا ينصرونه ويدفعون عنه، وكان أبو طالب يدافع عن النبي ﷺ أشد الدفاع بل لما مات أبو طالب تعرض النبي ﷺ للأذى من قريش أكثر مما كان يتعرض له زمن أبي طالب كانت قريش تذهب لأبي طالب وتقول له: امنع ابن أخيك، وكان يقول لمحمد ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً

أدفع عنك وإن كنت لست على ديني ولكني أدفع عنك حمية، يحامي عن النبي ﷺ ولما خرج النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين إلى شعب أبي طالب ثلاث سنوات؛ خرج معه الكفار من بني هاشم والكفار من بني المطلب، عدا عم النبي ﷺ أبي لهب، هذه العصبية القبلية قد تنفع، وقد تكون طيبة ويستفيد منها المؤمن، ولكن لا يجوز أبداً أن ينادى بها وأن يقدم الكافر القريب في النسب على المؤمن البعيد في النسب، فتلك كما قيل: قرابة طين، وقرابة المؤمن للمؤمن: قرابة دين.

ولقد قال لهم نبي الله شعيب وهو يدعوهم إلى الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَنكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] الداعي إلى الله - جل وعلا - يكون قدوة، بل هذه هي صفات الأنبياء والمرسلين وعكسها تماماً صفات الكافرين والمنافقين، قال نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَنكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] هذه صفات المتقين، وصفات الأنبياء، وأما أعداؤهم وأعداء الصالحين فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] وقال الله - جل وعلا -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٢] كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف: ١] وقال النبي ﷺ: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه فيحملها ويدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال: بلى، ولكني كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وكنتم أنهاكم عن المنكر وآتية»^(١) وذكر أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن العباس ؓ فقال: إني أريد أن أذكر الناس فقال له عبد الله بن عباس: إذا لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات فافعل وهي: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَنكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

وقد قيل:

يا واعظ الناس عما أنت فاعله
يا من يُعد عليه العمر بالنفس
احفظ لشيبك من عيب يدنسه
إن البياض قليل الحمل للدنس

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد ؓ.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٢٤٩).

كحامل لثياب الناس يغسلها وثوبه غارق في الرجس والنجس
تبغي النجاة ولم تسلك طريقها إن السفينة لا تجري على اليبس

تهديد ووعيد:

قال الله تعالى على لسان قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] ابتلاء، نخرجكم من قريتنا أو تعودون في ملتنا.

وهنا قولهم: ﴿لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] لا يعني أبداً أن شعيباً كان كافراً يوماً من الأيام أبداً، بل إن الله - جل وعلا - أعلم حيث يجعل رسالته، وما كان نبي من الأنبياء كافراً قط في يوم من الأيام، ولكنهم يريدون مَنْ مع شعيب ممن آمن.

قال لهم شعيب: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي الْيَأْسِ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] ويتكلم هنا بلسان قومه الذين آمنوا به، وذلك أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يخرج منها أبداً، ولذلك قال النبي ﷺ لخباب: «قد كان فيمن كان قبلكم يؤتى بالرجل فيُنشر بالمنشار نصفين من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه لا يردده ذلك عن دينه أبداً»^(١)، وقال هرقل لأبي سفيان: «وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يخرج منها أبداً»^(٢)، عبد الله بن حذافة لما طلب منه قيصر أن يترك دينه ويعطيه نصف ملكه أبي وقتل أمام عينيه بعض أصحابه فأبى أن يرجع عن دينه فلما أخذوه ليقتلوه دمعت عينه فقال قيصر: ردوه لعله يريد أن يكفر، فقال: ما لك بكيت؟ قال بكيت أنه لا نفس لي إلا واحدة وتموت وينتهي الأمر، وقد تمنيت أن لو تكون أكثر من نفس كلها تموت في سبيل الله - جل وعلا -.

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الأرت ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس ؓ.

شعيب يطلب النصر من الله:

قال شعيب عليه السلام: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: انصرنا على قومنا، افصل بين الحق والباطل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، فهلك قوم شعيب، وبعد هلاكهم مرَّ عليهم شعيب، خاطبهم وهم أموات كما خاطب النبي صلى الله عليه وآله أهل قلبِ بدر، وقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإنا قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً»^(١)، فقال شعيب: ﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

صنوف العذاب على أهل مدين:

ذكر الله - جل وعلا - أنه عذبهم بثلاثة أنواع:

النوع الأول: الرجفة.

النوع الثاني: الصيحة.

النوع الثالث: عذاب يوم الظلة.

قال الله تبارك وتعالى عن الرجفة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال عن الصيحة: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤].

وقال عن عذاب يوم الظلة: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: «أصابهم حرٌّ شديد، وأسكن الله

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلثهم إلى البرية، فأظلمت سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه؛ أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح^(١).

وهذه سنة الله - جل وعلا - مع أنبيائه وأتباعهم وأعدائهم، وذلك أن الله - جل وعلا - ذكر أن أنبياءه ينقسمون إلى قسمين في دعوتهم أقوامهم:

قسم من الأنبياء من يأمرهم الله بالجهاد ضد الطغاة، وهؤلاء ينصرهم الله في معاركهم ويهزم أعداءهم، كما قال - جل وعلا -:

﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران] وقال - جل وعلا -:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِرْغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة﴾

وقال - جل وعلا -:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ إِنَّهُمْ لَمَُّمٌ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الصافات]، ولنا في سيرة نبينا محمد ﷺ أعظم العبرة في هذا الأمر.

القسم الثاني: الذين لم يؤمروا بقتال الأعداء من الكفار، بل أمروا بالصبر والصفح، وهذا القسم ينصره الله - جل وعلا - بهلاك عدوه كما فعل الله تبارك وتعالى مع نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العذاب العام على أقوامهم.

وليس نبي الله شعيب هو صاحب موسى - كما يظن البعض - الذي

(١) «البداية والنهاية» (١/٢١٩).

زوجه ابنته؛ لأن بين شعيب وموسى مئات السنين، إن لم تكن آلاف، فالمشهور أن شعيباً عليه السلام بعد لوط مباشرة، قريب وقته من وقت لوط عليه السلام.

واشتهر عند الناس كثيراً: «عسى عمرك عمر شعيب النبي»، والمشهور أن نوحاً صلوات الله وسلامه عليه هو الذي كان ذا عمر طويل، أما شعيب فلم يُذكر شيء من ذلك.

الدروس والعبر المستفادة من قصة شعيب عليه السلام

أولاً: أن الصبر والإيمان عاقبته النصر والنجاة كما فعل الله بشعيب ومن آمن معه.

ثانياً: مدة الظالم في الأرض قصيرة - وإن طالت فيما يظهر للناس - لكنها في النهاية قصيرة جداً.

ثالثاً: ملة الكفر واحدة، فلو نظرنا إلى ردّ قوم شعيب عليه، ثم إلى رد قوم لوط عليه، وقوم صالح، وقوم هود، وقوم نوح، وهكذا؛ لوجدنا أن ملة الكفر واحدة في ردها على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

رابعاً: أن المعصية التي تقع من الإنسان، والتي لا يكون لها مبرر ولا داعي لها في نفسه أشدّ عقوبة عند الله - جل وعلا -، وأشدّ جرماً، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب عظيم، قال: ملك كذاب، وعائل مستكبر، وشيخ زان»^(١)، فالملك لا يحتاج إلى الكذب، والغني المستكبر له دافع، والناس تريد رضاه، فيدفعه هذا إلى الكبر، أما الفقير لا دافع له،

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

والشاب يزني؛ لأن عنده شهوة، أما الشيخ؛ فإما أنه ذاق الحلال أو ضعفت شهوته، ولذلك كان عذاب هؤلاء الثلاثة أشد من عذاب غيرهم.

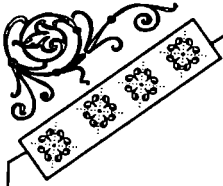
وكذلك قوم شعيب: أغنياء ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِحَيْثُرٍ﴾ [هود: ٨٤]، ومع هذا يأخذون أموال الناس بالباطل، فصار عقابهم أشد من عقاب غيرهم؛ لأنه لا داعي لأكل أموال الناس بالباطل كما فعلوا.

خامساً: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء ﴿أَصَلُّوا تَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَنْهَىٰ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِيهِ أَمْوَالَنَا مَا نَشْتَوِي﴾ [هود: ٨٧] إذا صلاته هي التي أمرته بهذا ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

سادساً: الداعية إلى الله يجب أن يكون قدوة، وهذا عمر رضي الله عنه لما كانت سنة المجاعة في زمنه؛ منع أهله، وقال: لا والله، لا يذوق أهل عمر الطعام حتى يذوقه الناس، ولا يأكل أهل عمر اللحم حتى يأكله الناس، حتى قيل: إنه صار في وجهه لون سواد من كثرة ما يأكل الزيت مع الخبز.

سابعاً: الأنبياء جميعاً بُعثوا للإصلاح والإصلاح، إصلاح المجتمعات، وإصلاح ما بينهم وبين الله وإصلاح ما بينهم وبين الناس. وأخيراً: من يدعو إلى الله تبارك وتعالى يحتاج أن يكون حليماً حسن الخلق مع قومه كما كان أمر شعيب صلوات الله وسلامه عليه.





قصة أيوب عليه السلام

حديثنا في هذا المقام عن قدوة الصابرين، نبي الله أيوب صلوات الله وسلامه عليه الذي صار مضرب المثل في الصبر، حتى إذا بلغ الصبر بالإنسان مبلغه؛ قال: يا صبر أيوب، يعني اللهم أعطني صبر أيوب.

وأيوب عليه السلام من ذرية إبراهيم على الصحيح، وعلى المشهور هو من ذرية العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

قال الله - جل وعلا - عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

ورد ذكره في القرآن أربع مرات، والصحيح المشهور أنه نبي، قال الله - جل وعلا -: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣] ولم يذكر الله تبارك وتعالى رسالته، ولا بُعث إلى مَنْ، ولا ذكر دعوته لقومه، ولا ذكر ردهم عليه، ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى أن أيوب ليس بنبي، ولكنه رجل صالح كلقمان، وذو القرنين، وغيرهما من الصالحين الذين ذكرهم الله - جل وعلا - من بني إسرائيل، أو ذكرهم النبي صلى الله عليه وآله، وأياً كان الأمر؛ فالمشهور أنه نبي، ونحن نذكر قصته صلوات الله وسلامه عليه.

ابتلاء الله ﷻ لأيوب عليه السلام:

كان في أرض حوران في الشام، ويقترن اسمه بالصبر؛ لأنه كان

أشد الأنبياء بلاءً في جسده صلوات الله وسلامه عليه، ذكر عن أيوب أنه كان كثير المال من جميع أصنافه، من أراضٍ، ومزارع، وأنعام، وذهب، وفضة، وغيرها.

وله كذلك أولاد كثر، وأهلون كثر، فسلبه الله - جل وعلا - جميع ذلك، هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني: أنه ابتلي في جسده بأنواع البلاء، حتى قيل: إنه لم يبق من جسده مما لم يُصب إلا لسانه، وقلبه.

الأمر الثالث: طال بلاؤه جداً.

الأمر الرابع: ملّ الناس زيارته لطول البلاء، وقيل: لخشية العدوى منه، ونحن نلاحظ أن بعض الناس إذا دخل إلى المستشفى أو مَرَضَ؛ يزوره الناس أول جمعيتين، أو أول شهر، ثم بعد ذلك يملُّ الناس من زيارته، ثم يصير الطيب من الناس من يذكره في كل شهر مرة، ثم بعد ذلك ينساه الناس تماماً؛ لأن الناس يملون، فما يبقى معه إلا مَنْ يحبه، وأيوب هجره جميع الناس، ما بقي معه إلا امرأته، وهذه لا شك مصائب يصيب الله بها العباد، ولكن هذه المصائب في نظر العاقل المتدبر هي نعمٌ لمن صبر واحتسب؛ لأنها أجر يقدمه الإنسان لنفسه يوم القيامة، وهي كالدواء المُر يشربه المريض، ولكن في النهاية عاقبته إلى خير.

اختلف أهل السير والتاريخ في مدة بلائه، فقيل استمر بلاؤه ثلاث سنين، وقيل استمر سبع سنين، وقيل استمر ثمان عشرة سنة، وكل هذه الأقوال لا دليل عليها، لا من كتاب، ولا من سنة، وإذا لم يكن ثمة خبر من الله - جل وعلا - أو من نبيه ﷺ، فكل ما بقي رجماً بالغيب، لكننا نعلم علم اليقين أنه ابتلي.

صبر أيوب عليه السلام:

ومع هذا الابتلاء ظلَّ أيوب عليه السلام صابراً محتسباً للأجر عند الله تبارك وتعالى، ويكثر من ذكر الله - جل وعلا - ليله ونهاره، لم يفترُ لسانه ولا قلبه عن ذكر الله - جل وعلا -، وهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمتل فالأمتل، يُبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدَّ عليه في البلاء»^(١)، إذاً الابتلاءات هذه لا تدل على أن الله لا يحب هذا الإنسان، بل لعل العكس هو الصحيح، وذلك أنه جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يُصب منه»^(٢)؛ أي: يبتليه صلى الله عليه وسلم، كالذهب يعرض على النار، فتنقى النار هذا الذهب من الشوائب حتى يصير بعد ذلك خالصاً من هذه الشوائب التي كانت عالقة فيه.

وظلَّت امرأة أيوب عليه السلام صابرةً محتسبةً معه، وقامت بحق زوجها خير قيام مع طول المدة، وشدة البلاء إلا أن أيوب عليه السلام لم يسأل ربَّه كشف ذلك الضر، وهذا جائز، فيجوز للإنسان أن يصبر ويحتسب الأجر، ويجوز له أن يدعو الله - جل وعلا - فيذهب عنه ما يجد، ودُكر أنه قال: عشتُ سبعين سنة صحيحاً، فهل قليل علي أن أصبر سبعين سنة؟

وقد جاء عن عمران بن حصين الصحابي رضي الله عنه أنه جلس في فراشه ثمان عشرة سنة، فقليل له: ألا تدعو الله أن يشفيك، قال: حتى تتم سنوات عافيتي مع سنوات مرضي، ولكن هل استمرَّ أيوب ولم يدعُ الله - جل وعلا -؟

(١) تقدم تخريجه ص ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أيوب عليه السلام يرفع يديه بالدعاء بعد صبر طويل:

ضُعِفَ حال امرأته، وقلَّ كسب يدها، وما كانت تجد من يُنفق عليها، كانت تعمل لتطعم نفسها وتأتي لتطعم أيوب صلوات الله وسلامه عليه، حتى ملَّها الناس، بل خافوا منها أن تعديهم لكثرة ترددها على هذا المريض أيوب صلوات الله وسلامه عليه، فلم تجد بُدأً من أن تبيع شعرها، وقالوا: كان لها شعرٌ حسنٌ فباعته ضفيريها لبعض نساء الأشراف في تلك البلاد، وأخذت المال واشترت به طعاماً لها ولزوجها.

جاءت أيوب ومعها طعام حسن لا كما كانت تأتيه في كل يوم، فشك في أمرها وحلف لا يأكل من هذا الطعام حتى تخبره من أين أتت به، فكشفت عن رأسها وأرته أنها باعت ضفيريها، فلما رآها؛ رفع رأسه إلى السماء، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] دعا الله - جل وعلا -، قلنا: لم يصبر، لا أنه لم يصبر لشدة الألم، ولكن لما رأى من حال زوجته، فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أي: في أهلي، وفي هذا أن الإنسان إذا ضاقت به الدنيا أنه لا ملجأ ولا منجى إلا إلى الله ﷻ، فلجأ هذا العبد التقي إلى ربه ﷻ، وكما قال الله - جل وعلا -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْفَتْرِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]، ولو طبقنا هذه الآية لوجدناها على أيوب مطابقة تماماً.

وقيل: إنه سبب آخر، قام رجلان قريبان من أيوب، كانا يترددان عليه، فقال أحدهما: لو كان الله علم من أيوب خيراً؛ ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع مثله، وخرَّ لله ساجداً، وقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى

كشف الله عنه ما يجد، جاء في هذا حديث مرفوع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة..، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان له ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: نعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه ربُّه فيكشف عنه، فلما دخلا على أيوب صلوات الله وسلامه عليه لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، قال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله ﷻ يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله - هذا يحلف وهذا يحلف - فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق»^(١).

قال النبي ﷺ: «وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها؛ أمسكت امرأته بيده، حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، وأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿أرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص] أي: اضرب برجلك الأرض، «فضرب برجله الأرض، فنبعت عين، قال: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر، وأقبل عليها، وقد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك؛ ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، أنا نبي الله المبتلى».

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: «رفع هذا الحديث غريب جداً»^(٢).

والأشبه أن يكون موقوفاً، يعني من روايات بني إسرائيل، وليس من قول النبي ﷺ.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/٢١١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/٣٦٢).

حقيقة مرض أيوب عليه السلام:

نسب الناس إلى أيوب أشياء كثيرة، قالوا - كما يوجد في بعض الكتب -: إنه مرض حتى عافه الناس لقدارته ونتاجه، وقالوا: كان الدود في جسده كثيراً حتى إنه خرجت دودة وسقطت في الأرض، فأخذها ووضعها في جسده مرة ثانية.

وقيل: إنه لما أنتنت رائحته من كثرة ما أنتن من لحمه أن قومه أخذوه وألقوه في الزبالة.

وقيل: تساقط لحمه كله حتى لم يبق إلا العظم والعصب.

وكل هذه ترهات لا يجوز أن تقبل، على الحالين؛ إذا قلنا: إنه نبي، وإذا قلنا: إنه رجل صالح، فمثل هذا كيف يقبل الناس دعوته، والذي نؤمن به ونصدقه أن الله ابتلى أيوب عليه السلام بمرض شديد، وبفقد أمواله، وطالت مدة مرضه، ولكن لا يتصور أبداً أن يكون نبي يبلغ به هذا الحال أن يكون قدراً مستقذراً، هذا لا يمكن أن يصدق، إلا إذا قيل: إن هذا كان قبل النبوة، ولا حاجة لنا لهذا الاحتمال؛ لأن هذه الروايات لو كانت في القرآن أو عن النبي ﷺ لقلنا: على العين والرأس، لكن لما كانت من روايات بني إسرائيل؛ فتضرب بعرض الحائط، ولا كرامة.

يقول القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: «لم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين:

الأولى: قول الله - جل وعلا -: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

والثانية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، هذا الذي صح عن أيوب عليه السلام.

أما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد، إلا قوله: «بينا

أيوب يفتسل إذ خرّ عليه رجل من جراد من ذهب^(١)، وإذا لم يصح فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه؛ فمن الذي يوصل السامع إلى خبر أيوب، أم على أي لسان سمعه؟! والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنانك فإنها لا تعطي فكري إلا خيالاً، ولا تعطي فؤادك إلا خيالاً.

هذا ما ذكره القاضي أبو بكر العربي، ونعم ما قال رحمه الله ورضي عنه.

هل يعارض الدعاء الصبر؟

قال الله - جل وعلا - : ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَيْبًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُفْسِي وَعَذَابٍ ﴿١١﴾﴾ [ص]، وقال الله - جل وعلا - : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

هل هذا يتنافى مع قول الله - جل وعلا - في شأن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] هل يتنافى هذا مع الصبر؟

والجواب: هو صابر مع ذكر هذه الآيات، لا تعارض أبداً؛ لأنه لا تعارض بين الدعاء والصبر، والدعاء لا ينافي الصبر، والذي ينافي الصبر الشكوى إلى الخلق، أما الذي يشتكي إلى الله، فهذا هو الصابر المحاسب.

وأيوب لم يشتك إلى الخلق، بل لجأ إلى الله ﷻ، وأيوب كان داعياً، ولم يكن شاكياً، بدليل أنه لما قال هذا الكلام؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، والاستجابة لا تكون إلا للدعاء، فهو دعا، ولم يشتك صلوات الله وسلامه عليه، بل إنه لما جمع في دعائه بين حقيقة التوحيد وإظهار الحاجة والفاقة إلى الله - جل وعلا -، بل والتوسل إليه بأسمائه وصفاته؛ استجاب الله ﷻ له.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩) من حديث أبي هريرة ؓ.

هل الشيطان يمس بالبشر؟

وهنا قوله: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾، ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ يُصَبِّ وَعْدَابٌ﴾ فهل الشيطان يمس بالبشر أم أن الأمر كله بيد الله - جل وعلا -؟

والجواب: إن الأمر كله بيد الله - جل وعلا -، خلق الخير وخلق الشر، بل رأس الشر الشيطان، والذي خلقه هو الله ﷻ، هو النافع الضار ﷻ، ولكن هذا الكلام من أيوب صلوات الله وسلامه عليه جاء من باب الأدب مع الله - جل وعلا - كما جاء في دعاء النبي ﷺ: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك»^(١)؛ أي: لا يُنسب إليه ﷻ.

قال الله - جل وعلا - عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء)، ولم يقل: وإذا مرضني مع أن الذي أمرضه هو الله، والذي شفاه هو الله، ولكنه أديباً مع الله - جل وعلا - قال: ﴿مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

وقال ﷻ عن الخضر: ﴿وَأَمَّا الْفَالُكُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨١) [الكهف]، فنسب الفعل إلى نفسه؛ لأن ظاهر الفعل شر، وهو قتل غلام، لكن لما جاء إلى الجدار قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، ولم يقل: فأردنا؛ لأنه خير محض، وهذا من حسن الأدب مع الله - جل وعلا -.

استجابة الله ﷻ لأيوب عليه السلام:

كان يخرج لحاجته مع امرأته وأنه في يوم من الأيام أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] اضرب برجلك، ﴿هَذَا مُنْتَسَلٌ

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام.

بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿﴾ الذي نبع من الأرض هو مغتسل بارد، وهو أيضاً شراب، نبعث من الأرض عين، فلما اغتسل منها برأ ظاهره، ولما شرب منها برأ باطنه، فهما عينان، عين اغتسل منها وعين شرب منها صلوات الله وسلامه عليه.

بعد أن شافاه الله - جل وعلا - قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص] في معناها ثلاثة أقوال:

القول الأول: رد الله عليه ماله وولده الذين ماتوا، أحياهم الله له مرة ثانية، ثم كثرهم.

القول الثاني: رد لزوجه شبابها.

القول الثالث: آجره الله فيمن بقي من أهله، وجمع بينه وبينهم في الآخرة.

قال الله - جل وعلا -: ﴿وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص: ٤٣]، وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾، فالعابدون هم أولوا الألباب؛ أي: تذكرة لمن ابتلي فصبر؛ فإن له مثل ما لأيوب عليه السلام.

واحفظوا إيمانكم:

قال الله له بعد أن شفاه ورد عليه أهله: ﴿وَخُذْ بِدِيكَ ضِعْمًا فَاضْرِبْ بِوَيْهٍ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص]، ذكر أن أيوب حلف ليضربن امرأته مئة سوط؛ لأنها باعت ضفائرها، أو أنها تأخرت عليه يوماً، فحلف ليضربنها، أو جاءها الشيطان، فقال لها: إن شفيت لك أيوب هل تقولين إنني أنا شفيت؟ فقالت: أسأل أيوب، فسألته، فحلف ليضربنها، يعني كيف تقبلين مثل هذا الكلام، والشافي هو الله - جل وعلا -، وأياً كان فالله أعلم بالسبب الذي من أجله حلف أيوب صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه كلها روايات بني إسرائيل، فلا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولكن الذي جاء في كتاب الله - جل وعلا - قوله ﷺ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [ص: ٤٤]، الضغث قيل: هي أعواد النخيل يعني الجريد أو السعف الجاف.

وقيل: الضغث هو الحشيش الذي يبُّس، جمع مئة عود، فضرب بها زوجته ضربة واحدة، بدل أن يضربها مئة سوط، حتى لا يحنث في يمينه، وهو كما قال الله - جل وعلا -: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

جراد من ذهب:

قال رسول الله ﷺ: «بينما يغتسل أيوب عرياناً خرّ عليه رجل من جراد من ذهب» أي: مجموعة من جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، ناداه ربه فقال: «يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى» يعني: في القناعة التي جعلتها في قلبك، قال: «بلى، ولكن لا غنى لي عن بركتك»^(١).

الدروس والعبر المستفادة من قصة أيوب عليه السلام

أولاً: قصة أيوب هي قصة الإيمان الكامل، والصبر الجميل.

ثانياً: كفارة اليمين لم تُشرع لمن قبلنا، على الأقل لأيوب، فإن الإنسان إذا حلف يمينا؛ فإنه يُكفّر عنها إذا لم يستطع أن يوفّيها أو كانت يمين على غير خير، ووجد غيرها خيراً منها، يقول النبي ﷺ: «ما حلفتُ على شيء ووجدت غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»^(٢)،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى عليه السلام.

ولو كان هذا مشروعاً في زمنهم لكفر أيوب عن يمينه، ولكن لم يجد بُدّاً من تنفيذ ما حلف عليه، ولذلك ضرب زوجته بهذا الضغث.

ثالثاً: من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه؛ فإنه يُقام عليه مسمى ذلك، يعني أيوب لما رأى أن هذا الضرب لا تستحقه هذه المرأة جعل الله له مخرجاً بهذه الأعواد، فلو قُدِّرَ أن مريضاً لا نستطيع أن نقيم عليه الحد، برأي الطبيب أنه لن يبرأ، لا يُترك الحد، بل يُقام عليه مسمى الحد، بأقل ما يكون؛ لأن المقصود من الحد هو التنكيل، العذاب النفسي، حتى يرى غيره، ﴿وَلَشَهَدَ عَلَيْهِمَا ظَافَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] وليس المقصود من الحد الإتلاف، ولذلك كان شارب الخمر إنما يُضرب بالسعف والتعال.

رابعاً: المرء يتلى على قدر دينه.

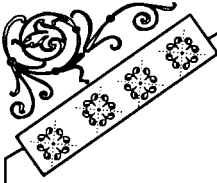
خامساً: من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فهذه المرأة لما اتقت الله - جل وعلا -؛ جعل الله لها مخرجاً، بأن جمع لها أيوب هذه الأعواد وضربها بها ضربة واحدة حتى لا يحنث في يمينه، وجعل الله لأيوب أيضاً مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

سادساً: الدعاء لا ينافي الصبر؛ لأن الله مدحه بالدعاء، ومدحه كذلك بالصبر.

سابعاً: ما بين غمضة عين والتفاتتها يغير الله من حال إلى حال، ذهب معها مريضاً، أبطأت عليه، ورجعت وإذا هو معافى ليس به بأس، ﴿أَرْكَضُ بِرِحْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ١٦] فكان كأن شيئاً لم يكن.

ثامناً: جواز الاستكثار من الحلال، لما قال أيوب: «لا غنى لي عن بركتك».





قصة داود ﷺ

ذكر نبي الله داود في كتاب الله تبارك وتعالى ست عشرة مرة، وقد طالت مدة ملكه صلوات الله وسلامه عليه، حتى قالوا: إنها بلغت أربعين سنة.

مقدمة لا بد منها:

والكلام على قصة داود صلوات الله وسلامه عليه، يستلزم أن نقدم بمقدمة، وذلك أن بني إسرائيل انتشرت عندهم الجرائم، وعظمت المظالم، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فسلط الله تبارك وتعالى عليهم من لا يرحمهم من جبابرة الملوك، يقال لهم: العماليق، فكان أن بلغ الأذى مداه، فذهبت بنو إسرائيل إلى نبي لهم، المشهور أن هذا النبي اسمه: شمويل، وقيل اسمه: سمعون، وسمي: سمعون؛ لأن الله تبارك وتعالى استجاب وسمع دعاء أمه له، فرزقها هذا الولد فسمته سمعون، ولا يعرف اسم هذا النبي على الحقيقة، بحيث لم يأت في كتاب الله تبارك وتعالى تسمية له، ولا في سنة النبي ﷺ، ولكن الذي جاء أن بني إسرائيل ذهبوا إلى نبي من أنبيائهم، وطلبوا منه أن يُعَيِّنَ لهم ملكاً يتبعونه ويقاتلون الجبابرة من العماليق تحت رايته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالَوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اأَبْتِ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] هذا جهاد الدفع.

وأما جهاد الطلب فهو خاص بأمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين

بعث الله نبيهم للأسود والأحمر، أما الأنبياء السابقون؛ فإنهم بعثوا إلى أقوامهم خاصة، فما كانوا يجاهدون لنشر دينهم، وإنما كان الجهاد عندهم دفاعاً، ولذلك ما أحل الله لهم الغنائم، وكانوا إذا انتصروا في معاركهم جمعوا الغنائم في مكان ما، ثم نزلت نار من السماء، فأخذتها، ولذلك قال النبي ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِخَمْسٍ»، وذكر منها: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبى قبلي»^(١).

قال لهم نبيهم: ﴿كَأَلْهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي: أن دواعي القتال موجودة، وهي: أن الأعداء أخرجونا من ديارنا، وأخذوا أبناءنا سبياً، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ثم ذكر الله تبارك وتعالى أن نبيهم قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فجاء الاعتراض، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، اعترضوا لأمرين اثنين: أنهم أحقُّ بهذا الملك، وأن طالوت لم يؤت سعة من المال، فإذا كان الأمر كذلك كيف يكون له الملك علينا، ولا شك أن عنادهم وردَّهم لأقوال الأنبياء وعدم طاعتهم، ديدنهم، وسبب اعتراضهم أن طالوت لم يكن من نسل الأنبياء، وهو أن الأنبياء في ذلك الزمن، كانوا من نسل لاوي بن يعقوب، ولم يكن طالوت كذلك من نسل الملوك، وذلك أن ملوك بني إسرائيل كانوا من نسل يهوذا بن يعقوب، وطالوت على المشهور أنه من نسل بنيامين، أخي يوسف الشقيق، فالملك والنبوة كلها في نسل يعقوب، فبنو إسرائيل كلهم أولاد يعقوب صلوات الله وسلامه عليه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

(١) تقدم تخريجه ص ١٤.

لِقَوْمِهِ، يَنْقُورِ أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا
وَأَتَّخَذَكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [المائدة]، وهذا اختبار من الله
لهم هل يستجيبون لأمر نبيهم أو يعاندون كما هي عادتهم، فلما ردوا
عليه بهذا الكلام أجابهم أن القضية ليست قضية نسل ملوك ونسل أنبياء،
القضية باختصار: هذا السبب الأول الذي من أجله تم اختيار طالوت.

السبب الثاني: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

السبب الثالث: ﴿وَالْحِسْرَةَ﴾ أي: وزاده بسطة في الجسم.

ثم حذرهم قائلاً: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي: ليس الأمر إليكم، الأمر لله، يؤتي ملكه من
يشاء وينزع الملك ممن يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ولكن أين
بنو إسرائيل من هذا؟ نعم استجابوا ولكن بعد تردد وعناد.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

أي: وصل إلى مكان قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]
وقيل: إن هذا النهر يقال له: نهر أدمي بين الأردن وفلسطين.

قال: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]

ثم استثنى: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وذلك أنهم أصابهم
عطش، قال سنمّر على نهر، والله مبتليكم به لا تشربوا منه، لماذا؟ حتى
يختبر طاعتهم، فإذا أطاعوه هنا فسيطيعونه في المعركة، وإذا عصوه هنا
سيعصونه في المعركة، ليس على طريقي، ولا هديي، ولا سنتي، ولا
يتبعني، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، ثم أخذته الشفقة عليهم؛ لأنهم
عطاشي، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ قال الله تبارك وتعالى:
﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذه المعصية الثالثة^(١).

(١) المعصية الأولى: تولي الأغلبية عن القتال، والثانية: معارضتهم لملك طالوت،
والثالثة: شربهم من النهر.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ الذين لم يشربوا أو اغترفوا غرفة بأيديهم ﴿فَقَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أربعة مواقف متصلة كلها فيها كسر وتحطيم للعزيمة وأذى، وأي أذى.

وقيل في كتب التفسير وقصص الأنبياء: إن عدد الذين جاؤوا لنبيهم وقالوا: ﴿أَبَعَثَ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ثمانون ألفاً، ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فنقص العدد.

ثم ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فنقص العدد.

ثم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فنقص العدد حتى صاروا ثلاثمئة وثلاثة عشر، من ثمانين ألفاً لم يبق إلا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً.

ولذلك قال البراء بن عازب رضي الله عنه حدثني أصحاب محمد رضي الله عنهم من شهد بدرأ أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمئة^(١).

وأخرج البخاري كذلك بلفظ آخر: كنا نقول معاشر أصحاب رسول الله ﷺ: إن عدد أصحاب بدر هم عدد أصحاب طالوت^(٢).

قال لهم موسى ﷺ: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة].

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٨).

وقالوا: ﴿يَسُوءُ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وقالوا لعيسى: ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا
مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَنْقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

وفي المقابل ماذا قال أصحاب رسول الله ﷺ: لو خضت هذا
البحر لخضناه معك، لو خضت برك الغماد لخضناه معك، والله لا نقول
لك كما قال أصحاب موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا
قاعدون، ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون^(١)،
ولذلك صار أصحاب رسول الله ﷺ خير أصحاب الأنبياء.

قال الله ﷻ: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ [البقرة:
٢٤٩] والظن هنا بمعنى اليقين القطعي، كما قال الله تبارك وتعالى:
﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي﴾ [الحاقة: ٢٠] أي: اعتقدت اعتقاداً جازماً.
ويأتي الظن بمعنى: الاعتقاد الجازم، ويأتي الظن بمعنى: غلبة العلم
بالشيء.

قال ﷻ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩) ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة]، وجالوت
زعيم العمالق الذين أسروا أبناءهم وأخذوا ديارهم. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا
لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا حَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠) ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة]، إذا القضية
ليست قضية عدد، الثمانون ألفاً عجزوا، وبضعة عشر وثلاثمئة انتصروا،
ليست قضية عدد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) [يس].

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٦٩٠، ٤٠٥٩، ٤٣٦٣)، والبخاري (٣٩٥٢).

بداية داود ﷺ مع بني إسرائيل:

يقول الله ﷻ: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] هنا ظهر اسم داود ﷺ، وكان من الصفوة، من الذين ثبتوا مع طالوت، وهذا يدلنا على أنه يمكن للنبي أن يكون تابعاً لغير النبي، ولكن هذا كان قبل نبوة داود، ولكن مع هذا جعل الله طالوت ملكاً عليهم بأمره ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

داود ﷺ يُؤْتَى الْمُلْكَ وَالنَّبُوَّةَ:

قال الله ﷻ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، المُلْكُ في الدنيا، ملك الدنيا، مَلِكٌ بعد طالوت، وآتاه الحكمة، وهي النبوة.

ذُكر أن داود إنما حضر القتال مع إخوته، وكانوا ثلاثة، وكان داود صغيراً في ذلك الوقت له سبع عشرة سنة فقط، فلما دخل هذه المعركة؛ قيل: إن جالوت خرج إليهم، وقال: من يبارزني؟ وتحدى الناس، فقام داود وقال: أنا له، فأشفق عليه طالوت، وقال: إنك صغير، قال: بل أنا له، قال: إنك صغير، قال: أنا له، قال: اخرج، وذُكر أن طالوت قال له: إن قتله فأنت المَلِكُ بعدي، وأزوجك ابنتي، وهذا جائز، فيجوز للمَلِكِ أن يُحَفِّزَ الجنود بالعطايا، كما قال النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سَلْبُهُ»^(١) يشجعهم.

وخرج داود ﷺ إليه، فلما واجهه نظر إليه جالوت، وقال: أنت صغير كيف تجرؤ أن تقاتلني؟ قال: أنا الذي سيقتلك، فغضب جالوت من هذا الكلام، وأراد أن يضرب داود، فامتنع عن ضربته، ثم رماه

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة ﷺ.
والسَلْبُ: هو ما يكون مع المقتول من سيف، وفرس، ومال، وغير ذلك.

بالمقلاع^(١) على المشهور، فرماه وأصابه، فخرَّ صريعاً قتيلاً، ثم كبر المسلمون، ف وقعت الهزيمة في جيش جالوت.

وداود - عليه الصلاة والسلام - من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، جمع الله له الملك والنبوة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ما مَنَّ اللهُ به على داود عليه السلام:

مَنَّ اللهُ ﷻ على داود بأشياء كثيرة، منها:

أولاً: قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧]، فذكره بداود؛ لأنه كان صابراً، اقتدى بداود، صبر على ما ابتليناه به، وعلى أذى قومه.

ثانياً: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، فوصفه الله أنه كان قوياً، في طاعة الله كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، حتى قال النبي ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»^(٢).

وكان قوياً كذلك في أمره ونهيه وحكمه ومملكه، وكان قوياً في صبره على ما ابتلاه الله ﷻ به، فكان قوياً من كل جهة صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثاً: قال الله عنه: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] أي: رَجَّاع إلى الله ﷻ.

رابعاً: قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا لِجَبَالِ مَعْمَدٍ يَسْتَعِنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، ثم قال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩] الطير كذلك ناديناها

(١) المقلاع: هو أن توضع الحجارة في شيء من الجلد، ثم يديرها، ويرمي بها.

(٢) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو عليه السلام.

لأجله، وكلها أواب؛ أي: رَجَّاع يُرْجَعُ ما يقول، يَسْبُحُ فَتُسَبِّحُ، يذكر الله فتهتز لذكر الله ﷻ، الطير والجبال.

خامساً: قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠] قويناه، قواه من ناحيتين:

الناحية الأولى: جعل هبة لملكه في قلوب الناس جميعاً.

الناحية الثانية: شَدَّ اللهُ مُلْكَهُ بجنده، فكان به جند كثيرون، وحكم أربعين سنة.

سادساً: قال الله عنه: ﴿وَأَيَّتَنُ الْحِكْمَةِ﴾ [ص: ٢٠]، أي: النبوة، وقد قال ﷻ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

سابعاً: أعطاه الله فصل الخطاب، وفصل الخطاب قيل: هو الفهم القوي الثاقب، فإذا جاءت أمامه قضية يعرف كيف يحكم فيها صلوات الله وسلامه عليه. وقيل: حسن الخطاب يتكلم الكلام القليل، وتكون فيه المعاني الكثيرة صلوات الله وسلامه عليه.

ثامناً: أعطاه الله الزبور، ﴿وَأَيَّتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، فَمَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بهذا الكتاب.

ويقول الله ﷻ في تفصيل ما وقع لداود صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٥﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعَ نَفْسٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا ﴿١٦﴾﴾ [صبا: ١٠، ١١]، وقال كذلك: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٩]، هذا التسبيح من الجبال هل هو على حقيقته: كانت تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، أو أنه كناية عن وقوف الطير في السماء مع ذكر داود ﷺ؟

الصحيح الذي عليه أهل العلم أنها كانت تسبح على الحقيقة، وليس هذا على الله بعزيز، الذي أنطق البشر ليس بعاجز عن أن يُنطق

الطير والجبال ﷺ، كما قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال ﷺ: ﴿لَوْ أَرْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال ﷺ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: على الحقيقة ولكن القضية ماذا؟ ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكما قالت النملة: ﴿بِأَيِّهَا أَلْتَمَلُ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِئَنَّكُمْ سَيِّئِنُ وَجُودُهُ﴾ [النمل: ١٨].

وكما ذكر الله تعالى الحجارة فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم مدح الحجارة في مقابلهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] مع أنها حجارة، ولكن الله - جل وعلا - يجعل فيها هذا الإحساس، فتستطيع أن تسبح.

ولذلك النبي ﷺ كان يُخبر عن حجر كان يُسَلِّمُ عليه^(١)، والجذع أن وبكى لفراق النبي ﷺ له لما بُني وصُنع له المنبر صلوات الله وسلامه عليه^(٢).

ألم يُنكر الهدهد على ملكة سبأ أنها عبدت غير الله ﷻ؟

فنحن نؤمن بهذا ونصدقه ونقول: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، أليس يُنطق ﷻ أيدي الكفار وجلودهم فتنتطق بما كانوا يعملون، حتى يقول الكافر لجلده ویده ورجله: تَبَا لَكَرَّنَّ عَنْكَ كُنْتُ أَدْفَعُ^(٣) فتقول له هذه كلها: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

قال رسول الله ﷺ عن أبي موسى الأشعري: «لقد أوتي هذا مزماراً

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة عليه السلام.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٨٥) من حديث جابر عليه السلام.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه (٢٩٦٩، ٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك عليه السلام.

من مزامير آل داود^(١).

قال الله ﷻ عن داود ﷺ: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتْ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا]، ذكر أن داود ﷺ كان يفتل الحديد ولا يحتاج إلى نار أو مطرقة، لأن الله له الحديد كما ألان لغيره العجين، ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ يعني: حلق مقدره، ثم المسامير واجعلها متناسبة، ﴿أَعْمَلَ سَيِّغَتْ﴾ دروع، هكذا أمر الله داود صلوات الله وسلامه عليه.

وقال ﷻ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] في هذه الآية ثلاث قراءات:

القراءة الأولى: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لئحصنكم» [بالتاء] أي: الملابس.

القراءة الثانية: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لئحصنكم» [بالنون] أي: الله ﷻ.

القراءة الثالثة: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لئحصنكم» [بالياء] أي: داود ﷺ.

فإما أن يكون الفاعل هو الله ﷻ «لئحصنكم»، أو داود «لئحصنكم»، أو اللبوس نفسه، «لئحصنكم»، وكلها قراءات ثابتة عن رسول الله ﷺ.

نبأ الخصم:

ذكر الله تبارك وتعالى قصة حدثت لداود، وهي أشهر قصص داود ﷺ:

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَكُ﴾ الخطاب للنبي محمد ﷺ، ﴿وَهَلْ أُنْتَكُ نَبِيًّا أَخَصِمَ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخْرَجْنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَسْطِطُ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَيْنَا نَعْمَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْفُلُطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴿[صر]، هذه فتنة وقعت لداود صلوات الله وسلامه عليه، ذكر أن داود عليه السلام كان قد قسم الأيام إلى ثلاثة: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يعبد ربه تبارك وتعالى، ويوم يُسَيِّرُ به أمور الرعية.

فكان اليوم الذي يتفرغ فيه لعبادة ربه تبارك وتعالى لا يدخل عليه أحد، فقدر الله أن تسور عليه المحراب رجلان، فدخلا عليه فجأة، ففزع منهما وخاف، وهذا الخوف الطبيعي، ولا يضر ولا يعيب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَلْمُوزِيهِ أَقِيلٌ وَلَا تُخَفُّ﴾ [القصص: ٣١].

قال: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، قالوا: لا تخف، خصمان، بغى بعضنا على بعض، قال بعض أهل العلم أنهم كانوا جماعة وليس اثنين والله أعلم، ولكن ظاهر الأمر أنهما كانا اثنين فقط، ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخْرَجْنَا بِسُؤَالِ نَعْمِكَ﴾، فالأول قال: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، أما أنا فلي نعجة واحدة، فقال لي أخي أكفلنيها ماذا تفعل بواحدة، وعزني في الخطاب أي: غلبني في الكلام، لديه حجة، والآن أنا لست راضياً، قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَيْنَا نَعْمَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْفُلُطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، هذا الأصل أنه إذا كانت خلطة يصير فيها الطمع.

قال ﷺ: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي: اختبرناه في هذه القضية، وأين الاختبار؟ قيل: الاختبار أن داود - صلوات الله وسلامه عليه - كان متزوجاً من تسع وتسعين امرأة، ثم صعد يوماً على السطح، فرأى امرأة

حسناً، وهي تستحم، فأعجب بها، فسأل عنها: مَنْ هذه؟ قالوا: هذه امرأة أوريا، فأمر بأوريا أن يخرج مع الجيش للقتال، وأمرهم أن يجعلوه في الصف المقدم، فإذا بدأ القتال يرجعون عنه حتى يُقتل، ويأخذ داود زوجته، وهذه من أكاذيب بني إسرائيل على داود؛ لأنه لا يمكننا أبداً أن نصدق أن الله ﷻ يختار رجلاً ويمدحه بكل تلك الممادح، ثم يفعل مثل هذا الفعل الشنيع، بل هذا لا يقبل من رجل صالح من المسلمين، فكيف يُقبل هذا من نبي كريم كداود صلوات الله وسلامه عليه، فلا شك أن هذا باطل من أصله.

وقالوا: إن القصة فيها لمزاً لداود ﷺ وذلك أن داود لما أخذ امرأة أوريا أرسل الله إليه ملكين، فاجتمعا عنده، فقال الأول: يا داود إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة يعني: أنت يا داود عندك تسع وتسعون امرأة، ولي نعجة واحدة، امرأة أوريا، فغلبني وأخذها، حسدني حتى على هذه الواحدة، فتذكر داود أنه هو الذي فعل هذا الأمر، ﴿وَوَلَّانَ دَاوُدَ إِنَّمَا فِتْنَتُهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وهذا باطل كما ذكرنا.

التفسير الصحيح للفتنة:

والآية عند أهل العلم تحتل معنيين:

المعنى الأول: أنهما هما رجلا نكاحهما، أحدهما له تسع وتسعون نعجة، والآخر له نعجة واحدة، ودخلا على داود وسألاه، وأجابهما بما علم، أو بما ظهر من المسألة، والفتنة كانت في إجابته قبل سماعه للرأي الآخر، سمع الأول الذي قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِي نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص] ولم يقل للثاني: ما رأيك؟ لم يسمع من الطرف الآخر.

وهذا شريح القاضي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جاءه رجل - وقد فُتنت عينه - يقول: إن

فلاناً ضربني وفقاً عيني، فقال: اذهبوا اثتوا بالرجل، قال قائل: ولم؟ المسألة واضحة، عينه مفقوءة، قال: وما يدريك لعل الآخر فُقئت عيناه.

وهذا له جواب: وهو أن داود صلوات الله وسلامه عليه التفت إلى الثاني فسكت، فدل هذا على أنه مصدق لما قال الأول، فحكم بناءً على هذا، أو أن داود صلوات الله وسلامه عليه قال: إن كان كما تقول فقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه إن كان كما تقول، وتكون الفتنة هنا أن داود نجح في هذا، وخرّ راکعاً وأتاب إلى الله ﷻ، فتكون مدحاً.

المعنى الثاني: أنهما ملكان، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، ولذلك تسورا المحراب دون أن يعلم بهما، وهذان الملكان سألا داود اختباراً هل يجيب قبل أن يسمع من الطرف الثاني أو ينتظر حتى يسمع، فتسرّع وأجاب قبل أن يسمع من الطرف الثاني، فاختفيا، فعلم داود أنهما أرادا اختباره وهذا ظاهر، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم، ولذلك استغفر وركع وأتاب؛ أي: رجع وتاب، والله أعلم.

عبادة داود عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأفضل الصيام عند الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»^(١).

وقصة داود لم تنته؛ لأن لها تعلقات مع سليمان صلوات الله وسلامه عليه فنؤجل ما كان مع سليمان إلى قصة سليمان صلوات الله وسلامه عليهما.

(١) تقدم تخريجه ص ٢٩٣.

الدروس والعبر المستفادة من قصة داود عليه السلام

أولاً: إن قهر الله للجبابرة قد يجعله في أضعف خلقه، كما هزم جالوت وجنوده العماليق بثلاثمئة وبضعة عشر، وجعل داود الذي لم يجاوز السابعة عشرة من عمره هو الذي يقتل جالوت.

ثانياً: أن الضعيف لا ييأس من رحمة الله، ولا ييأس من النجاح أبداً، بل قد ينصره الله - جل وعلا - كما فعل لداود مع جالوت.

ثالثاً: انتصار داود لم يُعَيِّرْهُ، بل كان عابداً لله تبارك وتعالى، عارفاً لفضل الله - جل وعلا - عليه.

رابعاً: طاعة الله تعالى وشكره يوجب المزيد، ولما زاد داود من طاعته لله - جل وعلا - زاده الله من فضله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

خامساً: الابتلاء سنة الله في خلقه، للأنبياء وغير الأنبياء، ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُرَكَّبُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت].

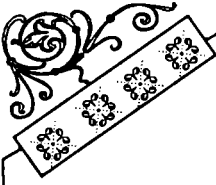
سادساً: احتمال الأنبياء للأذى كما وقع لشمویل صلوات الله وسلامه عليه من بني إسرائيل لما قالوا له: ﴿أَبَقْتَ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

سابعاً: مكانة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مقارنة مع بني إسرائيل.

ثامناً: إمكان اجتماع النبوة والمُلْك في شخص واحد كما وقع هذا لداود عليه السلام.

تاسعاً: أن نعلم أن الله تعالى على كل شيء قدير.





قصة سليمان ﷺ

ذُكر نبي الله سليمان في القرآن سبع عشرة مرة، وقصصه كثيرة وتحتاج إلى وقفات:

أولاً: قصته مع ملكة سبأ.

ثانياً: حاله مع خيله الصافنات.

ثالثاً: فتنته.

رابعاً: بيان ما وهبه الله تبارك وتعالى من المُلْك.

خامساً: ما اتَّهَمَ به من الكفر.

سادساً: بعض أحكامه.

سابعاً: وفاته.

قال الله تبارك وتعالى عن نبيه سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، الوارث هو نبي الله سليمان، والموروث هو أبوه نبي الله داود، وهذا الميراث ليس ميراث مال، وإنما هو ميراث الحكمة، ميراث النبوة، ميراث العلم، بدليل أنه قد عُلم من كتب السير أن داود عليه الصلاة والسلام كان له من الأولاد كثير، حتى إنه قيل: له تسعة عشر ولداً، فكيف يكون الوارث سليمان وحده، ثم كذلك قد نص النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - على أن الأنبياء لا يورثون فقال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»^(١)، وقال: «إن الأنبياء

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة ؓ.

لم يورثوا درهماً ولا ديناراً»^(١)، ثم لو كان الميراث المذكور في السورة من القرآن هو ميراث المال لكان ذكره دون فائدة؛ لأنه معلوم من الضرورة أن الولد يرث أباه، وإنما أراد ميراثاً آخر، ألا وهو ميراث النبوة، والعلم، والحكمة.

من فضائل سليمان ﷺ:

وامتاز نبي الله سليمان بالفطنة والحكمة في معالجة الأمور، وكذلك بالعدل بين الرعية، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصته لما مرَّ على وادي النمل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل]، وهذا كلام بين النمل تفهمه النمل، وهب الله تبارك وتعالى نبي الله سليمان موهبة ألا وهي أنه يفهم منطق الطير، كما قال: ﴿عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

قالت نملة تخاطب النمل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨] أي: خشية أن يحطمكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، ثم اعتذرت له، وقالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لا يقصدون إيذاءكم؛ لأنه ليس من هدي الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - أن يتعرضوا إلى إيذاء أحد، بل جاؤوا مشاعل نور، وجاؤوا بالخير العميم، فكيف يكون منهم هذا الإيذاء، فاعتذرت له تلك النملة، سمع وفهم صلوات الله وسلامه عليه كلامها، فتبسم ضاحكاً من قولها، ثم شكر الله - جل وعلا - على ما وهبه من هذه النعمة، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، ولم ينس كذلك ما أنعم الله به على والده بالنبوة، فقال: ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه في (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة إحدى قوائمها» - على ظهرها ورافعة إحدى قوائمها - وفي رواية: «تستسقي، تدعو الله أن يسقي الأرض، فقال: ارجعوا، فقد كُفِيتُم بدعاء هذه النملة»، وفي رواية: «ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»^(١)، وجاء عن الزهري مرسلًا أن هذا النبي هو سليمان صلوات الله وسلامه عليه، وهذا أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»^(٢).

قصة سليمان ﷺ مع ملكة سبا:

قال ﷺ: ﴿وَنَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِك لَّا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَّابِينَ﴾^(١) لَأَعَذِبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ^(٢) [النمل] وهذا يدل على أنه ذا رعاية وعناية بجيشه ﷺ، ومن حُزْمِهِ وحسنِ نظامِهِ، تفقد جنده، ومن هؤلاء الجند: الطير، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحِثْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٧]، كل هؤلاء من جنود سليمان صلوات الله وسلامه عليه، كيف يغيب الهدد دون أن يستأذن، ولذلك رتب عليه العقوبة، فقال: ﴿لَأَعَذِبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا من عدله صلوات الله وسلامه عليه، وهو أنه إن كان له عذر؛ فإنه يعذر بهذا العذر الذي يقدمه.

قال تعالى: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] مَنْ الَّذِي مَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ؟ يحتمل معنيين:

(١) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٧٣٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٣٧/٣).

(٢) «تاريخ دمشق» (٢٢/٢٨٨).

المعنى الأول: أن الذي مكث غير بعيد هو سليمان عليه السلام، حتى جاءه الهدهد بالخير.

المعنى الثاني: أن الذي مكث غير بعيد هو الهدهد، فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحْطُ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢].

وهذا يبين أن هذه الطيور تعلم علم اليقين أن الذي لا يغيب عنه شيء هو الله تعالى، وأما غير الله - جل وعلا - من مخلوقاته فإنه لا يعلم الغيب، ولو كان نبياً كريماً كسليمان الذي ملك الأرض^(١)، ولم ينكر عليه نبي الله سليمان هذه المقالة؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لم يحط بكل شيء، ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يُبْكَرُ بِهَا الْيَقِينُ﴾ [النمل: ٢٢] سبأ مدينة معروفة في اليمن، وسليمان كان في بيت المقدس، هذا هو السبب الذي تغيب لأجله، فأراد - أولاً - أن يبين أنهم ليسوا أناساً عاديين، وليست مملكة صغيرة حتى يظهر لنبي الله سليمان عظم الجرم، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل]، هدهد وأنكر عليهم غاية الإنكار أنهم عبدوا غير الله، فدل هذا على أن هذه الطيور وهذه الحيوانات موحدة لله تبارك وتعالى، بل ومسبحة لله - جل وعلا - : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذه الحيوانات تحبّ المؤمنين، وتبغض الكافرين المكذبين للمرسلين.

(١) ملوك الأرض أربعة، اثنان مسلمان، واثنان كافران: فالمسلمان: ذو القرنين وسليمان عليه السلام، والكافران: النمرود وبختنصر.

جاء هذا الهدهد بهذا الخبر، وهو يحتمل الصدق والكذب، ولذلك لم يقل له: كذبت، ولم يقل له: صدقت؛ لأنه غيب بالنسبة لنبي الله سليمان، ﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٧]، أصدقت فيما تقول، أم تكذب لتنجو من العذاب والذبح: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]، لم يبين لنا ماذا كتب، ولكن سيتبين لنا عندما تقرأه ملكة سبأ، ذهب الهدهد بالكتاب، ألقاه إليهم، تعجبوا!! طير يأتي بكتاب!! أخذت الكتاب الملكة، فقرأته ثم جمعت كبار القوم وهم الملأ، ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّي أَخْتَارُ أَلْتَفَىٰ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]، وقالت عن الكتاب: إنه كريم؛ لأنها تعرف أن سليمان كان من أكبر ملوك الأرض ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٠]، فكان سليمان كان معروفاً عندهم ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] دل على أنه يستحب للإنسان إذا قدم أو أراد أن يكتب كتاباً أن يقدم بين يديه هذه البسمة.

وذكر فيه: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٦] عبارة مختصرة وجيزة كاملة البيان، وخير الكلام: ما قلّ ودلّ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٢٦]، وهذا يدل على كمال عقلها ورجحانه، ماذا ترون، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٢٦]، إن شئت حرباً فنحن أولوا قوة، وأولوا بأس شديد، وإن شئت سلماً، فالأمر إليك، فانظري ماذا تأمرين، قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤] سبي، وقتل، وسجن، ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَازَهُمْ أَهْلِيًا أَدَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أي: هذا هو ديدن الملوك وهذه عادتهم؛ لأنها لا تعرف إلا الملوك الذين من هذا الصنف، فأرادت أن تجرب هذا الملك، وما كانت تسمع عنه من عدله - صلوات الله وسلامه عليه -، ولذلك وصفت كتابه بأنه: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، فدعوا الحرب، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]

[النمل]. قال أهل العلم: أرادت بهذه الهدية أن تعرف أهو من ملوك الدنيا الذين يريدون جمع المال، والخدم، والحشم، وما شابه ذلك، أو أن الأمر غير ذلك؛ لأنه إنما قال لهم: ائتوني مسلمين، فهو دعاهم إلى الله تبارك وتعالى.

جاءت الرسل إلى سليمان بالهدية، فلما جاء سليمان - أي: الرسول الذي أرسلته ملكة سبأ - غضب سليمان، أنا ما طلبت هدايا، أنا طلبت ألا تعلوا علي، وأن تأتوني مسلمين، ولذلك قال: ﴿أَتُؤْتُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ﴾ [النمل: ٣٦]، ولم يقل: ما عندي خير مما عندكم، وإنما قال ما أتاني الله خير مما آتاكم، فالذي عندكم من الله، والذي عندي من الله، والله أعطاني خيراً مما أعطاكم، فقال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل]، ارجع إليهم أي: بالهدية، وارجع بهديتهم، فأبلغهم ما كان من سليمان، وما قال، فعرفت ملكة سبأ أنه نبي، وأنه ليس ممن يريد الهدايا.

والتفت سليمان بعد أن أرجع الرسول بهديته، قال للذين حوله: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْمَلِكِ أَتْيُنَ يُرِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] من يستطيع أن يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال أهل العلم: وسليمان إنما عرف أنهم سيأتونه مسلمين، لما رأى من رجحان عقلها أنها أرسلت الهدية، ولم تعلن حرباً عليه صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك رأى من رجحان عقل هذا الرسول الذي جاءه، وسمع منه فظن أنهم سيأتونه مسلمين، وهذا مما غلب على ظنه صلوات الله وسلامه عليه، فقال لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] إذ إنه قد بلغني أنهم سيخرجون وسيأتون مسلمين، أو أنهم خرجوا، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل]

قالوا: العفريت هو شديد القوى، يقال له: عفريت، والجن فيهم المسلمون، وفيهم الكافرون، وكلهم مُسَخَّرُونَ لسليمان، مؤمنهم وكافرهم، كما قال الله تبارك وتعالى: وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير. وأما كفار الجن فقال فيهم: ﴿وَأَخْرَجَ مَقَرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص].

قال هذا العفريت - والأكثر على أنه كافر ولكنه خادم، رغباً عنه -: ﴿أَنَا عَائِكَ بِهِ﴾ أي: العرش ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قالوا: مقامه من بعد الشروق إلى الزوال، وقت الضحى، يجلس ويسمع من الناس مشاكلهم، ويقضي بينهم، وينظر في حاجاتهم، خلال هذه الساعات القصيرة القليلة، وهم في اليمن وأنت في الشام، ثم حتى لا يظن أحد أن هذا مجرد كلام قال: ﴿وَأِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل] قال الذي عنده علمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا عَائِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿[النمل] قالوا: هو أبعد ما يصل إليه النظر، إذا بلغه يكون العرش عنده، أو عندما يرمش، ولا شك أن هذا شيء عجيب، ولذلك ما قال: اذهب واثت به، وإنما رتب عليه الحصول: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠] ولكن من هذا الذي قال: ﴿أَنَا عَائِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؟

لأهل العلم أربعة أقوال في هذا القائل:

القول الأول: إن القائل رجل صالح من بني آدم، يقال له: آصف، وكان من المقربين لنبي الله سليمان، وأنه سأل الله - جل وعلا - باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أجاب.

القول الثاني: إن القائل هو جنّي مؤمن، لما قال العفريت من الجن: ﴿أَنَا عَائِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]، قام جنّي مؤمن فقال: ﴿أَنَا عَائِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

القول الثالث: إن القائل جبريل عليه السلام أو ملك من الملائكة آخر، وذلك أنه لما قام هذا العفريت، وقال أمام الناس: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، كأنه يفتخر بقوته، وقدرته نزل جبريل من عند الله تبارك وتعالى: فقال له: يا سليمان لا يغرنك هذا، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

القول الرابع: إن القائل سليمان، وأراد أن يختبر قوتهم وقدرتهم، حتى يظهر لهم فضل الله عليه، فقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [٣٨] قَالَ عَفْرَيْتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ [٣٩] قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴿النمل: ٤٠﴾ وهو سليمان، ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ﴾ [النمل: ٤٠] فسليمان يخاطب عفريت الجن، فيقول له: إن كنت تأتيني به قبل أن أقوم من مقامي أنا آتيك به بهذه السرعة.

وكل هذه الأقوال محتملة، وليس هناك نص قاطع من عند الله - جل وعلا - أو من عند الرسول صلى الله عليه وسلم يحسم هذه المسألة، ولا يهم، المهم أنه رآه مستقراً عنده خلال لحظات صلوات الله وسلامه عليه.

سليمان عليه السلام يُري آية:

قال سليمان عليه السلام: ﴿تَكْرُورًا لِّمَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١] نكروا لها عرشها، زادوا ونقصوا، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ نظرت إليه وإذا هو عرشها ثم توقفت لأن فيه تغييرات ولذلك أتت بعبارة محتملة، وهذا أيضاً دليل على فطنتها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]، لم تقل ليس هو من شدة الشبه، ولم تقل هو للتغير الذي حدث فيه ثم للبعد، فالمسافة بعيدة هي في سبأ والآن جاءت إلى الشام.

سكت سليمان عليه السلام ثم قال لها: ادخلي الصرح، ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤]، الصرح: المجلس الكبير العظيم لسليمان عليه

الصلاة والسلام، من القائل؟ إما أن يكون القائل سليمان ﷺ، وإما أن يكون القائل من وُكِّل بها لأن هؤلاء الملوك يوكل بهم من يقوم بشؤونهم، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِيبَتُهُ لُجَّةً﴾ [النمل: ٤٤] حسبته ماء، ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرَخٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤] ليس ماء، ولكنه ممرد بالقوارير، قيل إنه جاء إلى البحيرة وعمل فوق البحيرة قوارير، يعني الأرضية شفافة، يرى ما تحتها، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

براءة سليمان من فرية باطلة:

هنا قول الله تبارك وتعالى ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِيبَتُهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا﴾ [النمل: ٤٤] ولماذا كشفت عن ساقها؟ تظنه ماء فرفعت الثوب، قال بعضهم: تعمد سليمان أن يدخلها هذا المكان يريد أن ترفع ثوبها حتى يرى ساقها؛ لأنهم قالوا له: إن ساقها فيه شعر كثير كأنها رجل، فأراد أن يرى ذلك بأم عينيه وهذا كذب وزور، فليس هذا من خلق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بل هذه من الإسرائيليات المكذوبة على نبي الله سليمان ﷺ.

قال: ﴿إِنَّهُ صَرَخٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، وما رأت من عرشها والكتاب الكريم الذي جاءها من سليمان وأنه لا يريد منها دنيا وما أكرمها به وما رآته من حاله وكيف يخدمه الإنس والجن والطير، عند ذلك علمت علم اليقين أنه نبي ولذلك قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وهذا دليل على أن جميع الأنبياء إنما جاؤوا بالإسلام، من لدن نوح عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ، وإنما اختلفوا في الشرائع أما الإسلام فدين الله الذي لا يتغير كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهل تزوجها سليمان صلوات الله وسلامه عليه، وهل كان اسمها بلقيس؟ العلم عند الله، كل ما قيل فهو رجم بالغيب، ويحتمل أن سليمان عليه الصلاة والسلام تزوجها، ويحتمل أن اسمها بلقيس.

سليمان عليه السلام والصفانات الجياد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣١) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣٢) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ (٣٣) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٤) [ص] يخبر الله تبارك وتعالى، عن قصة حدثت لنبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيَّ﴾ عرض على سليمان وهو الملك، والعشي من زوال الشمس إلى غروبها، يقال عن صلاة الظهر وصلاة العصر: صلاتا العشي. ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ الصافن من الجياد هي التي تقف على ثلاثة أرجل والرجل الرابعة تقف على طرف حافرها، وقفة يحبها أهل الخيل، وقفة فيها نوع من التكبر، فيُخبر الله تبارك وتعالى عن خيل سليمان أنها كانت صافنات جياد، فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ الخير اسم من أسماء الخيل، ولذلك قال النبي ﷺ: «في نواصيها الخير»^(١) ولما جاء زيد الخيل للنبي ﷺ قال: «أنت زيد الخير»^(٢) وقيل: لها الخير لأنها تأتي به. سماها بما تأتي به، فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ (٣٣) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص] أربعة أقوال لأهل العلم في تفسير هذه الآية:

الأول: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ﴾ أي: الخيل ﴿بِالْحِجَابِ﴾ يعني: تمشي أمامه حتى بعدت عنه، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾: ردوا

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤١٥)، وضعفه الشيخ الألباني.

الخييل علي مرة ثانية، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾، يمسح عنها الغبار، وهذا لشدة عنايته بالخييل.

فيكون معنى «عن» هنا أي «مِنْ» وأحرف الجر تتناوب، فيكون قوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢] يعني: الخيل، (مِنْ ذكر ربي)؛ أي: أن هذا مِنْ ذكر ربي؛ لأنها كانت تُعَدُّ للجهاد، ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أي: الخيل بعدما عرضت عليه تمشي وتجري ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۗ ۞ رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ ولفرحه وحبه لها صار يمسح بسوقها وأعناقها، وهذا اختاره ابن جرير^(١)، والرازي^(٢).

الثاني: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْخَيْلُ حَتَّى شَغَلْتَنِي هَذِهِ الْخَيْلُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي، ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] أي: الشمس، ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ ردوا الشمس عليّ حتى أصلي الصلاة في وقتها، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] أي: بعد ذلك قتل الخيل.

الثالث: نفس الثاني تماماً، ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۗ ۞ رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ الخيل وليس الشمس، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] أي: قتل الخيل^(٣).

الرابع: لما عرضت عليه بالعشي الصافنات الجياد قال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: مِنْ ذكر ربي ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي: الخيل ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ أي: الشمس، وهذا بعيد جداً.

وكذلك القول بأنها حتى توارت الشمس بالحجاب ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ أي: ردوا الشمس عليّ وهذا أيضاً بعيد.

بقي قولان، وهما أشهر قولين عند أهل العلم.

(١) «تفسير الطبري» (١٩٦/٢١). (٢) «مفاتيح الغيب» (١٨٩/١٣).

(٣) الرد هنا للخيل، وفي الثاني الرد للشمس.

القول الأول: قلنا اختاره ابن جرير والرازي وغيرهما وهو أنه: ما فاتته صلاة ولا شيء أبداً، وإنما عُرضت عليه الخيل صلوات الله وسلامه عليه، وتوارت أي: الخيل، وتبقى إشكالية في ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] قالوا: (عن) هنا بمعنى (من)، فهي مِنْ ذَكَرَ رَبِّي، واستدلوا على هذا بأدلة منها:

أولاً: قالوا: الخيل مذكورة ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخَيْلُ﴾ [ص: ٣٢] والشافنات الجياد هي الخيل، ﴿فَقَالَ إِنَّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: الخيل ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أيضاً الخيل، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أيضاً الخيل، فأين ذُكرت الشمس؟ لا ذكر للشمس في الآيات أبداً فمن أين أتيتم بقضية الشمس؟

ثانياً: لا يليق بالأنبياء أن يؤخروا الصلاة وتشغلهم الدنيا أو النظر في الخيل عن أداء الواجبات.

ثالثاً: الأصل أن يعود الضمير إلى أقرب مذكور، ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخَيْلُ﴾ الخيل ﴿فَقَالَ إِنَّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢] الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ﴾ المفروض: الخيل ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الخيل.

رابعاً: إذا فاتته الصلاة فلماذا يعاقب الخيل ويقتلها؟ وما ذنب الخيل؟ لأنه هو الذي فاتته الصلاة، بل كان عليه أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى.

خامساً: وأما مسحه عليها تشريفاً لها وتكريماً، أو أنه مسح صلوات الله وسلامه عليه لتواضعه مع أنه الملك أو أنه كان عليماً بأحوال الخيل فكان ينظر إليها هل هي مريضة، حتى يطمئن عليها.

القول الثاني: اختاره الحافظ ابن كثير^(١) وغيره من أهل العلم

(١) تفسير ابن كثير (٦٦/٧).

قالوا: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ﴾ الخيل ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ الخيل ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أي: الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: الخيل ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ عرقبها وقتلها، وما الدليل على هذا القول؟ قالوا:

أولاً: قوله - جل وعلا - ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ﴾ ذكر العشي له معنى، والعشي هو وقت الزوال إلى الغروب، فلما ذكر العشي ثم توارت بالحجاب إذاً هي الشمس لارتباط الشمس بالعشي، ثم كذلك قوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾، «عن» على ظاهرها، والأصل أنها عن ذكر ربي وليس من ذكر ربي، فهي شغلته عن ذكر ربه تبارك وتعالى، قالوا: ويحتمل أنها صلاة العصر ويحتمل أنه ورد كان يصليه، وليس شرطاً أن يكون ترك واجباً، لكن ممكن أن يكون ترك أمراً مستحباً، والأصل أن تؤخذ الآية على ظاهرها ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ ولماذا قتلها إذا؟ قالوا: قتلها، وأمر الناس أن يأكلوها، ولماذا فعل ذلك؟ قالوا لثلاث تشغله مرة ثانية، ولذلك جاء عن عمر رضي الله عنه أنه لما تأخر عن الصلاة تبرع ببستانه لثلاث يشغله مرة ثانية عن الصلاة، فقالوا: فعل ذلك سليمان حتى لا تشغله مرة ثانية عن الصلاة، قالوا: وقد يكون هذا سائغاً في شريعتهم لأن الشرائع تختلف، بل قد جاء في شريعتنا ما يؤيد ذلك، وذلك لما ذهب النبي ﷺ إلى تبوك ومروا بمدائن صالح طبخوا في القدور، فأمر بكسر القدور وإراقة الطعام صلوات الله وسلامه عليه حتى قالوا له: أو نغسلها ولا نكسرهما، فقال: اغسلوها. لكن أمر بإراقة الطعام؛ لأنهم لا يجوز لهم أكله، ومع هذا أمر بكسر تلك القدور^(١)، ودليل ذلك أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ولذلك جاءت الآية التي بعدها أن الله عوضه بالريح، ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥٩٤٨)، وليس فيه الأمر بكسر القدور، ومسلم (٢٩٨١).

أَصَابَ ﴿٦٦﴾ [ص] فلما ترك الخيل لله - جل وعلا - عوضه الله بالريح، والريح أقوى من الخيل وأسرع ولا تحتاج مؤونة ولا كلفة ولا عناية ولا شيء، فعوضه الله خيراً من الخيل لما تركها لله - جل وعلا - .

فالقصد أن كلا الأمرين محتمل، يحتمل أنه أراد حتى توارت بالحجاب: الشمس، ويحتمل حتى توارت بالحجاب الخيل والعلم عند الله - جل وعلا - .

الكلام على فتنة سليمان ﷺ:

قال الله - جل وعلا - : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ [ص] وهذا على سنة الله - جل وعلا - كما قال: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُرَكَّبُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت] إذا الفتنة سنة جارية .

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ [ص] ما الجسد الذي ألقى على كرسيه؟

القصة الأولى: وهي قصة مكذوبة باطلة، زور وبهتان، قالوا: إن سليمان ﷺ كانت قوته وملكه في خاتمه، ولذلك اشتهر عند الناس: «خاتم سليمان»، وأنه بدون هذا الخاتم لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وكان لا يدخل به إلى الحمام، فأراد يوماً أن يدخل الحمام فأعطاه زوجته جرادة، فجاءها الشيطان وتصور بصورة سليمان، فقال لها: أين الخاتم، فأعطته الخاتم، فلبسه الشيطان ثم صار هو الملك، الكلُّ يخدمه وسُخِّرَ له الريح وسُخِّرَ له كل شيء، فلما خرج سليمان قال: أين الخاتم؟ قالت: أأست أخذته، فذهب يهيم على وجهه وحكم الشيطان مدة طويلة مكان سليمان عليه الصلاة والسلام حتى ذهب يوماً إلى البحر، فاصطاد سمكة وفتحها فوجد الخاتم فيها وكان الشيطان ألقاه في البحر، فلبسه وعاد له ملكه، قالوا هذه فتنة سليمان، وهذه قصة باطلة وزور؛ لأن

الشیطان لا یمكن أن یتمثل بصورة سلیمان ﷺ، ولذلك قال النبی ﷺ: «إن الشیطان لا یتمثل بی»^(١) أي: لا یمكن أن یتمثل بصورة الأنبیاء وإلا كان الأمر فی غایة الفوضى یتشكل الشیطان بصورة نبی ویأتي بأمر الناس بالكفر، ویأمرهم بمعصیة الله تبارك وتعالی ولا یعرف الناس هل هذا نبی أو شیطان.

الكلام الصحيح فی فتنة سلیمان ﷺ:

قال سلیمان ﷺ: «لأطوفن اللیلة علی تسعین امرأة تأتي كل واحدة منهن بفارس یقاتل فی سبیل الله» یعنی: من زوجاته.

قال رسول الله ﷺ: «ولم یقل إن شاء الله» نسی أن یقول إن شاء الله «فولدت واحدة منهن نصف إنسان»^(٢)، وهو الصحیح، وأن الذی أُلقي علی كرسي سلیمان هو هذا الصبی الذی هو نصف آدمي، ثم أناب: أي رجع إلى الله ﷻ؛ لأنه نسی أن یقول إن شاء الله.

سلیمان ﷺ یرید الدنیا لتعینه علی آخرته:

قال سلیمان بعد ذلك صلوات الله وسلامه علیه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] طلب ملكاً لا یكون لأحد من بعده.

وقد یسأل سائلٌ كيف یطلب نبی الله الدنیا، والمعلوم أن أنبیاء الله ﷺ أزهّد الناس فی الدنیا.

فالجواب: أنه ما أراد الدنیا لأجل الدنیا وإنما أراد الدنیا لیتقرب بها إلى الله تبارك وتعالی، وهذا حق، ولذلك كان سعد بن عبادة ﷺ

(١) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهو المعروف بسيد الخزرج الذي منذ أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة إلى أن توفاه الله - جل وعلا - قريباً من عشر سنين، ما مر يوم كما ذكر أهل السير إلا وسعد بن عباد يهدي للنبي ﷺ في كل يوم، وذكروا أنه من دعائه ﷺ: «اللهم إني لا أصلح للفقير ولا يصلح لي الفقر، فاللهم أغنني من فضلك» وذلك أنه كان كريماً ﷺ، وسليمان صلوات الله وسلامه عليه ما أراد الدنيا للتكثُر منها.

ولكن كما مر بنا في الحديث السابق أنه قال: «لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن مجاهداً يقاتل في سبيل الله تبارك وتعالى»، إذاً إنما طلب مُلك الدنيا صلوات الله وسلامه عليه ليقيم الحق، ليقيم الدين، لينشر العدل، كما قال أخوه ﷺ: ﴿أَجْعَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: 55] فهذا جائز لا شبهة فيه.

واستجاب الله تبارك وتعالى دعاء نبيه سليمان، وما أنكر عليه هذا الدعاء؛ لأنه الله ﷻ عرف لماذا طلب سليمان الملك فقال - جل وعلا -: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 36] وقال في آية أخرى: ﴿وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: 81] وقال: ﴿وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاحُهاً شَهْرٌ﴾ [سبا: 12]، كانت الريح تتجه حيث أراد نبي الله سليمان صلوات الله وسلامه عليه من بلاد الشام المباركة، قال قتادة: «تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر في يوم واحد»، تغدو: أي فترة الغدو في الفجر مسيرة شهر، تقضيها في هذه الفترة القصيرة، كذلك مسيرة شهر في الرواح وهو عودة الطيور إلى أوكارها بعد غدوها كما قال النبي ﷺ: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(١).

وذكر الله تبارك وتعالى أنه مما أعطى سليمان صلوات الله

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وهو في «صحيح الجامع» (٥٢٥٤).

وسلامه عليه ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ﴾ [سبا: ١٢] وهي عين من نحاس أسألها الله له وذكر أنها كانت في اليمن، أسيلت له ثلاثة أيام، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبا: ١٢]، الجن خدم بين يدي سليمان صلوات الله وسلامه عليه، على مختلف أشكالهم مؤمن الجن وكافر الجن، كلهم يعملون تحت يديه، إما أن يعمل باختياره وإما أن يُرغم على العمل وإما أن يسجن، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٢] يعملون لله ما يشاء من تحريك وتمثيل وحفان كالجواب [سبا]. الجفان هي: الصحون الكبيرة، ﴿كَلِّجَابِ﴾: كالحياض، والحياض هي أماكن شرب الإبل، ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ القدر الذي يعمل فيه الطعام، ﴿رَاسِيَتٍ﴾ أي ثابتات، قدور كبيرة ثابتة، وقال الله - جل وعلا - عن الجن بل عن شياطين الجن وهم الكفرة من الجن: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءُ وَعَوَاصٍ﴾ [ص] بعض الجن من الشياطين بناؤون يبنون لسليمان وآخرون غواصون يغوصون في البحر يخرجون له درر البحر، قال: ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص] وهم الذين يعصون أمره يكبلهم ويقيدهم في الأصفاد.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ فصلى إحدى الصلوات، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله» وكرر هذا ثلاث مرات، ثم بسط يده كأنه يُمسك بشيء فلما فرغ من الصلاة؛ قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك فقال صلوات الله وسلامه عليه: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمعه في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله ثلاث مرات، فلم يستأخر» يعني: ما ابتعد الشيطان يقول: «ثم أردت أخذه» يعني: لما بسط يده صلوات الله وسلامه عليه «والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً»، يعني:

لأمسكته وأوثقته، «يلعب به ولدان أهل المدينة»، تذكر دعوة أخيه سليمان ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَدَائِي﴾ [ص: ٣٥] (١)، وتركه تأدباً مع أخيه سليمان صلوات الله وسلامه عليهما.

ما اتهم به سليمان من الكفر:

ذكر أهل التفسير أن نبي الله سليمان كان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، وذكروا أنه كان يدفنه تحت كرسية صلوات الله وسلامه عليه، وكانت الشياطين تعجز عن أن تصل إلى هذا السحر، فلما مات صلوات الله وسلامه عليه قالت الشياطين: إن سليمان كان يسخر الريح والشياطين بالسحر الذي يدفنه تحت كرسية، يعني: هو الذي كان يعمل السحر، وكان الناس على قولين، بين متهم لنبي الله سليمان وبين مبرء له، أيصدقون ما تقوله الشياطين عن نبي الله سليمان أنه فعلاً كان يستخدم السحر الذي وجدوه تحت كرسية أو أنهم يكذبون عليه.

وأتهم كذلك بتهمة ثانية ﷺ، وهي أنه عبد الأصنام، وهذا ما اتهمه به اليهود جاء في العهد القديم وهذا في سفر الملوك الإصحاح الحادي عشر: «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروش إلهة الصدونيين وملكوم رجس العمونيين وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المأبئين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولملوك رجس بني عمول، وهكذا فعل لجميع نساته الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان؛ لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين»، إلى آخر هذا الهذيان وهذا الكفر

(١) أخرجه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ، وبنحوه البخاري (٤٦١)، ومسلم

(٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الذي طفح به هذا الكتاب، وهو ما يسمونه التوراة وهم كذبوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا على سليمان وحرفوا وزوروا في هذه التوراة.


استمر هذا الاتهام لسليمان عليه الصلاة والسلام هل كفر صلوات الله وسلامه عليه أم أنه بريء؟ استمر هذا الأمر حتى برأه الله - جل وعلا - على لسان محمد ﷺ حينما أنزل الله قوله - جل وعلا -: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] هذا الذي يسمى بالتولة، وقال النبي ﷺ: «التولة شرك»^(١)، والتولة هو السحر الذي يصنع للزوجين إما لتقريب القلوب وإما لتفريقها، يقول الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: في دينهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبَسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فبرأ الله ﷻ سليمان ﷺ مما اتهم به من السحر، فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ [البقرة: ١٠٢] الذين اتهموه وكذبوا على الناس هم الذين كفروا، لأنهم هم الذين كانوا يعلمون الناس السحر.

بصيرة سليمان ﷺ في الحكم:

الحكم الأول: في قول الله - جل وعلا -: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء] قضية طرحت على

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠) من حديث ابن مسعود ؓ، وهو في صحيح الجامع، (١٦٣٢).

نبي الله داود عليه السلام أن رجلين جاءا لنبي الله داود عليه السلام، فقال أحدهما له: إن غنم هذا دخلت إلى حقلي، وأفسدت زرعي، قال: ﴿نَفَشْتُ﴾ ولم يقل عاثت فساداً، ولم يقل دخلت، وإنما قال: ﴿نَفَشْتُ﴾، هذا معناه أنها دخلت ليلاً، والإنسان مسؤول عن إبله وغنمه ودوابه ليلاً، وغير مسؤول عنها نهاراً، ففي النهار يجب على صاحب المزرعة أن يحمي مزرعته؛ لأن هذه دواب وبهائم يتركها صاحبها ترعى، وعلى صاحب الدواب أن يمنعها من الخروج ليلاً، فهذا تركها تخرج ليلاً، فأفسدت حقل صاحبه، فقال له نبي الله داود: ما تقول؟ قال: هو كما قال، فسأل نبي الله داود عن قيمة هذا الزرع، فذكر له مبلغ، ولنفرض أنه أربعون ألفاً، فنظر في الغنم كم قيمتها؟ فإذا قيمة الغنم كقيمة ما أفسدت، يعني كانت قيمتها أربعين ألفاً، فقال: خذ غنمه مكان ما أفسد من الزرع، هذا حكم داود عليه السلام، وهو صواب، فلما حكم داود عليه السلام سكت الرجلان وقبلا، وكان ملكاً قاضياً.

وهنا تدخل سليمان، وقال: يا أبي تسمح لي أن أحكم؟ قال: نعم احكم، قال: يأخذ صاحب المزرعة غنم هذا الرجل فيستفيد منها في الفترة التي يقوم صاحب الغنم بإصلاح المزرعة كما كانت، يعني: صاحب الغنم يصلح المزرعة، وخلال فترة إصلاحه المزرعة حتى لا يتباطأ في إصلاحها ولا يتماهل يأخذ صاحب المزرعة الغنم فيستفيد من لبنها خلال هذه الفترة، ثم بعد ذلك يعيد له المزرعة كما كانت ويعيد له الغنم كما كانت، فيتحمل هذا ما أفسدت الغنم في العمل على إصلاح هذه المزرعة، ويستفيد صاحب المزرعة الفترة التي أفسدت فيه مزرعته يستفيد من لبن الأغنام، ففرح داود بهذا الحكم، فحكم داود صحيح وحكم سليمان أصح، لذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾  فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ [الأنبياء] أي: فهمنا سليمان الحكم الأصح في هذه

المسألة، ثم حتى لا يعيب أحد على داود ﷺ حكمه؛ قال - جل وعلا -: ﴿وَكَلَّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

الحكم الثاني: أخبر النبي ﷺ أنهما كانتا امرأتان معهما ابناهما، هذه لها ابن وهذه لها ابن، فجاء الذئب فأكل أحدهما، فاختصمتا كل واحدة تقول: الذئب أكل ابن الأخرى، فاختصمتا عند داود صلوات الله وسلامه عليه، فصار يسألهما، سأل هذه وسأل هذه، ثم بعد ذلك تبين له من خلال ما سمع صلوات الله وسلامه عليه أن الابن الذي أخذه الذئب هو ابن الصغرى وقضى بالابن للكبرى، وكان سليمان حاضراً فقال: يا أبي أحكم بينهما؟ قال: نعم احكم بينهما، وكان يرى فيه النجابة والعلم والفهم، فأمر بالسكين فأوتي بها فقال: سأقطع الولد نصفين لأنه يحتمل أن الذئب أخذ ابن الكبرى، ويحتمل أنه أخذ ابن الصغرى، فإن أعطيناه الكبرى أو أعطيناه الصغرى ظلمنا الأخرى إذا كان خطأ وليس هناك دليل قاطع يحكم من خلاله أهو للكبرى أو للصغرى، فقال: فقالت الكبيرة: نعم لا مانع اقطع، أما الصغرى فقالت: لا تفعل هو ابنها، فعرف سليمان صلوات الله وسلامه عليه أن الابن للصغرى وذلك أن شفقة الأم ظهرت ولو كان ابن الكبرى لم تقل اقطعه^(١).

القضية الثالثة: التي قضى بها سليمان وهي من مرويات بني إسرائيل، ليست في القرآن ولا في السنة، ومرويات بني إسرائيل نقول فيها: لا نُصَدِّقُ وَلَا نَكُذِّبُ، ونقول: الله أعلم.

وهذه القصة مفادها أن امرأة من بني إسرائيل حسناء راودها أربعة من رؤسائهم عن نفسها، فأبت عليهم، فذهب هؤلاء الرؤساء إلى داود عليه الصلاة والسلام قالوا: إن هذه المرأة عندها كلب دربته تدريباً،

بحيث أنه يفعل معها الفاحشة، ورأيناها تفعل الفاحشة مع الكلب، فأمر برجمها.

وقد يقول قائل: أين حكم داود عليه الصلاة والسلام؟ وفي الغنم فهمها سليمان وفي الولد أيضاً فهمهم سليمان، والآن هنا أمر بقتلها وهي بريئة، نقول: لا ننسى أن الأحكام التي حكم فيها داود وأصاب صلوات الله وسلامه عليه كثيرة، حيث حكم أربعين سنة وهذا إن صحت هذه القصة، وبالنسبة للغنم قلنا: إن حكم داود صحيح وحكم سليمان أصح، وأما في الغلام، فهو كما قال النبي ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحكم له، فإذا قضيت له فإنما هي جمرة من النار فليأخذها أو ليدعها»^(١) فالنبي صلوات الله وسلامه عليه سواء كان محمداً أو داود أو سليمان أو غيرهم من الأنبياء لا يعلمون الغيب، الذي يعلم الغيب هو الله - جل وعلا -.

لما شهد هؤلاء الأربعة عنده على هذه المرأة أنها زنت مع هذا الكلب، أمر برجمها، وشك سليمان عليه الصلاة والسلام ووقع في قلبه أنها بريئة، وهذه قصة ذكروا أنها كانت في صغره، أول قضية تدخّل فيها، فشك بأن هؤلاء الرجال كذّبة فيما ادعوا على هذه المرأة، فجمع مجموعة من أصحابه، صببية معه ونادى والده وقال: أنه عمل مثل التمثيلية، فقال لهم: تعالوا اشهدوا عندي وأنا القاضي أن فلاناً فعل كذا مع الكلب فقالوا: نعم، فجاؤوا وشهدوا عنده فقال لهم: اخرجوا، فأمر بإخراجهم فأدخلهم واحداً واحداً فلما دخل الأول قال له: ما لون الكلب؟ قال: أحمر، فنادى الثاني قال: ما لون الكلب؟ قال: أسود، قال: اخرج، قال: ما لون الكلب، وقال الثالث: أصفر، وقال الرابع: أحمر، فاختلفوا في لون الكلب ففطن داود عليه الصلاة والسلام

(١) تقدم تخريجه.

فاستدعى الرؤساء بعدما رجمت المرأة، فسألهم عن لون الكلب، وقد تكون هناك أسئلة أخرى، ما لون الكلب، متى كان هذا؟ بأي مكان؟ في أي ساعة؟ كيف رأيت؟ وهكذا لكن المهم أنه سألهم، كل واحد منهم على انفراد، فاختلفوا، فعرف أنهم كذّبة فقتلهم بها، هذه هي بعض القضايا التي حكم فيها سليمان صلوات الله وسلامه عليه.

هل بنى سليمان ﷺ بيت المقدس:

المشهور عند الناس أن نبي الله سليمان هو الذي بنى بيت المقدس وهذا صحيح وغير صحيح، صحيح هو بنى بيت المقدس، لكن غير صحيح أنه أول من بنى بيت المقدس، وإنما هو جدد بناءه، والذي بنى بيت المقدس هو نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، كما جاء في حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ، أي مسجد في هذه الأرض أول؟ فقال: «المسجد الحرام» قال: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»! قال: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(١) أربعون سنة هي الفترة التي بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي بنى المسجد الحرام وبين حفيده يعقوب الذي بنى بيت المقدس، وإلا فإن سليمان بينه وبين إبراهيم أكثر من ألف سنة، فالصحيح أن الذي بنى بيت المقدس هو يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، وإنما سليمان جدد بناءه وثبت أركانه.

وفاة سليمان ﷺ:

قال الله - جل وعلا -: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْنَا عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تِينَتْ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبا] قدر الله تبارك وتعالى أنه مات وهو مستند على عصاه، ولا يعلم أحد أنه ميت فاستمروا في العمل حتى

(١) تقدم تخريجه ص ١٥٥.

جاءت دابة الأرض أي: الأرضة^(١) فصارت تأكل العصا من أسفل سقط
 نبي الله سليمان وعرفوا أنه كان قد مات، وهذا فيه أن الله أراد أن يبين
 للناس أن دعوى الجن أنهم يعلمون الغيب كذب وزور، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
 الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ إذ لو كانوا علموا أن سليمان قد مات
 كانوا خرجوا وتركوا العمل، كم المدة التي بقي فيها سليمان على كرسيه
 مستنداً على عصاه؟ لا تعلم هذه المدة، قيل سنة وقيل غير ذلك، ولكنه
 بعيد جداً أن تكون سنة فهو عنده زوجات وعنده أولاد ويأكل ويشرب
 وينام، فصعب جداً أن يكون لمدة سنة مستنداً على عصاه، فلا يصح في
 هذا شيء، المهم أنها فترة زمنية كان فيها سليمان صلوات الله وسلامه
 عليه ميتاً والجن تعمل تظنه حياً، هذا الذي يهمننا في هذا الأمر وهو
 أن الله فضحهم في دعواهم أنهم يعلمون الغيب.

الدروس والعبر المستفادة من قصة سليمان ﷺ

أولاً: كمال اعتناء الله بأبيائه ورسله، من التربية والرعاية.

ثانياً: ما مَنَّ الله به على سليمان صلوات الله وسلامه عليه من
 كمال الدين وكمال الخلق والفتنة والفهم.

ثالثاً: أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه قدم محبة الله على كل
 شيء، وهذا على القول بأنه قتل الصافنات الجياد، ذبحها تقرباً لله - جل
 وعلا - لأنها ألهمته عن طاعته.

رابعاً: أن كل ما شغل عن الطاعة فعلى الإنسان أن يفارقه، كما
 فعل نبي الله سليمان صلوات الله وسلامه عليه.

(١) الأَرْضَةُ: دودة أو دُوَيْبَّة تأكل الخشب ونحوه، ويقال: خشبة مأروضة. «المعجم
 الوجيز» (ص ١٣).

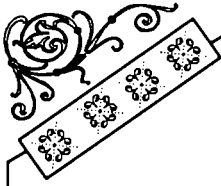
خامساً: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فلما ترك نبي الله سليمان الخيل عوضه الله الريح.

سادساً: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان، وكل من ادعى أنه يسخر الشياطين وأنها تخدمه رغماً عنها كذاب؛ لأن سليمان صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فأى إنسان يأتيك ويدعي أنه تخدمه الشياطين؛ فاعلم أنه كذاب فهي إن خدمته فباختيارها لا بتسخيره لها، وإنما تخدمه لأنه يخدمها فيكون هناك تبادل منافع أو مضار؛ لأنها لا تخدمه إلا إذا كفر بالله - جل وعلا - أما أن تسخر له الشياطين وأنها ترغب على خدمته فهذا باطل.

سابعاً: أن الله تبارك وتعالى أعطى سليمان مُلْكاً عظيماً ومع ذلك ما غره ذلك المُلك بل كان عبداً تقياً لله - جل وعلا -.

ثامناً: أن الإنسان لا يستعجل في الأمور ويستشير من معه كما فعلت ملكة سبأ لما استشارت قومها وقالت لهم: أشيروا عليّ.





قصة كلیم الله موسى ﷺ

هو أعظم أنبياء بني إسرائيل، كلیم الله، أحد أولي العزم من الرسل، النبي الرسول الكريم الذي ما ذكر نبي في القرآن بعد رسول الله ﷺ أكثر من ذكره، حتى ورد ذكره في كتاب الله تبارك وتعالى ستاً وثلاثين مرة بعد المئة.

هو: موسى بن عمران من نسل يعقوب عليه الصلاة والسلام.

ذكره الله تبارك وتعالى كثيراً في كتابه العزيز، وجاء التفصيل في ذكره في أربع سور: في سورة البقرة، والأعراف، وطه، والقصص، وذكر في سور أخرى كثيرة.

أمته التي أرسل فيها هي أعظم الأمم بعد أمة نبينا محمد ﷺ، وهي أفضل الأمم في زمانها كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَبْنَؤِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: أي: في زمانهم. وأمة نبينا محمد ﷺ خيرٌ منهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، كتابه التوراة التي خطها الله تعالى بيده.

السبب في كثرة ذكر موسى ﷺ:

تكرر اسمه كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى مما يدل على أن الله يريد منا أن نتدبر أحواله، وما لاقى من المشاق، والتعب، والأذى، والفتنة، حتى قال الله تبارك وتعالى له: ﴿وَفَنَّكَ فَتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، فَفَتِنَ موسى ﷺ كثيراً كما سيأتي ذلك مفصلاً في حديثنا عنه صلوات الله وسلامه عليه.

وأرسل موسى إلى أعتى ملوك الأرض في زمانه، ولعله كذلك أعتى ملوك الأرض بعد زمانه، أرسل موسى - صلوات الله وسلامه عليه - في بني إسرائيل، وبني إسرائيل أمة سكنت مصر، ومكن الله لها في الأرض، وهم نسل يعقوب عليه الصلاة والسلام، فيعقوب هو إسرائيل.

بنو إسرائيل تسلط عليها فرعون الطاغية المتجبر أعتى ملوك الأرض، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم مدينة، وأشدهم تعبداً للناس واستكباراً في الأرض، ادعى الربوبية، وادعى الألوهية، قال جلا وعلا عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٢﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٣﴾﴾ [النازعات]، وقال كذلك: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، واستهزأ برسول الله موسى ﷺ، وادعى أنه خير منه، فقال: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف]، وهكذا ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف].

مر بنا في قصة يوسف ﷺ أنه استقر هو وأبوه وإخوته في مصر، وكان ملوك مصر يعرفون ليوسف قدره، ومكانته، وفضله، وذلك أنه بفضل الله تبارك وتعالى أول رؤيا الملك، وكان في تأويله لتلك الرؤيا أن عم الخير على مصر دون سائر البلاد، وتميزت عن غيرها، وقد فرح به الملك كثيراً، حتى جعل يوسف عزيزاً على مصر - أي: وزيراً مقرباً -، وراحت سنون، وجاءت سنون أخرى حتى جاء فرعون آخر لمصر، وذلك أن كل ملك لمصر يقال له: «فرعون»، حتى جاء فرعون الذي يقال له: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى ﷺ، نسي فضل يوسف، ولم يعرف لبني إسرائيل قدراً، وبلغه أن رجلاً من بني إسرائيل سيكون على يديه ذهاب ملكه، وذلك في رؤيا رآها أزعجته.

قال سعيد بن جبيرة: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله ﷻ لموسى ﷺ: ﴿وَفَنَّكَ فَتُونًا﴾ [طه: ٤٠] فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال لي:

استأنفَ النهارُ يا ابن جبير - يعني: نحن الآن في وسط النهار - فإن لها حديثاً طويلاً فاتركني، يقول: فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال ابن عباس: تذاكر فرعونُ وجلساؤه ما كان الله ﷻ وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، وما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ﷺ فلما هلك، قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتَمروا^(١)، فأتَمروا وجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار - أي: السكاكين - يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، خوفاً من أن تصدق مقولة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم والصغار يُذبحون قالوا: تُوشكون أن تُفنونوا بني إسرائيل، فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً.

هكذا أمر فرعون بعد أن أشار عليه حاشيته بقتل الذكور فقتلوهم، ثم بعد ذلك صاروا يقتلون عاماً، ويتركون عاماً آخر؛ خوفاً من فناء بني إسرائيل الذين كانوا معبدين لخدمة القبط، فترك عاماً وقتل عاماً، قال ﷻ: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مِثْلِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ [القصر] وكان لا يذبح الإناث؛ لأنه لا خوف من النساء في ذلك الزمان.

(١) أي: اعقدوا مؤتمراً.

ميلاد موسی ﷺ وخوف أمه عليه:

ولد موسی صلوات الله وسلامه عليه في العام الذي يُذبح فيه الأولاد الذكور، وولد هارون قبله في العام الذي ما كان يذبح فيه فرعون، فلما حملت أم موسی بموسى صلوات الله وسلامه عليه؛ خافت عليه؛ لأنه العام الذي يقتل فيه فرعون كل مولود ذكر، فماذا تصنع أم موسی؟ وكان الله تبارك وتعالى قد أخفى حملها، فلم تعلم القابلات^(١)، لم يشعرن بحملها، فلما وضعته خافت عليه خوفاً شديداً، ماذا تصنع به؟

قال الله تبارك وتعالى لموسى ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِمِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِمِي فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه] أمر من الباري - جلا وعلا - لام موسی: اجعلي موسی في تابوت، واجعلي التابوت الذي هو الصندوق في النهر - نهر النيل ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، فصنعت ما أمرها الله به، وذكر بعض أهل التفسير أنها كانت وضعته في التابوت، وربطت في التابوت حبلًا، فإذا جاء أتباع فرعون يسألون عن الأولاد؛ تركت التابوت يسير، والحبل مربوط، فإذا ذهبوا جرّت الحبل، وأخرجت موسی من التابوت، فذكروا أنهم جاؤوها يوماً، فوضعته في التابوت، ونسيت أن تربط الحبل، فلما رجعت إليه وإذا قد سار به الماء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أي: إذا وُلِدَ ﴿فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ٧] يعني: من قتل فرعون له ﴿فَكَأَلِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، وهذا أمر عجيب، بدّل أن يقول لها: فإذا خفت عليه فأخفيه، يقول لها: ﴿فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَكَأَلِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، ابتلاءً من الله

(١) أي: النساء اللاتي ينظرن في الحُمل من النساء.

تبارك وتعالى لأم موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ
فَكَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾ .

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى﴾ هذا الوحي وحي
إلهام، وليس هو الوحي الذي يأتي الرسل، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى
رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] .

ألهم الله تبارك وتعالى أم موسى أن تفعل هذا الأمر، لا أن الملك
نزل إليها وكلمها .

وفي هذه الآية - كما يقول أهل العلم - أمران، ونهيان، وبشارتان
في سطر واحد:

فالأمران في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ
فَكَأَلْقِيهِ﴾ .

والنهيان في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ .

والبشارتان في قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ،
وهذه هي بلاغة الكتاب العزيز، بلاغة القرآن الكريم .

موسى ﷺ يُرَبَّى فِي بَيْتِ عَدُوهِ:

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿فَاللَّقَطْهُمُ أَلْ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨] قَدَّرَ اللهُ
ألا يلتقطه أحد غير آل فرعون ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٩]
وكانت امرأة سالحة، وهي: آسية بنت مزاحم، وذلك بمجرد أن رآته
امرأة فرعون ألقى الله - جلَّ وعلا - محبة موسى في قلبها، فأحبهته حباً
شديداً بمجرد أن رآته، فقالت: ﴿فَرَرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ نَشْجُدَهُ وَكَذَلِكَ﴾ [القصص: ٩]، وقد ذُكِرَ أن فرعون لم يكن له أولاد،
فقالت: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [القصص: ٩] أي: هذا الغلام إذا كَبُرَ ﴿أَوْ

نَخَذَهُ وَلَدًا ﴿ [القصص: ٩] يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص] لا يشعرون أن ذهاب ملك فرعون سيكون على يد هذا الولد.

يقول ابن عباس: والذي أحلف به لو قال فرعون: نعم قرّة عين لي ولك؛ لكان في هذا هدايته، قلت: ولكن كما قيل: القدر موكل بالمنطق، وذلك أنها لما قالت: ﴿قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ قال: أما لك فنعم، وأما لي فلا، وكان كما قال، فكان قرّة عين لآسية امرأة فرعون، فكان دخولها الجنة بسببه، وكان هلاكاً ودماراً على فرعون، حتى دخل النار؛ لأنه قال: «لا»، فلم يكن قرّة عين له، بل كان عذاباً على فرعون وهو كما قيل:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

إذا كان الله تبارك وتعالى هو الذي يرعاه ﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] من الذي يستطيع أن يؤذيه؟ لا أحد أبداً، إذا كان الله هو الذي يرعاه ﷻ.

إذا أراد الله ﷻ أمراً كان ولا بد:

فرعون يقتل كل ولد يولد؛ خوفاً من هذا الغلام الذي يكون على يديه ذهاب مُلكه، ثم يبين الله تبارك وتعالى له أنه إذا أراد شيئاً أمضاه، فكانه قال لفرعون: أنت لا ترد أمري أبداً، أتدري - يا فرعون - أنّ هذا الغلام الذي سيكون ذهاب مُلكك على يديه أنت الذي ستربيه، وأنت الذي تطعمه وتسقيه، ينشأ في بيتك، ويأكل من طعامك، ويشرب من شرابك، ويكون ذهاب مُلكك على يديه، مَنْ أنت حتى تمنع أمر الله ﷻ؟ وكان الأمر كما أراد الله ﷻ.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا رَأَوُوكَ وَإِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧] بشارة، اطمئني سيرجع إليك موسى، فلا تخافي، ولا تحزني، وحقّق الله لها البشارة الأولى: قال - جلّ وعلا - بعد أن أخذ آل فرعون موسى ﷻ:

﴿وَأَصْبَحَ قُوَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَدْرِيًّا﴾ [القصص: ١٠] يقول أهل العلم: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى ﷺ، لا تفكر في شيء إلا موسى أين ذهب؟ أخذه اليم إلى أين؟ حي؟ ميت؟ هل أخذه أحد؟ هل غرق في البحر؟ ما تدري ﴿وَأَصْبَحَ قُوَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَدْرِيًّا﴾ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا﴾ أي: فلما ربط الله على قلبها لم تُبْدِ بِهِ، وذلك أنها لو أبدت به لقات من وجد غلاماً في اليم؟ كادت أن تتكلم، كادت أن تصيح: ولدي أين ذهب؟ من أخذه ﴿لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا﴾ ربط الله على قلبها، سَكَّنَهَا، وهداها ﷺ لتكون من المؤمنين، عند ذلك ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] وتتبعي واسأليني بين الناس، أنا ما أستطيع أخشى أنني لو خرجت أصبح بين الناس ولا أتحمل، فذهبت أخته تَقْصُهُ تبحث عنه، قال ﷺ: ﴿فَبَصَّرْتَهُ بِهِ عَنْ حُجُبٍ﴾ يعني: عن بُعْدِ رَأْيِهِ، رأت موسى ﷺ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لم تشعرهم أنها تنظر إليه أو تبحث عنه كأنها لا تعرفه، المهم عرفت من حديث الناس أن فرعون وزوجته وجدا غلاماً، في اليم فعرفت أنه موسى ﷺ.

موسى ﷺ يرجع إلى أمه:

قال تبارك وتعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، قَدَّرَ اللهُ ﷺ لموسى صلوات الله وسلامه عليه أموراً يريد بها أن تَقَعَ، وأن تَقَعَ كما يريد الله ﷻ، وهي:

أولاً: يُولد في السنة التي يُقْتَل فيها الغلمان.

ثانياً: أن يكون في التابوت، في اليم.

ثالثاً: قَدَّرَ لفرعون وزوجه أن يأخذا موسى.

رابعاً: حرَّم عليه المراضع ليرده إلى أمه.

تقدير عظيم من الله ﷻ، قال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ لا

يقبل ثدياً، كلما جاؤوا بمرضعة رفضها، فلا يقبل مرضعة، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، قالوا لها: وما يدريك أنهم له ناصحون؟ شكوا في أمرها، قالت: لشفقتهم عليه، ورغبتهم في قضاء حاجة الملك، ورجاء المنفعة، ولذلك أتوقع هذا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ [القصص: ١٣] فأخذته إلى أمه، ولم؟ ﴿كَيْ نَفَّرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣] وذلك لما أوحى الله إليها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لكن ما المشكلة؟ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]، فإن الله إذا أراد أمراً هياً الأسباب، وأزال الموانع، فيقع ما يريد الله جلّ وعلا.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ قلت: إنها بشارة من الله - جلّ وعلا - لأم موسى، وكان كما بشرها الله ﷻ أتاها ابنها إلى بيتها، ولكن بدون خوف، ولو ظل عندها في بيتها لكانت ترضعه، وتجعله في التابوت سنين عدداً، لكن هنا يأتيها معزراً مكرماً من بيت فرعون، وذلك أنهم أتوا بها إلى بيت فرعون، فأرضعته، فقبل ثديها، فقالت لها امرأة فرعون: تبقيين عندي، هذا سكنك، حتى ترضعي الغلام، فماذا قالت لها أم موسى؟ قالت: لا، أرجع إلى بيتي.

قالت: أعطيك من المال ما تشائين.

قالت: لا، أبقوا ولدكم، وأنا أرجع إلى بيتي. الآن أصبح عندها ثقة تامة بالله تبارك وتعالى، تعرف أنه سيرد إليها بعد ذلك.

فقالت: إذا تأخذينه معك، وتأخذين عليه أجره، فهي ترضع ولدها بأمان، وتأخذ عليه أجره، بل ويقال: «هذه أم موسى»، وكانت تخاف أن يقال: «أم موسى»، فأنبت شرعاً أمه حقيقة، وأمّه من الرضاعة أمامهم.

وهو كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] كرهت أن تضعه في التابوت، وكرهت ولادة موسى، والآن هو خير لك، سيأتيك الخير من حيث لا تشعرين، بل أي شرٍ أعظم على أم موسى من أن يمسك آلُ فرعونَ موسى؟ وهي ما ألقته في اليم إلا خوفاً من جنود فرعون، فَقَدَّرَ اللهُ ﷻ أن يُربى في بيت فرعون، أنتِ تخافين عليه من جنود فرعون، وأنا أربيه لك في بيت فرعون، فأخذه ورباه في بيته.

موسى ﷺ يرجع إلى قصر فرعون:

بعد ذلك تمر مرحلة طويلة من حياة موسى، لا ندرى ماذا حدث فيها من يوم أرضعته أم موسى حتى بلغ سنَّ الفطام، وطلبتة امرأة فرعون، ورجع إليها مرة ثانية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت امرأة فرعون لأم موسى: اثني بولدي، أريد أن يزورني، فواعدتها يوماً أن يأتيها، وقالت امرأة فرعون لخزانها وخدمها: لا يبقين أحدٌ منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، فالיום سيرجع البيت بعد سنتين من الفراق، وعلى كل واحد أن يأتيه بهدية لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يُحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى حين دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته، وأكرمته، وفرحت به، وأهدت لأمه كذلك لحسن أثرها عليه؛ لأنها أرضعته، ثم قالت: لآتين فرعون فليكرمه ولينحلته، فلما دخلت به على فرعون جعله فرعون في حجره، فأخذ موسى لحية فرعون فجرها إلى الأرض، فقال الغواة الذين يجلسون مع فرعون لفرعون: ألا ترى ما وعد الله نبيه إبراهيم؟ إنه زعم أنه يعلوك ويصرعك، فلعله هذا الغلام، وعندها أرسل إلى الذباحين ليذبحوه، يقول ابن عباس: وذلك من الفُتون ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]،

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدالك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟

قال: إنه يزعم أنه سيصرعني. قالت: اجعل بينك وبينه أمراً يعرف فيه الحق، اثبت بجمرتين ولؤلؤتين، فقربهنّ إليه، فإذا أخذ باللؤلؤ واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل - وكان عمر موسى سنتين -، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب ذلك إليه، فتناول موسى الجمرتين. قال: فنزعهما منه مخافة أن يحرق يديه. فقالت المرأة: ألا ترى؟ لا يعقل الغلام. قال: فصرفه الله عنه بعد أن كان همّ به.

من السنتين إلى أن بلغ موسى صلوات الله وسلامه عليه أشدّه، والله أعلم كيف كانت حياته، ولكن يكفي أنه تربى في بيت فرعون كما قال له فرعون بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نُزَكِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِئِمَّتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

قتل القبطي:

وتمرّ هذه المرحلة من حياة موسى صلوات الله وسلامه عليه سريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد عزّوا في زمن موسى بعد أن كانوا مهانين يؤذون، ويضربون، ويقتلون؛ لأنهم يقولون نحن أخوال موسى بن فرعون، وما علموا أن موسى من بني إسرائيل أصلاً، لكنهم يفتخرون أن امرأة من بني إسرائيل أرضعت ابن فرعون، فيقولون: نحن أخوال موسى من الرضاعة، وكان موسى يدافع عنهم، وذلك أنه يدافع عن الحق صلوات الله وسلامه عليه، وقد كانوا مظلومين، وكانت له مكانة ابن فرعون في ذلك الوقت.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: ١٥]، دخل وقت الراحة، إما في الظهيرة، وإما بعد العشاء، فوجد رجلين يقتتلان: أحدهما من شيعة - أي: من بني إسرائيل - ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] أي: من القبط ﴿فَأَسْتَفْتُهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] لأن في الأصل أن القبط كانوا هم الظلمة الذين يؤذون بني إسرائيل: يقتلونهم، ويأخذون أموالهم، ويسخرونهم، ويضربونهم.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] يعني: ضربه بمجمّع يده. وقيل: لَكَمَهُ، فقضى عليه، وكان موسى قوياً صلوات الله وسلامه عليه، فما كان يقصد أن يقتله، ولكن قدر الله تبارك وتعالى أن مات ذلك الرجل من تلك الضربة، قال موسى ﷺ: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ما قصدتُ قتله، قصدت ضربه

وهنا قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] لأنه قتله بدون قصد ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وكان موسى هنا قبل البعثة، فأى دين كان عليه موسى؟ دين إبراهيم، دين يعقوب، دين يوسف، دين بني إسرائيل، ثم قال موسى عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] لن أستخدم هذه القوة لكي أكون عوناً للمجرمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] يخاف أن ينكشف أمره وأنه قتل ذلك القبطي، وذلك صار حديث المدينة، من الذي قتله؟ وما اطلع على هذا إلا ثلاثة فقط، الله جلّ وعلا، وموسى ﷺ، والإسرائيلي الذي كان معه، فلا أحد يدري من الذي قتل هذا القبطي. ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرْتُمْ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحْكُمْ﴾ [القصص: ١٨]

يقول لموسى: انصرني على هذا القبطي يا موسى، فاستغاث به اليوم أيضاً، ولأنه كانت له مشاجرة مع قبطي آخر، قال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]، كل يوم مشاجرة؟ أمس قُتِلَ الرجل بسببك، واليوم أيضاً مشاجرة؟ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ [القصص] أراد أيضاً أن يضرب القبطي؛ لأن القبط - كما قلنا - كانوا يؤذون بني إسرائيل أذية ما بعدها أذية كما قال الله ﷻ: ﴿يَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩].

قال القبطي: ﴿يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] نحن قلنا: لم يعلم إلا ثلاثة، ولا يدري القبطي أن موسى قتل نفساً بالأمس.

قال أهل العلم: إنما الذي قال هذا هو الإسرائيلي، وذلك أن موسى لما غضب عليه وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ وجاءه مغضباً ظنَّ الإسرائيلي أن موسى سيضربه هو؛ لأنه هدده بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فخاف أن يقتله موسى، أو أن يضربه صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾، فسمع القبطي، وهنا قال: إذاً موسى هو الذي قَتَلَ القبطي، فهرب القبطي، وصار يصيح: موسى القاتل، موسى القاتل، وذهب إلى فرعون يخبره أن موسى هو القاتل، الإسرائيلي الذي دافع عنه موسى هو الذي فضحه، وقال: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

عندها خاف موسى أكثر، مِنْ قَبْلِ خَافِ أَنْ يُعْرَفَ، وَالآنَ عُرِفَ أَنَّ موسى هو القاتل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْتَعِينُ﴾ [القصص: ٢٠] أي: يمشي مشياً سريعاً أو يركب، المهم جاء سريعاً، وهذا الرجل ظاهره أنه من آل فرعون، فكما أن آسية امرأة

صالحة، كذلك لا يخلو هذا المجتمع القبطي الكبير من أن يكون فيه أناس صالحون، فجاء الرجل إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، قال: ﴿إِنَّ أُمَّلَأَ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ الذي عليه أكثر أهل التفسير: أن هذا الرجل من أشرف آل فرعون، ومن كبارهم، وكيف عُرِفَ هذا؟ قالوا:

أولاً: قوله تعالى: ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ فقيل: الأشرف يسكنون الأطراف، ولا يسكنون وسط البلد، وإنما يسكنون الأماكن البعيدة حتى يأخذوا مساحات كبيرة وذلك بعيداً عن الناس وإيذائهم.

ثانياً: قوله: ﴿إِنَّ أُمَّلَأَ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الملاء كبار القوم، إذا ما يدرية إلا أنه كان حاضراً معهم، ولكنه يكتم إيمانه ﴿فَاخْرِجْ﴾ أي: من البلد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص] عندها خرج موسى صلوات الله وسلامه عليه من مصر إلى مدين.

موسى في مدين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص] إذا بيّن الله تبارك وتعالى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه توجه إلى مدين، ومدين بلدة في الأردن، وقيل: تُنسب إلى مديان من أولاد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - غير إسحاق وإسماعيل، والعلم عند الله - جلّ وعلا -، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخذ منها بعض أهل العلم أنه ما كان يقصد مدين، وإنما كان يقصد الهروب من مصر، وسأل الله ﷻ أن يوفقه إلى بلد طيب، فوفقه الله إلى مدين.

قال الله جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّكَّاسِ

يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴿ [القصص: ٢٣]، وماء مدين بئر يسقي منه أهل مدين وجد عليه أمة - أي: جماعة - من الناس يسقون، ووجد امرأتين تذودان؛ أي: تمنعان غنمهما من الدخول مع غنم الناس، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ لأن الأمر لفت نظره، أمر غريب هما جاءتا لتسقيا الغنم، وهنا تمنعان الغنم من أن تسقي أو تشرب الماء ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣] أي: نحن ممنوعتان من السقي، ونحن نمنع غنمنا؛ لأنها بهائم لا تفهم، حتى يسقي الرعاة جميعاً، ويذهبون ثم نأتي نحن ونسقي لضعفنا، وقبل أن يسألها موسى - صلوات الله وسلامه عليه - ما مِنْ رجلٍ يأتي ليسقي لكما؟ ما مِنْ أخ؟ ما مِنْ زوج؟ قالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] يعني: قبل أن تسأل: السبب الذي من أجله نحن نسقي الغنم، ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤] أي: دخل بين الناس، وسقى لهما مع الرعاء صلوات الله وسلامه عليه، حيث أخذته الغيرة والحمية لهاتين المرأتين، ورأى أن هؤلاء القوم فيهم غلظة، وسوء أدبٍ مع هؤلاء النساء الضعيفات، فلذلك سقى لهما صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن أول من يسقي عادة: الأقوياء، فيأخذون الأمر بالقوة، ولذلك يقول عمرو بن كلثوم:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

يعني: نحن إذا وردنا الماء، ما مِنْ أحدٍ يتجرأ أن يشرب قبلنا لقوتنا، فدائماً الأقوياء يأخذون أطيب الماء، وأما غيرهم فيأخذون حثالة الماء بعد أن يكون قد اختلط بالطين.

يقول الله ﷻ: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤] أي: بحث عن ظل يجلس فيه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] يشكو إلى الله فقره، ولكن بأدب، أنت يا رب أعطيتني خيراً عظيماً، ومع ذلك أحتاج إلى زيادة فضل، ولذلك الإنسان المؤمن

دائماً لا ينسى فضل الله عليه، وإذا أراد أن يسأل الله ﷻ، فإنه يُستحب له كذلك أن يذكر فضل الله عليه.

قال الله جلّ وعلا: ﴿لَمَّا تَدَارَكَا أَسْتَحْيَاوْا﴾ [القصص: ٢٥] مباشرة استجاب الله ﷻ له، و(الفاء) هنا تفيد التعقيب؛ أي: مباشرة، ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] ولم يأت الأب؛ لأنه لو كان يستطيع أن يأتيه؛ لجاؤا وسقى الغنم ﴿إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ لِمَ؟ ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فذهب موسى ﷺ إلى أبيهما ودخل عليه يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَفَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] يعني: أخبره بقصته، وكيف أنه خرج من مصر، وكيف أن فرعون يذبح أبناءها، ويستحيي نساءها، وأنه خرج خائفاً، وكيف ألقته أمه في اليم، وترى في بيت فرعون وقتل الرجل، وهكذا ذكر قصته لشعيب ﷺ أو للرجل الذي جلس عنده الذي هو أبو المرأتين ﴿وَقَفَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] قال له الرجل: ﴿لَا تَخَفْ فَبَوَّأَ مِنَ الْقَوَارِ الْأَثَلِيِّينَ﴾ [القصص: ٢٥].

زواج موسى ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ [القصص: ٢٦] لما رأته هذا المنظر، وهذا الكلام من موسى، ومن أبيها؛ قالت: ﴿يَتَأْتِيَ أَسْتَجِرَّةً﴾ [القصص: ٢٦]، هو غريب محتاج إلينا، ونحن محتاجون إليه ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] يعني: لو بحثت عن شخص تستأجره لما وجدت مثله، فهو قوي دخل بين الرجال وسقى لنا، وأمين حيث إنه لما سقى لنا تركنا، ولم يكلمنا، ولم يطلب أجراً.

وقيل: إنه لما ذهب مع المرأة إلى أبيها قال لها: كوني خلفي حتى لا أراك، وذلك أن الريح كانت تحرك ثيابها، فوجدت فيه الأمانة، فقالت: ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ واقتنع الأب بكلام ابنته،

فقال له: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابًا﴾ [القصص: ٢٧] تكون أجيراً، وهذا يكون مهراً، فليس شرطاً أن يكون المهر مالاً، ولذلك النبي ﷺ زَوَّجَ امرأةً لرجل بما معه من القرآن، على أن يعلمها إياه^(١)، قال: ﴿عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ وجزاك الله خيراً، قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ﴾ [القصص: ٢٧] فليس المقصود أن أسألك عليك، ولكن - أيضاً - لا يمكن أن يكون زواج بدون مهر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، قال له موسى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] وتم الاتفاق بين موسى ﷺ والرجل.

وقول البنت: ﴿يَتَأَبَتِ أَسْتَجِرَّةً﴾ قال عنه ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف، لما قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَوْا أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْزِلَهُ، وَلِدَاكُمُ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٢١] وصاحبة موسى لما قالت: ﴿يَتَأَبَتِ أَسْتَجِرَّةً إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْفَوِيءُ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر لما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قوله: ﴿أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يقول سعيد بن جبير: سألني يهودي من أهل الحيرة أيّ الأجلين قضى موسى؟ جلس موسى عند الرجل ثمان سنوات أو عشر سنوات؟ فقال سعيد بن جبير: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، ثم أتيتك بالجواب، قال: فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٤).

المعروف لا يضيع:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] يقول الحافظ ابن كثير رحمته الله: «جلس إلى الظل، وهو صفة الله من خلقه، وقد ذُكِرَ أن بطنه لصق بظهره من الجوع، وكان لا يجد إلا ورق الشجر ليأكله، وبعض البقول»^(١).

ولما صنع موسى عليه السلام هذا الجميل في المرأتين؛ كان الجزاء من الله سريعاً، فبمجرد أن جلس إلى الظل جاءته إحداهما: ﴿إِنِّي أُمِّي يَدْعُوكَ لِجَنَّتِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، وهو كما قال الله سريعاً: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن].

من هذا الرجل؟

تُرى من ذلك الرجل؟ أعني الشيخ الكبير والد المرأتين، هناك أقوال كثيرة لأهل العلم، أشهرها قولان:

القول الأول: إنه شعيب النبي.

القول الثاني: إنه رجل صالح من ذرية شعيب عليه السلام.

أما من قال: إنه شعيب النبي؛ فلأن شعيباً عُمر كثيراً، والمثل السائر: «عسى عُمرُك عُمرُ شعيب النبي»، ويرون أن عُمر شعيب طويل جداً مع أنه لا دليل على هذا، وأكثر من جاء في طول عمره نوح عليه السلام جلس في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وإنما أخذ الناس هذا القول - يعني بطول عمر شعيب عليه السلام - بسبب أنهم ظنوا أن هذا الرجل هو شعيب؛ لأن شعيباً عليه السلام قريب من زمن لوط عليه الصلاة والسلام، ولوط ابن أخي إبراهيم، وإبراهيم ذريته إسحاق، ثم يعقوب، ثم أبناء يعقوب،

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٢٧).

حتى جاء موسى ﷺ، فبينه وبين يعقوب ثمانية أو تسعة آباء، يعني: بين موسى وشعيب ﷺ.

والذين قالوا هو شعيب النبي ﷺ استدلوا بأمر:

الأول: قوله لموسى ﷺ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

الثاني: أنه وصف نفسه بالصلاح: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

الثالث: اسم المدينة التي ذهب إليها موسى ﷺ مدين، وهي مدينة شعيب النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

الرابع: لجوء موسى ﷺ إليه.

وقال الفريق الآخر: هو رجل صالح من ذرية شعيب ﷺ، وكذلك استدلوا بأمر:

الأول: إهلاك الله ﷻ الكفار من قوم شعيب ﷺ، وما بقي إلا شعيب ﷺ ومن آمن معه، قال تعالى: ﴿بَجَيْنًا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٩٤]، فُيُسْتَبَعَدُ جَدًّا أَنْ قَوْمَ شُعَيْبٍ ﷺ يَرُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى صَدَقِ نَبِيِّهِمْ، ثُمَّ لَا يَكْرُمُونَ بَنَاتِهِ، فَيَسْقُونَ أَنْعَامَهُمْ، وَيَتْرَكُونَ بَنَاتِ نَبِيِّهِمْ لَا يَسْقِينَ.

الثاني: البعد الزمني بين شعيب وموسى ﷺ، فقد قال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ بِكُمْ بَعِيدٌ﴾ [هود: ٨٩]، وبين موسى ولوط ﷺ مئتا السنين، فُيُسْتَبَعَدُ أَنْ يَكُونَ شُعَيْبٌ ﷺ قَدْ عَاشَ كُلَّ هَذِهِ الْمُدَّةِ.

الثالث: لو كان هذا الرجل الصالح هو شعيباً النبي لُنُصَّ عَلَى اسْمِهِ، ولقالت المرأة لموسى ﷺ: إن أبي هو شعيب النبي، أو لما جاءه موسى ﷺ كان يخبره بذلك، وكذلك لما جاءت المرأة إلى نبي الله

موسى ﷺ قالت: ﴿إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] ولم تقل: إن رسول الله يدعوك، حتى يعرف موسى ﷺ مع مَنْ يتكلم.

واختار ابن جرير الطبري رَوَاهُ قَوْلًا ثَالِثًا، فقال: «وهذا مما لا يُدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾... ﴿قَالَتْ إِحَدُهُمَا يَبَأَبَتِ اسْتَجِرْهُ﴾»^(١).

فلا نقول هو شعيب ولا نقول ليس شعيباً، بل نقول: علمه عند ربي، والله أعلم.

جواز خطبة الرجل لابنته:

قول الرجل لموسى ﷺ: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابًا﴾ [القصص: ٢٧] فيه أن للرجل أن يخطب لابنته، ولهذا قالوا في المثل: (اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك)، وذلك أن الابن قد يستطيع أن يدبر حاله، والآن أصبح عند الناس أن من العيب أن يخطب الرجل لابنته، وإنما ينتظر الخطاب يأتون لابنته، ولا بأس أبداً أن تذهب إلى رجل صالح وتدعوه إلى الزواج من ابنتك، ولذلك عمر ﷺ لما تأيمت حفصة ﷺ بعد موت زوجها؛ ذهب إلى عثمان ﷺ، فقال له: إن حفصة تأيمت فهل لك في الزواج منها؟ فقال: أفكر الليلة. جاءه عثمان فقال: أرى ألا أتزوجها، يقول عمر: فجيئت إلى أبي بكر، فقلت له: إن حفصة تأيمت، فهل لك أن تتزوجها؟ يقول عمر: فسكت أبو بكر، فلم يرد عليّ، ثم خطبها رسول الله ﷺ، فجاء أبو بكر إلى عمر، فقال له: لعله كان في نفسك شيء، فقال له: إي

(١) «تفسير الطبري» (١٩/٥٦٢).

والله، فقال: والله ما منعتي إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، فما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ^(١).

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠] فوهبت امرأة نفسها للنبي ﷺ ليس أبوها، بل هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، ولكنه لم يتزوجها، وإنما زوجها أحد أصحابه^(٢)، ولم ينكر عليها صلوات الله وسلامه عليه.

بعد ذلك مرّت السنون، وموسى صلوات الله وسلامه عليه في مدين بقي فيها عشر سنوات، وقيل أكثر، حتى ذهب كثير من أهل العلم إلى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه بقي في مدين عشرين سنة، لكن القرآن الكريم لم يذكر لنا ماذا وقع من موسى خلال هذه السنوات أبداً، كما هو الحال بالنسبة للسنوات التي قضاها في بيت فرعون إلى أن بلغ أشده.

والسبب في عدم ذكر عدد السنوات أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بحيث يذكر لك كل يوم ماذا صنع موسى، وإنما هو كتاب هداية يعطيك ما ينفعك ويذكر لك ما يقيك النار ويُدخلك الجنة.

موسى ﷺ يتوجه إلى مصر بعد قضاء الأجل:

قضى موسى الأجل، وأتمه على أكمل وجه، كما قال ابن عباس: إن رسول الله إذا قال فعل. وبعد ذلك توجه بأهله إلى مصر حيث أسرته هناك، وقومه، وبلده الذي نشأ فيه، وهو لا يعلم في ذهابه ذلك ما سيحدث له من الإكرام من رب العزة تبارك وتعالى.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).

خرج من قومه خائفاً يترقب، ومرّت عشرون سنة، أو قريباً من ذلك، وما علم صلوات الله وسلامه عليه أن الله - جلّ وعلا - سيناديه وسيكلمه ويناجيه، وذلك بالوادي المقدس، فسار بأهله ومعه قطع من الغنم متجهاً إلى مصر.

أيضاً لم تذكر لنا الآيات هل كان معه أولاد أو لم يكن له أولاد خلال هذه الفترة التي تزوج فيها، والمشهور في كتب أهل الكتاب أنه كان له ولدان من هذه الزوجة، المهم خرج بأهله إلى مصر، وهم في الطريق أبصر ناراً من بعيد، فقال لأهله: ﴿أَمْكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، قال أهل العلم: وهذا يدلّ على أربعة أمور:

الأول: أن موسى كان تائهاً في الطريق ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني الطريق، وفي آية أخرى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] يعني: من يهديني الطريق.

الثاني: ظلمة الليل الشديدة، ولذلك أراد جذوة من النار أو قسماً من نور يهتدي به صلوات الله وسلامه عليه.

الثالث: البرد كان شديداً لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

الرابع: أن أهل موسى لم يبصروا النار؛ لأن جميع الآثار ذكرت أن موسى هو الذي رأى النار، فقال لأهله: ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾، فذهب وحده، وليس فيه أن أهله كذلك رأوا هذه النار، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أن هذه كرامة من الله لا يراها إلا الأنبياء.

بداية الوحي لموسى ﷺ:

قصّ الله علينا قصته، فقال جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ

مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ
 مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِلَيَّ أَنَا اللَّهُ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
 يُعِقِّبْ يَمْوِسُّ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٢٣﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ
 تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَذَلِكَ بُرْهَنَانِ
 مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
 قَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٥﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
 فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
 بِأَخِيكَ وَجَعَلْنَا لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَننَا وَمَنْ أَتَّبِعْكُمَا
 أَلْفَلِحُونَ ﴿٢٧﴾ [القصص] آيات واضحة تماما تبين لنا ما حدث لموسى لما
 ذهب إلى تلك النار، وقال جلّ وعلا كذلك في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ
 حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ رَمَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا
 بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوِسُّ ﴿٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا
 إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
 لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
 فَتَرَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوِسُّ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا
 وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوِسُّ ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا
 فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهُمَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١١﴾
 وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَىٰ ﴿١٢﴾ لِزَيْدِكَ مِنْ آيَتِنَا
 الْكُبْرَىٰ ﴿١٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ وَبَسِّرْ
 لِي أَمْرِي ﴿١٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّي لِسَانِي ﴿١٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿١٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي
 ﴿١٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرَىٰ ﴿٢١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ كَيْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا ﴿٢٣﴾
 وَنَذِّرَكَ كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوِسُّ ﴿٢٦﴾ ﴿طه﴾

هذه مئة أخرى مني لك، سأشد عضدك بأخيك، وفي هذه الآيات أمور،
 منها:

الأول: إثبات صفة الكلام لله ﷻ، وأنه كَلَّمَ موسى، ولذلك يقال لموسى: (كليم الله)، والله - جلّ وعلا - يتكلم متى شاء، كيف شاء بما شاء ﷻ، وأما قول البعض أن الذي كَلَّمَ موسى الشجرة، أو خلق الله كلاماً في الشجرة، أو أن ملكاً هو الذي كلم موسى، فكلّ هذا باطل من القول وزور، فلا يُعقل أن يُكَلَّمَ أحدٌ غيرُ الله موسى، ويقول له: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، أو يقول له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] أبداً لا يمكن إلا أن يكون القائل هو الله ﷻ.

ولما سمِعَ موسى ﷺ ذلك النداء أُنسَ به، واطمئنث نفسه، وذهبت وحشته ﷻ، وقد قال موسى لأهله لما رأى تلك النار: ﴿سَتَأْتِكُمْ مَتَنًا يَغْبِرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَمَلِكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وقال: لعلي أجدّ عندها هدى، فلما أتاها ﷻ ورجع إلى أهله أتاها بخبر، ولكن أي خبر؟ وأتاها بهدى، ولكن أي هدى؟ وأتاها بقبس، ولكن أي قبس؟ إنه قبسُ النبوة والرسالة التي منَّ الله تبارك وتعالى بها على موسى ﷻ.

لما أتى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - تلك النار؛ رأى منظراً عظيماً، وشيئاً مهولاً، رأى ناراً تضطرم في شجرة، والنار تزداد توقداً، والشجرة تزداد اخضراراً، وهذا أمر عجيب، فالنار لا تأكل الشجرة! وهذا الأمر بهر موسى - صلوات الله وسلامه عليه - لما رآه، ولذلك يقول ابن عباس الحَبِيرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج.

نور يتوهج كالنار، ولذلك لم تحترق تلك الشجرة.

الثاني: قول الله تبارك وتعالى لموسى عن العصا: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فلما ألقاها؛ فإذا هي تسعى كأنها جانّ، والجانّ هي الحيّة العظيمة السريعة الحركة، أمرٌ مخيف لما رآه موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، دُهِلَ من النار ووضعها، ودُهِلَ من الصوت، وهو لا يراه، ودُهِلَ من العصا لما ألقاها فإذا هي تسعى كأنها جانّ، دُهِلَ - صلوات الله وسلامه

عليه - في هذه الليلة المظلمة، عندها قال الله جلّ وعلا: ﴿وَأَضْمْتُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] ضع يدك على قلبك يذهب كل شيء من الرهبة والخوف، وهكذا المؤمن إذا أنس بالله ولجأ إليه فإنه يُذهب عنه كل شيء يرهبه، ولا شك أن هذا أمرٌ عظيمٌ وخارقٌ للعادة، وقاطع بأن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الفعال لما يريد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَآرِبٌ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ [طه] ما المآرب الأخرى؟ يقال: إن الحجاج بن يوسف الثقفي لقي أعرابياً فقال له: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال من البادية: قال: وماذا في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدُّها لعدّاتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها في سفري، وأعتمد بها في مشي؛ لتتسع خطوتي، وأثب على النهر، وتؤمنني من العسر، وألقي عليها كسائي، فيقيني الحر، ويدفئني من القُرِّ^(١)، وتُدْني إليّ ما بُعد عني، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقر الكلاب، وتنوب عني الرمح في الطعن، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وسأورثها ابني، وأهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآربٌ أخرى.

ويقولون: العصي لمن عصى.

وجاء في التوراة الموجودة حالياً مثل هذه الأخبار وقريبة منها؛ لأن التوراة - كما قلنا - وإن كانت محرّفة إلا أن فيها - ولا شك - شيئاً من الحق، وافق ما في كتاب الله تبارك وتعالى، وفيها:

«وأما موسى؛ فكان يرعى الغنم لثيرون، وثيرون هو الرجل الصالح أبو البنتين كاهن مديان يرعى الغنم إلى وراء البرية، وجاء إلى جبل الله،

(١) أي: البرد.

وظهر له ملاك الربّ بلهيب نار في وسط عُليقة^(١)، فنظر فإذا العُليقة تتوقد بالنار، والعُليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر لهذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العُليقة؟ فلما رأى الربُّ أنه مال لينظر؛ ناداه الله من وسط العُليقة، وقال: موسى، موسى، فقال: ها أنا ذا فقال: لا تقرب إلى هاهنا اخلع حذاءك من رجلك؛ لأن الموضع الذي أنت فيه واقف عليه أرض مقدسة، وقال له الرب: ما هذه في يدك؟ قال: عصي. قال: اطرحها على الأرض، فصارت حية، فهرب موسى منها، ثم قال الرب: مُدَّ يدك، وأمسك بذنبها، فمد يده، وأمسك بها، فصارت عصي في يده، ثم قال له الرب: أدخل يدك في عيبك - أي: في جيبك -، ثم أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج اهـ.

وهذه الأخبار أكثرها يوافق ما في كتاب الله جلّ وعلا إلا قوله: «برصاء» هي لم تكن برصاء، وإنما كانت بيضاء تتلأأ مثل القمر، وذلك أن موسى ﷺ كان آدم - يعني: أسمر اللون -، والله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢] ليس برصاً، ولا بهقاً، وإنما هو نور، ولذلك قال أهل العلم: كانت مثل القمر تتلأأ.

والسبب من ذكر هذه التفاصيل في كتاب الله ﷻ:

وصف الله - جلّ وعلا - مجيء موسى إلى الوادي المقدس طوى، وذكر ما ناجى به موسى ﷺ في كثير من المواضع في كتاب الله؛ لِيُبَيِّنَ بذلك قلبَ النبي محمدٍ ﷺ ليكون آية بينة، وهي أن محمداً رسول الله حقاً، وذلك أنه لم يكن مع موسى، ولا أحد من قومه، ولا كان يعرف عن موسى شيئاً، خاصة تلك الأخبار الدقيقة التي قلنا: إنها موجودة في

(١) يعني: شجرة عُليقة، وقيل: شجرة عوسج، وقيل: غيرها من الأشجار.

التوراة، وكيف أن أهل التوراة يسمعون كلام النبي عن موسى، وهم يقرؤون ذلك في التوراة، وهو نبي أمي في أمة أمية، فكيف عرف ذلك؟ إنه الوحي من الله ﷻ، ولذلك يقول الله لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١) ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (١٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٦) [القصص]، فالله يبين أن جميع هذه الأخبار التي جاء بها النبي محمد ﷺ إنما هي من عند الله جلّ وعلا.

بقيت أمور، وهي قول الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿أَنْ بُرِّكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] فمن كان في النار؟ ومن كان حولها؟ الصحيح في هذه المسألة ﴿أَنْ بُرِّكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الذين حضروا عند النار في ذلك الوقت، وهم موسى والملائكة الذين أرسلهم الله جلّ وعلا، وإن كانوا لم يُذكروا نصاً في كتاب الله ﷻ، أما الله جلّ وعلا فكلّم موسى وهو مستوٍ على عرشه فوق سماواته جلّ وعلا؛ لأن الله لا يكون داخل النار، ولا داخل النور ﷻ؛ لأن الله - جلّ وعلا - غير متصل بخلقه ﷻ، بل منفصل عنهم فوق سماواته ﷻ، ولكن إنما يذكر الله - جلّ وعلا - موسى عندما حضر والملائكة الذين حضروا تلك القصة، أو ذلك الحال الذي كان لموسى مع ربه - جلّ وعلا -، فَبُورِكَ موسى وبُورِكَ الملائكة، وبُورِكَ النار، وبُورِكَ البقعة التي فيها تلك النار، ﴿ثَوْدَىٰ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] بقعة مباركة، ورجل مبارك، وملائكة مباركون، وشجرة مباركة ﴿أَنْ بُرِّكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].

اقسام البركة:

قال أهل العلم: البركة هي كثرة الخير، وتكون في أمور: في الأقوال، والأفعال، والأماكن، والأزمنة، وأمور أخرى:

فأما في الأقوال: فكتاب الله ﷻ كتاب مبارك، والبركة فيه ظاهرة، فهو رحمة، وهو شفاء، وهو شفاة، وهو أجر، عندما تقرؤه تأتيك البركة من كل جهة.

وأما في الأفعال: كطلب العلم، فيبارك الله لك في وقتك، ويبارك الله لك في علمك، ويبارك الله لك في الأجر الذي تأخذه، ويبارك الله لك فتعبد الله على بينة من أمرك.

وأما في الأماكن: فالمساجد مباركة، خاصة المساجد الثلاثة، ومكة مباركة، والمدينة مباركة، وهذا الوادي مبارك، والشام مباركة، فيجعل الله تبارك وتعالى البركة في هذه الأماكن ﷻ.

وأما في الأزمان: فرمضان مبارك، وليلة القدر مباركة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وعشر ذي الحجة أيام مباركة.

وأما الأمور أخرى: فماء زمزم مبارك^(١)، وزيت الزيتون مبارك^(٢)، ولعق الأصابع بعد الأكل فيه البركة^(٣)، والخيول جعل الله فيها البركة^(٤).

(١) أخرج مسلم (٢٤٧٣) أن النبي ﷺ قال عن زمزم: «إنها مباركة إنها طعام طعم»، وفي رواية: «وشفاء سقم».

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة» أخرج الترمذي (١٧٧٤) من حديث عمر ﷺ.

(٣) عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة، وقال: «إنكم لا تدرن في أيه البركة»، أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

(٤) قال النبي ﷺ: «البركة في نواصي الخيل» أخرجه البخاري (٢٨٥١)، ومسلم (١٨٧٢).

وهناك أشخاص مباركون: فمحمد ﷺ مُبارك، وموسى ﷺ مبارك، باركه الله: ﴿أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وعيسى ﷺ مبارك ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا﴾ [مریم: ٣١]، وهذه بركة يجعلها الله في أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما ما لم ينصّ الله عليه، ولم ينص عليه الرسول ﷺ فكيف نعرف أنه مبارك؟ فلا يجوز أن يأتي الإنسان لشخص ويقول: هذا شخص مبارك، أو هذا زمان مبارك، أو هنا بركة، فهذا أمرٌ غيبي، ولكن قل: نسأل الله أن يجعلك مباركاً، ونسأل الله أن يجعل هذا المكان فيه بركة، أما أن تنصّ أن هذا فيه بركة فلا يجوز، ولهذا لما خرج من أسلم حديثاً من كفار مكة مع النبي ﷺ من مكة إلى حنين، قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، لماذا يريدون ذات أنواط؟ قالوا: نتبرك بها، ونضع عليها الأسلحة، فننتصر كما كان يفعل أهل الجاهلية، فأنكر عليهم النبي ﷺ^(١)، لذلك لا يجوز أن يعتقد الإنسان في شيء أنه بركة إلا ما جعل الله فيه تلك البركة.

موسى ﷺ يبدأ في تبليغ رسالته:

أوحى الله ﷻ إلى موسى ﷺ وبَيَّن له أنه مبعوث من عنده، وأنه رسول وأراه الآيات الدالة على صدقه، والعصى التي ألقاها، ثم ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾، ثم أخذها فإذا هي عصى، ثم أدخل يده، فإذا هي بيضاء، ووضع يده على صدره، فذهب الرهب عنه، وسمع كلام الرب وأنس به صلوات الله وسلامه عليه، واطمأنث نفسه، أدرك أهمية المسألة، وضخامة الأمر والمهمة التي أوكلها الله إليه، فذكر لله ﷻ أموراً يحذرهما، ثم طلب أشياء من الله ﷻ.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٠٨).

فالأمر التي يحذرهما: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [١٧] وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء] وقال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤].

والأمر التي يرجوها: ﴿أَنْتَرَجُ لِي صَدْرِي﴾ [٢٥] وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [٢٦] وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي﴾ [٢٧] [طه]، وذلك أنهم قالوا: إن هارون كان أفصح من موسى؛ لأن موسى لم يعش مع بني إسرائيل ومع القبط كما عاش هارون، وذلك أنه عاش في أهل مدين قريباً من عشرين سنة، فهارون كان في بني إسرائيل ومع القبط، فكان أفصح من موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقيل غير ذلك كما جاء عن مجاهد وغيره أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان قد اختبره فرعون لما كان صغيراً عندما أخذ بلحية فرعون، فجرها إليه فغضب فرعون، أراد أن يقتك به ويقتله، فخافت آسية على موسى، وقالت: اختبره، ضع له جمرة وتمر، فإن أخذ التمرة فدونك فاقته، وإن أخذ الجمرة، فإنه لا يفقه، ولا يعي، ولا يدري ما يصنع، قال: نعم أفعل فوضعت لموسى تمر وجمرة، فأوحى الله إليه أن يأخذ الجمرة، فأخذها ووضعها على لسانه، فكان في لسانه شيء من الثقل لأجل تلك الجمرة، ولذلك يقول عنه فرعون: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يُكَادُ يُبِينُ﴾ [٥٧] [الزخرف] يعني: أن كلامه ليس فصيحاً.

وقال: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ﴾ [٢٩] [طه]، وأن يكون ﴿هَزْرُونَ أَخِي﴾ [٣٠] أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى﴾ [٣١] وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [٣٢] [طه] يكون نبياً، ويكون لي ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤] إذا كذبوني.

قال الله جلّ وعلا: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، فاستجاب الله لموسى، ووهب له أخاه هارون نبياً معه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، وقال: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمُّ وَرَأَى﴾ [طه: ٤٦]، ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ أَفَلْيُلٰئُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

فاتجه موسى ﷺ إلى فرعون يدعوه إلى الله ﷻ، ومعه هارون ﷺ بعد أن جعله الله ﷻ نبياً مِّنْهُ عليهما.

وقد سمعت عائشة رضي الله عنها رجلاً يقول لأناس يسألهم وهم سائرون إلى الحج قال: من هو الأخ الذي له مِنة عظيمة على أخيه، ولم يكن لأحد مِنة مثلها؟ فسكت الناس، ولم يعرفوا الجواب، فنادت عائشة - وهي في هودجها -، فقالت: هو موسى بن عمران حين شفّع في أخيه هارون فأوحى إليه فكان نبياً، ولهذا قال الله له: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿٥٢﴾ [مريم].

عندها اتجه موسى إلى مصر مطمئن القلب، فقد كان رجلاً عادياً ثم صار نبياً رسولاً.

ذهب موسى إلى أخيه هارون، وأخبره البشارة، وهي أن الله ﷻ اختاره نبياً معه، وأنهما مأموران بدعوة فرعون، قال الله جلّ وعلا: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ [طه] تجبر وطفى، والطفغيان هو مجاوزة الحد، ولذلك يقال: طغى الماء أي تجاوز حده: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٧﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَمَلَكٌ مِّنْ ذِكْرِكُمْ أَوْ يُخَشِئُ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَن آتَبَعِ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُرْسِي إِيَّانَا أَنْ الْعَذَابَ عَلَيْنَا مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ [طه].

معية الله ﷻ لموسى وهارون ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه]: [٤٦] هذه هي المعية الخاصة، وذلك أن معية الله جلّ وعلا لعباده تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: معية عامة يشترك فيها الإنس والجن، بل والبهائم،

ويشترك فيها البرّ والفاجر، ويشترك فيها المسلم والكافر، وهي المعية العلمية، وهي في قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] وهذه معية لكل الخلق لا تميز لأحد فيها، ولا فضل لأحد فيها، وكما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد].

القسم الثاني: معية خاصة بأوصاف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التحلل]، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فكل تقى، وكل محسن، وكل صابر؛ فالله معه، فمن اتصف بهذه الصفات فالله معه، وهذه المعية فيها نصرة وتأييد ومحبة من الله ﷻ.

القسم الثالث: المعية الخاصة بالأشخاص، كما في هذه الآية ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [طه: ٤٦] أي: يا موسى ويا هارون أنا معكما أنتما دون غيركما، وكما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنَ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] أي: أنا وأنت فقط مع أن كفار قريش كانوا على باب الغار، لكن الله ليس معهم، وهذه معية خاصة بشخص معين، خصّ الله بها موسى وهارون، وخصّ الله بها محمداً وأبا بكر، وهي تستلزم النصرة، والمحبة، والتأييد، والتوفيق من الله تبارك وتعالى، وسيأتينا قول موسى ﷺ حين تبعه فرعون يريد قتله ومنّ معه: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] فما نسيها موسى صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك بمجرد أن قال الله لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] علما علم اليقين أن الله ناصرهما ﷻ، ولذلك اتجها إلى فرعون دون خوف، ولا وجل، ولا تردد، مزودان بسلطان من الله ﷻ كما قال الله

جلّ وعلا: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥] فلا تنالهما يد طاغية أبداً، فرعون أو غير فرعون.

ثم جاءت البشارة من الله تبارك وتعالى: ﴿بِأَيِّنَّا أَنْتُمْ وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْفٰلِغِيّٰوْنَ﴾ [القصص: ٣٥] ماذا تريدون إذاً ألا يكفيكم هذا؟ وتصوروا إذا قال الله شيئاً فمن ذا الذي يردُّ أمره؟ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ولذلك قال الله لموسى من قبل ﴿فَلَمَّتْ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ حِجَّتْ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسِي﴾ [٤٠] ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه]، أنت يا موسى منذ ولادتك وأنا أراعك، وجعلت أمك تلقيك في اليمّ، وربيتك في بيت فرعون، وأراد قتلك، فحميتك، وقتلت نفساً فنجيتك، فلبثت سنين في أهل مدين ﴿ثُمَّ حِجَّتْ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسِي﴾، ألا ترى أني اصطنعتك لنفسي!! فلا تخف يا موسى.

فالله ﷻ كان حافظاً لموسى ﷺ منذ صغره، ورباه على عينه ﷻ، ثم اصطفاه الله ﷻ برسالاته وبكلامه.

المواجهة بين موسى ﷺ وفرعون:

ذهب موسى رابط الجأش قوياً، واثقاً بنصر الله له، فدخل على فرعون، ومعه أخوه هارون، فكانت المناظرة بينه وبين فرعون، قال موسى لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] يدعي أنه لا يعرف رب العالمين!!

قال موسى: ﴿رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، فالتفت فرعون إلى من عنده قائلاً: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، فاستنكر فرعون ذلك فموسى يقول: ﴿رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وفرعون يدعي الربوبية، ألسنت ربكم؟ ألسنت إلهكم؟ كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النزاعات: ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨] هذا كلام غريب أسمعه اليوم، يدعي أن هناك رباً غيري

﴿أَلَا تَسْتَعْمُونَ﴾، فالتفت إليهم موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، وكأنه يقول لفرعون إن كنت رباً؛ فأين أبأوك؟ أربُّ وله أب؟ كيف يكون هذا؟ بل هذا ربك وربُّ آبائك الأولين وربكم أنتم أيها الجالسون عند فرعون ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ فماذا قال فرعون؟ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَجُنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

قال موسى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، فلم يجد جواباً إلا أن قال: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] هذا هو الجواب: منطلق استخدام القوة وإظهار العضلات منطلق الغاب.

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٥) قَالَ فَأَتَى بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٦) فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٢٧) وَرَزَقَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٢٨) [الشعراء]، وذلك أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان أسمر اللون، ليس بأسود، فأخرج يده، وإذا هي تتلأأ مثل القمر، لا برص فيها، بيضاء، وهنا قال فرعون: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء] فرعون يستشير من عنده!! ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟

وفي موضع آخر يقول الله تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال لموسى: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوِسَى﴾ (٤١) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٤٢) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٤٣) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٤٤) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى (٤٥) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٦) مِنَّا خَلَقْنَاهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنَّا نُنْخِرُهُمْ تَارَةً أُخْرَى (٤٧) [طه].

وكان مما قال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِمَّنْ غُرَبًا كَاسِيَنِ غُلَامٍ تَرْبَعُ عَنَّا نَحْوًا مِّنْ غُلَامٍ مُّذْنَبٍ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنَا وَفَعَلْتَ آتَيْنَا مِنَّا وَفَعَلْتَ آتَيْنَا مِنَّا وَفَعَلْتَ آتَيْنَا مِنَّا وَفَعَلْتَ آتَيْنَا مِنَّا﴾ [الشعراء].

وهنا ذكر فرعون ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ألم نربك فينا وليداً؟

الأمر الثاني: أنك لبثت فينا من عمرك سنين.

الأمر الثالث: أنك فعلت فعلتك، وأنت من الكافرين.

يريد بذلك أن له مِنَّةً على موسى ﷺ، ويُذِّكره بقتله للقبطي دون سبب، وعندها قال موسى: ﴿فَعَلَّيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، ما كنت رسولاً، وهذا كما قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى] أي: ضالاً عن الرسالة، ليس ضالاً بمعنى أنه كان كافراً، فلم يكن نبيّاً من الأنبياء كافراً، وإنما كان ضالاً عن الرسالة، لا يعرف رسالة مَنْ سبقه، ﴿قَالَ فَعَلَّيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِّينَ﴾ [الشعراء] قبل أن أبعث فعلت هذه ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] لأنني كنت أعلم أنكم ظلمة؛ لأنني ما قصدتُ قتله، فكنتم ستظلمونني، ولذلك خِفْتُ منكم، ففررت وتركت مصر وأهلها.

ثم قال: ﴿فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] أي: بعد أن تركت مصر وهب لي ربي حكماً ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]، ثم قال له: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء].

وهنا لأهل العلم قولان: ما معنى قول موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾؟ هل هو ينكر على فرعون أو يمتدحه بذلك الكلام؟ قولان:

القول الأول: لا فضل لك يا فرعون، فهذه النعمة التي تَمُنُّهَا عَلَيَّ أنك رببتي وليداً ولبثت في بيتك؛ السبب في هذا أنك كنت تقتل الأطفال، وما كان لنا من سبيل إلا أن ألقيني أُمي في اليمِّ، تَمُنُّ عَلَيَّ أنك رببتي؟ أنت السبب؛ لأنك كنت ستقتلني لولا إلقائي في اليمِّ، فهذا يكون على سبيل الإنكار على فرعون.

القول الثاني: أن موسى بهذه الكلمات يتلطف مع فرعون، كأنه يقول له: رببني وليدأ، ولبثت كثيراً من عمري عندكم، وفعلت فعلتي ولم تقتلونني، فأكمل معروفك وأرسل معي بني إسرائيل، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه].

قال موسى لفرعون: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٤٤] ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيْنَكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [١٤٥] ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [١٤٦] [الأعراف]، فألقى موسى عصاه صلوات الله وسلامه عليه، ﴿فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُبِينٌ﴾ [١٤٧] ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [١٤٨].

والآن تتدخل حاشية فرعون - بطانة السوء - بعد أن قال فرعون: ﴿إِن هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [١٤٦] ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف].

قالت الحاشية: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّانِ حَاشِرِينَ﴾ [٣٦] ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء]، هذه الحاشية بدل أن تقول لفرعون لعله صادق، لعله رسول، قالت: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أمهلهما ﴿وَأَبْعَثْ فِي الدِّانِ حَاشِرِينَ﴾ [٣٦] ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾، فالتفت إليهم موسى، وقال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، وهنا تكلم فرعون، وتكلمت الحاشية معه، قالوا: ﴿أَجِئْنَا لِتُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وبعد أن قامت الحجج على فرعون وظهر له أن موسى ﷺ ليس بساحر، قال: ﴿لَئِن أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين حتى يأتوه بكل ساحر عليم، وواعد موسى، وقال له: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]، يعني: وسط، وسط المدينة لا جنوب، ولا

شمال، ولا شرق، ولا غرب، وهذا هو ما أراه موسى ﷺ حتى يتيسر له أن يدعو الناس جميعاً، فوقع فرعون في ذلك، وأمر بجمع الناس؛ لأنه ظن أن الذي جاء به موسى سحر وغره أصحابه وحاشيته، وقالوا: نأتيك بكل ساحر عليم، ففرعون وجدها فرصة حتى يبطل ما جاء به موسى فقال لموسى: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ وسط يحضره الجميع لا يعجز عنه أحد، ولا يتركه أحد.

قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ [طه: ٥٩] مكان وسط، ووقت وسط كما تريد، وليكن أيضاً في يوم الزينة، يوم العيد حيث جميع الناس يجتمعون، جميع الناس فارغون ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ صُحُفَى﴾ [طه: ٥٩] أي: يكون هذا الوقت في الضحى وفي النور، يجتمع فيه جميع الناس، قال فرعون: نعم، وقال موسى: نعم.

المواجهة الكبرى:

وجاء فرعون بالسحرة، وأقل ما قيل في عدد السحرة أنهم سبعون، وأكثر ما قيل في عددهم أنهم ثمانون ألفاً، ولا يوجد أي شيء قطعي في هذه المسألة، الله ﷻ ذكر السحرة، وذكر أنهم أتوا بكل ساحر عليم، لكن لم يذكر لنا الله ﷻ عدد السحرة أبداً، وروايات بني إسرائيل متضاربة، هناك رواية تقول: سبعون، وهناك رواية تقول: ألف، وهناك رواية تقول: اثنا عشر ألفاً، وهناك رواية تقول: ثمانون ألفاً، وهناك رواية تقول: ثلاثة آلاف، وهناك رواية تقول: تسعة آلاف: ثلاثة آلاف من بني إسرائيل، وثلاثة آلاف من القبط، وثلاثة آلاف من المجوس، ولكن لا يوجد شيء قطعي، والقطعي أنهم مجموعة من السحرة، والمهم أنهم أحسن السحرة عندهم، وليس فيهم حسن.

وأول ما جاء السحرة اتجه إليهم موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١] أنتم تعلمون

أن هذا سحر، أنتم تعلمون أنكم ضالون مضلون، ﴿وَيَلَكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فإن فعلتم ﴿فَيَسْجُرْكُمْ بَعْدَئِذٍ﴾ [طه: ٦١]، سحّت الشيء استئصاله، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه] لما قال لهم هذا الكلام صار بينهم نزاع على ماذا؟ نزاع هل هذا ساحر أو رسول؟

قالوا: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢] ما هي النجوى التي أسروها؟ علمها عند ربي ﷻ، لكن يقول أهل العلم: إنهم ربما أسروا أنه إن كان هذا الرجل صادقاً - يعنون موسى - وأنه نبي فستبعه، أو ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ أنهم ترددوا، هل يُلقون أو لا يُلقون؟ حتى لا يفضحهم، وقيل: إن كان هذا نبياً؛ فإن الله سيظهره، وإلا ظهرنا عليه، والله أعلم ماذا أسروا، لكنهم تنازعا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ ﴿١٢﴾.

ثم التفتوا إلى موسى، وقالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] يخبرونه كأنهم يثقون بأنفسهم، تريد أن تلقى أم تريد أن نلقى نحن، لا يختلف عندنا الأمر، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٦] وهذا يبين أيضاً ثقته التامة بالله عز وجل؛ لأنه يعلم أن الله معه ﷻ قال: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣]، ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ [يونس: ٨١] أنتم تأتون بالسحر، وأنا آتي بالمعجزات، وآتي بآيات بينات ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْلِغُهُمْ ﴿[يونس: ٨١]، الله معي وأنتم من معكم؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس]، وفي آية أخرى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تَحْتَ الْمَلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف]، سحروا أعين الناس، واسترهبوهم، وخوفوهم، وكيف خوفوهم؟ إذا قلنا: إن عدد السحرة ثمانون ألفاً أو اثنا عشر ألفاً أو

سبعمئة على أقل ما قيل في عد هؤلاء السحرة، تصوروا سبعمئة كلُّ يُلقى عصاه وحبله، فترى حيات تسعى، أصاب الناس رهبةً عظيمةً وخافوا خوفاً شديداً ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي: أوهموهم أن هذه الحبال، وهذه العصي انقلبت إلى حيات، ﴿وَأَسْرَبُوهُمْ﴾ خوفوهم بكثرة الحيات، ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ بين الله أن السحر عظيم، ولكن الذي أبطله أعظم.

قال الله تبارك وتعالى عن فرعون لما أمره موسى - صلوات الله وسلامه عليه - أن يجمع الناس في يوم الزينة: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [٦٢] قَالَ لَهُ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ [٦١] فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ [٦٣] قَالُوا إِنَّ هَٰذِهِ لَسِحْرانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ [٦٤] فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا [طه] اتفقوا على كلمة واحدة، لا تتفرقوا، اتركوا النزاع الآن، لا وقت للنزاع، ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا﴾ حتى يكون هذا أرباب لعدوكم، وأرهب للناس، كلكم تلقون في وقت واحد ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤] استعلوا بما عندكم، لماذا؟ لأن كل الناس يجتمعون الآن، ﴿قَالُوا يَمْوَسِيٰٓءَٰٓءَٰنَ مَا أَن تُلْقَىٰ وَإِنَّمَا أَن تَكُونَ أَوَّلَ مَنِ الْتَمَىٰ﴾ [٦٥] قَالَ بَلِ الْقَوْمُ إِذَا جَاهَلُوا وَعَصِبْتَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ [طه] حتى موسى خُيِّلَ إليه أنها تسعى، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧] خيفة من ماذا؟

قالوا: أوجس في نفسه خيفة من أن يظهرها عليه.

وقالوا: أوجس في نفسه خيفة أن يتأثر الناس بهم.

وقالوا: أوجس في نفسه خيفة ألا ينتظر الناس ما يظهر الله على يديه.

وأظهر الأمرين الثاني، والثالث أما موسى ﷺ فمطمئن بنصر الله

وجاء الجواب من الله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿طه: ٦٨﴾، أنت أعلى منهم، لا يغرك كثرتهم، لا تغرك حبالهم، ولا عصيهم، ولا تخيلهم، ولا من يساندهم، أنت واحد، ولكنك الأعلى، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ ﴿طه: ٦٩﴾، أنت معك معجزة، معك آية بينة، معك برهان، وهؤلاء معهم السحر، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ﴾ ﴿طه: ٦٩﴾.

وهذا في زمن موسى ﷺ وفي زمننا وإلى يوم القيامة؛ الساحر لا يفلح؛ لأنه عدو لله، ومن عادى الله هل يفلح؟! ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْجِنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٧٧﴾ كَلِّ الَّذِي يَأْفِكُونَ، حية واحدة ابتلعت جميع العصي، وموسى ﷺ انقلبت عصاه إلى ثعبان حقيقي؛ لأن الله هو الوحيد - سبحانه - الذي يغير الأشياء من حقيقة إلى حقيقة أخرى، لكن غير الله لا يملك ذلك، وإنما يملكون أن يسحروا أعين الناس، كما قال الله لموسى: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَىٰ﴾ ﴿طه: ٦٦﴾ إذا حقيقتها أنها لا تسعى، وإنما يخيل إليهم ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ فَغَلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٧٩﴾ ﴿الأعراف: ١٧٩﴾، فكانت المفاجأة: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سِجْدًا﴾ ﴿طه: ٧٠﴾ أَكْفَرَ النَّاسَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ سَجَدُوا لِلَّهِ قال الله ﷻ: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سِجْدًا قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّي هَرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿طه: ٧٠﴾ لأنهم علموا أن الذي جاء به موسى ﷺ ليس بسحر، فهم أصلاً تنازعو بينهم، وأسروا النجوى - والله أعلم بما أسروا -، لكن لما رأوا الحق ورأوا عصا موسى أنها فعلاً انقلبت إلى ثعبان حقيقي ابتلع عصيهم، وابتلع حبالهم؛ عرفوا أن موسى محق صلوات الله وسلامه عليه.

نقاش فرعون مع السحرة:

والآن تعالوا نقرأ النقاش الذي كان بين فرعون والسحرة لما أتى بهم فرعون، وقال لهم: إن موسى عنده عصا تنقلب إلى حية، ويدخل يده ويخرجها بيضاء، فماذا أنتم صانعون؟ قالوا: نظهر عليه ولكن ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] قال: نعم؛ لأنه صُدمَ بما أتى به موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَإِنْ الْمُقْرَبِينَ﴾ [الأعراف] أكدها بأربع تأكيدات:

الأول: أكدها بنعم.

الثاني: أكدها بـ «إن».

الثالث: أكدها باللام.

الرابع: جعلهم من المقربين.

فلما ألقى موسى ﷺ عصاه، وظهر الحق، وذلك أن الحق أبلج، والباطل لجلج، لا يبقى، فأدركوا حقيقة الأمر، وأدركوا أن الذي مع موسى نبوة وليست سحراً ﴿فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سُجْدًا قَالُوا ءَأَمْنَا رَبِّ هٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه]، فُصِّدَ فرعون وقال: سحرتي وعمدتي يؤمنون؟! ﴿قَالَ ءَأَمْنُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] قال: موسى هو الذي علّمكم السحر، وهو يدري أن كلامه غير صحيح؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [١٨] وَقَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ آتِيًّا فَعَلَّمْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ [الشعراء] إنه يدري أن موسى ولدته أمه، ثم أخذه وتربى في بيته سنين، ثم قر والآن رجع، فمتى علمهم السحر؟! ومتى التقى بهم؟! ومتى رأهم؟! خاصة إذا علمنا أن السحرة هؤلاء جاؤوا من كل فج عميق، ﴿وَأَيَّمْتَ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ﴾ [٣٦] يَا تُورَك بِكُلِّ سَخَّارٍ عَلَيْهِ ﴿[الشعراء] حُشِرُوا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ﴾ [الشعراء] كل واحد جاء من

مدينة، فمتى التقى بهم موسى؟! ومتى علمهم السحر حتى يقول هذا الكلام؟! لكنه كلام المصاب، أصيب في مقتل فلم يذر ماذا يقول، ولم يذر ما الذي يخرج من رأسه، ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١] كيف تؤمنون به قبل أن أذن لكم؟ فكان الجواب من السحرة: ﴿إِنَّا إِلَٰك رَبَّنَا مُقَلِّبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] افعل ما تشاء، ﴿وَمَا نَنْقُمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وفي موضع آخر: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلٰنَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٦] ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٦] ثم قالوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٦] جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦] ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١].

فليس من السهل على إنسان كان يدعي الألوهية أن يدعن ويرضى ويسكت عن مثل هذا الوضع، فيصير عبداً كغيره من العبيد، بعد أن كان يقول: إن الناس كلهم عبيد لي، الآن أنا أصير عبداً لغيري، أصير عبداً لله؟! ما استطاع أن يتخلى عن جميع الامتيازات التي كان يستأثر بها من دون الناس.

وهل قتل السحرة أو لا؟ روايتان:

الرواية الأولى: أنه قتلهم وصاروا شهداء.

والرواية الثانية: أنه تركهم.

المهم أنه ترك موسى ﷺ وظل موسى بعد ذلك يدعو في مصر، وهنا فرعون أحب أن يلقي آخر حباله، فنادى هامان، فقال: ﴿يَهَيِّئْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [طه: ٦٦] أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

وَإِنِّي لَأظنُّهُ كَذِبًا ﴿﴾ [غافر] كاذباً في ماذا؟ يظنه كاذباً أن له إلهاً غيره، أو كاذباً أن الله في السماء، على كل حال الذي كان ينكره فرعون أن يكون إله غيره، ولذلك قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، وكان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول لموسى: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] إذاً هو كان يدعي الألوهية، ويدعي الربوبية، وهل بني له الصرح؟ وهل صعد على ذلك الصرح؟ لا يُعلم، الذي يُعلم أنه قال لهامان: ابن لي الصرح.

مؤمن آل فرعون:

قام رجل مؤمن من آل فرعون، فقال كلمة حق عند سلطان جائر، ولا شك أن فرعون كان جائراً، قال المؤمن: ﴿يَقَوْمِ أَتَعْبُدُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٥﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٤٢﴾ [غافر]، مقارنة عظيمة وعجيبة، أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؛ أدعوكم إلى عبادة الله الذي يستحق أن يُعبَد، وتدعونني لأن أشرك به، وأكفر به، أدعوكم إلى الجنة، وتدعونني إلى النار، ولذلك ختم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْنَا الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر] متى؟ يوم القيامة ﴿وَأَقْرَبُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وهكذا يجب على المؤمن أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى ويبين ما عنده.

أما فرعون فهل كان مصدقاً أنه إله وأنه رب؟ أو كانت مجرد دعوى، هو ذاته لا يصدقها؟ الصحيح أنها مجرد دعوى، وفي قرارة نفسه لا يؤمن أنه إله، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عما يجول في خاطر فرعون، وما يدور في نفسه، فقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] أي: أنفسهم من الداخل كانوا يعتقدون عقيدة جازمة أن موسى صادق، وأنهم مبطلون، ولكنه العناد والكبر، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: جلّ المعاصي وجلّ الأسباب التي تُدخل الناس النار ترجع إلى العناد والكبر، وفرعون هذا جمع الأمرين: جمع العناد والكبر معاً، ولذلك لما أدركه الغرق - كما سيأتينا - قال: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، إذاً هو في حقيقة نفسه كان يدرك وجود إله آخر غير ما يدعي هو من الزور والبطلان.

اجعلوا بيوتكم قبلة:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بِيوتًا وَأَجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٧]، فأنت يا موسى ومعك أخوك هارون ﴿تَبَوَّءَا﴾ أي: اختارا لقومكما بمصر بيوتاً، اسكنوا في مصر أنتما ومن آمن معكما من بني إسرائيل: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، استقبلوا القبلة في بيوتكم، ولم يقل لنا هنا ما هذه القبلة، هل هي بيت المقدس؟ أو أن القبلة مكة؟ ما ذكر لنا، ولكن ذكر: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، وأكثر أهل العلم على أن القبلة هي بيت المقدس.

وذهب بعض أهل العلم على أن القبلة هي الكعبة بيت إبراهيم الذي بناه، وهي قبلة جميع الأنبياء، وإنما استقبل النبي ﷺ بيت المقدس في أول الدعوة؛ لأن أهل الكتاب كانوا يستقبلون بيت المقدس وكان ﷺ يحب أن يوافقهم فيما ليس في كتاب الله تبارك وتعالى، حتى نزل قول الله

تبارك وتعالى: ﴿قَدْ رَزَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلتُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] قالوا: ذلك أن المسجد الحرام هو قبلة جميع الأنبياء، وذلك مما حرفة بنو إسرائيل وجعلوا القبلة بيت المقدس دون الكعبة والله أعلم، لكنّ الشاهد من هذا أن موسى - صلوات الله وسلامه عليه - أمر بني إسرائيل ومن آمن معهم أن يتخذوا مكاناً في مصر، وأن يجعلوا بيوتهم قبلة، وأن يقيموا الصلاة، وهل هي صلاة مثل صلاتنا، مثلاً العصر أربع ركعات؟ الله أعلم، لكن يجب أن نعلم أنها كانت صلاة، وفيها ركوع وسجود، ولكن الله أعلم بكيفية هذا الركوع، أو عدد الركعات، أو عدد الركوع، أو عدد السجود.

فرعون يهيم بقتل موسى ﷺ:

تأثر فرعون كثيراً بالذي حدث، وبالهزيمة التي وقعت عليه، فلم يجد بُدّاً من تهديد موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، فقال لمن معه - وكأنه يستشيرهم -: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ [غافر: ٢٦]، وكان هناك من يمنعه، فقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ هذا الكلام يقول عنه أهل العربية: هذا كلام يُضحك الثكلى، والثكلى هي: المصابة بموت أبيها أو أمها أو زوجها أو ولدها، وهذه لا تضحك؛ لأنها مهمومة ومحزونة، وأحياناً بعض الكلمات تُضحك الثكلى؛ لغرابتها.

ففرعون يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ لماذا تريد أن تقتله؟ قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، تصوروا موسى يُظهر في الأرض الفساد، وفرعون مصلح!! كما قال فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وهذا يذكرنا بقول الشاعر:

برز الشعلب يوماً في ثياب الواعظينا
ومشى في الأرض يهدي ويسب الماكرينا

ويقول:

اطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا
مخطئ من ظن يوماً أن للشعلب ديناً

وكذلك مخطئ من ظن يوماً أن لفرعون ديناً، وأنه يريد أن يصلح، وأنه يريد أن يهديهم سبيل الرشاد، وهل فرعون كان وحده أم كان معه من يدفعه دفعا إلى هذه الأمور.

والجواب: كانت معه بطانة السوء كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩] بطانة سوء لرجل سيء، ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْرِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، كيف تقبل أنت يا فرعون هذا؟ وذلك عندما سكت عن موسى، هؤلاء هم الذين دفعوه إلى قوله: ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَعِجِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وبلغ هذا الكلام موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، أن فرعون يريد قتله، ويريد قتل من معه ممن آمن، فماذا قال لقومه؟ قال: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وكذلك محمد ﷺ لما جاءه قومه يشتكون إليه أذى قريش قال: اصبروا وذكر لهم الحديث المشهور: «إن الرجل فيمن كان قبلكم كان يؤتى بالمنشار، فينشر نصفين من مفرق رأسه إلى أخصص قدميه، لا يرد ذلك عن دينه أبداً، ولكنكم قوم تستعجلون»^(١)، إذا بماذا أمرهم موسى؟ أمرهم بالصبر، فالإنسان يصبر على أمر الله تبارك وتعالى وقدره.

ثم قال لهم موسى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

موسى ﷺ يدعو على فرعون ومن ناصره:

وبعد أن هدأ موسى - صلوات الله وسلامه عليه - من روعهم، وطمأنهم؛ التفت إلى ربه يدعو، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، دعا عليهم موسى - صلوات الله وسلامه عليه - فقد آذوه، وآذوا المؤمنين، آذوهم قبل ولادة موسى بذبح الأبناء والاستعباد، وآذوهم بعد بعثة موسى - صلوات الله وسلامه عليه - أيضاً بالقتيل، ولذلك دعا موسى ﷺ على فرعون، وأمن هارون بقوله: آمين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩]، والآن فرعون قرر القتل لموسى - صلوات الله وسلامه عليه -، ولا بد في كل مجتمع مهما كان سيئاً أن يخرج فيه بعض الصالحين، فهذا رجل مؤمن من آل فرعون لم يعجبه هذا الوضع، وهؤلاء الملائكة يشيرون بقتله، وهذا الرجل من آل فرعون من النخبة، ومن الصفوة عندهم ومن المقربين مخالف لهم ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨] ولكنه ماذا؟ ﴿يَكْفُرُ إِيمَانَهُ﴾ أُنْقَتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، يعني ما جريمته؟ فقط أنه قال: ربي الله، وهذه قالها أبو بكر لما خنق عقبة بن أبي معيط رسول الله ﷺ وكاد يقتله، فجاء أبو بكر، ودفعه عن رسول الله ﷺ، وقال: أُنْقَتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ (١)؟!

وكذلك هنا يقول هذا المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه: ﴿أُنْقَتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ليس مدعياً، وإنما جاءكم ببيانات، ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، قال أهل العلم: إن أبا بكر أفضل منه؛

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو ؓ.

لأنه ما كان يكتم إيمانه، ولكنه كان يظهره، أما مؤمن آل فرعون فهو يكتم إيمانه، ولذلك ابتداء بقوله: ﴿وَإِنْ يَكَ كَذِبًا فَلَعَلَّهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكَ صَادِقًا﴾ أنه نبي ومرسل من عند الله؛ ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] يصيبكم خير من هذا الرجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٨] وإن كان موسى مسرفاً على نفسه بدعوى الباطل، وكان كذاباً؛ فإن الله لا يهديه، وأنتم ترون خلاف ذلك، الله هدى موسى ونصره عليكم، وأظهر الآيات التي عنده على السحر الذي عندكم، فالتفت فرعون إلى الملا، ثم قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وهل هذا الرجل هو الذي حذر موسى وأمره أن يخرج من مصر لأن الملا يأترون به؟ قد يكون هو، وقد يكون آخر، والله أعلم.

المهم أن فرعون لما سمع كلام هذا الرجل وخشي أن يؤثر كلامه في الناس قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: في قتل موسى ﷺ، فردّ عليه المؤمن، فقال: ﴿يَنْقَوِرَ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٢٠) مِثْلَ دَابِ قَوْرِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٢١) وَيَنْقَوِرَ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ (٢٢) يَوْمَ نُوَلِّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٢٤) [غافر] كلام موزون قاله هذا الرجل لقومه، يحذرهم في صنيعهم، ويحذرهم من ضلالهم، وهذا فرعون، وما قتل موسى بعد هذا الحوار وسماعه هذا الكلام.

نزول صنوف من العذاب على آل فرعون:

وعاش موسى ﷺ في مصر فترة، ولكن فرعون ظلَّ يُقتل أبناءهم

ويؤذيهم، فسلط الله تبارك وتعالى على آل فرعون آيات، سلط عليهم الجذب، والقحط، ونقص الثمرات لعلهم يرجعون عن غيهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٣) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴿[الأعراف]

أي: من الابتلاءات التي يتليهم الله بها ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ يَمْؤُومِينَ﴾ ﴿[الأعراف]

فأغلقوا الباب أمام موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، لن نؤمن مهما تأتينا بآية لتسحرنا بها، فهم مصرون على ما هم عليه من الباطل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ ﴿[الأعراف: ١٣٣]

وهذه الابتلاءات، هي:

الطوفان: الماء خرج من النيل، فأغرق مزارعهم وبيوتهم.

الجراد: أرسل عليهم الجراد، فكان يأكل جميع محاصيلهم، ويدخل عليهم في بيوتهم حتى تأذوا منه أذية عظيمة.

القُمَّل: هو النمل الصغير الأصفر، وقيل: هو ما نسميه نحن بالقمل نوع من الحشرات، وقيل: غير ذلك، فصار في كل مكان حتى تأذوا منه.

الضفادع: تنام معهم على فرشهم في بيوتهم، فيفتحون القدر تخرج لهم الضفادع، ويفتحون الدرج والخزانة يجدون الضفادع.

الدم: يفتحون الماء ينزل لهم الدم، وكان الدم في ثيابهم، وفي فرشهم، وفي مياههم، وفي النهر، كل شيء انقلب إلى دم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ واحدة تلو الأخرى، وكلما جاءتهم آية ذهبوا إلى موسى: ادعُ الله أن يُذهب هذه ونتوب ونستغفر، فيدعو الله، فتذهب، فيعودون لما كانوا عليه، ثم تأتيهم الثانية، فيذهبون إلى موسى،

وهكذا حتى جاءتهم تلك الآيات من الله جميعاً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴿٧٦﴾ أَيْ: الْعَذَابُ ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ﴿٧٧﴾ أَيْ: وَاحِدَةً مِنَ التِّي ذَكَرْنَا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١] اختلف أهل العلم في تحديدها:

فقال بعضهم: هي سنوات القحط التي أصابتهم، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، هذه التسع آيات البيّنات.

وقال بعضهم: منها فلق البحر، وانبجاس الحجر إلى اثنتي عشرة عيناً.

وقال آخرون: العصا واليد، يعني: الذي يضيف العصا واليد ينقص اثنتين من فوق، والذي يضيف انبجاس الحجر وفلق البحر؛ ينقص اثنتين، إما نقص الثمرات ونقص الأنفس وهكذا، والظاهر أن انبجاس الماء من الحجر وفلق البحر جاء بعد ذلك.

المهم أن موسى جاءهم بتسع آيات بينات صلوات الله وسلامه عليه.

موسى ﷺ يقرر الخروج من مصر:

وظل موسى يدعو إلى الله تبارك وتعالى في مصر إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه موسى أن يخرج من مصر، أو أن فرعون قرّر أن يقتل موسى، المهم أن موسى خرج بمن معه - صلوات الله وسلامه عليه -، ولحق بهم فرعون يريد قتلهم أو ردهم إلى بلاده، وكانوا قد وصلوا إلى

البحر، وفرعون خلفهم، وتفاقم الأمر، واشتد الخطب، واقترب فرعون وجنوده حتى صار قاب قوسين أو أدنى منه، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بموسى الظنون، أنت قلت: سننجوا وستورثنا الأرض.. الآن سيهلكنا فرعون ومن معه، ﴿إِنَّا لَمُذْرِكُونَ﴾ انتهى الأمر، فقال موسى ذلك الرجل الواثق بربه وبوعده ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] أطلقها صلوات الله وسلامه عليه مدوية صكّت الأذان هم يقولون: ﴿إِنَّا لَمُذْرِكُونَ﴾ وموسى الثابت الواثق أمامه البحر وفرعون خلفه ويقول: ﴿كَلَّا﴾، لن يحدث شيء من هذا، لن تُدرکوا، كيف؟! هل سنطير؟! سنختفي؟! تنشق الأرض وتبتلعنا؟! ماذا سنفعل؟ وليس هو الذي يفعل، بل الذي يفعل هو الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فموسى ﷻ لم ينس قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمُّ وَرَأَى﴾ [طه: ٤٦]، ولذلك باطمئنان تام وهو لا يدري كيف سيحدث الأمر؟ لكن يعلم ويدرك علماً يقينياً ثابتاً جازماً أن فرعون لن يصل إليهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنثَا وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْفَالِجُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

انفلاق البحر لموسى ﷻ:

بعد ذلك جاءت البشرية من الله تبارك وتعالى مباشرة ﴿أَنِ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] فمن كان يتصور أن يحدث مثل ذلك؟ ما تصوره أحد، يأتي إلى البحر، هذا البحر العظيم، فيقول تعالى: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضرب البحر بعصاه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ طود من هاهنا، وطود من هاهنا، أرض يابسة وسط البحر.

يقول الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَأَرْجِنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُم مُّتَّبِعُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأِينَ حَاشِرِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ

قَالُونَ ﴿٥٤﴾ [الشعراء] أي: موسى وَمَنْ كَانَ مَعَهُ، فما كان معه إلا نفر قليل هم الذين آمنوا بموسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ لَنَا لَفَاطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ [الشعراء].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ [الشعراء] أي: مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ [الشعراء] أي: وقت الشروق وجهة المشرق ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَنَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْرُكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَجْمِنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٦٦﴾ [الشعراء] كان موسى - صلوات الله وسلامه عليه - كما يذكرون هرب إلى ساحل البحر الأحمر، وكان إهلاك فرعون في العاشر من محرم، ولذلك لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وجد اليهود يصومون العاشر من المحرم، فقال لهم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون، قال: «نحن أحق بموسى منكم» فأمر بصيامه صلوات الله وسلامه عليه^(١).

انفلق البحر فلقتين، وبينهما أرض يابسة، وعبر موسى ﷺ ومن معه، فأتبعه فرعون، فأراد موسى أن يضرب البحر حتى لا يدخل فرعون فيه، فقال الله له: اتركه أنت تريد شيئاً، ونحن نريد شيئاً آخر يا موسى، ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًا ﴿٦٧﴾ وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ ﴿٦٨﴾ [الدخان]، فلما تجاوز موسى البحر؛ قال الله ﷻ: الآن اضربه، فلما ضربه كان فرعون وقومه في الوسط، ففرق فرعون ومن معه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴿٦٩﴾ الآن رأى فرعون الماء يأتيه

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

من كل صوب، وأدرك أنه سيقرق، فماذا قال؟ ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] يقول: أنا الآن
أسلمت، فجاءه الجواب من الله - جل وعلا - : ﴿الْكَفَرُ﴾؟! الآن تسلم؟
أين أنت قبل قليل؟ أين أنت لما جاءك موسى بالبينات؟ الآن؟ لما رأيت
الموت؟ الآن لما أدركك الغرق؟ ﴿الْكَفَرُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٦﴾ فَأَلْوَمَ تُنَجِّجَكَ بِدَنِكَ﴾ [يونس] فقط لماذا؟ ﴿لِكُنْتُ لِمَنْ خَلَقَكَ
ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] لا لأجلك أنت، ولكن لأجل غيرك؛ لأنهم كانوا
يقولون عنه: إنه إله، فإذا غرق يقولون: لم يغرق، واختفى فهو إله،
وسياتي بعد ذلك، ولكن الله سبحانه قال: ﴿تُنَجِّجَكَ بِدَنِكَ﴾ نخرجك جثة
بيدك حتى يعلم الناس جميعاً أنك لست بإله، ولكنك مجرد عبد، شئت
أم أبيت، ﴿لِكُنْتُ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ علامة حتى لا يدعي أحد بعدك
الإلهية، أنت يا من كنت تدعي الإلهية نخرجك جثة ننته منتفخة من الماء
ليراك الناس وليعرفوا قدرك، وليعرفوا قدرهم عندما يتعاملون مع الله ﷻ.

هل فرعون مؤمن؟

هناك من يقول فرعون آمن قبل أن يموت لما قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقُبِلَتْ تَوْبَتَهُ، والصحيح
أنه لم تقبل توبته؛ لأن الله قال له: ﴿الْكَفَرُ﴾؟! ولذلك قال الله تبارك
وتعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ
رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ
كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١٧﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفَرَ وَلَا الَّذِينَ
يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وقال النبي ﷺ: «تقبل توبة العبد ما لم يُعْرِغِرْ»^(١)، فإذا غرغر رأى شيئاً لا يراه الآخرون، ولذلك لم تقبل توبة فرعون؛ لأنه رأى شيئاً لم يره غيره، رأى الموت بأم عينه، وهذه سنة الله ﷻ مع الظالمين: «إن الله يملئ للظالم، فإذا أخذه لم يفلته»^(٢) وفرعون حشر ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، وقال: ﴿الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، فأمهله الله ﷻ حتى جاء اليوم الذي أخذه فيه كما قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤١﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم].

ونجى الله تبارك وتعالى موسى ﷺ؛ لأنه كان مع الله، ومن كان مع الله كان الله معه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إهلاك فرعون في أكثر من موضع، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنَّا غَفِيلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف]، وقال جل ذكره: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]، وقال: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء: ١٠٣]، وقال: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٧٨]، وقال: ﴿فَلَمَّا أَهَسُّوْنَا أَنقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات]، هذا حاله مع موسى ﷺ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

أما حال فرعون في الآخرة؛ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسَأُ الْوَرْدَ الْمَوْرُودَ﴾ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسَأُ الْوَرْدَ الْمَوْرُودَ ﴿٩٩﴾ [مرد]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذُوقُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿١٠٢﴾ [القصر]، وقال: ﴿وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ﴿١٠٥﴾ أَلْتَأْتَأُ بِعُرْشُوتٍ عَلَيْهَا غُذُوًا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غانر]، هذا حال فرعون مع موسى صلوات الله وسلامه عليه.

اجعل لنا آلهة:

وتجاوز موسى ﷺ ومن معه البحر بعد أن خرجوا من مصر ووقعت أحداث كثيرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] مَرَّوْا عَلَى قَوْمٍ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ بَعْدَ أَنْ جَاوَزُوا الْبَحْرَ، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] هَذَا أَوَّلُ السَّيْلِ، وَأَوَّلُ السَّيْلِ قَطْرَةٌ، وَلَكِنَّهَا قَطْرَةٌ قَبِيحَةٌ، ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أَوْ لَيْسَ لَكُمْ إِلَهٌ؟ أَلَيْسَ إِلَهُكُمْ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - الَّذِي نَجَاكُمْ الْآنَ مِنْ فِرْعَوْنَ، ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَعْنِي: عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ مَرَرْتُمْ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَعَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأعراف] وهذه هي أول قضية.

قال أبو واقد الليثي خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، والذين خرجوا مع النبي ﷺ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المهاجرون والأنصار: وهم الذين خرجوا مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة، ففتحها الله لهم.

القسم الثاني: وهم أهل مكة الذين أسلموا بعد الفتح.

القسم الثالث: وهم قوم من قبائل عربية أخرى جاؤوا ووافقوا النبي ﷺ في مكة بعد أن خرج من مكة إلى حنين ومعه عشرة آلاف، يقول أبو واقد الليثي: وكنا حديثي عهد بجاهلية، أي: الذين معهم ليس من المهاجرين والأنصار ولكن من آخرين من أهل مكة، الذين أسلموا الآن، أو غيرهم من الذين جاؤوا من خارج مكة وكانوا حديثي عهد بجاهلية ما عرفوا الإسلام حق المعرفة، يقول: فمررنا بسدره، قلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، فالكفار لعدم تعلقهم بالله ولتعلقهم بالترهات والتوهامات كانوا يعتقدون في شجرة سدره ذات أنواط - أي لها فروع - يأتون إليها فيعلقون عليها الأسلحة قبل القتال اعتقاداً منهم أنهم إذا علقوا الأسلحة على هذه الشجرة فترة من الزمن ثم أخذوها؛ فإنهم ينتصرون ولا بد، وسبب نصرهم ماذا؟ أنهم علقوا الأسلحة على هذه الشجرة، فقالوا للنبي ﷺ: لماذا لا نفعل ذلك فننتصر؟ فلنعلق أسلحتنا على هذه الشجرة، فقال لهم النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ ثم قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾»^(١).

إذاً أول قضية قالها بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ متى؟ بعد نجاتهم من فرعون مباشرة قبل استقرارهم، وعنّفهم موسى ﷺ، فسكتوا، ولكن ما في قلوبهم إلى الآن يرتج عليهم كما يرتج المرجل^(٢).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ذهب موسى ليبتعد عن

(١) أخرجه أحمد (٢١٨/٥)، والترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٠٨).

(٢) أي: من إصرارهم على عدم الاستقامة على الحق.

بني إسرائيل ليناجي ربه جل علا، وكان قد صام ثلاثين يوماً ثم بعد ذلك أفطر حتى تذهب رائحة الفم مما يخرج من المعدة بسبب طول الصيام، فلما جاء لميقات ربه تبارك وتعالى، قال الله له: لماذا أفطرت يا موسى؟ قال: حتى تتغير رائحة فمي، قال: أو ما علمت أن رائحة فم الصائم أفضل عندي من ريح المسك؟ ارجع صم عشرة أيام ثم تعال، فرجع موسى وصام عشرة أيام، وهي مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ولما أراد أن يخرج ترك أخاه هارون ﷺ في بني إسرائيل، وقال له: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وذلك أن موسى ﷺ هو صاحب الرسالة، وأما هارون ﷺ فهو تابع له، وإن كان نبياً كريماً مع موسى صلوات الله وسلامه عليه، ولكن موسى هو الأصل، وهو من أولي العزم من الرسل، ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وهذا ليس بعيب أن يقول الرجل لرجل صالح: «أصلح»، كما قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَتَى اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وليس في هذا منقصة لهارون لأن ﴿الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

مجيء موسى ﷺ لميقات ربه سبحانه:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يقول أهل العلم: لما سمع لذة الخطاب اشتاق إلى رفع الحجاب؛ أي: لما سمع كلام الله اشتاقت نفسه لرؤيته - جل وعلا -، وذلك أن أعظم نعيم يُعطاه المؤمنون في الجنة رؤية الله تبارك وتعالى، فموسى اشتاق إلى رؤية الله، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] لا تستطيع أن تراني، وذلك أن الله تبارك وتعالى أعطاه قوة بقدر، وهذه القوة لا يستطيع من خلالها أن يتحمل رؤية الله جل وعلا، وذلك أن الله جل وعلا كما أخبر عنه

نبيه ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»^(١)، فالله ﷻ رحمةً بموسى قال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ أنا منعتك رحمة بك، قال الله جل وعلا: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، جبل من حجارة يصير دكاً لماذا؟! لأن الله جل وعلا تجلى له، لم يتحمل، فكيف بك أنت أيها الإنسان الضعيف كيف تتحمل ذلك؟

قال تعالى: ﴿وَحَزَرَ مُوسَىٰ صَوْعًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] سجد لله ﷻ، وقيل: أغمي عليه، صُعبَ لما رأى الجبل اندك بهذه السرعة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُنْتِ لِيٰكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] مِنْ أَنِي سَأَلْتُكَ هَذَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة:

ورؤية الله تبارك وتعالى ممكنة في الآخرة، وذلك أن الله - جل وعلا - جعل من ثواب المؤمنين في الجنة أنهم ينظرون إلى الله جل وعلا، بل هي أعظم نعمة، ولذلك قال الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين في الجنة: ﴿وَجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ [القيامة] من النصرة والبهاء والنور ﴿إِلَّا رِيًّا نَاطِرَةٌ﴾ [٢٣] [القيامة] أي: تنظر إلى الله ﷻ، وقال جل وعلا: ﴿عَلَى الْأَرْبَابِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين] أي: ينظرون إلى نعم الله تبارك وتعالى، وأعظم نعم الله النظر إلى وجهه ﷻ، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل الله لذة النظر إلى وجهه الكريم ﷻ، بل إن الله - جل وعلا - جعل من عقوبة الكفار أنهم لا يرون الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُورُونَ﴾ [المطففين]، قال الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لما حَجَبَ الكفار، فإنه لن يحجب المؤمنين.

وقال ﷺ: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَسْئَةٍ وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى: الجنة وكل حسنٍ فيها، والزيادة كما قال النبي ﷺ: «الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى»^(١)، وقال النبي ﷺ عن رب العزة ﷻ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، والله ﷻ إذا كان يوم القيامة كشف الحجاب للمؤمنين، فيرون وجهه تبارك وتعالى، وقال النبي ﷺ: «إنكم سترون ربكم لا تضامون في رؤيته كما ترون القمر ليلة البدر»^(٢)، والقمر ليلة البدر لا يحتاج الإنسان أن يدافع الناس حتى يراه، فالكل يراه، والكل في مكانه، فيقول النبي ﷺ كما أنكم ترون القمر دون مزاحمة من أحد كذلك سترون ربكم، بل إذا كان الجبل الذي هو جماد مكنه الله - جل وعلا - من رؤيته، فعباداه المؤمنون أولى أن يُمكنهم الله من رؤيته جل وعلا.

رجوع موسى ﷺ إلى قومه:

خرج موسى إلى ميقات ربه ثم رجع بعدها إلى قومه فماذا رأى؟ يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِمَّن بَعْدَ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ تَحِبُّونَ لَأُقَدِّمَنَّ أَفْسَاحًا مِّن دُونِ هَذِهِ لِيُذْخِرَنَّ لَكُمْ مِمَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَصْبَأُ إِلَيْكُمُ الْعِبَادَةَ لِقَوْمِي الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا إِذْ كُنتُمْ كَافِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة] وقال ﷺ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن جُلُودِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَّا يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَد ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا أَصْبَأُكَ

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

عَنْ قَوْمِكَ بِمُوسَى ﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٣﴾ قَالَ
فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ
أَسِيفًا قَالَ يَقْتُورِ أَلَمْ يَبْعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ
أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾
أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ [طه].

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيفًا قَالَ بِسْمَا
خَلَقْتُوْنِي مِنْ بَعْدِي أُعِجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ
قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُوْنِي فَلَا تُشْحِتْ بِى الْأَعْدَاءَ وَلَا
تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقْتُورِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ
بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِيْنَ حَتَّى
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُونَ
أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ
بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا
مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا
لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه].

فهذه الآيات ذكرت في قصة موسى مع قومه وعبادتهم للعجل،
وهذا من فساد رأيهم، وعطب فكرهم.

عبادة العجل:

خرج موسى لميقات ربه وترك هارون عند قومه، فماذا فعلوا؟

جاءهم السامري، وهو رجل ليس من بني إسرائيل، وإنما التحق بهم، والذي حصل أنهم لما هربوا من فرعون كان بعض الناس قد سرق ذهباً من الأقباط؛ لأنهم قالوا: طالما سنخرج نسرق ذهباً فسرقوه، ثم لما تجاوز موسى وقومه البحر، وإذا هذا الذهب معهم، وهو معنى قولهم لموسى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] هو الذهب الذي سرقوه، وقد أمرهم موسى ﷺ بإلقائه في اليم؛ لأنه لا يحل لهم، وقال: كيف تستحلونه؟ فألقوا الذهب، فقام السامري، وجمع الذهب كله، وهذا يدل على أن الذهب كان كثيراً، فصهره ثم صنع منه عجلاً، وهذا العجل صنعه بطريقة بحيث يدخل الهواء من دبره، فيخرج صوت من فم هذا العجل، فتعجبوا، وقالوا: ما هذا؟ عجيب هذا العجل! فقال لهم السامري: هذا إله موسى الذي ذهب ليلتقي به، وقال: هذا إله موسى خاصة أن موسى قال لهم: ثلاثون يوماً أذهب وأتي، فتأخر موسى عشرة أيام، وبعد أن تجاوز موسى الثلاثين أخرج السامري العجل، فقالوا ما هذا العجل؟ قال: ضاع موسى نسي إلهه، وسيأتي موسى ويقول لكم: هذا إلهي. قال هارون اتقوا الله ليس هذا إله موسى، هذا عجل، هذا صنم، فلم يلتفتوا إلى هارون، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فما كانوا يخافون من هارون؛ لأنه هين كئيب، ويخافون من موسى كثيراً؛ لأنه كان شديداً عليهم، واستمروا على عبادة ذلك العجل عشرة أيام، والله - جل وعلا - قال لموسى: إن قومك اتخذوا العجل من بعدك، والآن ارجع إليهم تجدهم يعبدون العجل ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، فرجع موسى إلى قومه غاضباً ﴿غَضِبْنَا أَسْفًا﴾ [طه: ٨٦] والأسف هو أشد الغضب يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمُ﴾ [الزخرف: ٥٥] وآسفونا أغضبونا، ولما دخل عليهم؛ وجدهم يعبدون العجل، فألقى الألواح التي فيها كلام الله، ولكن بدون شعور،

وذلك مما رآه من فعل بني إسرائيل مع العجل، فالتفت فوجد هارون مع القوم، والعجل يُعبد، فقال: أين أنت يا هارون من هذا؟ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] من الغضب كيف عُبد العجل؟ ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ يا أخي ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُخَشِّمُ بِكَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، خشيت أن تقول لِمَ لَمْ تنتظرنني؟ فانتظرتك حتى تأتي، فعذر أخاه، وذهب إلى قومه، فقال لهم: لماذا عبدتم العجل؟ أعجلتم العذاب؟ أتريدون أن يُنزل الله عليكم العذاب؟ ﴿قَالَ يَقُولُونَ لِمَ يَعْذِبُكُمُ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ ﴿٨٦﴾ قالوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا ﴿طه﴾ نحن ألقينا الزينة التي سرقناها كما أمرنا، ثم بعد ذلك وجدنا هذا العجل، وقالوا: إنك نسيت ربك، وهذا ربك تركته، فعبدناه على هذا الأساس، والسامري هو الذي صنع لنا هذا العجل.

ولننظر كيف كانوا مع هارون فقد استضعفوه وكادوا أن يقتلوه، والآن مع موسى هم يخافونه، وقالوا: إنه السامري، فجاء بالسامري فقال: ما أمرك؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ﴿٩٦﴾ [طه: ٩٦]: رأيت أشياء ما رآها الناس، وما هذه الأشياء؟ قال أهل العلم: كان جبريل على فرس لما أغرق الله ﷻ فرعون وقومه في البحر، وموسى ﷺ لما جاء ليضرب بعضاه في البحر بعد أن عبروا قال له جبريل: دعهم يتقدمون لهم شأن آخر، فلما نجى الله ﷻ موسى ومن معه، وكان معهم جبريل، وهنا السامري انتبه أن هذا ليس إنساناً عادياً رغم أن جبريل كان بصورة بشر، فقال: هذا يأمر موسى ويطيعه موسى من هذا؟ فلما وضعت فرس جبريل حافرهما على الأرض جاء وأخذ أثراً من هذا المكان وجعله في العجل فظهر له الصوت، ولذلك قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل

وفرسه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ وهو جبريل وأثر قدم فرسه ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: في جسد العجل؛ فكان الصوت ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦].

فعرف الآن موسى ﷺ قصة العجل، إذأ هذا الصوت الذي يخرج من العجل بسبب ما أخذه من أثر فرس جبريل ﷺ، فقال له موسى: أنت الآن لك عقوبة خاصة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ نُخَلِّفَهُنَّ﴾ [طه: ٩٧] سيكون لك موعد وعذاب عند الله جل وعلا، وهذا العجل الذي تزعم أنه إله سأحرقه حتى يعلم الجميع أنه ليس بإله ﴿لَتُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، ثم أحرق العجل، ثم نسفه في اليم - صلوات الله وسلامه عليه -، وانتهى أمر العجل، وتابوا، ورجعوا، وكما أن المعوج لا يستقيم؛ كذلك هؤلاء القوم فيهم اعوجاج شديد.

بنو إسرائيل يُؤمرون بقتل أنفسهم:

قالوا تبنا يا موسى قال: ﴿فَأَقْضُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] هذه التوبة عند الله تبارك وتعالى، فجاءتهم ظلمة، فصار بعضهم يقتل بعضاً، حتى قيل: إنه قُتِلَ منهم قريب من سبعين ألفاً، ورفعت الظلمة، وقالوا: يا موسى هل تاب الله علينا؟ قال تاب الله عليكم، ولكن الآن سأختار منكم جماعة: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أخذ موسى سبعين رجلاً من خيرة بني إسرائيل، وذهب بهم وقال: انتظروا هنا حتى أناجي ربي، قالوا: أسمعنا كلام ربك، لا بد أن نسمع معك، فقال: تعالوا معي، فاقترب موسى، ثم كلم الله موسى، فسمعوا الكلام، فقالوا: يا موسى من هذا الذي كلمك؟ قال: ربي، قالوا: ﴿يَتَمُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وهؤلاء أحسن الناس في بني إسرائيل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] فلما رأى موسى

السبعين هلكوا، وهم أحسن الناس في بني إسرائيل؛ قال: يا رب ماذا أقول عندما أرجع لبني إسرائيل؟ أقول لهم: إن الله أهلك السبعين؟ اللهم أحيهم واقبل توبتهم، وبدأ يدعو الله تبارك وتعالى ويستجير به ﷻ، فاستجاب الله لموسى وأحياهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة]، فأحياهم الله تبارك وتعالى مرة ثانية.

والله ﷻ ذكر الإحياء خمس مرات في سورة البقرة في هذا الموضع، والثانية في قصة البقرة: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَآلِمُواقٍ وَرَبِّكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦] التي ستأتينا، والثالثة الجماعة من بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] والرابعة طيور إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والخامسة قصة صاحب الحمار لما أماته الله ﷻ وحماره، ثم أحياه أمام عينيه ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتُ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظِرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظِرْ إِلَىٰ الْعِطَابِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة]، وهذه كانت الأولى في بني إسرائيل.

بنو إسرائيل والتهيه:

التهيه فترة من الزمن أخبر الله تبارك وتعالى بها عن بني إسرائيل، وذلك لما أمرهم موسى أن يدخلوا بيت المقدس، فرفضوا ذلك، وقالوا له: ﴿فَأَذَهَبَ آتَتْ وَرَبُّكَ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٢٤] ضرب الله عليهم التيه

يمشون لا يدرون أين هم لمدة أربعين سنة، فجاجعوا، فرزقهم الله المنّ والسّلوى.

والمنّ: حبات بيضاء من السماء يأكلها الشخص، فيجد فيها لذة.

والسّلوى: العسل، وقيل: السلوى هو: بعض الطيور كالسمان بدون تعب وهم جلوس يأتيهم المنّ والسّلوى، فماذا قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَسُوءُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] مللنا من المنّ والسّلوى، إذا ماذا تريدون؟ ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُؤُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١] هم عندهم المنّ والسّلوى ويريدون البصل، والبقل، والعدس، والثوم، والقثاء، فقال موسى: ﴿أَتَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] وليس مصرَ الدولة المعروفة وإنما مصر من الأمصار يعني: هذه الأطعمة التي تريدون موجودة في كل مكان، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] وهذا لتعنتهم وعنادهم، وكذلك لما صنعوا بموسى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَوْلًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، فهذه أمة غريبة للغاية، الآن جاءهم، وقال: خذوا التوراة. قالوا: لا نأخذ التوراة، فنتق الله عليهم الجبل - أي رفعه -، وصار معلقاً في الهواء. قالوا: سمعنا وعصينا!! قال: أنزل عليكم الجبل؟ قالوا: الآن سمعنا وأطعنا.

قصة البقرة:

ثم حدث في بني إسرائيل أن وجدوا قتيلاً، ولم يدروا من الذي قتله، فأمسكوا بشخص ظنوه هو القاتل، فقال قاتل منهم: هل تعرفون أن هذا هو القاتل لتتهموه؟ عندهم موسى اذهبوا إليه هو نبي وسيعلم، وهنا إما أنهم سألوا موسى على سبيل الصدق أو أنهم سألوه على سبيل

الاستهزاء والسخرية؟ فجاؤوا إلى موسى، وقالوا: يا موسى قُتِلَ لنا قَتِيلٌ فمن الذي قتله؟ وموسى لا يعلم الغيب صلوات الله وسلامه عليه، فالذي يعلم الغيب هو الله ﷻ قالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يخبرنا من الذي قتل قَتِيلَنَا؟ ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] قالوا: نقول لك قتل قَتِيلَنَا، وتقول اذبحوا بقرة!! ﴿الَّتِي خَذْنَا هُرُوقًا﴾ [البقرة: ٦٧] أتسخر منا؟

فقال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] قال: أرايتم مني هذا؛ كم سنة عشتُ معكم، فهل مرة سخرت منكم؟ هل وقع مني هذا لكم من قبل؟ فقال لهم: اذبحوا بقرة، ولماذا بقرة؟ لماذا لم يكن حملاً أو شاة أو أسداً أو نمراً لماذا بقرة؟ لأنهم عبدوا العجل، فحتى يخرج حب العجل من قلوبهم.

قال الله تبارك وتعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْكَلُوا مَا تَوَمَّرُوا﴾ [البقرة] لا هي كبيرة، ولا صغيرة، فهي وسط ﴿فَأَفْكَلُوا مَا تَوَمَّرُوا﴾ [٦٨] قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَأُ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْهَأُ تَسْرُ النَّظِيرِ﴾ [٦٩] قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ [البقرة] قالوها: زدنا من صفاتها، هذا لا يكفي، فقال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا لَئِن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، الآن نبحث عنها.

قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فلو ذبحوا أي بقرة لكانوا قد نفذوا الأمر، ولكنهم تعنتوا، أي بقرة تُذبح؟ قال لهم: لا فارض، ولا بكر، شددوا على أنفسهم وتعنتوا، فقالوا: ما لونها؟ قال: صفراء، ولكن فاقع لونها تسر الناظرين، فوجدوا مجموعة قليلة من الأبقار تنطبق عليها هذه الصفات، فقالوا بعد ذلك: أخبرنا أيضاً عن صفات هذه

البقرة، قال: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] ليست مذلة، ولا تحرث الأرض، فهي بقرة مذلة، ﴿وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ لا تعمل بسقي الزرع.

وقيل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾: لا عيب فيها ﴿فَالَوْ أَلْتَنَ حِثَّ بِالْحَقِّ فَذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] وجدوا الأوصاف التي يبحثون عنها، ولأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله ﷻ عليهم، فقال صاحبها بعد أن زاد فيها أكثر من مرة: لا أبيعها حتى آخذ وزنها من الذهب، فجمعوا ذهبهم كله، ووزنوها له وأعطوه، فلما أعطاهم البقرة؛ أخذها موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، فذبحها، ثم أخذ جزء من البقرة، والله أعلم ما هو؟ قيل الذراع، وقيل الفخذ، المهم أنه أخذه، وضرب به الميت، فقام حياً بقدرة الله ﷻ، وقال موسى: الآن هو الذي يخبركم مَنْ الذي قتله؟ فقام المقتول بين أظهرهم، وقال قتلني فلان، فأخبر بقاتله ثم مات.

أذهب أنت وربك فقاتلا!!

أمر الله تبارك وتعالى موسى أن يقول: ﴿أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] على الأرض بعد أن كانوا مستعبدين مضطهدين صاروا ملوكاً، ﴿وَأَنَّكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، ثم بعد كل هذا أمرهم بأمر، فقال: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة]، وهي بيت المقدس، وكانوا قد طردوا منها، فأمرهم أن يدخلوها، وهذا الجهاد هو جهاد الدفع - يعني دفع الكفار عن أرضهم -، وأما جهاد الطلب؛ فلا يكون إلا في أمة محمد ﷺ.

فالجهد نوعان: جهاد دفع، وجهاد طلب.

وجهاد الدفع عند كل الأمم تدافع عن نفسها، وأما جهاد الطلب

- وهو نشر الدعوة - فلم يكن إلا في أمة محمد ﷺ، ولذلك كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة والنبي ﷺ هو الذي بُعث إلى الناس كافة، يجاهد ويخرج من بلاده إلى بلاد أخرى حتى ينشر الله الإسلام على الأرض كلها.

فهنا أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عَلَىٰ آدَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ ﴿المائدة﴾، ولم يقولوا: يا نبي الله، ولم يقولوا: يا رسول الله، وإنما نادوه باسمه، وهذا سوء أدب منهم مع موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة]، ثم قال الله تبارك وتعالى مبيناً أنه ما يزال فيهم صالحون ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ [المائدة: ٢٣] فقط، حتى إنه قال البعض: هذان الرجلان أحدهما: نبي، وهو: يوشع بن نون، والثاني: رجل صالح، وبعضهم قال: إنهما هارون ويوشع ﷺ، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تبارك وتعالى ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أنعم الله عليهما أن وفقهما لهذه المقولة ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٣]، وكان قوم موسى ما سمعوا شيئاً، فقالوا ثانية: ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤] تكلم هذان أو لم يتكلما ﴿لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، ويا ليتهم سكتوا، لكنهم زادوا، فقالوا كلمة الكفر: ﴿فَأَذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فبعد كل هذا الذي رأوه من موسى، ومن الله ﷻ؛ يقولون: ﴿فَأَذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا﴾ فماذا تركوا لفرعون؟ وماذا تركوا للنمرود؟ وماذا تركوا لقارون؟ وماذا تركوا لهامان؟ هكذا يقولون لنبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، وانظروا إلى قولهم: ﴿أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾، ولم يقولوا: أنت وربنا، وكأنه ليس برب لهم والعياذ بالله.

وهنا غضب موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، فقال - يعتذر إلى الله من فعل قومه -: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥] فقط، فماذا أصنع بهم يا رب؟ ﴿فَأَفْرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، فسامهم فاسقين، والفاسق هو الخارج عن الشيء، وهم خارجون عن الطاعة، عن طاعة موسى ﷺ، فجاء الجواب من الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] أي: هذه الأرض المقدسة محرمة عليهم، فالذين يقولون هذا الكفر لن يدخلوها أبداً، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

قال بعض أهل العلم: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، فيجعلون التيه أربعين سنة، ثم يدخلون الأرض المقدسة، فتكون العقوبة محددة بأربعين سنة، أو تكون ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويقف، فتكون محرمة عليهم إلى الأبد: وزيادة على ذلك ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] لا تأس عليهم أبداً؛ لأنهم يستحقون ما سيصيبهم، وهؤلاء الذين قال الله فيهم ﷻ: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فهؤلاء خير أتباع الرسل في ذلك الزمان، ولكم أن تتصوروا كيف كان يُصنع بالرسول غير موسى - صلوات الله وسلامه عليه -.

ولما خرج النبي ﷺ يوم بدر - خرج يريد العير أي: القافلة -، وقدّر الله تعالى أن تسلّم العير، وأن تأتي قريش بحدها، وحديدها، وبرجالها، وفلذات أكبادها، فيختار الله تبارك وتعالى قريشاً، ويختار الناس العير، ولا يقع إلا ما يختاره الله تبارك وتعالى، والنبي ﷺ إنما

أخذ البيعة من الأنصار أن يدافعوا عنه، لا أن يقاتلوا معه، واستشارهم بعد أن جمعهم، وقال: «فلتت العير، وجاءتكم قريش بفلذات أكبادها فماذا ترون؟ نقاتلهم أو نرجع؟» يريد ألا يُجبر الأنصار على شيء خلاف ما تم الاتفاق عليه، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه وأحسن، فسكت النبي ﷺ، وقال: «أشيروا عليّ»، فتكلم عمر رضي الله عنه وأحسن، فسكت النبي ﷺ، وقال: أشيروا عليّ، فوقف سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال: كأنك يا رسول الله تعنينا، تريد الأنصار؟ قال: «نعم»، فتكلم سعد بن معاذ رضي الله عنه فأحسن، وقال: والله يا رسول الله لو خُضت بنا بَرَك الغماد؛ خضناه معك^(١)، وقام المقداد بن عمرو رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن امض ونحن معك.

وفي رواية عند أحمد^(٢): ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إننا معكما مقاتلون.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فكانه سري عن رسول الله ﷺ^(٣).

وفي رواية: ولكننا نقاتل عن يمينك، وعن يسارك، ومن بين يديك، ومن خلفك. حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: والله لتمنيت أني قلتُ هذه الكلمات من شدة إعجابه ﷺ.

ولذلك فَضَّلَ اللهُ أصحاب محمد ﷺ على أصحاب جميع المرسلين، وسيأتينا في قصة عيسى عليه السلام أن الحواريين الذين أنزل الله

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩) وفيه أن القائل هو: سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) «مسند أحمد» (١٨٠٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامِنًا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة]، الحواريون الذين قال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] الصفوة من أتباع عيسى ﷺ ماذا يقولون لعيسى ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، فهؤلاء هم الصفوة من أتباع الرسل.

كذلك ما ورد في قصة طالوت مع قومه، وهو رجل صالح، وكان معه نبي وهو شمويل، ونبي آخر وهو داود ﷺ، عندما يأمرهم أن يقاتلوا قوم جالوت وجنوده، ثم بعد ذلك يقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَفَرَّوْا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهم الصفوة ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهؤلاء هم صفوة الصفوة، وانظر حال الصفوة من أصحاب محمد ﷺ، فهم خير أصحاب الرسل مطلقاً، ولذلك يدخلون الجنة بعد الأنبياء مباشرة؛ لأنهم خير أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موسى يضرب بعصاه الحجر:

قال الله تبارك وتعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَابًا أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقال الله جل وعلا: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، إذا سقاهم الماء العذب بمعجزة، ثم ظلل عليهم الغمام،

وهذا في التيه، في الأربعين سنة التي كانوا فيها تائهين، يقول: ﴿وظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ حتى صارت الصحراء ليست صحراء، بل مظلمة بالغمام، لا تأتيهم الشمس ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوٰ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وهم في الصحراء لا يحتاجون الصيد، والماء موجود، وكذلك المن والسلوى، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟! في الحضر قد لا تجد هذا الشيء فكيف في الصحراء؟! كل شيء موجود ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، بعد أن أكلوا قالوا أين الشراب؟ فانبجست من الأرض اثنتا عشرة عيناً، وبعد أن طعموا قالوا: أين الظل؟ فظلل الله عليهم بالغمام، وهكذا ظلوا في التيه طوال هذه الفترة، ثم بعد ذلك قال لهم يوشع بن نون ﷺ: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾، وذلك أن هارون ﷺ قد مات في التيه، وكذلك موسى ﷺ مات في التيه، وحلّف هارون وموسى نبياً آخر، وهو يوشع بن نون ﷺ، وقد استطاع أن يقنعهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، وقد ملأوا أربعين سنة، حتى يقال: إن الجيل كله مات، وهذا على القراءة التي قلنا فيها بالوقف على ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] يعني: لن يدخلوها أبداً الأبدين، ثم جاء جيل آخر، وهو الذي دخل بيت المقدس مع يوشع بن نون.

وإذا قلنا: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فبقية منهم والجيل الذي بعدهم، ولكن الأشهر أن جميع ذلك الجيل قد ماتوا، وخرج جيل جديد، لكن الجيل الجديد هذا جيل من بني إسرائيل، فمن شابه أباه فما ظلم، وهذا الجيل الجديد مع يوشع بن نون نبي الله، يقول لهم الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وهي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَزَيِّدُوا الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

استجابتهم ليوشع بن نون ﷺ:

جاؤوا ليوشع ﷺ، فقالوا: ندخل فقد مللنا من الصحراء، نريد الرجوع إلى بلادنا وأهلينا، قال: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ﴾ [المائدة: ٢١] لا بد أن تجاهدوا، فقاتلوا مع يوشع ﷺ، ودخلوا الأرض المقدسة، فماذا قال الله جلّ وعلا لهم: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ شُكْرًا لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: اللهم حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا، واغفر لنا ما مضى، فماذا فعلوا؟ دخلوا الأرض المقدسة يزحفون على مقاعدهم عناداً، كما قال النبي ﷺ: «فدخلوا يزحفون على إستانهم»^(١). الله ﷻ يقول: اسجدوا، وهم يزحفون على مقاعدهم عناداً لأنبياء الله جلّ وعلا، والله يقول لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: يا رب حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا، فقالوا: حنطة حبة في شعرة^(٢)، ودخلوا الأرض، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَنْسِفُونَ﴾ [البقرة].

قصة قارون:

وكان في قوم موسى ﷺ رجل ذكر الله قصته، يقال له: قارون. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] ذكر أهل الكتاب أن قارون كان ابن خالة موسى أو ابن عمته، وكان قارون هذا قد آتاه الله من الأموال الشيء العظيم، وكانت عنده كنوز، مفاتيحها يصعب على الرجال الأقوياء حملها، وكان موسى ﷺ يعظه، ويذكره بالله دائماً كلما رآه، ويذكره بالدين وترك الفجور والكفر والعصيان، وهو معاند إلى أن ملّ من دعوة موسى ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣)، ومسلم (٣٠١٥).

(٢) التخریج السابق.

له، فجاء بجارية وأعطاهما مالا، وقال لها: اتهمي موسى بأنه اعتدى عليك، فوافقت وادّعت على موسى أنه زنى بها، فقال الناس: موسى؟! هذا غير معقول، فبعضهم صدق وقيل، وبعضهم لم يصدق، فدعى موسى ربه أن يظهر الحق، فأصابته هذه الجارية رجفةً وخوفٌ شديد، فاعترفت، وقالت: لا، لم يصنع بي موسى شيئاً، قارون هو الذي أعطاني المال، وأراد أن يفضح موسى ﷺ.

وقد ذكر الله ﷻ قصته، وقصة الكنوز التي أعطاهها الله له، فقال: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْمُضْبَكِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص] ما آتاني الله شيئاً، إنما أخذته على علم عندي.

قال الله: ﴿أُولَئِكَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَبِيتَ لَنَا بِمِثْلِ مَا آوَفَ قُرُونٌ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿وَهَذَا فَضْلُ الْعِلْمِ ﴿٨٠﴾ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّادِقُونَ﴾ فكانت النتيجة: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص]، وهو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨١﴾﴾ [يسر] فانتهى الأمر.

قال الله جل وعلا: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، فلا أحد ينصره، ولا هو يستطيع نصر نفسه ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ

لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴿ [القصص: ٨٢]؛
لأنهم تمنوا مكانه وتمنوا أن يكونوا قد خرجوا في زينته كما يخرج، فلما
رأوا ما صنع الله به خافوا وأذعنوا لله ﷻ.

فالله ﷻ لا يحب المتكبرين؛ لأنه لا يحق لأحد أن يتكبر، الذي
له أن يتكبر هو الله وحده ﷻ، فهو صاحب الكمال والجلال، وأما
الإنسان فكما قيل: أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين
ذلك يحمل العذرة، فهو جيفة إن تركتها ولم تدفنها أنتنت، فهذا هو
الإنسان تقتله شرقة، تؤذيه بقة، فعلى ماذا يتكبر؟!

قالوا: ﴿وَيَكَاكُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُغِيبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴿ [القصص: ٨٣].

موسى والخضر ﷺ:

روى البخاري ومسلم^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حدثنا أبي بن
كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن موسى ﷺ قام خطيباً في بني إسرائيل، خطبة
ذرفت منها العيون، وخشعت منها القلوب، فقام رجل من بني إسرائيل،
فلحق بموسى، ثم سأله، فقال: أي الناس أعلم؟

فقال موسى: أنا.

يقول النبي محمد ﷺ: «فعتب الله عليه، إذ لم يرِدْ العلم إليه»،
وهذا عتاب من الله تعالى لموسى، كأن الله يقول له: هلا قلت: الله
أعلم، أو قلت: أنا والعلم عند الله، لماذا تجزم بقولك: أنا، والناس
يتعلمون منك، وأنت نبي كريم؟ بل علّم الناس أن ينسبوا العلم دائماً
إلى الله ﷻ، فعتب الله عليه في هذه الكلمة.

(١) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

فقال الله له: «بلى لي عبد في مجمع البحرين هو أعلم منك، فما كان من نبي الله موسى إلا أن قال: أي ربّ ومن لي به»، وهذا يدلّ على أن موسى كان متواضعاً صلوات الله وسلامه عليه، وإنما قال: أنا ليس من باب الاستعلاء على الناس، وإنما أخبر بما يعلم، وإنما عتب الله عليه أنه لم يقل: الله أعلم.

فقال الله له: «تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل وحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ»، والحوت هو السمكة، وكل ما يعيش في البحر يقال: له حوت، ومنه قول النبي ﷺ عن طالب العلم: «إنه يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر»^(١) أي: الأسماك التي تعيش في البحر، وليس الحوت المعروف الذي هو أكبر الأسماك، والمكتل هو: الزمبيل، وجاء في بعض الأحاديث أنه حوت مُملّح، وفيها أنه حوت ميت، وفيها أن الله قال: متى ما بَعَثْتُ الروح في هذا الحوت تجدُ صاحبك، إذا أخذ حوتاً ميتاً مملحاً حتى لا يتعفن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرُحُ حَقًّا أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ [الكهف]، وذلك أنه أخبر أنه سيجده عند مجمع البحرين ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾، يعني: دهوراً؛ أي: أستم حتى أجد هذا الإنسان.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا بَلْعًا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١].

قال النبي ﷺ: «ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة؛ وضعا رؤوسهما، فناما فاضطرب الحوت، فسقط في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء» أي: أمسك عنه جريان الماء، فوقف مثل الطاق «الخشبة»، يراه

(١) أخرجه أبو داود في (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وهو في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

فتى موسى، «فانطلقا بمشيان بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتْنِهِ ءَايْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]»، فتى موسى رأى الحوت، وهو يخرج وموسى ما رآه، فقد كان نائماً، لكن فتى موسى ﷺ نسي أن يقول له: إني فقدتُ الحوتَ في ذلك المكان، فاستمرا في المشي، وليس الغداء هو الحوت، وفتاه عندما ذهب إلى الزمبيل تذكر أن الحوت قد ذهب من الأمس، وأنه نسي أن يقول لموسى صلوات الله وسلامه عليه.

قال النبي ﷺ: «ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا حيث أمرهما الله»، فالله ﷻ يُسهّل الطريق طالما أننا نريد الخير، فموسى يريد الخير، يريد طلب العلم، وهذا يؤكد أنه «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً؛ سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»^(١).

قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣] عندما نمنا عند الصخرة، ﴿فَأَنَّى سَيِّئُ الْهُوتِ﴾ [الكهف: ٦٣] يعني خرج الحوت، ونسيْتُ أن أخبرك، ثم اعتذر لنبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، فقال: ﴿وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣] يعني: أمره عجيب، ولماذا؟ لأنه:

أولاً: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرِيًّا﴾، يعني: سلك في الماء لكن لماذا، ﴿عَجَبًا﴾؛ لأنه كان ميتاً، والميت لا يتحرك، ولكن نفخ الله فيه الروح.

ثانياً: وقف في الماء، وكأنه طاق لم يتحرك، فقد أوقف الله الماء حتى رأيته بأمر عيني، وهذا أيضاً عجب يقول: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

(١) انظر التخريج السابق، وأيضاً وردت هذه الفقرة في ثنايا حديث أخرجه مسلم

قال النبي ﷺ: «فكان للحوت سرباً ولهما عجباً».

قال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَاذْتَدَا عَلَيَّ آثَارِهِمَا فَصَصَا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: رجعا يقصان آثارهما ليعرفا من أين مشيا حتى يصلا إلى المكان الذي>Nama عنده، والصخرة التي فقدا عندها الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، ووصلا إلى المكان بعد مسيرة يوم وليلة، فإذا رجل مُسجى بثوب، فسلم موسى قال: «السلام عليكم»، فرد عليه، وقال: «وأنى بأرضك السلام» أي: ما سمعتُ السلام في هذه الأرض، فقال له نبي الله موسى: «أنا موسى قال: نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رُشداً. قال: يا موسى إني على علم علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه»، فكل واحد منهما تميز بعلم لا يعلمه الآخر.

وهذا الرجل اسمه الخضر، وقيل: إن (الخضر) لقب، وليس اسماً له، المهم سماه النبي الخضر قال النبي ﷺ: «إنما سمي خضراً؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضرة»^(١)، ولهذا سمي بالخضر.

فقال له موسى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف]، فقدم له العذر، ثم قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَرُ يُحِطُ بِهِ خَيْرًا﴾ (٦٧) [الكهف]، الأمور ستكون صعبة، وأنا أعذرک لو لم تصبر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٨) قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف].

بداية مواقف موسى مع الخضر:

انطلقا - موسى والخضر - يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٢).

سفينة، فقال أهل السفينة لموسى والخضير: تركبان معنا نوصلكما للضفة الأخرى؟ قالوا: نعم، فعرفوا الخضير، وهو رجل صالح عندهم، وهو على الصحيح - نبي من أنبياء الله، «فعرفوا الخضير فحملوه بغير نول»^(١)، فلما ركبا في السفينة؛ جاء عصفور فوقع على طرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضير لموسى: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر، فسبحانه لا إله إلا هو العليم، ولذلك الله ﷻ لما يذكر نفسه ﷻ يقول: ﴿وَهُوَ يَكْلِي شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، بل علم موسى وعلم الخضير ﷻ إنما هو من العليم الخبير كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

قال ﷺ: «فلم يفجأ موسى إلا وأن خلع لوحاً بالقدوم» بالفأس «فاستغرب موسى وقال له: ما هذا الذي تصنع؟ قوم حملونا بغير نول فعمدت إلى السفينة فخرقتها ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف] والإمر: الشيء العظيم، والشيء السيء.

فقال له الخضير ﷻ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٦) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا (٧٦) [الكهف] فسكت الخضير، قال النبي ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسياناً، فلما خرجا من البحر مرًا بسلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضير برأسه، فقلعه» أي: خلعه، فقال له موسى: ﴿أَفَلَيْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] والنكر: هو الشيء العظيم، وهو أعظم من الأول، فهنا عدم صبر موسى ليس نسياناً، لم ينس؛ لأن قتل الغلام لا يمكن أن يسكت عنه، فقال له الخضير: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) [الكهف]، فأنا أنذرتك من البداية أنك لن تستطع معي صبراً، فسكت

(١) أي: بغير أجرة.

موسى، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، فاستحى موسى أن يقول له: سامحني، فوضع حداً، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾. قال النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً وقع منه».

قال: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧] قرية لؤم كما قال ابن عباس: أهلها لثام ما يضيفون للضيف، ولذلك قالوا: «أشرُّ القُرى التي تبخل بالقرى» يعني: بالضيافة، فالضيافة في الإسلام واجبة، يجب أن يكرم الضيف يومه وليلته، وثلاثة أيام مستحبة.

والظاهر أنها كذلك في شريعة موسى ﷺ، ولذلك عابهم موسى ﷺ.

قال: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ [الكهف: ٧٧] مائلاً يريد أن يسقط، فأشار إليه بيده، ومسح عليه، فاعتدل الجدار، فقال موسى - صلوات الله وسلامه عليه - للخضر ﷺ: «قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا وعمدت إلى حائطهم فأصلحته» ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، فقال له الخضر ﷺ: هذا يكفي ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، فالأولى نسياناً، والثانية وضعت شرطاً، والثالثة عمداً.

قال الخضر لموسى: ﴿سَأْنَيْتُكَ بِأَوْبِلٍ مَا لَرَّ تَسَطَّعَ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وقال النبي ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما».

قال الخضر: ﴿أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، والمسكين أحسن حالاً من الفقير:

فالفقير: هو الذي لا يملك شيئاً كما قال الله ﷻ: ﴿الْفُقَرَاءُ﴾

الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿[الحشر: ٨]﴾، فلا دار، ولا مال.

والمسكين: فهو الذي يملك شيئاً، ولا يكفيه، ولهذا هؤلاء يملكون سفينة، وسماهم الله مساكين، ومنه قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فقدم الفقراء على المساكين؛ لأنهم أحوج من المساكين.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ [الكهف: ٧٩] ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ هنا يقول ابن عباس: بمعنى أمامهم، فكان هناك ظالم إذا مرت عليه سفينة صادرها، فأراد الخضر ﷻ أن يعيب هذه السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بحيث إذا رآها الشرط، وهم جنود الملك لا تعجبهم، فيتركونها لهم، فلأن يتركوا لهم السفينة معيبة أفضل من أن يأخذوها كلها، والمقصود بكل سفينة: أي كل سفينة صالحة يغصبها منهم الملك.

وأما الغلام: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ [الكهف] وهذا الغلام الظاهر من قول الله تبارك وتعالى أنه دون سن التكليف، ولذلك سماه: غلاماً، والغلام هو: الوليد الصغير، والبنت يقال لها: جارية، هذا الغلام أبواه كانا مؤمنين، فخشي الخضر ﷻ أن يرهقهما؛ لأنه إذا كُبر كما علم الله ﷻ أنه سيكفر، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] فأمر الخضر ﷻ أن يقتله صغيراً رحمةً بوالديه؛ لأنه سيرهقهما طغياناً وكفراً، وقد يكفران بسببه، لحبهما له، فيطيعانه في كل شيء حتى لو طلب منهما أن يكفرا لكفرا.

والجدار: قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، فإن القرية أهلها لثام،

ولكن لا بد أن فيها بعض الصالحين، وهذا الصالح الذي فيها مات منذ زمن بعيد، قالوا: هو الجد السابع، وقيل: العاشر، فالله ﷻ يحفظ الابن بجده العاشر، وهذا من رحمة الله ﷻ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وماذا سيحدث إذا سقط الجدار؟ إذا سقط الجدار سيخرج الكنز، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ فإذا وجدوا كنزاً لغلامين صغيرين؛ فقد يأخذون المال كله، خاصة وهم أشرار، فالأفضل أن نصلح الجدار حتى يكبر الغلامان، وبعد ذلك يسقط الجدار بأمر الله ﷻ ويخرج الكنز، وفي ذلك الوقت لن يستطيع أحد أن يتعدى عليهما.

وهذه أمور لو تأملها الإنسان - حقيقة - فإنه يعذر موسى ﷺ، فهي أمور لا يستطيع أحد أن يصبر عليها، إلا أنها من أمور الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، ولهذا الخضر ﷻ منذ البداية قال: لن تستطيع ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف].

أدب الخضر ﷻ مع الله ﷻ:

وهنا وقفة عند قول - الله تبارك وتعالى - عن الغلام قال الخضر: ﴿وَأَمَّا أَلْعَلُّهُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [٨٠] فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [٨١] [الكهف].

أردنا: أدخل نفسه في الخطاب، وأما عند الجدار فماذا قال؟ قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف: ٨٢] فهنا قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ وهناك قال: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ فما الفرق؟

قالوا: هذا من حسن الأدب مع الله ﷻ مع أن كلا الأمرين من الله ﷻ، فالله هو الذي أمره أن يقتل الغلام، والله هو الذي أمره أن يقيم الجدار، لكن الخضر ﷻ عالم بالله ونبى كريم لم ينسب قتل

الغلام لله ﷻ؛ لأنه في الظاهر عمل سيء، فما أراد أن ينسب السيء إلى الله تبارك وتعالى بينما بناء الجدار ظاهره عمل حسن، ولذلك موسى ﷺ أنكر عليه أنه فعله بدون مقابل، فالشيء الذي ظاهره خير نسبه إلى الله وحده ﷻ والشيء الذي ظاهره سيء نسبه إلى نفسه أدباً مع الله ﷻ.

ومن ذلك ما ورد عن الجن قالوا: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن] مع أن المرید واحد وهو الله ﷻ، فالأمر كله بيد الله ﷻ، ولكن من أدب الجن مع الله ﷻ أنهم نسبوا الرشد لله ﷻ، ولم ينسبوا الشرَّ إليه سبحانه، ونقول في دعائنا: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك»^(١)، مع أنه في يديه، لكنه ليس إليه.. لماذا؟ أدباً، نتأدب مع الله، فلا ننسب الشرَّ إليه فعلاً، وإن كان يُنسب إليه خلقاً، فمن الذي خلق إبليس الذي هو رأس الشر؟ خلقه الله ﷻ، والله لا يفعل الشر وإن كان خلقه جل وعلا.

همة موسى ﷺ في طلب العلم:

لما جاء موسى إلى الخضر ﷻ قال: أريد أن أتعلم منك قال: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: عندك التوراة فيها حكم كل شيء، وتأتيني تتعلم مني؟ قال: نعم جئت لأتعلم، وهذا الحرص من موسى صلوات الله وسلامه عليه يدلنا على أن طلب العلم من الأشياء المحببة للنفس، ولذلك السلف - رحمهم الله تعالى - سعوا إلى طلب العلم سعياً حثيثاً، وهذا موسى صلوات الله وسلامه عليه سافر لطلب العلم عند هذا الرجل وهو الخضر ﷻ.^(٢)

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٢) الرحلة في طلب العلم من سنن العلماء كما هو مشهور، ومن ذلك قول ابن =

المفاضلة بين موسى والخضر عليهما السلام:

موسى أفضل أم الخضر عليهما السلام؟ خاصة أن الله قال لموسى عندما سئل من أعلم أهل الأرض؟ قال: أنا. قال الله: عبدي فلان أعلم منك، اذهب إليه.

فقال البعض: الخضر أعلم من موسى، وهذا خطأ، فموسى أعلم من الخضر، وأفضل وأعظم عند الله - جل وعلا - ولكن الخضر أعلم في جانب دون جانب، والخضر بين هذا، فقال: «أنا على علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم لا أعلمه أنا»، لكن الجوانب التي يعلمها موسى أعظم بكثير من الجوانب التي يعلمها الخضر عليهما السلام، ولذلك نصَّ أهل العلم أنه من الجهل أن يقال: إنَّ الخضر عليهما السلام أعلم من موسى عليهما السلام، وذكروا لذلك أسباباً كثيرة:

أولاً: أن موسى عليهما السلام هو كليم الله تعالى، وهذه منزلة جليلة لم ينلها الخضر.

ثانياً: موسى عليهما السلام من أولي العزم من الرسل، بينما الخضر قد اختلفوا في نبوته، هل هو نبي أم رجل صالح؟ فلا شك أنه أفضل من الخضر عليهما السلام بكثير، وإذا قلنا بأن الخضر عليهما السلام رجل صالح، فمهما بلغ من الصلاح؛ فلا يُفَضَّل أحد من غير الأنبياء على الأنبياء عليهم السلام، وذلك أن الله تعالى اصطفى الأنبياء على الناس واجتباهم واختارهم، قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وموسى عليهما السلام هو سيد أنبياء بني إسرائيل، من سبق ومنَّ لحق، فجميع أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليهما السلام هم تبع له، وهم: داود، وسليمان، وأيوب، وعيسى،

= مسعود عليه السلام: «ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه، أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

وزكريا، ويحيى ﷺ، حتى عيسى ﷺ مع أنه من أولي العزم من الرسل؛ فهو تابع لموسى ﷺ، كما قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِلْحَادًا لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فموسى ﷺ هو أعظم أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق.

ثالثاً: الله ﷻ أخبر خبيراً عظيماً عن موسى ﷺ، فقال: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ولم يذكر ذلك عن الخضر ﷺ.

رابعاً: أخبر النبي ﷺ أن «الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى واقفاً قد أخذ بقوائم العرش»^(١).

وهذا لا يعني أن موسى ﷺ أفضل من النبي محمد ﷺ، كما ورد أن «أول من يكسى من الخلائق إبراهيم ﷺ»^(٢)، فالله ﷻ يعطي فضائل لكل واحد في جانب من الجوانب، ولكن ينظر في مجمل الفضائل.

وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقام اليهودي وقال: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم فرفع يده وصكَّ اليهودي - أي: لطمه -، فذهب اليهودي مباشرة إلى النبي ﷺ يشتكي؛ لمعرفته بأنه ﷺ نبيٌ عدلٍ ورحمة، فذكر له ما حدث، فقال ﷺ: «لا تخيروني على موسى»^(٣)، وهذا مع أنه القائل: «أنا سيد ولد آدم»^(٤)، وهذا النهي منه ﷺ إنما هو على سبيل التواضع، أو «لا تخيروني» من باب التنقيص لموسى ﷺ، أما إذا خرج مخرج الإخبار دون تنقص؛ فهذا لا حرج فيه.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٨)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

فلا شك أن موسى ﷺ أفضل من الخضر بدرجات، ولكن الخضر ﷺ على علم لا يعلمه موسى صلوات الله وسلامه عليه، وهذا يحدث كثيراً، فقد يكون الإنسان عالماً في مسألة علمها، ولا يعلمها غيره، ولا يلزم أنه الأفضل، وكما قالوا: كم ترك الأول للآخر.

موسى ﷺ وملك الموت:

لم يذكر الله ﷻ لنا كم مكث موسى ﷺ في بني إسرائيل، ولكن ذكر لنا النبي ﷺ أن الله ﷻ قد أرسل ملك الموت إلى موسى ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «جاء ملك الموت إلى موسى ﷺ، فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسى ﷺ عين ملك الموت، ففقاها. قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقا عيني. قال: فرد الله إليه عينه. وقال: ارجع إلى عبدي، فقل الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعره؛ فإنك تعيش بها سنة. قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربّ أمتي من الأرض المقدسة رمية بحجر»^(١).

فموسى ﷺ بعد هذا العناء، وبعد هذه الحياة الطويلة، وكيف أنه كان مستهدفاً في زمن فرعون وبعده، ثم الإيذاء الذي وقع له ﷺ، ثم يدخل عليه أحد في بيته ويقول له: أجب ربك، سأقتلك، وأقبض روحك، فقام موسى ﷺ فلطمه، ففقا عينه، فقا عين من؟ إنه ضرب الآدمي الذي أمامه، فقد آتاه ملك الموت على صورة آدمي، فلم يعرفه، ثم إن ملك الموت تأدّب مع موسى ﷺ فما قبض روحه، فهو كليم الله ﷻ، وله منزلته، فرجع إلى ربه، فقال: رب إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقا عيني، فرد الله عينه، فالضربة لم تأت

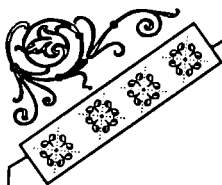
(١) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

على الملك، وإنما على صورة الآدمي؛ لأن الملك خُلِقَ من نور، لكنه يتشكل بصورة الآدمي، فردَّ الله له عينه، وقال له: ارجع إلى موسى، فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريدها؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارى تحت يدك من شعره، فإنك تعيش بها سنة، لك بكل شعرة سنة، فرجع الملك إلى موسى ﷺ وعينه قد رجعت صحيحة، قال: يقول لك ربك: ضع يدك على ظهر ثور، ولك بكل شعرة توارىها يدك سنة، قال موسى: ثمَّ مه؟ قال: ثمَّ تموت، قال: «فالآن من قريب»، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يموت نبي إلا ويخبره الله بين الحياة والموت»^(١)، واختار موسى صلوات الله وسلامه عليه الموت، ثمَّ قال: «رب أمتني من الأرض المقدسة برمية حجر» يعني: أريد أن أموت قريباً من المكان المبارك، من الأرض المقدسة، وهذا يدلُّ على أن الإنسان كلما دُفِن في مكان مبارك كان أفضل.

فقال له سبحانه: لك هذا، فدفن موسى ﷺ في ذلك المكان وهكذا تُوفي نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه.



(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).



قصة يونس عليه السلام

هو يونس بن مَتَّى كما جاء في الحديث عن النبي محمد ﷺ (١)، وقال بعضهم: إن «مَتَّى» اسم أمه، وأكثر أهل العلم على أن مَتَّى اسم أبيه، وهذا هو الصحيح، فهو يونس بن مَتَّى نسبة إلى أبيه لا نسبة إلى أمه.

نسب يونس عليه السلام:

ويونس صلوات الله وسلامه عليه من نسل يعقوب صلوات الله وسلامه عليه فهو من أنبياء بني إسرائيل، وقيل: إنه من أولاد بنيامين بن يعقوب أخي يوسف من أمه وأبيه.

ذكر يونس عليه السلام:

ذكره الله - تبارك وتعالى - في كتابه العزيز باسمه أربع مرات، وذكره مرتين بوصفه بنسبته إلى الحوت كما قال جل وعلا: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] فنسبه إلى النون، وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَلَاحِ كَلْبِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] فنسبه إلى الحوت، والحوت هو: النون.

دعوة يونس عليه السلام لقومه وغضبه عليهم:

يونس صلوات الله وسلامه عليه كغيره من إخوانه الأنبياء الذين أرسلهم الله - تبارك وتعالى - يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، وألا

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٣).

يشركوا به شيئاً، فكان أن واجهه قومه كما واجه سائر الأقسام أنبياء الله - جل وعلا -، فكفروا به، وكذبوه، وامتنعوا عن متابعتة صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر أهل العلم أن يونس عليه السلام أرسل إلى قرية في الموصل يقال لها: نينوى في العراق، واستمر في دعوته ما شاء الله له، ثم بعد ذلك خرج مغاضباً، وذلك لما استعصى عليه قومه وامتنعوا عن متابعتة صلوات الله وسلامه عليه، فخرج من بين أظهرهم، وتوعدهم بعذاب ينزل عليهم من الله ﷻ حالهم في ذلك حال سائر الأقسام الذين كذبوا أنبياء الله جل وعلا.

توبة قوم يونس عليه السلام بعد انصرافه عنهم:

لما خرج صلوات الله وسلامه عليه من بين أظهرهم قذف الله - جل وعلا - في قلوبهم التوبة والإنابة والخوف، وذلك لما شاهدوا مقدمات هذا العذاب الذي توعدهم به يونس صلوات الله وسلامه عليه، وعند ذلك تابوا إلى الله - جل وعلا - وأنابوا ولجؤوا إليه، وخرج النساء والرجال يبكون خوفاً من الله ﷻ أن يلحق بهم العذاب، فلما رأى الله - جل وعلا - منهم ذلك كشف عنهم العذاب، ولم يعذبهم، وذلك رحمة منه، قال جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآذَ الْبَحْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨]، وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

قال أكثر أهل العلم: إنها استثناء منقطع أي: لكن قوم يونس مع أنهم رأوا العذاب، ومع هذا كشف الله عنهم العذاب لما تابوا إليه، وقيل: إنها بمعنى «غير»، فيكون متصلاً، وهم مستثنون من عامة الناس.

عدد قوم يونس عليه السلام:

أرسله الله ﷻ إلى مئة ألف، قال جل وعلا: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] يزيدون كم؟ قيل: يزيدون بعشرين ألفاً أو ثلاثين أو أربعين.

قال أهل العلم: معنى «أو» هنا أي: في نظر الرائيين، يعني إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مئة ألف أو يزيدون قليلاً، كما قال النبي ﷺ في بدر لمن سأل عن قريش: كم هم؟ قال: لا أدري هم كثير، قال: كم يذبحون - يعني من الإبل -؟ قال: تسعة أو عشرة، فقال النبي ﷺ: «هم ما بين التسعمئة إلى الألف»، أي: في نظر الرائي.

القول الثاني: هو أن «أو» هنا للإضراب، بمعنى «بل» أي: وأرسلناه إلى مئة ألف بل يزيدون، أي: يزيدون عن المئة ألف، وهذا مثل قول الله جل وعلا في وصف الكفار من بني إسرائيل ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ف«أو» هنا بمعنى: «بل»؛ أي: هي كالحجارة، بل أشد قسوة، بدليل أن الله - جل وعلا - أثنى على الحجارة في مقابل قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيْخَرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ويكون المعنى: وأرسلناه إلى مئة ألف بل يزيدون على المائة ألف، وهذا ظاهر واضح.

التقام الحوت هل كان قبل النبوة أم بعدها؟

واختلف أهل العلم في يونس صلوات الله عليه هل التقمه الحوت قبل أن يرسله الله إلى قومه أم أرسله قبل ذلك ثم ذهب مغاضباً فابتلعه الحوت؟ يقول الله جلا وعلا: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٢٦] إذ أتى إلى أَلْفِكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٥﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٤﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٢٣﴾ فَتَوَلَّىٰ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٢٢﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢١﴾ فَبَدَّدَتْهُ

بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدٍ مِّنْ ذَلِكَ ﴿١٤٧﴾ فَتَمَنَّوْا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ [الصافات]، وهذه الآيات العشر هي خلاصة قصة يونس صلوات الله وسلامه عليه.

يخبر الله جل وعلا أن يونس عليه السلام كان من المرسلين: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٦﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفَالِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٧﴾﴾ [الصافات]، وذلك لما دعا قومه إلى عبادة الله تبارك وتعالى وأبوا عليه غضب الله جل وعلا، غضب عليهم لأنهم لم يؤمنوا، ولكن قبل أن يأذن الله له، كما هو الحال في قصة لوط عليه السلام لما أمره الله تعالى أن يخرج، وقصة نوح عليه السلام عندما أمره الله أن يركب السفينة وغيرهما من الأنبياء، فالله جل وعلا يأمرهم بالخروج لأنه سينزل على قومهم العذاب، ويونس عليه السلام هنا خرج قبل أن يأذن الله له بالخروج، فركب سفينة في البحر وكادوا يغرقون، عند ذلك دار الأمر إما أن يبقوا جميعاً في السفينة ثم تنكفأ ويغرقون جميعاً، وإما أن يلقوا بعضهم في البحر فتخف السفينة فتبقى ولا يغرق أحد، وقيل: إنهم أُلقي في روعهم أن فيكم من عصي الله جل وعلا فألقوه حتى تنجوا مِنْ هَذَا الْعَذَابِ، وعند ذلك لم يروا بُدأً من القرعة، وذلك أن هذا هو الاختيار الثاني أن يلقوا بعضهم بدلاً مِنْ أَنْ يُلْقَى الْجَمِيعَ حَتْفَهُ، فعملوا قرعةً فوقعت القرعة على يونس صلوات الله وسلامه عليه كما قال الله جلا وعلا: ﴿فَسَاهَمْ﴾ أي: مع من ساهم ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] أي: من المغلوبين في هذه القرعة، كل واحد يضع سهمه ثم يخرج سهم الذي سيُلقي بنفسه.

وذكر بعض أهل العلم أنه لما وقعت القرعة على يونس صلوات الله وسلامه عليه وكانوا يعرفون له قدره، وقيل أنه كان غريباً عنهم، فاستحيوا منه فقالوا: نعيد القرعة، فأعادوا القرعة مرة ثانية فوقعت عليه، وعند ذلك قال لهم: هذا أمر الله تعالى فألقى نفسه في البحر صلوات الله

وسلامه عليه لأمر يریده الله جل وعلا، ولما ألقى يونس عليه السلام نفسه في البحر التقمه الحوت مباشرة أمام أعين الناس قال الله جل وعلا: ﴿فَالْقَمَّةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصفات] ابتلعه الحوت وأمره الله جل وعلا كما قال أهل العلم ألا يكسر له عظماً وألا يأكل له لحماً^(١) فبقي بجسده كما هو في بطن الحوت.

يونس عليه السلام في بطن الحوت:

ولما استقر في بطن الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فإذا هي تتحرك، فخر الله ساجداً وقال: رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحدٌ في مثله.

مدة بقائه عليه السلام في بطن الحوت:

كم لبث يونس في بطن الحوت؟ هذا غير معلوم وإنما الذي ذكره الله جل وعلا فيه العبرة هو أنه التقمه الحوت وهو مليم، وهو أنه لبث في بطنه فترة ثم خرج صلوات الله وسلامه عليه كما قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصفات] إذا لبث وقتاً معيناً وهو غير معلوم، وكل من ادعى وقتاً فلا دليل عنده، ولكن المشهور عند أهل العلم أنه التقمه الحوت ضحى وألقاه عشياً يعني: فترة قصيرة في يوم واحد، وقيل: التقمه الحوت ثلاثة أيام، وهذان أشهر قولين في هذه المسألة، والعلم عند الله جل وعلا، وهذه من أخبار بني إسرائيل وأخبارهم كما مر بنا كثيراً لا نقبلها ولا نرفضها، ونقول: علمها عند ربي جل وعلا.

(١) ورد حديث مرفوع بهذا المعنى، ولكنه لا يصح مرفوعاً.

معنى قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَا الْتُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] صاحب النون، والنون هو الحوت إذا هو يونس صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَدَا الْتُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ أي: ذهب مغاضباً قومه ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ تحتل ثلاثة معانٍ:

الأول: ظن أن نستطيع أن نهلكه، وهذا باطل بالإجماع لأن هذا لا يليق بأحد المسلمين بل لا يكون مسلماً من ظن أن الله لا يقدر على ذلك، فكيف يمكن أن نظن هذا في نبي من الأنبياء أنه دار في خُلقه أن الله لا يقدر؟!

الثاني: ألا نضيق عليه كما قال جل وعلا: ﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٢٧] أي: يبسط لبعض الناس ويضيق على آخرين، ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي: من ضيق عليه رزقه، وقال جل وعلا: ﴿لَيْسَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، فيكون هنا من التقدير وهو التضيق، وهذا ممكن، أي: ظن يونس ﷺ أنه لن تضيق عليه؛ لأنه فعل ما بوسعه أن يفعله، فقد أدى رسالته وهم كفروا به فتوعدهم بالعذاب وخرج وما ظن أن الله سيضيق عليه، وظن أن الله ﷻ سيرسله إلى قوم آخرين يؤمنون به ويتبعونه ويعبدون الله جل وعلا، وهذا معنى مقبول.

الثالث: أن نقضي عليه، من القضاء والقدر ومنها قوله جل وعلا: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] أي: حكم وقضي فيه، ومنه سُميت ليلة القدر أي: التي تقدر فيها الأقدار وتُحسم كما قال جل وعلا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان] وهذا المعنى أيضاً مقبول.

نداء يونس عليه السلام في بطن الحوت:

يقول الله جل وعلا: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] نص أهل العلم أنها ثلاثة ظلمات:

- ١ - ظلمة بطن الحوت.
- ٢ - وظلمة البحر فالحوت في البحر.
- ٣ - وظلمة الليل وهذا يقوي أن يونس عليه السلام مكث في بطن الحوت إلى الليل.

فاجتمعت هذه الظلمات على يونس صلوات الله وسلامه عليه في مكان واحد كما قال يونس عليه السلام: اتخذت لك مسجداً في مكان لم يتخذه أحد قبلي، بُعد تام عن الرياء والسمعة في بطن الحوت في لجة البحر وفي الليل الذي لا يراه أحد ثم نادى يونس صلوات الله وسلامه عليه ربه قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٣٦] إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤١﴾ [الصافات]، والإباق هو خروج العبد عن طاعة سيده، عبد أبق: إذا خرج عن طاعة سيده وهرب وتركه وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً» منهم: «عبد أبق من سيده»^(١) وسماه الله عبداً أبقاً هنا لأنه خرج دون أن يأذن الله له صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] أي: مستحق للملامة من الله جل وعلا والعتاب لأنه لم يصبر الصبر الذي كان يجب عليه أن يصبره، ولذلك قال الله جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] أي: لا تفعل فعلة صاحب الحوت، حيث إنه لم يصبر الصبر اللائق بالأنبياء صلى الله عليهم وآله وسلم.

(١) بنحوه أخرجه الترمذي (٣٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٤٨٧) وأخرج مسلم (٧٠): «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ».

فضل التسبيح:

قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصفات] قال أهل العلم: أي: لولا أنه قال تلك الكلمة الطيبة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقبل أن يدخل بطن الحوت ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصفات]، في ماضيه ﴿لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصفات]، ولذلك قال أهل العلم: اذكروا الله تعالى في الرخاء يذكركم في الشدة ﷻ، فإن يونس كان من الذاكرين الله كثيراً والحافظين لحدود الله جل وعلا فكان مسبحاً ذاكراً لله قبل أن يدخل بطن الحوت ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصفات]، وعلى العكس فإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لله جل وعلا فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فماذا فعل الله به؟ أهلكه، بينما نجى الله ﷻ يونس ﴿فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعُرْوَةِ وَهُوَ سَكِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصفات] وماذا قال لفرعون: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١] فلم يقبل الله من فرعون مع أنه قَبِلَ سبحانه من يونس ﷻ لما مضى من فرعون وما مضى من يونس ﷻ.

دعوة مستجابة:

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: مررت بعثمان في المسجد فسلمت عليه فملاً عينه مني ثم لم يرد عليّ السلام، فأتيت عمر فقلت له: يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شيء؟ قال: لا ولماذا ذاك؟ قال: إني مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام، فأرسل عمر إلى عثمان فجاء عثمان، فقال له عمر: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ فقال عثمان: ما فعلت ولا سلم عليّ، فقال سعد: بلى مررت عليك فسلمت عليك فملاً عينك مني وما رددت عليّ

السلام، قال: والله إني ما رأيتك، فحلف عثمان وحلف سعد، ثم بعد ذلك تذكر عثمان فقال: بلى واستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة قالها رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرت قط إلا تغشى قلبي وبصري غشاوة، قال سعد: فأنا أنبتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، فجاء أعرابي فشغله، حتى قام رسول الله ﷺ، فاتبته فلما أشفقت أن يسبقني إلى البيت قبل أن أصل إليه ضربت بقدمي الأرض، [فهو لا يستطيع أن ينادي النبي ﷺ أدباً]، حتى ينتبه لي النبي ﷺ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: مَنْ هذا أبو إسحاق؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فمه؟ قال: قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك وما سمعنا هذه الدعوة فقال النبي ﷺ: «نعم، دعوة أخي ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»^(١).

ومع أن دعوة يونس صلوات الله وسلامه عليه ذكر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وسماها الله دعاءً لأنها متضمنة للدعاء، ولذلك قال النبي ﷺ لما سأله الصحابة عن شيء يدعون به ربهم جل وعلا في عرفة قال: «خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٢) ولم يذكر دعاءً وإنما ذكّر متضمن للدعاء كدعوة يونس صلوات الله وسلامه عليه، وكما قال أيوب صلوات الله وسلامه عليه ﴿أَيُّ مَسْئَةٍ أَلْصَرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنه ذكر فيه تضرع لله جل وعلا يتضمن كذلك الدعاء لله جل وعلا.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٩٢) مختصراً، وبتمامه أخرجه أحمد (١٧٠/١)، وهو صحيح كما في «صحيح الترغيب» (١٦٤٤).
 (٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٠٣).

يونس يخرج من بطن الحوت:

قال يونس عليه السلام هذه الكلمات وهو في بطن الحوت وعندما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعُرَّةِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات] أي: ألقيناه في مكان مقفر ليس فيه أحد ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض قد نحل جسمه وضعف بعدما كان في بطن الحوت، وهذا يؤيد قول من قال أنه جلس أياماً في بطن الحوت والعلم عند الله جل وعلا، المهم أنه ألقاه الحوت وهو سقيم ضعيف الجسم صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأَنْبَأْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ [الصافات]، قال المبرد والزجاج: كل شجر لا يقوم على ساق، وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين قال: ومنه الدباء والقرع والبطيخ والحنظل وجميع هذه النباتات تمشي في الأرض كلها تُسمى يقطيناً وُسِّمِتْ يقطيناً لأنها تقطن الأرض أي: اتخذت الأرض مكاناً لها، فلا، ترتفع ويقال: فلان قطن هذا المكان أي: استقر فيه والتزمه.

يونس يرجع إلى قومه:

لما ألقاه الحوت أمره الله جل وعلا أن يرجع إلى قومه، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَنْبَأْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ [الصافات] أي: كان الإرسال بعد أن ألقاه الحوت، وقيل: وهو المشهور عند أهل العلم أنه أرسله الله مرة ثانية إلى قومه بعد أن تابوا وتضرعوا إلى الله جل وعلا ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مَائَةَ آيَةٍ أَوْ زَيْدُونَ﴾ [الصافات] أي: كان الإرسال بعد أن ألقاه الحوت، وقيل: وهو المشهور عند أهل العلم أنه أرسله الله مرة ثانية إلى قومه بعد أن تابوا وتضرعوا إلى الله جل وعلا ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مَائَةَ آيَةٍ أَوْ زَيْدُونَ﴾ [الصافات] وجاء في آية أخرى قول الله جل وعلا: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُّؤَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَعَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] يعني: هل سيعذبون في الآخرة؟ هذا أمر وارد ولكن يقطع على هذا قول الله جل وعلا: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَعَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وطالما أنهم آمنوا فهم ناجون

يوم القيامة، وهذا هو الصحيح أن قوم يونس عليه السلام آمنوا فنجاهم الله من عذاب الدنيا ونجاهم كذلك من عذاب الآخرة.

لا يجوز لأحد أن يتهم يونس عليه السلام بالتقصير:

عندما يقرأ الإنسان المسلم هذه الآيات في يونس عليه السلام: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الصفافات] فشبهه بالعبد الهارب من سيده، وقال جل وعلا: ﴿وَاللَّعْنَةُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: ملام على ما فعله وهو تركه قومه قبل أن يأمره الله جل وعلا، وقول الله لنبيه عليه السلام: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحَوْثِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ٤٨] فقد يلقي الشيطان في روع الناس أن يونس عليه السلام قصر في دعوته، وهذا من الباطل، فليس لأحد أن يتنقص نبي الله يونس لمثل هذه الأمور، ولذلك نبه النبي عليه السلام على هذا فقال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إنه خير من يونس بن متى»^(١)؛ أي: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس؛ لأنه نبي كريم صلوات الله وسلامه عليه.

وجاء في حديث «لا تفضلوني على يونس»^(٢) وهو غير صحيح بل محمد عليه السلام خير من يونس عليه السلام، بل خير من جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم»^(٣)، ويقول الله جل وعلا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣] فالله فضل بين الرسل عليهم السلام، ولكن لا يجوز التفضيل بين الرسل إذا كان على سبيل التنقيص لهم والظعن فيهم، فهذا لا يجوز، أخرج الإمام البخاري أن رجلاً من اليهود عرض سلعته لبييعها فجاءه رجل فعرض عليه سعراً فغضب اليهودي فقال: لا والله لا

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا الحديث لا أصل له كما في «شرح الطحاوية» ص ١٦٢.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

أبيعتها والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار قال: أتقول هذا حتى على محمد؟! فلطم اليهودي فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ يشكو إليه هذا الأنصاري فقال: يا أبا القاسم أليس لنا ذمة وعهداً؟ فقال النبي ﷺ: «بلى لكم الذمة والعهد»، فقال اليهودي: فسل هذا لِمَ لطمني؟ فناداه النبي ﷺ فقال له: «لِمَ لطمته؟»

قال: إنه قال: والذي اصطفى موسى على البشر وذكرك من سائر البشر، فرؤي الغضب في وجه النبي ﷺ وقال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»^(١)، فإذا كان هذا التفضيل على سبيل التنقص فلا يجوز، وأما إن أراد الإخبار عن ذلك وهو أن محمداً ﷺ أفضل من موسى صلوات الله وسلامه عليه عند ربه فهذا حق لا شيء فيه.

العبر والدروس:

أولاً: إن عتاب الله تبارك وتعالى ليونس صلوات الله وسلامه عليه كان عتاباً لطيفاً، ومنه أن الله جل وعلا جعله في بطن الحوت، وأمره ألا يكسر له عظماً وألا يأكل له لحماً، ثم أخرجه من بطن الحوت، وفيه آية عظيمة تدل على كرامته عند الله جل وعلا ولذلك آمن به قومه ﷺ.

ثانياً: إن العبد إذا تعرف على الله ﷻ في الرخاء عرفه الله في الشدة.

ثالثاً: فضل دعوة يونس ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

رابعاً: الإيمان ينجي العبد من المهالك.

خامساً: جواز القرعة وهذا في شريعة يونس صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك في شريعة النبي محمد ﷺ، فقد كان النبي ﷺ إذا أراد

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٣).

سفرأ أقرع بين نساته^(١). وكذلك من المشهور أيضاً من قول النبي ﷺ: «لو يعلمون ما في الأذان والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»^(٢)؛ أي: عملوا قرعة.

فوائد ومسائل متعلقة بقصة يونس ﷺ:

المسألة الأولى: لو وقع الآن مثل الحادثة التي وقعت ليونس ﷺ في القارب، وقالوا: يجب على أحدنا أن يُلقِي بنفسه، فهل يجوز ذلك؟
والجواب: لا يجوز لأنه لا يُدرى أنه إذا ألقى أحد نفسه هل تنجو السفينة؟ فهي على هذا النحو قضية قتل نفس^(٣).

المسألة الثانية: ما حكم أن يتهم أحد نبي الله يونس بأنه كان عصبي المزاج؟

والجواب: أن ذلك لا يجوز بحال، فإن هذا سوء أدب مع نبي الله ﷺ، والصحيح أنه كان غضباً لله، لكن لا يقال: عصبي المزاج، ولذلك قال الله جل وعلا عن موسى صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وفيها كلام الله ﷻ.

وهناك كلمة طيبة لشيخ الإسلام ابن تيمية عن موسى صلوات الله وسلامه عليه إذ قال: إن موسى وقع منه أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه وأخوه نبي كريم يقول: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤]

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٤)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

(٣) قال القرطبي رحمه الله في تفسيره للآيات (١٣٩، ١٤٠) من سورة الصافات: «المسألة السابعة: الاقتراع على إلقاء الأدمي في البحر لا يجوز، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه... وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفاً، وهذا فاسد، فإنها لا تخف برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله ﷻ».

وأخوه نبي كريم فكيف يفعل هذا بنبي الله ﷺ؟ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وفيها كلام الله، وقتل رجلاً يعني: لما وكزه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: لما كان لموسى مِنْ الفضائل العظيمة ومن الجهاد العظيم والدعوة والصبر لله جل وعلا، لذلك هذه الأمور التي وقعت من موسى كأنها لا شيء عند الله تبارك وتعالى وذكر بيتاً من الشعر يقول:

وإذا أتني الحبيب بذنب واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيح
فموسى صلوات الله وسلامه عليه له من المحاسن العظيمة ما تشفع
له مثل ما وقع منه مِنْ هذه الأمور.

المسألة الثالثة: هل عُذِبَ قوم يونس قبل أن يؤمنوا؟

الجواب: إنهم رأوا بادرة العذاب، فلهجؤوا إلى الله ﷻ لجوء الصادقين فسامحهم الله وكشف عنهم العذاب.

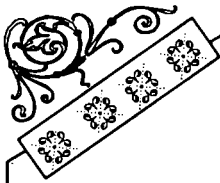
المسألة الرابعة: هل يرد القضاء؟

الجواب: نعم فحديث النبي ﷺ واضح في ذلك: «لا يرد القضاء إلا الدعاء»^(١) فهم لما دعوا الله ولجؤوا إليه كشف عنهم العذاب. فما معنى الدعاء: «اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه»؟

الجواب: هذا باطل لا يجوز الدعاء به، بل نسأل الله رد القضاء ونسأل الله العافية وأن يرفع عنا^(٢).



(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٤).
(٢) ومما يرد هذا الدعاء أيضاً ما جاء في الصحيحين من قوله ﷺ: «تعوذوا بالله من سوء القضاء..» أخرجه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (٢٧٠٧).



قصة زكريا ويحيى ﷺ

العلاقة بين أسرة عمران وأسرة زكريا ﷺ:

أسرتان كريمتان ذكرهما الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، كانت لهما صلة ببعضهما وهما أسرة عمران، وأسرة زكريا ﷺ فزكريا نبي كريم من أنبياء بني إسرائيل رزقه الله تبارك وتعالى ولداً نبياً وهو يحيى صلوات الله وسلامه عليه، وصاهر زكريا أسرة عمران فتزوج أخت مريم وقيل: تزوج خالتها، ومن مريم ﷺ ولد رسول الله عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

فسيكون حديثنا أولاً عن زكريا وابنه يحيى ﷺ. ثم يكون الحديث عن مريم وابنها عيسى ﷺ وسنجد أن هناك أموراً مشتركة بين عيسى ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

زكريا ﷺ يسأل الله الذرية:

ذكر زكريا سبع مرات وذكر يحيى خمس مرات، قال الله تبارك وتعالى في ذكر زكريا وابنه يحيى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم] أي: اذكر يا محمد رحمة ربك الظاهرة في عبده زكريا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم] نادى زكريا ربه نداءً خفياً، والنداء الخفي أقرب إلى الإخلاص وأقرب من ثم إلى الإجابة، جاء في بعض روايات بني إسرائيل أنه قال: يا رب يا رب فكان الله يقول له: لبيك لبيك لبيك اطلب ما تريد، وذلك لأنه كان عبداً صالحاً ونبياً كريماً، وهكذا يصنع الله ﷻ بأوليائه جل وعلا.

قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] يُكْنِي عن كبر سنه ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، قال: اشتعل، ولم يقل شاب رأسي وإنما قال: اشتعل لسرعة الشيب إليه ومن هذا قول الشاعر:

أما ترى رأسي حاكي لونه طرة صبح تحت أذيال الدُجى
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في شجر
وأض عود الهم يبساً ذاوياً من بعد ما قد كان مداد الثرى

ثم قال: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] يعني ما عودتني يا رب أن أكون شقياً بدعائك بل عودتني إذا دعوتك استجبت لي، ثم قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم] والموالي: هم الكبار في بني إسرائيل، فخاف من بني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء^(١)، وزكريا نبي واشتعل الرأس شيباً ووهن العظم منه وخاف الموت وخاف من الموالى، وذلك أنه ما كان يثق بهم، فخشي أنهم يفسدون على بني إسرائيل دينهم، فسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقه ولداً نبياً فيرث منه النبوة ويستمر الصلاح والخير في بني إسرائيل، ولذلك قال: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ بَرِئِي وَبِرِّثْ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۝ [مريم] أي: والحال أن امرأتي عاقرة، فهو سبب مانع للحمل والولادة، وهو غير ممكن في الغالب، لا لأن الله لا يقدر؛ فهو أعلم الناس بالله جل وعلا بل لأن العادة لا تقتضي أن يولد لمثل هذا الرجل، فقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً وامراته عاقرة وهو يريد خرق العادة.

ولماذا سأل خرق العادة؟ قالوا: لأنه رأى الله تبارك وتعالى خرق العادة لمريم حيث كان مسؤولاً عنها كما سيأتي، يقول الله جل وعلا:

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء وهو المسؤول عن إطعامها، فمن الذي يأتيها بهذا الطعام؟ ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فهنا تنبه زكريا ﷺ أن أمر الله كن فيكون، فقام من الليل يصلي لله جل وعلا ثم رفع يديه إلى السماء وقال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرْتُفِئُ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ [مريم] سأل الله على الحالة التي هو عليها وحال زوجته؛ لأنه رأى الكرامة التي أعطاهها الله لمريم ولا يمنع أبداً أن يعطيه تبارك وتعالى كرامة مثلها فهو نبي كريم.

ميراث زكريا ﷺ:

قال زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرْتُفِئُ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم] قال: أريد غلاماً يرثني، وليس الميراث هنا ميراث المال، وإنما ميراث النبوة بدلالة قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ [مريم: ٥]، ولماذا نقول: إنه لا يطلب ميراث مال؟

أولاً: أن النبي ﷺ قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»^(١) وزكريا من الأنبياء فهو لا يورث أيضاً، ولو ترك مالاً لا يرثه أولاده وهذه قضية محسومة عند زكريا صلوات الله وسلامه عليه، فكيف يطلب ولدأ يرث ماله وهو يعلم أنه لا يورث أصلاً؟

ثانياً: إن زكريا كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم «كان نجاراً»^(٢) يأكل مِنْ عمل يده، فلم يكن صاحب مال ليطلب ولدأ يرثه.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٨، ١٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٩).

ثالثاً: لا يليق برجل صالح عابد أن يسأل الله ولداً لمجرد أن يرث المال، فكيف يليق ذلك بزكريا صلوات الله وسلامه عليه.

فماذا كان الميراث إذاً؟

الجواب: هو ميراث النبوة والعلم، ولذلك قال: ﴿بَرِّئِي وَرِثٌ مِّنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، فلم يتميز آل يعقوب بالأموال وإنما تميزوا بالنبوة فيعقوب نبي وولده يوسف نبي ومن نسله موسى نبي ﷺ، ومن نسله الأسباط أنبياء، وداود وسليمان، فهو يريد ميراث النبوة وليس المال، ثم بنو إسرائيل هم آل يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل فهل يُعقل أن آدمياً يقول: أريد ولداً يرثني ويرث من بني إسرائيل وكم هم بنو إسرائيل؟ هم ألوف؛ عشرات الألوف، بل ملايين، فكيف يقول يرثني ويرث من آل يعقوب؟! هذا لا يُعقل أن يكون ميراث المال.

البشارة بيحيى ﷺ:

قال تعالى: ﴿بَنَزَكْرِيًّا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم] فوجئ زكريا بهذه الإجابة السريعة ﴿اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ سميناه لك أيضاً ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧] لم يتسم أحد بهذا الاسم من قبل ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كَافِرٌ وَلَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم] هو لا يخبر الله بشيء لا يعلمه الله، فالله يعلم أن امرأته عاقر وأنه بلغ من الكبر عتياً، بل هو صرح بذلك في بداية الأمر عندما قال: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] وقال: ﴿وَكَاثِرَ أَمْرَاتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥] لكنه استغرب هذه الإجابة على الرغم من أنه طلب ذلك فالمفروض أنه في انتظار الإجابة، قال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٩] فهو هين على الله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٨٧] [يس] فهو سبحانه لا يحتاج لأسباب ومقدمات ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾، أتريد الدليل على

هذا؟ ﴿وَقَدْ خَلَقْتَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] إذا انتهى الأمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [مريم: ١٠] علامة يعلم بها أن امرأته ستحمل وأنها علققت بهذا الجنين، ﴿قَالَ آيَاتُكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لِيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] فهذه علامة، سيأتيك يوم تفجأ فيه وأنت صحيح البدن والجوارح ويمتنع لسانك من الكلام، فإذا رأيت هذا اليوم الذي تعجز فيه عن النطق وعن كلام الناس فسيكون معنى هذا أن زوجتك حملت بهذه النطفة، وسيكون ذلك في ثلاثة أيام بلياليهن.

وذهبت الأيام وحملت امرأته وامتنع لسانه ولم يستطع الكلام ولكنه يستطيع أن يُسَبِّحَ ويذكر الله، فذكر الله لم يُحْبَسْ لسانه عنه، وإنما حُبِسَ عن كلام الناس، وذلك كبعض الأعاجم اليوم يقرأ القرآن قراءة صحيحة ويحفظه عن ظهر قلب ولكن لا يحسن الكلام العربي ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

عند ذلك خرج من المحراب ودل هذا على أن أكثر وقته كان في المحراب، ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [١٧] فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴿آل عمران﴾ والمحراب: هو المكان المخصص للصلاة في البيت أو المسجد أو العمل في أي مكان، أما هذا الذي في المساجد يسميه الناس الآن محراباً فاسمه الطاق ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾.

ولادة يحيى عليه السلام:

قال الله ليحيى بعد أن وُلِدَ: ﴿يَتَّخِذُ خِذَ الْكِتَابِ يَفْوَقُ﴾ [مريم: ١٢] أعطاه الله الكتاب ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فأعطاه الله الحكم وهو صبي.

ذَكَرَ أن يحيى عليه السلام جاءه غلمان من أصحابه في سنه فقالوا له: هيا بنا نلعب، فقال لهم: ما لهذا خُلِقْنَا، لم نخلق للعب بل خُلِقْنَا لعبادة الله،

فتركهم ولم يلعب معهم، فإله آتاه الحكم صبياً، وقد مر الشعبي على أناس يلعبون فقال لهم: ماذا تصنعون؟ قالوا نلعب، قال: ما بهذا أمرتم وإنما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح].

قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣] أي: رحمة من عندنا ﴿وَرِزْقًا وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم].

وهناك كلام طيب جداً للحافظ ابن كثير رحمته الله عن هذه الآية وعن قول عيسى: ﴿وَأَسَلْتُمُ عَلَىٰ يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم] قال: «هذه الأوقات الثلاثة - وقت الميلاد، ووقت الموت، ووقت البعث - أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر، ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً عندما يخرج من بطن أمه إذا خرج من بين الأحشاء، وفقد لينها وضمها» فقد كان يعيش في محيط معين يعرفه في بطن أمه، وأول خروجه تتغير عليه الأمور فيخاف من هذا العالم الجديد لماذا أخرجت من هذه الضمة الطيبة؟.

قال: «ثم ينتقل إلى هذه الدار الدنيا ليكابد همها وغمها، وكذلك إذا فارق هذه الدار الدنيا وانتقل إلى عالم البرزخ - دُفِنَ في قبره - بينها وبين دار القرار - فهذا البرزخ وسط بين الدنيا والآخرة - وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق في الجنة وفريق في السعير»^(١).

(١) «البداية والنهاية» (٦٠/٢).

فيحتاج يوم يموت أن يسلم في هذا الوقت، إذا سلم في هذا الوقت سلم في اليوم الذي بعده، ولذلك كان عثمان بن عفان إذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكرت الآخرة لا يبكي كبكائه عند ذكر القبر، فقيل له: لماذا تبكي عند ذكر القبر أكثر من ذكر الآخرة؟ فقال: من نجى في هذا نجى في ذلك، ومن هلك في هذا هلك في ذلك.

إذاً يحتاج الإنسان السلامة من الله يوم يولد، وكذلك يحتاج السلامة حين يموت وكذلك يحتاج السلامة يوم يُبعث حياً وذلك يوم النشور، وهم فريق في الجنة، وفريق في السعير:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

فأنت تُولد تبكي والناس حولك يضحكون، فهم سيبكون عليك حين تموت، ولكن ليكن يوم هُم يبكون أنت تضحك مسروراً؛ لأنه إذا خرجت هذه الروح تلقتها ملائكة الرحمن يشرك الله بروح وريحان ورب راضٍ غير غضبان في جنات تجري من تحتها الأنهار.

ويقول الحافظ ابن كثير: «ولما كانت هذه المواطن أشق ما تكون على ابن آدم؛ سلم الله على يحيى في كل موطن من هذه المواطن»^(١).

وذكر الله قصة يحيى عليه السلام في مكان آخر كما في آل عمران قال جل وعلا: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْغُرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمَرِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْغُرَابِ أَنْ اللَّهَ يَبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران]، ما الكلمة؟ إنها «كن».

ثم قال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] وأما السيادة فهي سيادة النبوة، وأما الحصور فقد قال أكثر أهل العلم الحصور هو: العفيف المحافظ على فرجه الذي لا يأتي الحرام أبداً، وهنالك قول آخر أن الحصور هو: الذي لا يستطيع أن يجامع النساء، أي: «عنين» وهذا خطأ لأن هذا لا يُمدح به الإنسان، بل عيب يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق بسببه، وإنما يُمدح الإنسان الذي يستطيع أن يأتي النساء، ولكن يمتنع عن ذلك يريد رضا الله ﷻ.

قال زكريا ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ [آل عمران] هناك ثلاث ليالٍ وهنا أيام فهي ثلاثة أيام بلياليها. ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَخِيَ بِالْمَعْشَى وَالْإِنْسَانِ﴾ [آل عمران: ٤١] وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] يقول جل وعلا: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال أهل العلم: إصلاح الزوجة هنا؛ لأنها كانت لا تحيض لكبر سنها، وكانت عاقراً فأصلحها الله فحاضت وقال البعض: كان فيها أذى لزكريا وفيها عسارة تؤذيه بلسانها فأصلحها الله فصارت هيئة لينة معه، ولكن أكثر أهل العلم على أن إصلاحها كان بحيضها.

من أسباب استجابة الدعاء:

قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] يبين الله لنا السبب الذي لأجله استجاب الله دعاءه، وكأنه سبحانه يقول لنا: من أراد أن يستجيب الله له كما استجاب الله دعاء زكريا فليكن مثل زكريا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

خَشِيعِينَ ﴿١﴾، فلا يمكن أن يعصي الإنسان بالليل والنهار ثم يقول سألت الله فلم يستجب لي، كما قال النبي ﷺ وقد ذكر الرجل: «يطيل السفر أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له؟»^(١).

ابنا الخالة:

وعيسى ابن خالة يحيى كما قال النبي ﷺ في حديث الإسراء قال: «فرايت ابني الخالة عيسى ويحيى»^(٢)، وكانا في زمن واحد، أم يحيى أخت مريم، وإما أن تكون خالة مريم فالله أعلم بذلك، المهم أن يحيى وعيسى كانا في زمن واحد واستمرت دعوتهما معاً صلوات الله وسلامه عليهما حتى مات يحيى ورُفِعَ عيسى.

خمس كلمات:

قال النبي ﷺ: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطء في التبليغ فقال له عيسى ﷺ: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن أنا.

قال يحيى: إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يُخسف بي فلا تفعل أنا أبلغ.

فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعده على الشرفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله ﷻ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، وأخرجه مسلم (١٦٢).

خالص ماله بَوْرَق^(١) أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثّل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجدوا ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لي عندكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى افتدى نفسه، وأمركم بذكر الله ﷻ كثيراً، فإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن به».

قال رسول الله محمد ﷺ: «وأنا أمركم بخمس أمرني الله بهن: بالجماعة، وبالسمع والطاعة، والهجرة في سبيل الله تبارك وتعالى، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع الإسلام من عنقه إلى أن يرجع، ومن دعى بدعوي الجاهلية فهو من حثالة جهنم» قالوا: يا رسول الله وإن صلى وإن صام؟ قال: «وإن صلى وإن صام وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله ﷻ المسلمين المؤمنين عباد الله ﷻ»^(٢).

قتل يحيى بن زكريا ﷺ:

بعد ذلك لم تستمر دعوة يحيى كثيراً صلوات الله وسلامه عليه وقد كان في سن الشباب، فقد قرر ملكهم في ذلك الزمان أن يتزوج إحدى محارمه: خالته أو عمته أو بنت أخيه أو بنت أخته، لا يُعَلَم لكنها من محارمه التي يحرم عليه أن يتزوجها فسُئِل يحيى عن ذلك فقال: «حرام

(١) الورق: هي الفضة.

(٢) أخرجه الترمذي في (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/١٣٠)، وهو صحيح كما في «صحيح الترغيب» (٥٥٢).

هي لا تحل له» وكانت المرأة تريد الملك، فجاءت الملك في يوم من الأيام حتى أغرته وصار هيناً ليناً معها، فقالت: أريد منك شيئاً واحداً، قال: كل ما تريدينه أعطيك إياه، ماذا تريدين؟ قالت: أريد رأس يحيى!! قال: أو غير ذلك. اطلبي غيره، قالت: ليس إلا ذلك، ما أريد إلا رأس يحيى، هذا مهري منك، وعندها أطرق قليلاً ثم قال: لك ذلك، ثم أمر بيحيى صلوات الله وسلامه عليه، فقتلَ وقُدِّمَ رأسه صلوات الله وسلامه عليه مهراً لتلك البغي.

قتل زكريا ﷺ:

وأما والده زكريا فالمشهور أنه قُتِلَ أيضاً كما قال الله تبارك وتعالى في وصف بني إسرائيل أنهم كانوا يقتلون الأنبياء فذُكِرَ أنهم قتلوا زكريا صلوات الله وسلامه عليه في قصة مريم، وذلك لأنهم اتهموه بمريم فقتلوه لذلك بعد أن فرَّ منهم.

وعاشت بنو إسرائيل بعد ذلك فترة من الزمن زاد فيها انحرافها وذلك أن الانحراف كان متأصلاً فيهم، وكان كباراً وهم ينقسمون إلى خمسة أقسام:

١ - الصِّدِّيقِيُّونَ: وهؤلاء الذين كانوا بعكس اسمهم فهم الذين كانوا منغمسين في اللذات والشهوات.

٢ - الفريسيون: فهم الذين كانوا يظهرون الزهد وحقيقة الأمر أنهم كانوا يبتزون أموال الناس.

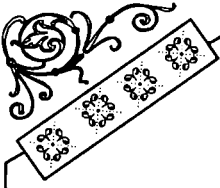
٣ - والرهبان: وهم عباد منقطعون غالبهم ضلَّال لا يعرفون كيف يعبدون الله تبارك وتعالى، وكان فيهم تنطع كثير في دين الله تبارك وتعالى كما قال ﷺ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

- ٤ - والكتبة: هم الذين كانوا يكتبون التوراة ويكتبون الأحكام ولكنهم كانوا يطلبون بها الدنيا على حساب الدين .
- ٥ - والكهنة: وهم الذين يحرضون الفقراء بأن يقدموا النذور فيأكلوها هم .

وهذا كله جاء في كتاب الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال جل ذكره: ﴿فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ عَلَيْهِمْ أَجَلَتِ لَهُمْ وَيَصُدُّهُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ﴾ [النساء].





قصة عيسى ﷺ

في هذا المجتمع المليء بالمعاصي، والمليء بالفسق والفجور؛ بعث الله تبارك وتعالى عيسى صلوات الله وسلامه عليه، وعندما نريد أن نقرأ حياة نبيه عيسى ﷺ؛ نجد أن الكتاب الذي بُعث به عيسى ﷺ هو الإنجيل، وسنحاول أن نقرأ الأناجيل الموجودة، وأن ننفض عنها الغبار المتراكم لمدة أكثر من ألفي سنة، فعندما ننفض هذا الغبار عن هذه الأناجيل، وليست إنجيلاً واحداً، بل أناجيل تعدت السبعين إنجيلاً، أشهرها خمسة، يؤمن أكثرهم بأربعة: لوقا، ومرقس، ويوحنا، ومثي، ويكفرون بالخامس وهو: برنابا.

من هو عيسى؟ وماذا يريد؟ بماذا أمر؟ وعن ماذا نهى؟ كيف كانت حياته؟

أولاً: ننظر في الأناجيل، فنجد الأناجيل جميعاً لا يوجد لها أسانيد يُعتمد عليها، بل فقدت الأسانيد بعد رفع عيسى ﷺ بخمسين سنة فقط.

ثانياً: لا توجد أي مخطوطات لهذه الأناجيل بحيث ينظر فيها.

ثالثاً: ليست إنجيلاً واحداً وإنما أناجيل، وهذه الأناجيل بينها اختلافات واضطرابات بحيث لا يمكن الجمع بينها والخروج بنتيجة صحيحة.

رابعاً: الأناجيل الموجودة لا أحكام فيها، وإنما هي قصة عيسى ﷺ، إذا كتبها غيره، وليس هو الذي أتى بذلك الكتاب من الله ﷻ الذي قال عنه ﷺ: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ إِلَّا الْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وفيه قوله:

﴿وَلَأُحِثِّلَ لَكُمْ بَعَضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] فلا نجد شيئاً من هذا في هذه الأناجيل.

وفي النهاية نقول: هي لا تستحق كل هذا الجهد الذي نبذله في نفص الغبار والنظر، وكيفيك أن تعلم أن أول ما تنظر في أي إنجيل من هذه الأناجيل؛ فإنك تجد تفاهة عظيمة من تفاهاتهم تدل على طغيانهم وخبثهم وكفرهم، وأنهم عندما يذكرون عيسى عليه السلام يذكرون نسبه إلى يوسف النجار، ويوسف النجار هو الذي اتهمت به مريم عليه السلام، وهؤلاء الخبيثاء يصدقون اليهود في دعواهم أن عيسى ابن زنا - والعياذ بالله - وأنه من ظهر يوسف النجار، وليس هو كلمة الله ألقاها إلى مريم.

ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام في القرآن:

ذكر عيسى ابن مريم في كتاب الله خمساً وثلاثين مرة، وذكرته أمه مريم تسع مرات، ولا مجال للفصل بينهما، بل نذكرهما على أنهما قصة واحدة.

وقد اختلف الناس في عيسى على ثلاثة أقوال:

- ١ - قالت اليهود: هو ابن زنا لعنهم الله.
 - ٢ - وقالت النصارى: هو ابن الله لعنهم الله.
 - ٣ - وقال المسلمون: هو عبد الله ورسوله رحمهم الله.
- أما مريم أم عيسى؛ فهي صديقة كما سماها الله جل وعلا ﴿وَأُمَّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]. وهي قانتة كما قال جل وعلا ﴿وَكَاثِرٌ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [التحریم: ١٢]. وهي من سلالة داود عليه السلام.

ونحن إذا أردنا أن ننسب عيسى؛ فإننا ننسبه إلى أمه كما نسبه الله تبارك وتعالى، فقال: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

امراة عمران تنذر ما في بطنها لله ﷻ:

تبدأ القصة عند قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ذُرِّيَّتَهُ بِمَعْضَاهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴿آل عمران﴾ وعمران هو عابد من عباد بني إسرائيل ورجل صالح والمشهور أن امرأته أيضاً صالحة واسمها حنا قالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، تقول لربها ﷻ وهي لا تعلم ماذا يكون في بطنها؟ وتوقعت أن يكون الحمل ذكراً، فنذرت هذا الذَكَرَ لبيت المقدس؛ ليكون خادماً للرب؛ لأن خدمة الرب تعني عبادته.

فالمهم أنها نذرت ما في بطنها محرراً من الدنيا؛ لأن الدنيا تستعبد الإنسان، ولذلك قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة»^(١)، أما هذا فمحرر من كل قيود الدنيا، متفرغ لعبادة ربه جل وعلا: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، لكن الذي وقع أنها ولدت أنثى، فلما وضعت قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: النسمة أو النفس التي ولدتها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وفيها قراءتان:

الأولى: بسكون التاء ﴿وَضَعْتَ﴾.

الثانية: بضم التاء «وضعت».

والقراءة الأولى تكون جملة معترضة، فكان هذا الكلام الذي دخل هو كلام الله ﷻ، فهي لما قالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ فيجيب الله تبارك وتعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾، فالله يدري أنها أنثى.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

وعلى القراءة الثانية: يكون من كلامها هي، فتقول: رب إني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعتُ.

قالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ أي: كما أني نذرت هذا المولود ليكون خادماً للرب؛ فكذلك المولود الذي صار أنثى تكون خادمة للرب؛ لأنها نذرت ما في بطنها.

ومعنى مريم: خادمة الرب في لغتهم.
ومتى أسمتها؟

الجواب: أسمتها أول ما وضعت، وهذا دليل على أن الإنسان يجوز له أن يُسمِّي ولده أول ما يولد. ولما جاء أنس بن مالك رضي الله عنه بأخيه عبد الله أول ما وضعت أمه؛ جاء به ليحنكه رسول الله ﷺ، فسماه عبد الله في الوقت نفسه^(١).

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أن الصبي أو المولود يُسمَّى يوم سابعه^(٢)، فيجوز أن يُسمَّى في أول يوم يولد، ويجوز أن يُسمَّى في سابعه.

قالت: ﴿وَإِنِّي أَعِيزُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٦٦﴾ فنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ﴾ [آل عمران: ٤٦]؛ أي: فاستجاب الله دعاءها جل وعلا، قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»^(٣)، فمريم لما استعادت أمها من الشيطان أن يمسه، وكذلك استعادت أن يمسه ذريتها، فلم يمسه ولم يمسه ذريتها، وهو عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود في (٢٨٣٧، ٢٨٣٨)، والترمذي في (١٥٢٢)، والنسائي (٤٢٢٠)، ابن ماجه (٣١٦٥)، وهو في صحيح إرواء الغليل (١١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

يقول الله جل وعلا: ﴿فَنَقَّبَلْهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] أي: رباها وكفَّلَهَا زكريا، وهو خير بني إسرائيل في ذلك الوقت وهو نبي. وفي قراءة أخرى: «وَكَفَّلَهَا زكريا» إذا إما أن يكون الله كَفَّلَ لها زكريا، وإما أن يكون زكريا هو الذي كَفَّلَهَا، وعلى كل حال فزكريا ﷺ هو الذي اعتنى بها.

كفالة زكريا ﷺ لمريم ﷺ:

المشهور أن عمران - والد مريم - مات وهي حمل في بطن أمها أو بعد أن ولدتها مباشرة، وذلك أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها دون الرجوع لزوجها، وسمتها كذلك دون الرجوع لزوجها، مع أن زوجها كان مصطفى كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وهو رجل صالح، بل كان من عبّاد بني إسرائيل، فكيف لا ترجع إليه في النذر ولا في التسمية.

قالوا: وذلك أنه قد توفي ومريم حمل في بطن أمها، أو أنه مات بعد الولادة مباشرة، والظاهر أنه مات وهي حمل في بطن أمها. وتسابق العبّاد في بيت المقدس إلى كفالتها، وذلك لمكانة أبيها، فقد كان من عبّادهم وعلمائهم.

ونظير هذا ما تقدم في قصة موسى مع الخضر عند قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] فالله يحفظ النسل بصلاح الآباء والأمهات، فبصلاح الأب والأم تسابق الناس إلى كفالة مريم، فكان زكريا ﷺ ممن طلبها مع الناس، فنازعوه إياها، فقالوا: لا حتى تكون هناك قرعة، فعملوا قرعة كما قال تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وضع كل واحد منهم قلمه، ونادوا صبيّاً لم يبلغ الحلم، وقالوا له: اختر

قلماً مِنْ هذه الأقلام، والذي يخرج قلمه هو الذي يكفلها، فجاء الصبي ونزع القلم، فإذا هو قلم زكريا عليه السلام، فنازعه وقالوا: لا بد مِنْ قرعة أخرى. فقال: كما تريدون. قالوا: نرمي أقلامنا في الماء، والقلم الذي يمشي عكس التيار هو الذي يكفل مريم؛ لأن هذا أمر الله، فألقوا أقلامهم، فكلها جرت مع التيار إلا قلم زكريا عليه السلام جرى بعكس التيار. فقال: إذا أخذ مريم. فقالوا: لا بد مِنْ قرعة ثالثة. قال: كما تشاؤون. قالوا: نرمي أقلامنا، والقلم الذي يمشى مع التيار هو الذي يأخذ مريم، فمشى قلم زكريا مع التيار، ومشت أقلامهم جميعاً عكسه ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، هكذا جاء في روايات بني إسرائيل والله أعلم، ويكفينا قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

فضل مريم عليه السلام:

قال النبي ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١) إذا هي ممن كُمل مِنْ النساء، كفلت رسولاً من أولي العزم من الرسل؛ فآسية كفلت موسى عليه السلام، ومريم كفلت عيسى عليه السلام، ولذلك كانت لهما هذه المنزلة العظيمة.

الخلافاً في نبوة مريم عليه السلام:

اختلف أهل العلم في مريم هل هي امرأة صديقة أو أنها امرأة نبية:

فذهب بعض أهل العلم إلى أنها نبية؛ وذلك لأمر:

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

أولاً: لأن الوحي جاءها على صور، فمرة يكلمها الله، ومرة يكلمها جبريل، ومرة تأتيها البشارة، ومرة يتمثل لها.

ثانياً: إن الله وصفها بأنها صديقة، ووصفها بأنها قانتة وهذا يدل على أنها نبيه.

ثالثاً: لم يُسمَّ الله امرأةً باسمها غيرها في القرآن، فجاء فيه ذكر امرأة فرعون، وامرأة العزيز، وامرأة لوط، وامرأة نوح، ونساء النبي، وبنات النبي، وخالاته، وعماته، ولم يُذكرن بالاسم، وإنما بالوصف، بينما مريم ذكرت باسمها تسع مرات.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن مريم صديقة كما قال الله تبارك: ﴿وَأُمَّتُهَا صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] فلم تكن نبيه، ولو كانت نبيه لكان شرفها الله تبارك وتعالى بهذا اللقب - أي: لقب النبوة - ولناداها به ﷺ، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩] فكل الذين أرسلهم الله ﷺ كانوا من الرجال، وهذا الصحيح، فمريم لم تكن نبيه، وإنما كانت صديقة، وكانت امرأة صالحة تقية نقيه.

اصطفاء الله ﷻ لمريم ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، الاصطفاء الأول في ولادتها وكيف أنها كانت محفوظة بحفظ الله لها بتكليف زكريا ﷺ برعايتها، وطهرها من خُبث الأخلاق، وطهرها من الشرك، وطهرها بأنها كانت من أعف النساء، بل أعفهن في زمانها، واصطفاها الاصطفاء الثاني وهو: أن أخرج منها عيسى ﷺ دون زوج، واصطفاء مريم على نساء العالمين؛ أي: عالمين زمانها، وليس كل نساء العالمين.

البشارة بعيسى عليه السلام :

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَيُّهُمُ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران] هكذا جاءت هذه البشارة لمريم بعد أن نشأت وترعرعت وتربت في بيت المقدس.

فوجئت بأن رجلاً يدخل عليها ويقول لها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وجاء في سورة مريم أن الذي جاءها واحد من البشر، مَلَكٌ في صورة بشر ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٧﴾﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾﴾ [مريم] فهنا مَلَكٌ وهناك ملائكة.

والصحيح أن الذي جاءها واحد، أما قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: واحد من الملائكة؛ جنس الملائكة، وليس المقصود جماعة الملائكة، وهو على الصحيح جبريل عليه السلام.

ولما جاءت هذه البشارة استغربت مريم عليه السلام كيف يكون هذا ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] لا بحلال ولا بحرام ما مسني بشر، فهي بكر، ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] هذه أسباب لا بد منها، لا بد من زواج ولا بد من جماع، ولا بد من نطفة ولا بد أن تلتقي النطفة مع البويضة، ولكن هذه الأسباب في البشر، أما الله تبارك وتعالى فلا يحتاج لهذه الأسباب أبداً؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وينتهي كل شيء بالنسبة لله تبارك وتعالى، وهو كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران].

فالله جل وعلا يُجري الشمس والقمر، والشمس تُشرق كل يوم من مشرقها، وسيأتي اليوم الذي لا يأذن الله لها أن تشرق، فتخرج من مغربها، فالله ﷻ لا تُسيِّره الأسباب، ولكن هو الذي يُسيِّر الأسباب، فهو مسبب الأسباب.

مريم تحمل بعيسى ﷺ:

حملت مريم بهذه النطفة المباركة وهو عيسى صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك يقال: عيسى كلمةُ الله ألقاها إلى مريم، وكلمة الله هي: «كن» فكان كما قال الله ﷻ.

وأول ما وُلِدَ عيسى ﷺ علم بذلك المنجمون، وذلك أنهم كانوا ينتظرون قدوم نبي أخبر به الأنبياء السابقون، ويكون خراب مُلْكِ مَلِكِهِمْ على يديه، فجاؤوا وأخبروا الملك، وكان اسمه «هيرودس» أنه وُلِدَ مَلِكُ اليهود الذي على يديه تنتهي مملكتك، فأمر بقتل كل صبي يولد كما وقع الأمر بالنسبة لموسى ﷺ، ففرت به مريم وهو حمل، أو فرت بعد ولادته، وهو الصحيح، المهم أن مريم خافت على ولدها عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَلَّلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ مَائَةً وَأَوْرَثْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] قيل: هذه الربوة هي مصر، وبقيت هناك سنوات حتى مات هيرودس، ثم رجعت إلى الغوطة في دمشق.

وقيل: إنها لم تفر به، وأن الربوة ذات القرار والمعين هي التي قال الله تبارك وتعالى عنها: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٦١﴾﴾ [مريم] وهو النهر الصغير الذي أجراه الله ﷻ، والعلم عند الله جل وعلا.

ميلاد عيسى عليه السلام:

خلق الله تبارك وتعالى كما ذكر أهل العلم على أربعة أنواع:

- ١ - من غير ذكر ولا أنثى وهو آدم عليه السلام.
- ٢ - من ذكر دون أنثى وهي حواء.
- ٣ - من أنثى دون ذكر وهو عيسى عليه السلام.
- ٤ - من ذكر وأنثى، وهم جميع ولد آدم عدا عيسى.

ذكر الله تبارك وتعالى أن مريم عندما ولدته ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢] أي: انفردت شرقي المسجد الأقصى، ثم ولدت هذا الولد، وذلك أنها خافت من كلام الناس، فسيتهمونها من أين لك هذا الولد؟ لا نعلم لك زوجاً، فهل كان من زنا؟ من هو والده؟ وهكذا، فخشيت من هذا كله، وهذا الأمر ثقيل عليها، تُتَّهَمُ امرأة في عرضها، وأي امرأة؟ صِدِّيقَةٌ، قانتة، تربت في مكان عفيف، في مكان شريف مُقَدَّس.

ويُذكر أن زكريا، وقيل: أختها زوجة زكريا، وقيل: ابن خالتها، المهم: أحد هؤلاء جاءها بعد أن ولدت عيسى فقال لها: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول، قالوا لها: فهل يكون شجر من غير ماء؟ قالت: نعم فمن خلق الشجر الأول؟ فقالوا لها: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، فسكتوا، لكن هؤلاء من؟ هؤلاء الذين يحبونها، وأقنعتهم أن الله على كل شيء قدير، وأن هذا أمر الله ﷻ، فاعتزلت قومها، وذلك أن هؤلاء أقرب الناس إليها، ووقع في قلوبهم شيء من هذا الحمل، فكيف بالأبعدين؟ كيف بالفساق وبالفجرة؟ ماذا سيقولون عنها.

وذهبت على المشهور إلى بيت لحم، فلما وصلت إلى هناك قالت: ﴿يَا بَنِيَّ مَتَى قَبَلْ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] نسياً منسياً: لا

يعرفني أحد وينساني الناس، أو نسياً منسياً، النسي هي الخرقه التي ينظف فيها الدم، وتلقى ولا يلتفت إليها أحد.

فالقصد أن مريم تمنّت الموت لهذا الابتلاء العظيم الذي وقع عليها^(١)، عندها قال الله تبارك وتعالى بعد أن قالت هذه الكلمة ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِينَ﴾، وهذه الآية فيها قراءتان:

الأولى: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بكسر حرف الميم.

الثانية: «مَنْ» بفتح الميم.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِينَ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا ۚ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَمْجِعُ النَّخْلَةَ لَسُقِطٍ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا ﴿٢٥﴾ فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم] إياك والهم، فأنت رزقك الله هذا الولد، ويجري لك هذا الماء، ويسقط عليك الرطب، فاطمأني وقري عينا.

قال: «فناداها مَنْ تحتها» أي: ولدها الذي وضعتة تكلم وناداها، فقال لها: يا أم لا تحزني، وهذا فيه تطمين لها، فالآن وُلِدَ ويتكلم فاطمأنت مريم.

وقوله: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَمْجِعُ النَّخْلَةَ لَسُقِطٍ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: حتى يتبين أن كل شيء له سبب، ولذلك ماذا قال الله لموسى ﴿إِنَّكَ﴾: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ابذل سبباً، وقد قيل:

ألم تر أن الله أوحى لمريم وهزي عليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزة ولكن كل شيء له سبب

ثم قال لها: ﴿فَأِمَّا تَرِينَ مِن الْبَشَرِ أَلِئِنَّهَا لَآتَاكِهُنَّ﴾ [مريم: ٢٦] لأنها اتخذت

(١) قال القرطبي رحمه الله: «وأما مريم ؑ فإنما تمنّت الموت لوجهين: أحدهما: أنها خافت أن يظن بها السوء في دينها وتُعَيَّرَ، فيفتنها ذلك. الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والزور، والنسبة إلى الزنا، وذلك مهلك لهم، والله أعلم» «التذكرة» ص ٦.

مكاناً قصياً خوفاً من البشر، ﴿فَأَمَّا تَرِينٌ مِّنَ النَّبَشِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: إمساكاً عن الكلام، وهو بلسان الحال كما قال زكريا عليه السلام: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

مريم عليه السلام ترجع إلى قومها:

رجعت مريم إلى قومها مطمئنة واثقة بالله تعالى ومعها ولدها، فقالوا: ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ والفري: الشيء العظيم، وأعظم الفري يعني: أعظم الكذب، ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٧٧) يتأخَت هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٧٨) [مريم] قد تقدمت المواجهة بين مريم وبين الأقارب، وهي مواجهة المحبين، هل يكون زرع من غير بذر؟ هل يكون شجر من غير ماء؟

وأما هنا فهي مواجهة الفساق الفجرة فماذا قالوا لها؟

أول شيء قالوا: ﴿يَتَأَخَت هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (٧٨) [مريم]، كأنهم يقولون لها أنتِ كذلك والعياذ بالله ﴿يَتَأَخَت هَرُونَ﴾ مَنْ هَارُونَ؟

اختلف فيه على أقوال:

الأول: إنه أخوها اسمه هارون،، وإما أن يكون وُلِدَ قبل مريم وأما نذرت مريم، وإما أن يكون وُلِدَ بعد مريم، ولكن هذا يعكر عليه أننا قلنا: أن الأظهر أن عمران مات وزوجته حامل في مريم عليه السلام، إذاً احتمال أن هارون هو الأخ الأكبر لها.

الثاني: إنه النبي أخو موسى عليه السلام، فهي مريم أخت موسى وهارون، وهذا بدليل أنه موسى بن عمران، وهارون بن عمران، وهي مريم بنت عمران وقد ذكر الله ﷻ أختاً لهارون وموسى عليه السلام ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ فَصِيْبَةٌ﴾ [القصص: ١١] واسمها مريم، فهذه هي مريم التي كانت

تقصُّ أثر موسى عليه الصلاة والسلام، فيصبح موسى وهارون أخوالاً لعيسى صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا بعيد وليس بصحيح؛ لأنه على المشهور بين موسى وعيسى ثلاثة عشر قرناً، فبينهما من الزمن مدة طويلة.

الثالث: إن هارون عابد من عباد بني إسرائيل، ولأنها عابدة ومنذورة لبيت الله ﷻ يشبهونها بهذا الرجل الصالح، فكأنهم قالوا: أنت شبيهة هارون.

الرابع: إن هارون هذا كان رجلاً فاجراً عندهم، فشبها به.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه سأله أهل نجران: كيف عندكم في القرآن تقولون لمريم: ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ﴾ وهارون مات قبل عيسى بقرون؟ فسكت المغيرة بن شعبة، وقال: حتى أرجع إلى رسول الله ﷺ. فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له ذلك؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا تخبرهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»^(١)، وهذا يدل على أن هارون اسم أخيها الأكبر، والله أعلم.

اتهام مريم عليها السلام بالفاحشة:

اتهموا مريم بالزنا والعياذ بالله، فمن الذي اتهموه بها؟ قالوا: زكريا ولذلك قتلوه.

وقيل: اتهموها بابن خالتها وهو: يوسف النجار، وهو الذي صدق به النصارى قبحهم الله، ولذا كانوا يكتبون عيسى بن يوسف النجار.

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٥).

عيسى عليه السلام يتكلم في المهد ويقر بالعبودية لله ﷻ:

لما أشارت إليه قالوا: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] فهذا صبي بالمهد، وتريدين منا أن نكلمه؟! فأشارت إلى عيسى عليه السلام، وعندها وقعت المعجزة، ووقعت الآية، تكلم الصبي في المهد وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، فأول كلمة قالها: إنه عبد الله، وكأن الله ﷻ يريد أن ينبهنا إلى أن هناك من سيغلو بهذا الصبي، وسيقول عنه: إنه ابن الله، فكانت أول كلمة قالها: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، فكذب خبرين:

الأول: كذب من يقول: إنه ابن الله.

الثاني: وكذب من يقول: إنه ابن زانية.

قال: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٥﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٦﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم] كما قال أخوه يحيى عليه السلام.

وقد جاء وفدٌ من نجران إلى النبي ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة، فناظروه في عيسى صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن النصراني - كما سيأتينا - تعتقد أن عيسى عليه السلام إلهٌ في صورة بشر، وبشرٌ في صورة إله، يجتمع فيه ناسوت ولاهوت إنسي وإلهي في وقت واحد، فناظرهم النبي ﷺ في عيسى، فما كان منهم إلا أن طلبوا المباهلة، فأجابهم النبي ﷺ، وجاء من الغد بعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، يريد أن يباهل بهم وفد نجران، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِيمَانِ فَقُلْ نَدَعُ أبنَاءَنَا وَأبنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران]، ونبتهل أي: يلعن كل واحد منا صاحبه، ويلعن نفسه إذا كان كاذباً، فالابتهال الالتهان، والمباهلة هي الملاعة.

- ولو تأملنا ما تكلم به عيسى ﷺ لوجدناه يتضمن أموراً عشرة:
- أولاً: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.
 - ثانياً: ﴿مَاتَنِي الْكُتُبُ﴾.
 - ثالثاً: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.
 - رابعاً: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾.
 - خامساً: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾.
 - سادساً: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي﴾.
 - سابعاً: ﴿وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.
 - ثامناً: ﴿وَأَسَلْتُ عَلَى يَوْمِ وُلِدْتُ﴾.
 - تاسعاً: ﴿وَيَوْمَ أُمُوتُ﴾.
 - عاشراً: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

عشرة أمور بيّنها عيسى ﷺ عندما تكلم هذه الكلمات اليسيرة في مهده صلوات الله وسلامه عليه، والمشهور عن ابن عباس وغيره أنه لم يتكلم عيسى ﷺ بعد ذلك حتى كبر، وإنما كان كلامه في هذا المقام آية على طهارة مريم ﷺ.

المعجزات التي أيد الله ﷻ بها عيسى ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى عن عيسى ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَاٰلِدِكَ إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يٰذِي فَتَنُوحُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يٰذِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ يٰذِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ يٰذِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٧١﴾ [المائدة].

وقال كذلك: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا
إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي
الْمَوْقُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمَصَدِّقًا لِّمَا بِيَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْدَلٍ لَّكُمْ
بِقِصِّ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ
اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران].

ونستخلص من هذه الآيات أن الله ﷻ جعل لعيسى عليه السلام ست
آيات أو ست معجزات:

أولاً: كلامه في المهد.

ثانياً: يخلق من الطين كهية الطير.

ثالثاً: ينفخ فيه فيكون طيراً.

رابعاً: إبراء الأكمه والأبرص.

خامساً: إحياء الموتى.

سادساً: الإخبار بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

وهكذا كما أخبر يوسف صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا بَنَاتُكُمَا بِتَوْبِلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧] وهنا كذلك نبي الله
عيسى عليه السلام قال: ﴿وَأُنْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:
٤٩]، فهذه ست علامات تدل على أن عيسى صادق في دعوى النبوة.

ثم سكت عيسى عليه السلام بعد ذلك فترة من الزمن، وذكرنا أن مريم
هاجرت به إلى مصر أو إلى دمشق أو اختبأت حتى مات الملك
«هيروودس» الذي كان يريد قتل عيسى عليه السلام؛ لأنه كان يخافه على ملكه.

ثم بعد ذلك استمر في حياته، وتركت هذه المدة الطويلة من

حياته ﷺ دون ذكره؛ لأن الذي يأتي بعدها هو الأهم؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ، وإنما هو كتاب هداية؛ كتاب نور، يذكر لنا ما نحتاج إليه، وما نستفيد منه، وما نعتبر به، والمشهور أنه بُعِثَ بعد الثلاثين من عمره، واستمر في بعثته ثلاث سنوات، ثم بعد ذلك جاءت حادثة رفعه إلى السماء صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة عيسى ﷺ:

كان يدعو إلى توحيد الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: ٥١].

وكان يدعو إلى طاعة الله ﴿لِمَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وكان يدعو إلى الإيمان باليوم الآخر، وإلى عدم التهافت على الدنيا.

وكان يدعو إلى الزهد.

وكان يدعو إلى التواضع وعدم التكبر.

وكان يدعو إلى حسن المعاملة بين الناس.

وكان يدعو إلى عدم الظلم والعدوان على أموال الناس.

وكان يدعو إلى الالتزام بالتوراة التي جاء بها موسى ﷺ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] فنسخ بعض الأحكام التي في التوراة، ولكن في الجملة هو مصدق لما جاء في التوراة.

قصة المائدة:

وقعت حادثة في زمن عيسى ﷺ ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه

العزير: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِيزِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَنْفُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١٣] لا يجوز لكم أن تسألوا بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب، فقالوا: لا يا عيسى نحن ما قصدنا التعنت وإن أسأنا المقال ولكننا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣].

قال: إن كان كذلك فدعوني أدعو ربي، فصار يدعو ربه تبارك وتعالى ويسأله أن يُنزل عليهم تلك المائدة، فقال عيسى عليه السلام: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة: ١١٤] أي: على صدقي وعلى نبوتي ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤] سأُنزل هذه المائدة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥] بهذه المائدة وبما جئت به يا عيسى ﴿أَعَذِبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ولما جاءت هذه الكلمات من الله تبارك وتعالى وأخبر بها عيسى عليه السلام الناس؛ قال: إن الله جل وعلا سينزل هذه المائدة، ولكن انتبهوا هناك وعيد شديد لمن كفر بعد نزول المائدة، فإن الله سيعذبه عذاباً ما يعذبه أحداً من العالمين.

وهنا اختلف العلماء ماذا حدث بعد هذه الكلمات من الله ﷻ؟

فقال بعض أهل العلم - ومنهم الحسن البصري ^(١) -: إن المائدة لم تنزل، وذلك أنهم قالوا بعد التهديد الذي جاءهم من الله: لا حاجة لنا بهذه المائدة وخافوا.

والأكثر على أن المائدة نزلت بدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١٥]، والعلم عند الله جل وعلا.

ولكن الغريب أن التوراة الموجودة حالياً والإنجيل الموجود حالياً

(١) وروي عن مجاهد مثله. انظر: «تفسير الطبري» (١١/٢٣١).

لم يذكرنا شيئاً عن هذه المائدة، وهذا يؤيد قول من قال: إنها لم تنزل، ولكن الإشكال هنا هو أن التوراة والإنجيل قد مستهما يد التحريف، فلا يوثق بهما الآن.

الحواريون:

الحواريون ذكرهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز على سبيل المدح، فقال الله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله عنهم: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤] فالحواري هو الناصر.

ومنه قول النبي ﷺ لأصحابه يوم الخندق لما طلب منهم رجلاً يخرج إلى الكفار ويدخل بينهم حتى يسمع كلامهم ويأخذ أسرارهم، فندب أصحابه قال: «من يخرج إليهم؟» فقام الزبير بن العوام رضي الله عنه، فقال: أنا يا رسول الله فسكت النبي ﷺ، فأعادها مرة ثانية: «من يخرج إليهم؟» فقام الزبير بن العوام رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله، فسكت النبي ﷺ، ثم أعاد الثالثة فقال: «من يخرج إليهم؟» فقام الزبير بن العوام رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله، عندها قال النبي ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير»^(١).

كلمات عاطرة عن عيسى عليه السلام:

وقد نقلت عن عيسى صلوات الله وسلامه عليه كلمات طيبة - والله أعلم بشبوت بعضها عنه -، منها أنه قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).

وقال عن الدنيا: «اعبروها ولا تعمروها».

وقال: «رب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً».

وقال: «لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن».

وقال: «لا يستقيم الماء والنار في إناء».

وقال: «طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله».

ومرّ يوماً وأصحابه معه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها! فقال عيسى ﷺ: «ما أبيض أسنانها!».

وقال: «إنما الناس رجلان: معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية».

ورأى رجلاً يسرق فقال له: «أسرقت؟» فقال الرجل: كلا والذي لا إله إلا هو؛ فقال عيسى ﷺ: «آمنت بالله، وكذبت عيني»^(١).

ونُقِلَ عنه أنه ذكر ثلاثة خرجوا، فعشروا على كنزٍ من ذهب، فافتسموه بينهم، ثم طُلبَ من واحدٍ منهم أن يذهب ويأتيهم بالطعام، فلما خرج جاء الشيطان صاحبيه، فطمع كلُّ منهما في الذهب، وقال: بدلاً من أن يُقسم المال على ثلاثة لماذا لا يُقسم على اثنين، فافتنعا وعزما على قتل صاحبهما، فلما رجع صاحبهما وجاء بالطعام قاما إليه وهو غافل، فقتلاه حتى يأخذا الذهب كله، ولكن فاتهما أن الشيطان الذي جاءهما جاء صاحبهما، فقال له: تقتلهما ثم تأخذ المال كله، قال له: وكيف لي ذلك؟ قال تضع سُمّاً في الطعام، فوضع سُمّاً في الطعام، فلما قتلاه أكلا الطعام فمات الجميع وبقي الذهب. وهذه هي نتيجة الطمع.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٤)، مسلم (٢٣٦٨).

مؤامرة اليهود على عيسى ﷺ ونجاته منهم:

رسالة عيسى ﷺ لم تلقَ قبولاً عند الكثير من اليهود في ذلك الوقت، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة] فعزموا على قتل عيسى ﷺ عن طريق إثارة المَلِكِ عليه بقولهم: إن هذا هو الذي سيسلب مُلْكَكَ وعزم الملك على قتله، ولكن الله تبارك وتعالى يحفظ رسله ﷺ، ولم يُردِ الله جل وعلا أن يسلبهم عليه كما تسلطوا على يحيى ﷺ، وكما تسلطوا على زكريا ﷺ، وكما تسلطوا على كثير من الأنبياء، وذلك أن الله ﷻ ألقى الشبه على آخر، فظنوه عيسى ﷺ، فأخذوه وقتلوه، وهم يظنون أنهم قتلوا عيسى ﷺ، وواقع الأمر أنه لم يُقتل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَهُمْ﴾ [النساء: 1٥٧] وهناك ثلاث روايات ذُكرت في كتب بني إسرائيل:

الرواية الأولى: أن كبير الحرس الذي كان حريصاً على قتل عيسى صلوات الله وسلامه عليه دخل عليه البيت يريد قتله، فرفع الله عيسى ﷺ مِنْ روزنة بالجدار^(١)، وألقى الشبه على هذا الرجل، فلما تأخر عليهم دخلوا البيت، فوجدوا صاحبهم، ولكن الشبه شبه عيسى، فأخذوه وقالوا: أمسكناه، قال: أنا صاحبكم، قالوا: نعم أنت صاحبنا، فأخذوه وقتلوه يظنون أنهم قتلوا عيسى ﷺ.

الرواية الثانية: أن عيسى قال لتلاميذه: أحذكم يخونني، وهو «يهودا الإسخريوطي»، ذهب إلى المَلِكِ وقال: أنا أعلمك بمكان عيسى حتى تقتله، فلما أخبره وجاء الجند ليأخذوا عيسى ألقى الله الشبه على «يهودا» فأخذوه وقتلوه يظنونه عيسى ﷺ.

(١) أي: فتحة في الجدار.

هاتان روايتان تقولان أن الذي ألقى عليه الشبه هو عدو لعيسى عليه السلام .

الرواية الثالثة: أن عيسى عليه السلام حوَّصر في البيت وكان معه تلاميذه، فقال لتلاميذه: أيكم يتبرع فيلقي الله الشبه عليه فيقتل ويكون في درجتي في الجنة، فقال أحد تلاميذه وكان من أصغرهم سناً: أنا. فقال: «أنت صاحبني» فألقى الشبه على هذا الحواري، وأخذ وقتل متبرعاً دون عيسى صلوات الله وسلامه عليه .

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧] لكنه رفع عيسى كما قال جل وعلا: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران] فالمكر منهم إرادة قتل عيسى، والمكر من الله ﷻ أن ألقى الشبه على غير عيسى، سواء قلنا: ألقاه على رئيس الشرطة أو ألقاه على التلميذ الخائن، أو ألقاه على التلميذ النجيب أياً كان، المهم أن الشبه ألقى على آخر، وهذا المكر من الله بهم أنهم أخذوه يظنون أنهم أخذوا عيسى عليه السلام، وما قتلوه كما قال الله جل وعلا: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْهَبِي كُنْ مِنَ الْمَكْرُوفِينَ﴾ [آل عمران] وهنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَعْيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْهَبِي كُنْ مِنَ الْمَكْرُوفِينَ﴾ [آل عمران] دلالة واضحة على أنه ما قُتِلَ صلوات الله وسلامه عليه .

ثم قوله: ﴿وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال الحافظ ابن كثير: نحن الذين اتبعوه، ما قلنا إلا كما قال هو: عبد الله، ما قلنا: هو ابن الله، وليس النصارى الآن هم أتباع عيسى عليه السلام بل أعداء عيسى عليه السلام ولذلك الله تبارك وتعالى يقول لعيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿هَآءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾

[المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمِ الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢].

إذا أتباع عيسى ﷺ هم الذين ساروا على نهجه واقتفوا أثره، ولما هاجر النبي إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: لماذا يصومونه؟ فقالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى ﷺ من فرعون، فقال: «نحن أحق بموسى منكم»^(١)، ونحن كذلك نقولها للنصارى: نحن أحق بعيسى منكم صلوات الله وسلامه عليه، كيف والله تبارك وتعالى يقول عنهم وعن اليهود: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) [النساء] أي: يقيناً ما قتلوه أو هم ليسوا متيقنين أنهم قتلوه، تحتمل معنيين إما ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: غير متأكدين أنهم قتلوه؛ لأن هذا الذي أخذوه وصلبوه كان يصيح ويبكي، فقالوا: ما هذه عادة عيسى فتشككوا في الذي قتلوه، خاصة أن بعض تلاميذ عيسى ﷺ الذين يعلمون أن عيسى ما قُتِلَ، وإنما رُفِعَ كانوا يتكلمون بهذا، فهم في شك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

أو أن يكون الكلام من الله يقطع بذلك: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ فيكون فيها تقديم أو تأخير، ويكون معنى ذلك: يقيناً ما قتلوه.

رَفَعُ عِيسَى ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨) [النساء]

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٧)، ومسلم (١١٣٠).

وعن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى ﷺ إلى السماء خرج إلى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم أي: من الحواريين فقال: إن منكم من يكفر اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يُلقى عليه شهيي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له: «اجلس»، ثم أعاد الثانية فقام الشاب فقال: «اجلس»، ثم أعاد الثالثة فقام الشاب، فقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه «أنت هو ذاك» فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت في السقف إلى السماء وجاء من يطلبه من اليهود فأخذوا الشبيه، فقتلوه ثم صلبوه، فكفر بعيسى أحدثهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا بعد ذلك إلى ثلاث فرق:

فقال فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء أي: أن عيسى ﷺ هو الله، وهذه فرقة اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه، قال ابن عباس: وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ﷻ ثم رفعه إليه، وهؤلاء هم المسلمون^(١).

وأناجيل النصارى كثيرة جداً، بل ذُكِرَ أن الأناجيل التي كتبت بعد رفع عيسى أكثر من مئة إنجيل، كل واحد يكتب، ولكن الأناجيل التي اعتمدت بعد ذلك سبعون، والأناجيل المعتمدة الآن أربعة: متى، ولوقا، ويوحنا، ومرقص، وهذه تسمى عند النصارى العهد الجديد.

وهناك العهد القديم، وهي التوراة والأسفار التي معها.

وهناك إنجيل خامس يقال له «برنابا» وهذا لا تعترف به الكنيسة،

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/٣٦٦ - ٣٦٧).

وهو أقرب الأناجيل إلى الحق، وكل الأناجيل على باطل حتى برنابا هذا، ولكنه أقربها إلى الحق.

جاء في إنجيل برنابا: «فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفائيل وأدرين أن يأخذوا يسوع^(١) من العالم، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فجعلوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تُسَبِّح الله إلى الأبد، ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق والوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع».

ولأن برنابا هذا هو أحد الحواريين كما يدعون؛ فبرنابا يقول: إن يهوذا هو الذي أُلقي عليه الشبه، وهو التلميذ الخائن، وأن عيسى رُفِع إلى السماء صلوات الله وسلامه عليه.

معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ (١) إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَسُوعَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴿آل عمران﴾، فما معنى مُتَوَفِّيكَ؟ هل مات عيسى صلوات الله وسلامه عليه في الدنيا أم لم يمْتَ؟ مع الاتفاق أن عيسى لم يُصَلَب؛ لأن هذا نص القرآن ﴿وَمَا صَلَّبُوهُ﴾ فلم يُصَلَب ولم يُقْتَل، وهذا بالإجماع، ومن قال بخلاف ذلك؛ فهو كافر مرتد؛ لأنه كَذَّب قول الله تبارك وتعالى.

ولأهل العلم في معنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الله توفاه بمعنى أماته، ولكن لم يُقْتَل، ولكن

(١) هم يسمون عيسى ﷺ بيسوع.

أمامته الله حتف أنفه، مات ميتة طبيعية بعد أن قتل الشبيه أمامته ثم رفعه إلى السماء دون أن تناله أيديهم.

القول الثاني: أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فيكون الرفع أولاً ثم الوفاة، والوفاة بعد أن ينزل إلى الدنيا وَيَقْتُلُ الدَّجَالَ يتوفاه الله، فيكون في الآية تقديم وتأخير، ويكون المعنى إني رافعك إليّ ومتوفيك.

القول الثالث: أن الوفاة هنا هي النوم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: أن الله ألقى على عيسى النوم، ثم رفعه فتكون الوفاة هنا بمعنى النوم ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مُنِيْمُكَ ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، ومصداق ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَآهِهَا فِيمَنْ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي صُحُفِهِمْ أَلَمْ نُذَكِّرْكَ أَن يُرْسِلَ الْأَخْرَىٰ إِلَيْكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] فالنوم يسمى الوفاة الصغرى أو الموتة الصغرى، فتكون الوفاة هنا بمعنى النوم مُنِيْمُكَ ثم أرفعك إليّ، وهذا أقرب الأقوال إلى الصواب.

وعلى كل حال سواء قلنا بالأول أو الثاني أو الثالث فكلها أقوال لأهل العلم، ولكن الإجماع على أن اليهود ما مساوا شعرة من عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

ورُفِعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثَةَ وَثَلَاثُونَ سَنَةً عَلَى الْمَشْهُورِ.

معنى اسم المسيح:

واشتهر عيسى بلقب «المسيح»، وكلمة المسيح لها معانٍ كثيرة، فمن معانيها:

١ - الذي يسبح في الأرض ليس له مكان يستقر به، فينتقل من بلد إلى بلد.

- ٢ - الذي يمسح الناس فيشفاهم، وذلك أن عيسى كان يأتي لصاحب العاهة كالأكمه والأبرص، والزمن الذي لا يستطيع أن يمشي، والميت، فيمسح على هؤلاء فيقومون وكأنه لم يكن فيهم شيء.
- ٣ - الممسوح الأخمص من القدم أي: أن قدمه مخموصة قطعة واحدة ليس فيها التجويف الداخلي في القدم.
- ٤ - الذي فيه مسحة من جمال، ولذلك قال النبي ﷺ عن جرير بن عبد الله: «كأنه فيه مسحة من ملك»^(١).

صفة عيسى ﷺ:

من صفة عيسى ﷺ ما قاله النبي ﷺ: «كان ربعة» أي: معتدل لا طويل ولا قصير، «كأنما خرج من ديماس»^(٢) كأنما الآن اغتسل وخرج من الحمام لشدة نضارته صلوات الله وسلامه عليه. وهو أبيض مشرب بالحمرة، لا هو أسمر ولا أبرص، وإنما بياض جميل كما قال الله تبارك وتعالى عن يد موسى ﷺ: ﴿بَيِّنَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ [طه: ٢٢]. يصل شعره إلى منكبيه صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة الحواريين للناس بعد رفع عيسى ﷺ:

وبعد رفع عيسى ﷺ تفرق الحواريون في البلاد يدعون إلى عبادة الله وإلى الإيمان به ﷺ والإيمان بالمسيح، وأنه عبد الله ورسوله؛ يدعون بدعوته صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه وقع على تلاميذه ألوان عظيمة من الأذى والاضطهاد والقتل والتشريد، وفعلت فيهم الأفاعيل،

(١) أخرجه أحمد (٣٥٩/٤ - ٣٦٤)، وابن حبان (٧١٩٩)، وابن خزيمة (١٧٩٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٠٢)، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه على «ابن خزيمة».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٣)، ومسلم (٢٤٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

وكانت أعظم تلك الاضطهادات ما وقع على يد الملك «نيرون» سنة أربع وستين من الميلاد، ثم بعده في عهد الملك «تراجان» سنة ست ومئة من الميلاد، ثم على يد الملك «ديسيوس» سنة تسع وأربعين ومئتين من الميلاد، ثم على يد «قليديانوس» سنة ثمانين ومئتين من الميلاد، وهذه أشد الاضطهادات، وكانت طبعاً بوشاية من اليهود، يأتون إلى الملوك ويقولون: هؤلاء يريدون إفساد مُلكِكُم هؤلاء لا يرونكم ملوكاً، هؤلاء يرونكم على ضلال، وهكذا يفعلون باتباع عيسى صلوات الله وسلامه عليه، سواء كان بالحواريين أنفسهم كما في عهد «نيرون» أو أتباع الحواريين الذين آمنوا بدعوتهم وآمنوا بعيسى عليه السلام من أتباعهم أو أتباعهم، وهكذا كانوا يُشردون ويُقتلون ويُضطهدون.

المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام:

قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَال سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [المائدة].

وقال الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة].

بولس يبذل الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام:

رجل يهودي اسمه «شاؤل» كان من أعدى أعداء تلاميذ عيسى

صلوات الله وسلامه عليه، وكان يؤذيه الأذى الشديد، ويضطهدهم ويسجنهم ويدل على أماكنهم، وكان يسطو على الكنيسة يأخذ الرجال والنساء إلى السجن، وكان يهدد ويقتل كل من يكون على دين عيسى صلوات الله وسلامه عليه، ثم فجأة وإذا هو أكبر داعية للمسيحية، وأكبر داعية لعيسى ﷺ وتسمى باسم آخر وهو «بولس»، هذا «شاؤل» اليهودي جاءهم وقال: أنا «بولس» الآن، أريد أن أدعو إلى عيسى، وقال: كنت أمشي في الطريق فجاءني عيسى، فنظرت إليه في السماء، فقال لي: يا «شاؤل» إلى متى تضطهدني؟ إلى متى ما تتوب؟ فقال: إني تبت الآن، وأنا الآن أريد أن أدعو إلى المسيحية، فصار أشهر أتباع عيسى في دعواه، وصار القدوة عند غالب الناس بلا منازع، وصار الناس يقولون: «قال بولس»، «أمر بولس» حتى إنه الآن في الأناجيل الموجودة الآن رسائل بولس أكثر من اثنتي عشرة رسالة، وصار الآن أتقى واحد فيهم، وهذا التحول عجيب.

وكيف استطاع بولس أن يصل إلى هذه المرحلة أو هذه الدرجة؟

أولاً: كان الرجل نشيطاً دائم الحركة يسافر من بلد إلى بلد لا يجلس أبداً.

ثانياً: كان ذكياً بارعاً يستطيع أن يقنعك أن هذا الجدار ليس بجدار، وأنه من الذهب وغير ذلك من الأمور.

ثالثاً: كان متكلماً مفوهاً.

بل قالوا: ناصره برنابا وكان برنابا يدافع عنه، فيقال: إن «بولس» هو أول مَنْ أفسد على النصارى دينهم؛ لأنه جاء من اليهودية إلى النصرانية، وهنالك «بولس» آخر جاء في القرن الرابع الميلادي، وهو: «بولس الشمشاطي»، وهو أول مَنْ قال باللاهوت والناسوت: أن عيسى إله أو أن عيسى ابن الله.

وكان النصارى في ذلك الوقت كلهم على عقيدة واحدة، وهي أن عيسى عبد الله، وأن عيسى آية من آيات الله تبارك وتعالى، وأنه وُلِدَ من غير أب، لكن كون عيسى إله، عيسى ابن الله، الله ثلاثة، فهذه جاء بها «بولس» الآخر وهو «بولس الشمشاطي». ولذلك قال أهل العلم: «بولس الشمشاطي» هو الذي أفسد على الناس دينهم بعد أن أفسد «بولس» الأول ما أفسد، فقد كان تلاميذ عيسى ﷺ يقولون رُفِعَ، والآن لا يستطيع أحد أن يقول: رفع.

بداية المجامع الكنسية:

بعد رفع عيسى ﷺ وموت تلاميذه صارت خلافات كثيرة بين النصارى ووجدوا الحل في حسم تلك الخلافات أن تكون هناك مجامع كنسية أو مجامع سكسونية أو مجامع إقليمية، المهم اتخذوا المجامع، وهذه المجامع من خلالها يتخذون القرارات، فكان أول مجمع لهم هو مجمع «فينيقية» سنة خمس وعشرين وثلاثمئة، وكان هذا المجمع يناقش قضية: هل عيسى بشر رسول أو ابن الله؟

ثم خرج المجمع بالنتيجة أن عيسى ابن الله، وكل من لم يقل أن عيسى ابن الله ملعون، وكل كتاب يقول غير هذا الكلام يحرق، يعني: أن هذه عقيدة يجب أن تُقبَل رغم كل أنف.

ثم صار المجمع الثاني المجمع «القسطنطيني»، وذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة هذا المجمع ناقش قضية أخرى وهي: قضية التثليث، وتم اعتماد التثليث: «الله»، «عيسى»، «روح القدس»، وقال بعضهم: «الله»، «عيسى»، «مريم» المهم: واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد.

مناظرة الباقلائي لعلماء النصارى:

أرسل ملك من ملوك النصارى إلى أحد ملوك المسلمين فطلب منه

أن يُرْسِلَ له أحد علماء المسلمين لينظره علماء النصارى فأرسل أبا بكر الباقلاني، فلما وصل؛ قالوا له: إذا أردت أن تدخل على المَلِك لا بد أن تلتزم شروطنا.

قال: وما شروطكم؟

قالوا: أن تسجد للملك، فنحن كلنا نسجد للملك إذا دخلنا عليه، فأنت إذا لم تسجد للملك فهذه إهانة.

قال: إذا لا أدخل على الملك فأنا لا أسجد إلا لله ﷻ.

فلما وجدوه مُصْرَباً على رأيه؛ قالوا: انتظر، فدخلوا على الملك، وقالوا له: هذا الرجل يرفض أن يسجد لك فهل ندخله أو لا؟

قال: أدخلوه. ولكنهم احتالوا، فجاؤوا إلى الباب، فوضعوا في وسط الباب خشبة حتى لا يدخل مستقيماً، وإنما يدخل راکعاً إلى الملك.

فجاء الباقلاني وإذا الخشبة موضوعة، فانتبه وفهم أنهم يقصدون أن يدخل راکعاً، فلا يُعْقَل أن يكون هذا الباب الذي يُدْخَل منه إلى الملك، فلما رأى ذلك؛ دخل بظهره، وهذا من حسن الفهم والانتباه، والمؤمن كيس فطن.

فلما دخل إلى الملك وإذا عنده الرهبان والأخبار الذين سيناظرهم فجاءهم وقال: كيف حالكم؟ وكيف حال الأهل؟ وكيف الزوجات والأولاد؟

فنظر إليه الملك نظرة استغراب، وقال: أنت الذي أرسلك مَلِكُكم لتناظر الرهبان؟

قال: نعم.

قال: أما وجد غيرك؟!

قال: ولمّ؟

قال: أبسط الأمور التي يجب أن تعرفها أن هؤلاء لا يتزوجون، فكيف تسألهم عن الزوجات والأولاد؟

قال: ولمّ؟

قال: هؤلاء منزهون عن الولد والزوجة.

فقال: سبحان الله! نزهتم هؤلاء عن الزوجة والولد، ولمّ تنزهوا الله ﷻ، فقلتم عيسى ابن الله!! فسكتوا.

ثم قالوا: ما هذا الذي يقال في امرأة نبيكم؟

قال: نعم، هما امرأتان اتهمتا بالزنا عائشة ومريم، أما عائشة فكانت ذات زوج ولم تأت بولد، وأما مريم فلم يكن لها زوج وأتت بولد، فإذا كنتم تصدقون ذلك في عائشة؛ إذا صدقوا في مريم من باب أولى، فمن أولى بالاتهام؟ عائشة أم مريم؟ فسكتوا ولم يتكلموا.

عودة إلى المجمع السكسونية:

ثم كان المجمع الثالث في «أفسس» سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة وقرر أن مريم أيضاً إله.

ثم جاء المجمع الرابع، مجمع سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وبعد هذا المجمع خرجت النتيجة النهائية وهي أن عيسى ناسوت ولاهوت، إله وبشر، فهذه عقيدة النصارى في عيسى ابن مريم، حيث جعل النصارى خاتمة أمر المسيح خاتمة شريعة ومأساة مروعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها أصلاً من أصول دينهم، فلا يُقبَل عندهم من مؤمن إيمان إلا بهذا، وهي أنه صُلب وقُتِلَ واستهزئ به، وأن اليهود قتلوه رغماً عنه، وأنه كان يبكي قبيل قتله صلوات الله وسلامه عليه.

فقالوا: إن آدم لما أكل من الشجرة وعصى الله تبارك وتعالى

أراد الله أن يُكفّر خطيئة آدم بولده عيسى، فقتل عيسى تكفيراً لخطيئة آدم، يتحمل عيسى ذنوب العباد كلهم، فإذا أذنب أحدهم؛ فإنه يذهب إلى القس ويدفع مبلغاً من المال، ثم يعده القس فيقول: انتهى الأمر، عيسى تحمل عنك ذنوبك، ثم يخرج الرجل ويعصي مرة ثانية، وهكذا.

نزول عيسى ﷺ:

رفع عيسى صلوات الله وسلامه، وسيرجع مرة ثانية ليكمل مسيرة الدعوة؛ لأنه من أولي العزم من الرسل، وأولو العزم من الرسل هم الذين عانوا وتعبوا في دعوتهم؛ لأنه قد يقول قائل: أين دعوة عيسى، وأين المعاناة حتى صار من أجلها من أولي العزم؟ نقول: لم تنته دعوة عيسى بعد وسينزل ويكمل دعوته صلوات الله وسلامه عليه.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»^(١).

وقال كذلك ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»^(٢).

وقال صلوات الله وسلامه عليه عندما ذكر الدجال: «وبينما هو كذلك - أي: الدجال - إذ بعث الله المسيح عيسى ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين - أي: ثوبين مصبوغين بالحمرة - واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه تحدر منه اللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجرد ريع نفسه إلا مات ونفسه

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥).

ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه - أي: يطلب الدجال - حتى يدركه بباب
لِدِ فَيَقْتُلُهُ»^(١).

وتستمر حياة عيسى ﷺ بعد ذلك على المشهور - كما جاء عن
عائشة - أربعين سنة، ثم يتوفاه الله تبارك وتعالى، ويموت ميتة حقيقية،
ويكون قد بلغ من العمر ثلاثة وسبعين سنة.

ونختم ذكر عيسى صلوات الله وسلامه عليه بهذه القصيدة وهي
عبارة عن تساؤلات تساءل بها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ قَالَ:

أعباد المسيح لنا سؤال	نريد جوابه ممن وعاه
إذا مات الإله بصنع قوم	أما توه فما هذا الإله؟!!
وهل أرضاه ما نالوه منه؟	فبشراهم إذا نالوا رضاه
وإن سخط الذي فعلوه فيه	فقوتهم إذن أوهت قواه
وهل بقي الوجود بلا إله	سميع يستجيب لمن دعاه؟
وهل خلت الطبايق السبع لما	ثوى تحت التراب، وقد علاه؟
وهل خلت العوالم من إله	يدبرها، وقد سمرت يدها؟
وكيف تخلت الأملاك عنه	بنصرهم، وقد سمعوا بكاه؟
وكيف أطاقت الخشبات حمل	الإله الحق شد على قفاه؟
وكيف دنا الحديد إليه حتى	بخالطه، ويلحقه أذاه؟
وكيف تمكنت أيدي عداه	وطالت حيث قد صفعوا قفاه؟
وهل عاد المسيح إلى حياة	أم المحيي له رب سواه
ويا عجباً لقبر ضم رباً	وأعجب منه بطن قد حواه
أقام هناك تسمعاً من شهور	لدى الظلمات من حيض غداه
وشق الفرج مولوداً صغيراً	ضعيفاً، فاتحاً للشدي فاه؟
ويأكل، ثم يشرب، ثم يأتي	بلازم ذاك، هل هذا إله؟!!

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

سيسأل كلهم عما افتراه
يعنف أو يقبح من رماه؟
وإحراق له، ولمن بغاه؟
وقد شدت لتسمير يده
فدسه، لا تبسه إذا تراه
وتعبده؟ فإنك من عداه
حوى رب العباد، وقد علاه
له شكلاً تذكرونا سناه
لضم القبر ربك في حشاه؟
بدايته، وهذا منتهاه

تعالى الله عن إفك النصارى
أعباد الصليب، لأي معنى
وهل تقضي العقول بغير كسر
إذا ركب الإله عليه كرهاً
فذاك المركب الملعون حقاً
يهان عليه رب الخلق طراً
فإن عظمته من أجل أن قد
وقد فقد الصليب، فإن رأينا
فهلا للقبور سجدت طراً
فيا عبد المسيح أفق، فهذا

وأخيراً: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾،
فهذا مبتداه وهذا منتهاه، والله أعلى وأعلم وصلى الله وسلم وبارك عليه
وعلى سيدنا محمد.



فهرس الفوائد

الصفحة	الفائدة
٩	- عدد الأنبياء والرسل
١١	- الزيادة في التشريف زيادة في التكليف
١٢	- أولوا العزم من الرسل
٤٤٢ ، ١٣	- تفضيل الأنبياء على بعض
١٤	- كمال الأنبياء ﷺ
٢٠	- لم يذكر نبي الله شعيب وهود ﷺ في التوراة لحسد اليهود للعرب
٢٣	- الحكمة من كون الأنبياء من الذكور
٣٤	- الصحيح أن الأنبياء غير معصومين من الصغائر ويتوبون منها
٣٥	- نعرف قصص الأنبياء عن طريق الكتاب والسنة فقط
٤٤٧ ، ٤٥	- أصناف خلق الله تعالى
٤٨	- أسباب وقوع الناس في المعاصي
٥٠	- كيف عرف الملائكة أن بني آدم سيفسدون في الأرض
٥١	- فضل العلم
٥٢	- ظهور فضل آدم ﷺ بالعلم
٥٢	- محاربة اليهود للعلم
٥٥	- إثبات صفة اليد لله ﷻ
٧٠	- التشييت يكون من الله تعالى في الدنيا والآخرة
٧٢	- قراءتان في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾
١١٤ ، ٧٧	- أقسام العرب
٤٥٤ ، ٣٤٥ ، ٨٥	- القرآن كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ
٨٦	- أخوة الدين، وأخوة الطين

الصفحة

الفائدة

- ٩١ هدي النبي ﷺ إذا عصفت الريح
- ١٠٠ خطر التقليد الأعمى
- ١٠٢ مشابهة طلب قریش لطلب قوم صالح ﷺ
- ١٠٣ إضافة الشيء لله تعالى تشريفاً
- ١٠٨ التطير عند العرب
- ١١٨ قسوة قلوب الكفار
- ١١٧ التلطف والرفق واللين في الدعوة إلى الله تعالى
- ١١٩ حكم الاستغفار للمشركين
- ١٢٠ أسلوب الإلزام في مناظرة الخصم
- ١٢١ معنى قول إبراهيم ﷺ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾
- ١٢٥ ارتكاب أدنى المفسدتين عند تزاحمهما
- ١٢٦ تقديم الطعام والأموال عند القبر من سنن أهل الشرك
- ١٢٧ الحيدة في الجواب عند المناظرة
- ١٢٩ إثبات صفة السمع والكلام لله تعالى
- ١٣٠ الإنسان مفطور على العبادة، والسعيد من وُفق لعبادة الله تعالى
- ١٣٢ رواية «علمه بحالي يغني عن سؤالي» موضوعة ومكذوبة
- ١٣٤ أمران مهمان في الدعوة إلى الله تعالى
- ١٣٥ لا ينقص قدر الداعية إن لم يستجب له أحد
- ١٣٥ حكم الهجرة من بلد الكفر
- ١٣٦ المال قد يكون نعمة، وقد يكون نقمة
- ١٣٧ ملوك الدنيا أربعة
- ١٤٦ الانقياد والاستسلام لأمر الله ﷻ
- ١٥٠ جعل اليهود إسحاق ﷺ هو الذبيح حسداً للعرب
- ١٥١ ترجيح قول من قال: إن الذبيح هو إسماعيل ﷺ
- ١٥٢ حكم أمر الوالد ابنه بطلاق زوجته
- ١٥٣ كثرة اللحم والماء بمكة لأجل دعوة إبراهيم ﷺ

- ١٥٧ - لا يصح الطواف داخل الحجر، ومن صلى فيه فقد صلى في الكعبة
- ١٦١ - تأتي «إن» في اللغة العربية للنفي
- ١٦٢ - موافقات عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- ١٦٢ - خطأ بعض الناس في مسحهم لمقام إبراهيم عليه السلام
- ١٦٣ - قراءتان في قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَدُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾
- ١٦٥ - من كرم الضيافة انتفاء الخيانة، والجور، والتكلف
- ١٦٨ - الفرق بين سؤال إبراهيم عليه السلام ربه، وبين سؤال الحواريين
- ١٨١ - الصحيح أن أبناء يعقوب عليه السلام ليسوا أنبياء
- ١٨١ - أسماء الله سبحانه توقيفية
- ١٨٥ - لم كان يوسف عليه السلام أحب إلى أبيه؟
- لا يجوز لمن أراد أن يقدم على معصية أن يقول: أفعَل ثم أتوب!! لأنه
- ١٨٧ لا بد أن يضمن أموراً
- ١٩٠ - بكاء التماسيح
- ١٩١ - الجريمة الناقصة
- ١٩٢ - عبرة من حادثة الإفك
- ١٩٤ - حكم النبي في الإسلام
- ١٩٥ - أفرس الناس ثلاثة
- ١٩٧ - التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿بُرْهَانَ رَبِّي﴾
- ٢١٣ - دعوة المظلوم مجابة
- ٢١٦ ، ٢١٥ - استئثار حاجة الإنسان في الدعوة إلى الله تعالى
- ٢٢٣ - ظهور فضل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة
- ٢٢٨ - النفوس على ثلاثة أقسام
- ٢٣٣ - يجوز للرجل أن يطلب الإمارة إن كان يرى أنه أهل لها
- ٢٤٣ - أهل الحديث لا يقبلون حديث الكذاب ولو تاب
- ٢٤٣ - الحزن لا ينافي الصبر
- ٢٤٩ - الأخوة أخوتان: أخوة دين، وأخوة طين

- ٢٥٤ معنى «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾
- ٢٧٠ لا بد أن يكون الداعية إلى الله قدوة للناس، ولا يأمر بأمر ويأتي خلافه
- ٢٨٢ الدعاء لا ينافي الصبر
- ٢٨٣ الأدب في نسبة الخير والشر
- ٢٨٦ المخرج لمن يتعذر إقامة الحد عليه
- ٢٨٧ جهاد الطلب خاص بأمة محمد ﷺ
- ٢٩٤ تسيح الجبال والطير والدواب حقيقي
- ٢٩٦ ثلاث قراءات في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِنَكُمْ﴾
- ٣٠١ الأنبياء لا يورثون مالا
- ٣٠٤ ملوك الأرض أربعة
- ٣٠٤ إنكار الحيوانات عبادة غير الله تعالى
- ٣٠٥ استحباب تقديم البسملة في كل شيء
- ٣٠٩ الأنبياء ﷺ دعوتهم واحدة، واختلفوا في الأحكام والشرائع
- ٣١٩ حكم التولة
- ٣٢٠ الإنسان مسؤول عن دوابه ليلاً، وغير مسؤول عنها نهاراً
- ٣٢٢ الأنبياء لا يعلمون الغيب
- ٣٢٤ الجن لا تعلم الغيب
- ٣٣٠ أمران ونهيان وشارتان لام موسى ﷺ
- ٣٤٠ يستحب للإنسان عند الدعاء أن يذكر فضل الله عليه
- ٣٤١ لا يشترط في المهر أن يكون مالا
- ٣٤٨ إثبات صفة الكلام لله ﷻ
- ٣٤٩ من فوائد العصى
- ٣٥١ الله ﷻ مستور على عرشه بائن من خلقه
- لا يجوز أن يعتقد الإنسان في شيء أنه بركة إلا ما كان في نص من الكتاب
- ٣٥٣ أو السنة
- ٣٥٥ الأخ الذي له مئة على أخيه

- ٣٥٥ أقسام المعية
- ٣٧١ فضيلة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه
- ٢٧٦ صيام يوم عاشوراء
- ٣٧٧ الحكمة من بقاء جثة فرعون
- ٣٧٨ سنة الله مع الظالمين
- ٣٧٨ متى يغلق باب التوبة؟
- ٣٧٩ أقسام الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين
- ٣٨٨ ذكر الله تعالى الإحياء في القرآن خمس مرات
- ٣٩١ أنواع الجهاد في سبيل الله
- ٣٩٤ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خير أتباع الرسل
- ٤٠٣ الخضر نبي من أنبياء الله تعالى
- ٤٠٤ وجوب الضيافة يوماً وليلة
- ٤٠٤ الفرق بين الفقير والمسكين
- ٤١٨ العبد الآبق
- ٤٤٢ يحفظ الله الذرية بصلاح الآباء
- ٤٤٨ كل شيء له سبب
- ٤٦١ أناجيل النصارى

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
[أ]	* إهداء
٥	* المقدمة
٧	حاجة الناس إلى الأنبياء والمرسلين
٨	النبوة منحة إلهية
٩	أسباب تعدد الرسل
١٠	الإيمان بالرسل من أصول الإيمان
١١	الأنبياء والرسل هم أشرف الخلق وأكملهم
١٥	الأمة الإسلامية هم أكثر الناس تعظيماً للأنبياء
١٨	الحكمة في كون الرسل من البشر
٢٠	الرسل الذين ذكرهم الله ﷺ في القرآن
٢١	هل هؤلاء هم كل الأنبياء؟
٢٣	الأنبياء من الذكور فقط
٢٤	خصائص الأنبياء والمرسلين ﷺ
٢٧	مظاهر من الغلو في الأنبياء
٣٠	الكفر برسول واحد كفر بهم جميعاً
٣١	الفرق بين النبي والرسول
٣٣	عصمة الأنبياء
٣٥	تعريف القصة والفرق بين القصة الأدبية والقرآنية
٣٧	فوائد دراسة قصص الأنبياء
٣٩	حكم الإسرائيليات
٤٠	طرق أخبار بني إسرائيل
٤٤	قصة أبي البشر آدم ﷺ

الصفحة

الموضوع

٤٤	صفة خَلَقَهُ
٤٦	الأمر بالسجود لآدم ﷺ
٤٧	امتناع إبليس عن السجود لآدم ﷺ
٤٩	استخلاف آدم في الأرض
٥١	بيان تفضيل الله لآدم ﷺ
٥٢	قصة إسكان آدم الجنة وخروجه منها
٥٤	الشجرة التي أكل منها آدم ﷺ
٥٤	الجنة التي خرج منها آدم ﷺ
٥٥	خصائص اختص الله بها آدم ﷺ
٥٦	* الدروس والعبر المستفادة من قصة آدم ﷺ
٥٨	قصة نوح ﷺ
٦٠	أساليب دعوة نوح ﷺ لقومه
٦٣	قوم نوح ﷺ يواجهوا دعوته بالرد والأذى
٦٤	نوح ﷺ يصبر على أذى قومه
٦٥	نوح ﷺ والتحدي الأكبر
٦٨	عدد مَنْ آمَنَ مع نوح ﷺ
٦٨	نوح ﷺ يركب سفينته وينزل العذاب على قومه
٧٢	من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه
٧٣	خيانة دين لا خيانة فراش
٧٤	أمة محمد ﷺ تشهد لنوح ﷺ
٧٥	* الدروس والعبر المستفادة من قصة نوح ﷺ
٧٦	مصير الآلهة التي كانت تعبد زمن نوح ﷺ
٧٧	قصة هود ﷺ
٧٧	نسبه وقبيلته ﷺ
٧٨	قوم هود أول من عبد الأصنام بعد نوح ﷺ
٧٨	هل بين نوح وهود أنبياء؟

٧٩	الصفات الخلقية لقوم هود <small>عليه السلام</small>
٨٠	إرسال هود <small>عليه السلام</small> إلى قومه وموقفهم من ذلك
٨٥	الأساليب الدعوية التي استخدمها هود <small>عليه السلام</small> مع قومه
٨٧	قوم هود <small>عليه السلام</small> يستعجلون العذاب
٨٩	وافد عاد
٩٢	* الدروس والعبر من قصة هود <small>عليه السلام</small>
٩٤	قصة صالح <small>عليه السلام</small>
٩٥	صالح <small>عليه السلام</small> يدعو قومه إلى الله <small>تعالى</small>
٩٥	أعظم الخصومة
٩٦	من أتباع الأنبياء <small>عليهم السلام</small> ؟
٩٧	بداية دعوة صالح <small>عليه السلام</small>
٩٨	عبرة في قصة إسلام خالد بن الوليد <small>رضي الله عنه</small>
٩٩	طبيعة الكافر أنه يلغي عقله
٩٩	أسلوب صالح <small>عليه السلام</small> في دعوة قومه
١٠٠	قوم صالح يقابلونه بالاستهزاء والرفض
١٠٢	قوم صالح <small>عليه السلام</small> يطلبون آية
١٠٤	كيف قُتلت هذه الناقة؟
١٠٥	عافر الناقة
١٠٧	حال الكفار في كل زمان ومكان
١٠٧	محاولة قتل نبي الله صالح
١٠٩	قوم صالح <small>عليه السلام</small> ينتظرون العذاب ويستعجلون به
١١٠	موقفنا من أماكن المعذبين
١١١	* الدروس والعبر في قصة صالح <small>عليه السلام</small>
١١٢	قصة إبراهيم <small>عليه السلام</small>
١١٣	نشأة إبراهيم <small>عليه السلام</small>
١١٤	المسلمون أحق الناس بإبراهيم <small>عليه السلام</small>

- ١١٥ حقيقة دعوة إبراهيم ﷺ
- ١١٥ فضل إبراهيم ﷺ
- ١١٧ دعوة إبراهيم ﷺ لأبيه
- ١٢٠ دعوة إبراهيم ﷺ لقومه ومناظرته لهم
- ١٢٣ هل وقع الكذب من إبراهيم ﷺ
- ١٢٦ هدم الأصنام من سنن الأنبياء والمرسلين
- ١٣٠ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم
- ١٣١ إلقاء إبراهيم في النار
- ١٣٣ هجرة إبراهيم ﷺ
- ١٣٤ نصيحة للدعاة
- ١٣٦ إبراهيم ﷺ مع النمرود
- ١٣٩ قصة إبراهيم مع الملك الظالم
- ١٤١ غيرة النساء
- ١٤٥ إبراهيم ﷺ يؤمر بذبح ابنه
- ١٤٧ من الذبيح؟
- ١٥١ حياة إسماعيل ﷺ
- ١٥٢ مسألة فقهية
- ١٥٤ إبراهيم وإسماعيل ﷺ بينان الكعبة
- ١٥٤ هل البيت كان موجوداً قبل إبراهيم ﷺ
- ١٥٥ بناء البيت في عهد النبي ﷺ
- ١٥٨ بناء البيت في عهد عبد الله بن الزبير ﷺ
- ١٥٩ هدم ما بناه عبد الله بن الزبير ﷺ
- ١٦١ كذب المشركين على إبراهيم وإسماعيل ﷺ
- ١٦٢ مقام إبراهيم ﷺ
- ١٦٣ حديث ضيف إبراهيم
- ١٦٦ إبراهيم ﷺ يختن وهو ابن ثمانين

الموضوع	الصفحة
صفة إبراهيم ؑ	١٦٧
إبراهيم ؑ وإحياء الموتى	١٦٧
صحف إبراهيم ؑ	١٦٩
أولاد إبراهيم ؑ	١٧٠
* الدروس والعبر المستفادة من قصة إبراهيم ؑ	١٧٠
قصة إسماعيل ؑ	١٧٣
محمد ﷺ من ذرية إسماعيل ؑ	١٧٤
البشارة بالنبي ﷺ في التوراة	١٧٥
قصة إسحاق ويعقوب ؑ	١٧٧
قصة باطلة	١٧٨
بيت إيل	١٧٩
زواج يعقوب ؑ من ابنة خاله	١٧٩
يعقوب ؑ يبني بيت المقدس	١٨٠
من هم الأسباط؟	١٨١
يعقوب وإسرائيل	١٨١
قصة يوسف ؑ	١٨٢
التعريف بيوسف ؑ	١٨٢
بداية قصة يوسف ؑ	١٨٣
بداية البلاء مع إخوة يوسف ؑ	١٨٤
التأمر على يوسف ؑ	١٨٦
إلقاء يوسف ؑ في الجُبِّ	١٨٩
إلقاء يوسف ؑ في الجُبِّ	١٩٠
صبر نبي الله يعقوب ؑ	١٩١
الحسد من أصول الذنوب	١٩٢
المرحلة الثانية من حياة يوسف ؑ	١٩٢
يوسف ؑ يدخل مصر	١٩٤

- ١٩٥ يوسف عليه السلام وفتنة امرأة العزيز
- ١٩٧ هم يوسف عليه السلام
- ١٩٩ قميص يوسف عليه السلام
- ٢٠١ وشهد شاهد من أهلها
- ٢٠٣ الأدلة على عدم الهم من يوسف
- ٢٠٤ عفة يوسف عليه السلام
- ٢٠٥ الموانع التي منعت يوسف عليه السلام
- ٢٠٦ خبر امرأة العزيز ينتشر في المدينة ومكر النسوة
- ٢١٠ قد شغفها حباً
- ٢١٣ يوسف عليه السلام يدخل السجن ظلاماً
- ٢١٤ يوسف عليه السلام في السجن
- ٢١٨ رؤيا الملك
- ٢٢١ ثناء بين يدي السؤال
- ٢٢٢ لطف الله بيوسف عليه السلام
- ٢٢٣ تفسير الرؤيا
- ٢٢٥ وقفة دعوية
- ٢٢٦ إعجاب الملك بتأويل يوسف عليه السلام وبيان براءته
- ٢٣٠ سبب امتناع يوسف عليه السلام من الخروج
- ٢٣١ تعظيم الملك ليوسف وكلامه معه
- ٢٣٢ لماذا عظم يوسف في عين الملك؟
- ٢٣٢ تمكين الله تعالى ليوسف عليه السلام
- ٢٣٣ إخوة يوسف عليه السلام يأتون إلى مصر
- ٢٣٨ نصيحة الأب المشفق
- ٢٣٩ دخول مصر مرة ثانية
- ٢٤١ متى سرق يوسف عليه السلام؟
- ٢٤٣ الضيق يزداد على يعقوب عليه السلام لفقد ولديه

الموضوع	الصفحة
إخوة يوسف ﷺ يتعرفون عليه	٢٤٤
حادثة مشابهة	٢٤٤
إقرار بالذنب	٢٤٥
تصديق بشرى يعقوب ﷺ	٢٤٥
تصديق رؤيا يوسف ﷺ	٢٤٦
حكم السجود	٢٤٦
قصة لوط ﷺ	٢٤٨
بعثة لوط ﷺ	٢٤٨
غاية القبح والفحش في قوم لوط ﷺ	٢٥٠
إرسال الملائكة بالعذاب إلى قوم لوط ﷺ	٢٥٢
هؤلاء بناتي	٢٥٥
لو أن لي بكم قوة	٢٥٦
نزول العذاب على قوم لوط	٢٥٧
كيف فعل الله بهم؟	٢٥٩
حكم تسمية فعلهم الخيث باللواط	٢٦٠
انتشار الفواحش	٢٦١
حكم من وقع في هذه الفاحشة	٢٦٢
* الدروس والعبر المستفادة من قصة لوط ﷺ	٢٦٢
قصة شعيب ﷺ	٢٦٤
شعيب ﷺ يدعو قومه وينصح لهم	٢٦٥
دعوة جميع الأنبياء إلى التوحيد وطريقتهم في ذلك	٢٦٦
طرق شعيب في دعوته	٢٦٦
قوم شعيب ﷺ يردون دعوته بالسخرية والتكذيب	٢٦٨
تهديد ووعيد	٢٧١
شعيب يطلب النصر من الله	٢٧٢
صنوف العذاب على أهل مدين	٢٧٢

- ٢٧٤ * الدروس والعبر المستفادة من قصة شعيب عليه السلام
- ٢٧٦ قصة أيوب عليه السلام
- ٢٧٦ ابتلاء الله سبحانه لأيوب عليه السلام
- ٢٧٨ صبر أيوب عليه السلام
- ٢٧٩ أيوب عليه السلام يرفع يديه بالدعاء بعد صبر طويل
- ٢٨١ حقيقة مرض أيوب عليه السلام
- ٢٨٢ هل يعارض الدعاء الصبر؟
- ٢٨٣ هل الشيطان يمس بالشر؟
- ٢٨٣ استجابة الله سبحانه لأيوب عليه السلام
- ٢٨٤ واحفظوا أيمانكم
- ٢٨٥ جراد من ذهب
- ٢٨٥ * الدروس والعبر المستفادة من قصة أيوب عليه السلام
- ٢٨٧ قصة داود عليه السلام
- ٢٨٧ مقدمة لا بد منها
- ٢٩٢ بداية داود عليه السلام مع بني إسرائيل
- ٢٩٢ داود عليه السلام يُؤتى المُلْك والنبوَّة
- ٢٩٣ ما مَنَّ اللهُ به على داود عليه السلام
- ٢٩٦ نبأ الخصم
- ٢٩٨ التفسير الصحيح للفتنة
- ٢٩٩ عبادة داود عليه السلام
- ٣٠٠ * الدروس والعبر المستفادة من قصة داود عليه السلام
- ٣٠١ قصة سليمان عليه السلام
- ٣٠٢ من فضائل سليمان عليه السلام
- ٣٠٣ قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ
- ٣٠٨ سليمان عليه السلام يُري آية
- ٣٠٩ براءة سليمان من فرية باطلة

- ٣١٠ سليمان ؑ والصافنات الجياد
- ٣١٤ الكلام على فتنه سليمان ؑ
- ٣١٥ الكلام الصحيح في فتنه سليمان ؑ
- ٣١٥ سليمان ؑ يريد الدنيا لتعينه على آخرته
- ٣١٨ ما اتهم به سليمان من الكفر
- ٣١٩ بصيرة سليمان ؑ في الحكم
- ٣٢٣ هل بنى سليمان ؑ بيت المقدس
- ٣٢٣ وفاة سليمان ؑ
- ٣٢٤ * الدروس والعبر المستفادة من قصة سليمان ؑ
- ٣٢٦ قصة كلیم الله موسى ؑ
- ٣٢٦ السبب في كثرة ذكر موسى ؑ
- ٣٢٩ ميلاد موسى ؑ وخوف أمه عليه
- ٣٣٠ موسى ؑ يُربى في بيت عدوه
- ٣٣١ إذا أراد الله ﷻ أمراً كان ولا بد
- ٣٣٢ موسى ؑ يرجع إلى أمه
- ٣٣٤ موسى ؑ يرجع إلى قصر فرعون
- ٣٣٥ قتل القبطي
- ٣٣٨ موسى في مدين
- ٣٤٠ زواج موسى ؑ
- ٣٤٢ المعروف لا يضيع
- ٣٤٢ من هذا الرجل؟
- ٣٤٤ جواز خطبة الرجل لابنته
- ٣٤٥ موسى ؑ يتوجه إلى مصر بعد قضاء الأجل
- ٣٤٦ بداية الوحي لموسى ؑ
- ٣٥٠ والسبب من ذكر هذه التفاصيل في كتاب الله ﷻ
- ٣٥٢ أقسام البركة

- ٣٥٣ موسى ﷺ يبدأ في تبليغ رسالته
- ٣٥٥ معية الله ﷻ لموسى وهارون ﷺ
- ٣٥٧ المواجهة بين موسى ﷺ وفرعون
- ٣٦١ المواجهة الكبرى
- ٣٦٥ نقاش فرعون مع السحرة
- ٣٦٧ مؤمن آل فرعون
- ٣٦٨ اجعلوا بيوتكم قبلة
- ٣٦٩ فرعون يهيم بقتل موسى ﷺ
- ٣٧١ موسى ﷺ يدعو على فرعون وَمَنْ ناصره
- ٣٧٢ نزول صنوف من العذاب على آل فرعون
- ٣٧٤ موسى ﷺ يقرر الخروج من مصر
- ٣٧٥ انفلاق البحر لموسى ﷺ
- ٣٧٧ هل فرعون مؤمن؟
- ٣٧٩ اجعل لنا آلهة
- ٣٨١ مجيء موسى ﷺ لميقات ربه سبحانه
- ٣٨٢ رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة
- ٣٨٣ رجوع موسى ﷺ إلى قومه
- ٣٨٤ عبادة العجل
- ٣٨٧ بنو إسرائيل يُؤمرون بقتل أنفسهم
- ٣٨٨ بنو إسرائيل والته
- ٣٨٩ قصة البقرة
- ٣٩١ اذهب أنت وربك فقاتلا!!
- ٣٩٥ موسى يضرب بعصاه الحجر
- ٣٩٧ استجابتهم ليوشع بن نون ﷺ
- ٣٩٧ قصة قارون
- ٣٩٩ موسى والخضر ﷺ

الموضوع	الصفحة
بداية مواقف موسى مع الخضر	٤٠٢
أدب الخضر <small>عليه السلام</small> مع الله <small>تعالى</small>	٤٠٦
همة موسى <small>عليه السلام</small> في طلب العلم	٤٠٧
المفاضلة بين موسى والخضر <small>عليه السلام</small>	٤٠٨
موسى <small>عليه السلام</small> وملك الموت	٤١٠
قصة يونس <small>عليه السلام</small>	٤١٢
نسب يونس <small>عليه السلام</small>	٤١٢
ذكر يونس <small>عليه السلام</small>	٤١٢
دعوة يونس <small>عليه السلام</small> لقومه وغضبه عليهم	٤١٢
توبة قوم يونس <small>عليه السلام</small> بعد انصرافه عنهم	٤١٣
عدد قوم يونس <small>عليه السلام</small>	٤١٤
التقام الحوت هل كان قبل النبوة أم بعدها؟	٤١٤
يونس <small>عليه السلام</small> في بطن الحوت	٤١٦
مدة بقائه <small>عليه السلام</small> في بطن الحوت	٤١٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَنظَرَ نَدِيمًا لَشَدِيدٍ﴾	٤١٧
نداء يونس <small>عليه السلام</small> في بطن الحوت	٤١٨
فضل التسييح	٤١٩
دعوة مستجابة	٤١٩
يونس <small>عليه السلام</small> يخرج من بطن الحوت	٤٢١
يونس <small>عليه السلام</small> يرجع إلى قومه	٤٢١
لا يجوز لأحد أن يتهم يونس <small>عليه السلام</small> بالتقصير	٤٢٢
* العبر والدروس	٤٢٣
* فوائد ومسائل متعلقة بقصة يونس <small>عليه السلام</small>	٤٢٤
قصة زكريا ويحيى <small>عليه السلام</small>	٤٢٦
العلاقة بين أسرة عمران وأسرة زكريا <small>عليه السلام</small>	٤٢٦
زكريا <small>عليه السلام</small> يسأل الله الذرية	٤٢٦

٤٢٨	ميراث زكريا ﷺ
٤٢٩	البشارة بيحيى ﷺ
٤٣٠	ولادة يحيى ﷺ
٤٣٣	من أسباب استجابة الدعاء
٤٣٤	ابنا الخالة
٤٣٤	خمس كلمات
٤٣٥	قتل يحيى بن زكريا ﷺ
٤٣٦	قتل زكريا ﷺ
٤٣٨	قصة عيسى ﷺ
٤٣٩	ذكر عيسى ابن مريم ﷺ في القرآن
٤٤٠	امرأة عمران تنذر ما في بطنها لله ﷻ
٤٤٢	كفالة زكريا ﷺ لمريم ﷺ
٤٤٣	فضل مريم ﷺ
٤٤٣	الخلاف في نبوة مريم ﷺ
٤٤٤	اصطفاء الله ﷻ لمريم ﷺ
٤٤٥	البشارة بعيسى ﷺ
٤٤٦	مريم تحمل بعيسى ﷺ
٤٤٧	ميلاد عيسى ﷺ
٤٤٩	مريم ﷺ ترجع إلى قومها
٤٥٠	اتهام مريم ﷺ بالفاحشة
٤٥١	عيسى ﷺ يتكلم في المهد ويقر بالعبودية لله ﷻ
٤٥٢	المعجزات التي أيد الله ﷻ بها عيسى ﷺ
٤٥٤	دعوة عيسى ﷺ
٤٥٤	قصة المائدة
٤٥٦	الحواريون
٤٥٦	كلمات عاطرة عن عيسى ﷺ

- ٤٥٨ مؤامرة اليهود على عيسى ﷺ ونجاته منهم
- ٤٦٠ رَفُعُ عيسى ﷺ
- ٤٦٢ معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾
- ٤٦٣ معنى اسم المسيح
- ٤٦٤ صفة عيسى ﷺ
- ٤٦٤ دعوة الحواريين للناس بعد رفع عيسى ﷺ
- ٤٦٥ المسيحية التي جاء بها عيسى ﷺ
- ٤٦٥ بولس يبدل الدين الذي جاء به عيسى ﷺ
- ٤٦٧ بداية المجامع الكنسية
- ٤٦٧ مناظرة الباقلاني لعلماء النصارى
- ٤٦٩ عودة إلى المجامع السكسونية
- ٤٧٠ نزول عيسى ﷺ
- ٤٧٣ * فهرس الفوائد
- ٤٧٩ * فهرس الموضوعات